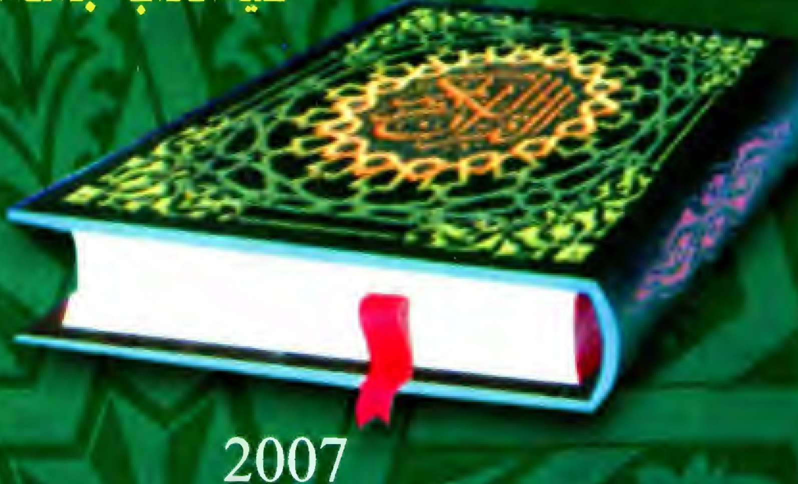
المناسبة فى القرآن

دراسة لغوية أسلوبية
للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوى



دكتور
مصطفى شعبان عبد الحميد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



2007

المكتب الجامعي الحديث

المناسبة في القرآن

دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي

تأليف

د . مصطفى شعبان عبد الحميد

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

عبد الحميد/ مصطفى شعبان
المناسبة في القرآن : دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق القرآني
مصطفى شعبان عبد الحميد – ط١
الإسكندرية المكتب الجامعى الحديث ٢٠٠٧
٥٠٠ص ، ٢٤ سم
تدمك: ١ - ٩٨٨ – ٥١٥ – ٩٧٧
رقم الإيداع : ١١١٥١/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى / ١ - ٩٨٨ – ٥١٥ – ٩٧٧

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم سيدنا محمـد خـاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين .

ثم أما بعد ، فإن الله عز وجل قد أنزل القرآن الكريم ، بلسان عربي مبين ، وجعله محكمًا ، فقال عز من قائل : ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) ، وجعله معجزًا ، تحدى به العرب أنْ يأتوا بمثله ولو بسورة من مثله ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣) . وحكم عليهم بالعجز أن يفعلوا ذلك في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، فقال : ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ (البقرة : ٢٤) ، ولم يكن هذا التحدي للعرب الذين اشتهروا بالفصاحة وحدهم ، بل كان للإنس والجن قاطبة . يقول تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

ولا شك أن من مقومات هذا الإعجاز تمكن اللفظ في موضعه وفصاحته وبلاغته ، سواء أكان مفردًا أم مركبًا . فاللفظ في النظم القرآني يأتي مستقرًا في موضعه ، مرتبطًا بما قبله أو ما بعده من الكلام ، أو ما يعرف بالسياق اللغوي ارتباطًا وثيقًا دلاليًا أو غير دلالي . هذا الارتباط يمكن أن نسميه بالمناسبة . وهذا البحث يتناول هذه المناسبة بين اللفظ والسياق اللغوي الوارد فيه في النص القرآني ، وذلك على مستوى اللفظ المفرد لا المركب (الجملة) .

وما أعنيه بالمناسبة هنا أن يفضي السياق إلى استخدام لفظ بعينه دون غيره ؛ لوجود علاقة ما بين هذا اللفظ وذلك السياق . وقد عبر أحد البلاغيين ، وهو ابن أبي الإصبع المصري عن هذه العلاقة عند تعليقه على لفظة (مُّظۡلِمُونَ) في قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ (يس : ٣٧) . قائلاً : "فإنه من كان حافظًا لهذه السورة ، متفطنًا إلى أن مقاطع فواصلها النون المردفة ، وسمع في صدر هذه الآية : ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ علم أن الفاصلة (مُّظۡلِمُونَ) فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ما دامت تلك الحال" [1] .

هذا ما أعنيه بالمناسبة بين اللفظ والسياق اللغوي . وقد دعاني إلى اختيار هذا الموضوع أسباب عدة منها:

(١) الرغبة في التعمق في دراسة القرآن ومعانيه ، والتعرف على بعض أسرار إعجازه من خلال العلاقة بين اللفظ ومدلول السياق .

(٢) الوقوف على الأشكال المختلفة للمناسبة بين اللفظ والسياق اللغوي في النظم القرآني ، إما من جهة اللفظ ، من حيث معناه المعجمي أو صفته أو معناه الوظيفي الصرفي أو النحوي أو العدول به عن الأصل التركيبي أو مغايرته لغيره من الألفاظ ، وإما من جهة السياق ، من حيث مدلوله أو نسقه أو تركيب الجملة فيه.

(٣) الرغبة في الربط بين مستويات اللغة المختلفة ، الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية أو الدلالية من جهة ، وعلم البلاغة من خلال ما يقدمه أحد فروعه ، وهو علم المعاني من إبراز المناسبة بين اللفظ والسياق اللغوي من جهة أخرى ، سيرًا على نهج إمام البلغاء عبد القاهر الجرجاني ، في كتابه القيم (دلائل الإعجاز)، الذي حاول فيه

---

[1] تحرير التحبير ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

محاولةً لم يسبق إليها الربط بين المعاني الصرفية والنحوية للألفاظ في بعض الجوانب وعلم المعاني ؛ لإبراز إعجاز القرآن من خلال نظمه .

(٤) وضع إطار علمي منهجي لأشكال المناسبة المختلفة بين اللفظ والسياق اللغوي ، وتقسيم هذه الأشكال تبعًا لطبيعة اللفظ أو موضعه في التركيب ، وتحليل الشواهد المذكورة تحليلاً دلاليًا أو غير دلالي ، يبرز العلاقة أو أوجه المناسبة بين اللفظ والسياق ، وذكر آراء العلماء المختلفة التي قيلت في هذه الشواهد ، ومقارنة بعضها ببعض ، ونقد ما يستحق منها النقد وترجيح ما يرى البحث أنه أولى أن يؤخذ به .

(٥) إضافة ما يمكن إضافته لأشكال المناسبة بين اللفظ والسياق اللغوي من صور لم يذكرها علماء التفسير والبلاغة والمتشابه وغيرهم ، ويرى البحث أنها يمكن وضعها في هذا الإطار ، مستعينًا بكتب التفسير والبلاغة والنحو وغيرها ، لإبراز وجه المناسبة فيها بين اللفظ والسياق الوارد فيه .

وقد اتبع البحث في تناوله لهذه الدراسة منهجًا اتسم بالوصف والتحليل والمعيارية ، فلم يكتف بسرد شواهد المناسبة وعرض ما قاله العلماء فيها وترجيح رأي على آخر ونقد ما رآه مستحقًا لذلك دون تدخل ، بل حاول في كثير من الأحيان أن يضيف أشكالاً لم يذكرها العلماء ، أو يبرز أوجهًا من المناسبة في الأشكال المذكورة لم تبرزها الآراء التي ذكرت فيها .

كما جاءت دراسة الألفاظ التي تحتمل أكثر من قراءة وفقًا للرواية المشهورة ، وهي رواية حفص عن عاصم ، مع الحرص على تخريج هذه القراءة من مصادرها الأساسية وذكر من قرأ بها ، وكذلك الحال عند ذكر قراءة أخرى للفظ نفسه .

وقد جاء اختيار الألفاظ ودراستها في هذا البحث على أساس أن اللفظ الذي جاء في موضع معين يحتمل في الظاهر وجهًا آخر غير الذي جاء عليه ، ثم كانت المزية والفضيلة في الوجه الذي جاء عليه لا في الوجه الآخر المحتمل ، فإن ورد الكلام على

هذا الوجه الثاني ، فإنه يعدم ما عليه من حسن وقبول ، بحيث نرى اللفظ قلقًا في موضعه غير متماسك أو مترابط مع سياقه الوارد فيه على المستويين الشكلي والدلالي أو أحدهما . فإن لم يحتمل الكلام إلا الوجه الذي جاء عليه اللفظ ، فإنه يخلو في هذه الحالة من المزية والفضيلة ، ومن ثم لم يتعرض له البحث بالتناول والدراسة .

وقد جاء تقسيم هذا البحث تبعًا لأحوال اللفظ المختلفة ، سواء المتعلقة به في ذاته أو المتعلقة بوضعه في التركيب على النحو الآتي :

(أ) من حيث معناه المعجمي المذكور في المعاجم ، أو من حيث صفاته التي اكتسبها عن طريق العرف أو الصيغة أو الدلالة أو الخصائص الصوتية التي يتميز بها ، وهما أمران يتعلقان باللفظ في نفسه ، بقطع النظر عن وجوده في تركيب معين .

(ب)من حيث معناه الوظيفي ، وهو معنى ذو شقين ، يتعلق أولهما باللفظ في ذاته ، من حيث بنيته أو صيغته ، وهو المعنى الصرفي ، ويتعلق الثاني بموقع اللفظ في التركيب ، وهو المعنى النحوي .

(ج) من حيث العدول باللفظ عن الأصل التركيبي ، وهو كالشق الثاني من النقطة السابقة ، إذ لا تتعلق النظرة فيه باللفظ في ذاته إلا في مواضع قليلة، وإنما تتعلق بوضعه في التركيب ، كالتقديم والتأخير والحذف والزيادة ووضع لفظ موضع غيره ونقله عن وظيفته إلى أخرى والالتفات .

(د) من حيث المغايرة بين لفظين ، وهي نظرة تتعلق باختلاف الألفاظ أو المغايرة بينها في سياقات متشابهة ، كالمغايرة بين لفظين تقديمًا وتأخيرًا ، أو ذكرًا وتركًا ، أو إظهارًا وإضمارًا ، أو غير ذلك .

وعلى ضوء هذه النظرة إلى اللفظ بأحواله المختلفة وعلاقة ذلك بالسياق اللغوي ، جاء تقسيم البحث وفقًا لذلك إلى خمسة فصول ، سبقها مقدمة وتمهيد ، وتزيلتها خاتمة وقائمة للمصادر والمراجع .

فأما **المقدمة** فتتناول فكرة هذا البحث ودواعي اختياره والهدف من دراسته والمنهج الذي يسير عليه والخطوط العامة التي يتضمنها .

وأما **التمهيد** فيتناول مفردات عنوان هذا البحث بالشرح والتفصيل ، فيتناول أولاً السياق بنوعيه : اللغوي والحالي أو الاجتماعي مفرقًا بينهما ، ثم يتناول فصاحة اللفظ وعلاقة تلك الفصاحة بالسياق اللغوي ، وهل تكون في اللفظ المفرد ، أي خارج التركيب أم هل تكون في اللفظ بوصفه وحدة لا تنفصل عن سياقها ؟ ثم يتناول أخيرًا أنواع المناسبة المختلفة في القرآن الكريم ، وصولاً إلى الشكل الذي هو مناط هذا البحث ، وهو المناسبة بين اللفظ والسياق اللغوي .

وأما **الفصل الأول** ، وعنوانه : المناسبة بين معنى اللفظ المعجمي والسياق اللغوي فيتناول اللفظ من حيث معناه المعجمي المذكور في المعاجم ، وعلاقة هذا المعنى بالسياق الوارد فيه . وينقسم تبعًا لذلك إلى مباحث ثلاثة : يتضمن الأول الألفاظ المتقاربة المعاني ، ويتضمن الثاني الألفاظ التي تبدو مترادفة في الظاهر ، ويتضمن الثالث الألفاظ المتباعدة المعاني ، وإن لم يخلُ الأمر من وجود قدر مشترك بينها في المعنى .

وأما **الفصل الثاني** ، وعنوانه : المناسبة بين صفة اللفظ والسياق اللغوي ، فيتناول اللفظ من حيث صفاته المختلفة عرفية أو صوتية ، وينقسم تبعًا لهذا إلى مبحثين ، يتناول الأول الصفات العرفية، كالغرابة والمبالغة والدونية والشرف ، ويتناول الثاني الصفات الصوتية ، كزيادة صوت ، أو تكرار صوت معين ، أو المغايرة بين صوتين في لفظين متشابهين ، أو تعاقب السواكن والحركات في لفظ معين .

وأما الفصل الثالث ، وعنوانه : المناسبة بين معنى اللفظ الوظيفي والسياق اللغوي ، فيتناول اللفظ من حيث المعنى الوظيفي الذي يدل عليه ، سواء أكان هذا المعنى صرفيًا أم نحويًا ، وينقسم إلى مباحث ثلاثة وفقًا لتقسيم النحاة الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، فيتناول الأول المعنى الوظيفي للاسم بادئًا بالمعنى الصرفي ، ويتضمن الأسماء من حيث التعريف والتنكير ، التذكير والتأنيث ، الإفراد والتثنية والجمع ، الاشتقاق ، ثم يتناول الأسماء التي لا اشتقاق لها ، كالأسماء الموصولة وأسماء الإشارة والضمائر والظروف ، ثم يتناول المعنى النحوي للاسم أو موقعه الوظيفي ، كالأسماء الواقعة موقع المبتدأ أو الخبر أو الفاعل أو المفعول أو النعت أو الحال وغير ذلك.

أما المبحث الثاني ، فيتناول الأفعال بادئًا بما تدل عليه من زمن : ماضٍ أو حال أو مستقبل ، ثم يتناولها من حيث الصيغة : مجردة أو مزيدة ، واختلاف الزيادة بين صيغتين من أصل واحد .

أما المبحث الثالث ، فيتناول حروف المعاني ، كحروف العطف وحروف الجر وحروف النفي وغير ذلك .

وأما الفصل الرابع ، وعنوانه : المناسبة بين عدول اللفظ عن الأصل التركيبي والسياق اللغوي، فيتناول اللفظ من حيث العدول به عن أصل التركيب ، وينقسم إلى ستة مباحث ، يتضمن الأول الألفاظ من حيث التقديم والتأخير ، ويتضمن الثاني الحذف ، والثالث الزيادة ، والرابع وضع لفظ موضع غيره ، والخامس نقل اللفظ من وظيفته إلى وظيفة أخرى داخل التركيب ، ثم يأتي المبحث السادس والأخير ليتناول الالتفات .

وأما الفصل الخامس ، وعنوانه : المناسبة بين المغايرة اللفظية والسياق اللغوي ، فيتناول المغايرة بين لفظين في سياقين متشابهين ، من حيث الترتيب ، أو الترك والذكر أو الإظهار والإضمار . وينقسم وفقًا لهذا إلى ثلاثة مباحث : يتناول الأول المناسبة بين

المغايرة في الترتيب والسياق اللغوي ، ويتناول الثاني المغايرة بينهما تركًا وذكرًا ، ثم يتناول الثالث المغايرة من حيث إظهار اللفظ في موضع وإضماره في آخر .

ثم تأتي بعد ذلك الخاتمة التي تشتمل على أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة في فصولها المختلفة . ثم تعقب ذلك كله قائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث في تناول هذا الموضوع .

<u>وبعد</u> ، فأرجو أن يكون هذا البحث خطوة على طريق الدراسات اللغوية والبلاغية والدراسات القرآنية ، وإضافة للمكتبة العربية ، وإثراء للفكر اللغوي ، وإن كنت قد أصبت فهو فضل من لدن حكيم حميد ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد اجتهدت وحاولت ، وسبحان من له الكمال وحده ، عليه توكلت وإليه أنيب ، وعليه سبحانه وتعالى قصد السبيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

د . مصطفى شعبان عبد الحميد المصرى

الإسكندرية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

تمهيـــــــــد

السـياق وأنواعه :

يعد السياق (CONTEXT) أهم وسائل الكشف عن المعنى وفهم النـصوص ، ويقصد به ''الأصوات والكلمات أو العبارات التي تسبق أو تلي عنصرًا لغويًا معينًا فـي قول أو نص,, [1] . كما أن ''العناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمـة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن,, [2] ، ويتكون من عناصر ثلاثة وهي [3] :-

(١) المحيط الزماني والمكـاني للحـدث (SETTING) ، ويـشمل المـوقعين الزماني والمكاني للحدث الكلامي الناتج عن المتكلم والمخاطب والظروف المحيطة .

(٢) العالم المتحدث عنه (THE WORLD SPOKEN OF) ، وهو موضوع الحديث أو مجاله .

(٣)سياق النص أو بيئتـه (TEXTUAL INVIROMENT) وهـو مجموعـة المقولات والتعبيرات اللغوية ، ويمثل اللفظ فيها أحد أجزائها ، وتكوّن معًـا وحـدة دلاليـة متماسكة .

ويمثل العنصر الأول من العناصر السابقة السياق الاجتماعي للحدث الكلامـي ، أي الظروف غير اللغوية المحيطة به ، ويمثل الثالث السياق اللغوي لهذا الحدث ، ويوجه الأول والثاني معًا سياق الحديث ، ويصبغانه بالصبغة اللغوية المناسبة له .

---

(1) Hartmann and Stork : Dictionary of Language and Linguistics , P. 51.

(2) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ــ ترجمة د . كمال محمد بشر ص ٦٢ .

(3) Keith Allan : Linguistic Meaning , p. 36-37.

وعلى ضوء هذه العناصر وما سبقها من تعريف للسياق يمكن تقسيمه إلى نوعين : سياق اجتماعي وآخر لغوي :

(١) السياق الاجتماعي أو سياق الحال (CONTEXT OF SITUATION)

وهو ''تلك المعالم التي تميز العالم الخارجي والتي تعطي معنى للكلمة المنطوقة أو النص,, [١] . أو هو ''كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات,, [٢] . وتتمثل في الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية للمتكلم والمشتركين في الكلام أيضًا .

وهذا المصطلح ''قد استخدمه لأول مرة في إنجلترا (مالينوفيسكي) الذي عدَّ سياق الحال جزءًا من العملية الاجتماعية التي يتمركز فيها الحدث الخطابي ، ويستطيع التأثير فيها تأثيرًا جذريا,, [٣] .

ولقد وصل العالم البولندي (مالينوفسكي) إلى ''أن اللغة ليست كما يرى التعريف التقليدي وسيلةً من وسائل توصيل الأفكار والانفعالات أو التعبير عنها ، أو نقلها ، فمثل هذا لا يعدو أن يكون وظيفة واحدة من وظائف اللغة ، ورأى أن اللغة كما يمارسها المتكلمون في أي جماعة من الجماعات إنما هي نوع من السلوك ، ضرب من العمل ، إنها تؤدي وظائف كثيرة غير التوصيل,, [٤] .

ثم تطور هذا المصطلح تطورًا آخر باستعمال الأستاذ (فيرث) له في دراسته اللغوية ، إذ رأى ''أن الاستخدام الأمثل لسياق الحال أن يكون أحد المكونات الفكرية

---

(١) Hartmann and Stork , OP.CIT , p 52 .

(٢) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ــ ترجمة د . كمال محمد بشر ص ٦٢ ..

(٣) Spencer and Gregory : Linguistics and Style , P. 99 .

(٤) د . محمود السعران : علم اللغة ص ٣١٠ .

القابلة للتطبيق على أحداث اللغة ، وأنه يشتمل على فئات مترابطة عند مستويات مختلفة من الفئات النحوية لها الطبيعة المجردة نفسها,,[1].

ويربط هذا السياق ــ كما يرى فيرث ــ بين الفئات الآتية للدراسة اللغوية[2] :-

(أ) الخصائص ذات الصلة بالمشتركين والأشخاص والشخصيات ، وتنقسم إلى :
١- الفعل الكلامي للمشاركين .
٢- الفعل غير الكلامي للمشاركين .

(ب) العوامل ذات الصلة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي ، كحالة الجو إن كان لها دخل ، وكالوضع السياسي ، ومكان الكلام .

(ج) أثر الفعل الكلامي (الوظيفي) في المشتركين ، كالاقتناع أو الألم أو الإغراء أو الضحك .

وهكذا نرى أن نظرية اللغة التي تقوم على التصور الخاص بسياق الحال تشمل جميع أنواع الوظائف الكلامية ، وليست مقصورة ــ كأكثر النظريات القديمة ــ على إبراز نوع أو أكثر من الوظائف الكلامية[3] .

إن المعنى عند الأستاذ (فيرث) في ضوء هذه النظرية كلٌ مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية ، وأهم عناصر هذا الكل هو الوظيفة الصوتية ، ثم المورفولوجية ، والنحوية ، والمعجمية، والوظيفة الدلالية لــ (سياق الحال) . والتحليلات اللغوية على

---

(1) Spencer and Gregory , OP.CIT , P. 99.

(2) د . محمود السعران : علم اللغة ص ٣١١ . ؛

Spencer and Gregory . OP.CiT , P. 99 .

(3) د . محمود السعران : علم اللغة ص ٣١١ ، ٣١٢.

هذه المستويات المختلفة ليست المعنى ولا هي دراسة المعنى ، فلابد للوصول إليه من الربط بين النتائج التي توصل إليها هذه التحليلات جميعًا ربطاً يدخل في حسبانه سائر عناصر سياق الحال [١] . فهو يري ــ على هذا ــ أن الوصول إلى معنى أي نص لغوي يستلزم [٢] :-

(١) أن يحلل النص اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة (الصوتية والمورفولوجية والنظمية والمعجمية) .
(٢) أن يبين سياق الحال شخصية المتكلم ، وشخصية السامع ، وجميع الظروف المحيطة بالكلام .
(٣) أن يبين نوع الوظيفة الكلامية : تمنٍّ ، إغراء ... الخ .
(٤) بيان الأثر الذي يتركه الكلام ، ضحك ، تصديق ، سخرية ...الخ .

ومعنى هذا أن السياق عنده ينقسم في الحقيقة إلى نوعين [٣] :-
(١) السياق الداخلي للحدث اللغوي ، ويتمثل في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين الكلمات داخل تركيب معين .
(٢) السياق الخارجي ، ويتمثل في السياق الاجتماعي، أو سياق الحال بما يحتويه ، وهو يشكل الإطار الخارجي للحدث الكلامي .

وعلى هذا ينبغي أن نستخدم الطرق التحليلية التي تقدمها لنا فروع علم اللغة المختلفة من جوانب صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية ؛ لكي نصل إلى معنى الحدث الكلامي ، غير أن تحليل هذه الفروع لا يؤدي بنا إلى معرفة المعنى الكامل المراد الوصول إليه ''لأن التحليل اللغوي للنص أو الكلام لا يعطينا إلا المعنى الحرفي ، أو معنى ظاهر النص ، وهو معنى فارغ تمامًا من محتواه الاجتماعي والتاريخي ومنعزل

---

(١) السابق ص ٣١٢ .
(٢) السابق ص٣١٢ .
(٣) د . حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية ص ١٦١ .

عن كل ما يحيط به النص من القرائن التي تحدد المعنى,, [1] . وتبقى بعد ذلك الدلالة الكاملة لهذا الحدث ؛ لأن مجرد وضوح هذه الوظائف والعلاقات لا يؤدي إلى معرفة هذه الدلالة ، فلابد إذاً من السياق الاجتماعي الذي يصل بنا إلى هذه الدلالة الكاملة .

وقد التفت علماء العربية من مفسرين وبلاغيين ولغويين إلى هذا السياق الاجتماعي ، وأطلقوا عليه المقام أو مقتضى الحال ، مفرقين بينه وبين السياق اللغوي بعبارتهم الشهيرة ''لكل مقام مقال,, فاطنين بذلك إلى ''أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها وأن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمون كلاً منها مقامًا,, [2] .

فنراهم في تحليلاتهم اللغوية يركزون على وجوب مراعاة هذا الجانب من جانبي المعنى ؛ كي يتناسب مع ما يساق له . يقول صاحب منهاج البلغاء : ''وأحسن مواقع التخييل أن يناط بالمعاني المناسبة للغرض الذي فيه القول ؛ كتخييل الأمور السارة في التهاني ، والأمور المفجعة في المراثي . فإن مناسبة المعنى للحال التي فيها القول وشدة التباسه بها يعاون التخييل على ما يراد من تأثر النفس لمقتضاه . ويحسّن موقع التخييل من النفس أن يترامى بالكلام إلى أنحاء من التعجيب فيقوى بذلك تأثر النفس لمقتضى الكلام,, [3] .

فمقامات الكلام ــ كما يرون ــ مختلفة وما يمكن أن يقال في أحدها ربما لا يصلح في غيره ، وهو ما يوضحه السكاكي بقوله : ''لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين

---

(1) السابق ص ١٦٢ .

(2) د . تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٣٧ .

(3) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ص ٩٠ .

مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل ، وكذا مقام الكلام ابتداءً يغاير مقام الكلام بناءً على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب ، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر،،[١] .

ومن خلال ذلك يتضح لنا إدراكهم لأثر سياق الحال في إجلاء المعنى ، وتوضيحه ، وكيف يتغير معنى العبارة الواحدة بتغير المقام . ففي قوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ (يوسف : ٨٢) ، يرى النحاة أن معنى العبارة هنا يقتضي محذوفًا مراعين بذلك دلالة الفعل أو المفارقة المعجمية بينه وبين ما يقع عليه ؛ إذ السؤال لا يقع على الجمادات فكان تقديرهم له : واسأل أهل القرية على نحو الحذف في قول العرب : بنو فلان يطؤهم الطريق ، أي أهل الطريق ، لكن هذه العبارة في مقام آخر لا تحتمل الحذف ــ كما يرى عبد القاهر ــ وذلك إذا كانت في ''كلام رجل مر بقرية قد خربت وباد أهلها، فأراد أن يقول لصاحبه واعظًا ومذكرًا ، أو لنفسه متعظًا ومعتبرًا : سَلِ القرية عن أهلها ، وقل لها ما صنعوا على حدّ قولهم : سل الأرض من شقّ أنهارك ، وغرس أشجارك وجني ثمارك ، فإنها إن لم تُجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا ،،[٢] .

ولابن جني قبل ذلك كلام يكشف النقاب عن معنى آخر من معاني هذه الآية يمكن أن يفهم منها إذا روعي أحد جوانب المقام الذي سيقت فيه ، وهو السياق النفسي للمتكلمين إخوة يوسف ، إذ يتحدثون بلسان الصدق بخلاف ما سبق منهم عند تخلصهم من يوسف ، فأرادوا من أبيهم لصدقهم أن يسأل كل شيء حتى الجمادات إن لم يكن مصدقًا

---

[١] مفتاح العلوم ص ١٦٨ .

[٢] عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

لهم ، فستشهد لهم بذلك ، يقول : ''فكأنهم تضمنوا لأبيهم عليه السلام أنه إن سأل الجمادات والجبال أنبأته بصحة قولهم . وهذا تناهٍ في تصحيح الخبر . أي لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا ، فكيف لو سألت مَن مِن عادته الجواب؟,, [1] .

وهكذا نرى أن البلاغيين واللغويين وغيرهم من علماء العربية قد فطنوا إلى أهمية سياق الحال ودوره في الكشف عن بعض جوانب المعنى ، وإن كان بعضهم قد خلط بينه وبين السياق اللغوي أو اللفظي _ على ما سيتضح فيما يأتي _ ولكن يبقى اهتمامهم الأكبر بالجانب اللغوي من النص لأهميته في تحديد الدلالة والكشف عنها .

(٢) السياق اللغوي LINGUISTIC CONTEXT

وهو ''البيئة اللغوية المحيطة بالفونيم أو المورفيم أو الكلمة أو الجملة,, [2] . أو هو ''النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم,, [3] . فهو يشتمل على هذه الألفاظ التي تتتابع في حدث كلامي ، وتربطها وحدة دلالية متماسكة . ويمثل له الدكتور أحمد مختار عمر بكلمة (GOOD) الإنجليزية ومثلها كلمة (حَسَن) العربية أو (زين) العامية التي تقع في سياقات لغوية متنوعة وصفًا لـ :

(أ) أشخاص : رجل ـ امرأة ـ ولد ...

(ب) أشياء مؤقتة : وقت ـ يوم ـ حفلة ـ رحلة ...

(ج) مقادير : ملح ـ دقيق ـ هواء ـ ماء ...

---

[1] الخصائص ٢ / ٤٤٧ .

[2] د . محمد علي الخولي : معجم علم اللغة النظري ص ٥٧ .

[3] ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ـ ترجمة د . كمال محمد بشر ص ٦٢ .

فإذا وردت في سياق لغوي مع كلمة (رجل) كانت تعني الناحية الخلقية ، وإذا وردت وصفًا لطبيب مثلاً كنت تعني التفوق في الأداء (وليس الناحية الخلقية) ، وإذا أردت وصفًا لمقادير كان معناها الصفاء والنقاء ... [١] وهكذا .

غير أن ما يذهب إليه دكتور أحمد مختار عمر هنا من تمثيله لهذا السياق ''أقرب إلى تعريف المعنى الدلالي للكلمة ، على حين يعني السياق اللغوي تلك العلاقة التي تربط الكلمة بما قبلها وما بعدها من الكلمات,, [٢] .

وما يجعل هذا السياق مترابطًا بعض الظواهر التي تعمل على وجود علاقات بين الألفاظ المتجاورة ، كالإسناد والتعدية والتبعية ، وهي ظواهر معنوية ، وكالتعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع وغيرها ، وهي ظواهر شكلية . وتنقسم هذه الظواهر أو وسائل الربط في السياق – كما يرى دكتور تمام حسان – إلى ثلاث [٣] :-

(١) وسائل التماسك السياقي **TRANSITIVITY**

وهي ذلك الترتيب الذي تأتي عليه الكلمات في السياق والذي ينشأ عن العلاقات التي تقوم بينها ، فتجعل بعضها مبنيًا على بعض ومتعلقًا به ، كوقوع الفاعل بعد الفعل ثم المفعول بعدهما ، أو الصفة بعد الموصوف والبدل بعد المبدل منه أو الاسم المنصوب ثم الخبر المرفوع بعد الحروف الناسخة، والعكس بعد الأفعال الناسخة ... الخ .

(٢) وسائل التوافق السياقي **CONCORD**

وهي الموافقة بين أجزاء معينة في السياق في بعض النواحي الآتية أو كلها :

(أ) الشخص : التكلم والحضور والغيبة .

---

[١] د . أحمد مختار عمر : علم الدلالة ص ٦٩ ، ٧٠ .

[٢] عبد النعيم عبد السلام خليل : نظرية السياق بين القدماء و المحدثين ص ٢٠ .

[٣] د . تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ٢٣٧ و ما بعدها .

(ب) العدد : الإفراد والتثنية والجمع .

(ج) النوع : التذكير والتأنيث .

(د) التعيين : التعريف والتنكير .

(هـ) الحالة الإعرابية : الرفع ، النصب ، الجر ، الجزم .

(٣) التأثير السياقي GOVERNANCE أو REGIMEN

وهي القيم الخلافية التي ينشأ عنها اختلاف في حركات الإعراب نتيجة لاختلاف الوظائف. فالاختلاف ــ على سبيل المثال ــ بين وظيفة الفاعل ووظيفة المفعول في الجملة أدى إلى رفع الأول ونصب الثاني .

ويرى أحد الباحثين المحدثين [1] أنه ليس ثمة فرق بين وسائل التماسك ووسائل التوافق التي ذكرها الدكتور تمام حسان ، والحق أن الفرق بينهما كبير ، إذ تتعلق الأولى بتلك العلاقات المعنوية التي تعطي للألفاظ وظائفها داخل السياق ، وتتعلق الثانية بالعلاقات الشكلية بين بعض الألفاظ . ولعل ما يذكره دكتور تمام حسان في وسائل التأثير متضمن في النوع الأول ، إذ تحدد المواقع الوظيفية للعناصر اللغوية علامات الإعراب المختلفة ، وهذه العلامات ربما لا يكون لها دخل في وسائل الربط السياقي ، إذ تختفي في بعض الأحيان من بعض العناصر ، كما يحدث في الأسماء المبنية والمقصورة ، يضاف إلى هذا بعض العناصر الواقعة في وظائف لغوية معينة قد تشترك في علامات إعرابية واحدة كالحال والتمييز وجميع المفعولات ، إذ تأتي جميعها منصوبة . فالعلامة الإعرابية في هذه الحالات لا تعد قرينة .

وكما اهتم علماء العربية ــ ولاسيما البلاغيين ــ بسياق الحال اهتموا اهتمامًا عظيمًا بالسياق اللغوي أو اللفظي وأولوه عناية خاصة . ونستطيع القول إن عنايتهم بهذا

---

[1] عبد النعيم خليل : نظرية السياق بين القدماء و المحدثين ص ٢٧٤ .

الأخير ''تبدو أوضح وأغلب على عملهم من العناية بالجانب المقامي وبيان أثره وتفصيل عناصره ، وتتمثل عنايتهم بالسياق اللفظي في دراسة التراكيب أو (النظم) على النحو الذي بينه عبد القاهر في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) وهي دراسة تبين في الغالب أثر السياق أو النظم في تحديد قيمة الكلمة ودلالتها ، وبيان الأنسب والأصلح من طرق النظم ووسائله في الدلالة على المعاني التي ينشدها البلغاء في المقامات التي ينظمون فيها,, (١) .

ففكرة النظم التي قال بها عبد القاهر ، أو بعبارة أدق ، طوّرها تكاد تكون هي عينها فكرة السياق اللغوي كما يراه المحدثون . فإذا كان هذا السياق يعني ''الأصوات والكلمات والجمل كما تتتابع في حدث كلامي معين ، أو نص لغوي,, (٢) . فإن النظم لا يختلف مفهومه عن هذا . إذ يقصد به عبد القاهر ترتيب الألفاظ وتعلق بعضها ببعض في نسق واحد . يقول موضحًا الفكرة : ''واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك ، علمت علمًا لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك . هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس . وإذا كان كذلك ، فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء ، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ، ما معناه وما محصوله ؟ و إذا نظرنا في ذلك ، علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً ، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرًا عن الآخر أو تتبع الاسم اسمًا على أن يكون الثاني صفة للأول ، أو تأكيدًا لــه ، أو بدلاً منه ، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أو حالاً أو تمييزًا أو تتوخى في كلام . هو لإثبات معنى أن يصير نفيًا أو استفهامًا أو تمنيًا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطًا في الآخر ،

---

(١) د . طاهر سليمان حمودة : دراسة المعنى عند الأصوليين ص ١٨٧ .

(٢) د . حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية ص ١٦١ .

فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى ، أو بعد اسم من الأسماء التي ضُمِّنت معنى ذلك الحرف وعلى هذا القياس،، [1] .

وإذا كان ما يذكره عبد القاهر هنا موضحًا به فكرة النظم ــ كما يراها ــ متفقًا إلى حد بعيد مع مفهوم المحدثين للسياق اللغوي فإن ثمة فرقًا جوهريًا بين مفهومهم عن هذا السياق وما قصده بفكرة النظم ، إذ العلاقة بين الوحدات اللغوية في السياق اللغوي أساسها البحث عن الدلالة . فالسياق عامل أساسي في توضيح الدلالة إذا ما كان هناك لبس أو غموض في المعنى المعجمي لكلمة ما ، أما النظم عند عبد القاهر فهو إبراز لقيمة المعاني النحوية التي تنشأ نتيجة للعلاقات القائمة بين الألفاظ في السياق وما لهذه المعاني من أبعاد بلاغية .

وإذا كان البلاغيون قد فرقوا بين الشقين اللغوي والاجتماعي أو المقامي من شقي السياق، فإننا نرى بعضهم قد جعل لفظ (مقام) معبرًا عن الأمرين على الرغم من تمييزهم بينهما في عبارتهم الشهيرة (لكل مقام مقال) ، فقد اتجهوا في نظرتهم إليه ناحية السياق اللغوي ، وهو بالطبع يختلف عن السياق الاجتماعي أو سياق الحال ، فقد ارتبط المقام عندهم ارتباطًا يكاد يكون كاملاً بتركيب العبارة أو الجملة . يقول القزويني : ''والبلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته . وهو مختلف ، فإنّ مقامات الكلام متفاوتة فمقام كل من التنكير ، والإطلاق ، والتقديم ، والذكر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه ، وكذا خطاب الذكي مع خطاب الغبي ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام ، وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدمها،، [2] .

فالتقديم والتأخير والحذف والوصل والفصل وغير ذلك جميعا ، ظواهر تتعلق بالجانب اللغوي من جانبي السياق . ومع ذلك نرى القزويني يجعلها خاصة بالمقام ، بل

---

[1] دلائل الإعجاز ص ٥٥ .

[2] تلخيص المفتاح في المعاني والبديع ص ١٨ ، ١٩ .

نراه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيجعل مطابقة الكلام للمقام أو مقتضى الحال هي نفسها النظم عند عبد القاهر ، يقول : ''وهذا ــ أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال ــ هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم,, [1] .

والأمران مختلفان كل الاختلاف ، فالنظم يعنى ببناء الألفاظ بعضها على بعض في سياق ما ، وأما مطابقة الكلام للمقام فتعني مجيئه مناسبًا للظرف الذي يقال فيه .

ولعل هذا الخلط يرجع إلى الارتباط الشديد بين السياقين ، فإننا لا نستطيع تحليل النصوص تحليلاً لغويًا دون التطرق إلى السياق الاجتماعي أو على الأقل مراعاة بعض جوانبه في أثناء التحليل . ومن ذلك ما ذكره القزويني تحليلاً لقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ (يس : ٢٠) . يقول : ''قدم فيه المجرور لاشتمال ما قبله على سوء معاملة أصحاب القرية الرسل من إصرارهم على تكذيبهم ، فكان مظنة أن يلعن السامع ــ على مجرى العادة ــ تلك القرية ، ويبقى مجيلاً في فكره : أكانت كلها كذلك لم كان فيها قطر دانٍ لم قاصٍ منبت خير ؟ منتظرًا لإلمام الحديث به ,, [2] .

فالاهتمام هنا بتقديم المجرور مراعاة لما قبله من دلالات هو من قبيل الاهتمام بالجانب اللغوي ، وإن كان قد روعي فيه أيضًا عنصر من عناصر المقام ، كما ينادي به أصحاب النظرية السياقية ، وهو السامع أو المخاطب .

ومعنى هذا أننا لا نستطيع الفصل بين السياقين عند تحليل نص ما إذا أردنا الوصول إلى المعنى كاملاً فكل واحد منهما يمثل جانبًا من جانبي المعنى لا يغنى عن

---

[1] الإيضاح في علوم البلاغة ص ٣٢ .

[2] السابق ص ١٤٨ .

الآخر . ومن هنا نرى دكتور تمام حسان يجعلهما شقي المعنى ، أو ما أسماه بالمعنى الدلالي . إذ يقسمه إلى قسمين مقالي ومقامي مستعيرًا هذه التسمية من عبارة البلاغيين (لكل مقام مقال) . ويشمل الأول المعنيين الوظيفي والمعجمي للألفاظ ، ويشمل الثاني ظروف أداء المقال [١] .

فصاحة اللفظ وعلاقتها بالسياق اللغوي

لقيت قضية اللفظ والمعنى اهتمامًا كبيرًا من البلاغيين ، إذ اختلفوا فيها بينهم حول تفضيل أحدهما على الآخر . يقول ابن رشيق : "وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، سمعتُ بعض الحذاق يقول : قال العلماء : اللفظ أغلى من المعنى ثمنًا ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلبًا ؛ فإن المعاني موجودة في طباع الناس ، يستوي الجاهل فيها والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف , ألا ترى لو أن رجلاً أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر ، وفي الإقدام بالأسد ، وفي المضاء بالسيف ، وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حُلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر" [٢] .

ويوضح ما ساقه صاحب العمدة هنا تلك النظرة الثنائية التي نظر بها كثير من البلاغيين إلى اللفظ والمعنى ، إذ فضل الأكثرون اللفظ وفضل آخرون المعنى ، وإنما تعود

---

[١] د . تمام حسان : اللغة العربية معناها و مبناها ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

[٢] العمدة ١ / ١٢٧ .

هذه المفاضلة إلى الفصاحة [1] التي جعلوها صفة للألفاظ المفردة والمركبة معًا [2] . فمنهم من ألحقها باللفظ ، ومنهم من جعلها قسيمًا للمعنى ، ومنهم من نسبها إليهما معًا . وقد حدد صاحب الطراز هذا الخلاف في مذاهب أربعة [3] :-

المذهب الأول : أنها من عوارض الألفاظ مجردة دون النظر إلى دلالتها على المعاني . وهو ما ذهب إليه ابن سنان الخفاجي إذ يقول : ''إن الفصاحة نعت للألفاظ إذا وُجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ . وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف ، وبوجود أضدادها تستحق الإطراح والذم,, [4] .

ويقسم تلك الشروط التي يشير إليها إلى قسمين [5] : فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ ، والثاني يوجد في الألفاظ المضموم بعضها إلى بعض . ويكفي الإشارة هنا إلى القسم الأول منعًا للتكرار ؛ إذ يتشابه القسمان . وقد وضع له ثمانية شروط هي :-

(١) أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج .

---

[1] أما البلاغة ــ كما يذكر صاحب الطراز ص ٦٣ ــ فلا خلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان أن الكلام لا يوصف بكونه بليغًا إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ ، ولا يكون بليغًا إلا بمجموع الأمرين معًا كليهما فقد صارت البلاغة وصفًا عارضًا للألفاظ و المعنى . وأرى أن الفصاحة والبلاغة ما هما إلا اسمان لمسمى واحد يتمثل في الكلام المؤلف لا المفرد إذا حسن نظمه وأصاب تمام المعنى . وهو ما يشير إليه القزويني في الإيضاح ص٣٢ ونص كلامه ''فالبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب وكثيرًا ما يسمى ذلك فصاحة أيضًا,, .

[2] الطيبي : التبيان في البيان ص ٥٥٢ .

[3] العلوي : الطراز ص ٦٣ ، ٦٤ .

[4] سر الفصاحة ص ٦٠ .

[5] السابق ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حُسنًا ومزية على غيرها ، وإن تساوتا في التـأليف من الحروف المتباعدة .

(٣) أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية .

(٤) أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية .

(٥) أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة .

(٦) ألا تكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره .

(٧) أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف .

(٨) أن تكون مصغرة في موضع عُبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفيٌ أو قليل أو مـا يجري على ذلك .

هذه هي الشروط التي وضعها ابن سنان للّفظة المفردة ، وعلى الرغم ممـا قـد يكون فيها من فائدة وما يتعلق بحروف الكلمات من خصائص ومـا يكـون بينهـا مـن انسجامات صوتية ، فإن كل ما أشار إليه من هذه الخصائص ''لا يتعدى الجانب الـشكلي الخارجي فهي ملاحظات سلبية ، تتعلق بالجانب السلبي المرتبط بالكلمة ، من حيث تلاؤم حروفها وتنافرها ، أو من حيث وعورة الكلمـة وَوحـشيتها ، أو نبـذها وشـذوذها ، أو خروجها عن المألوف إلى غير ذلك مما لا يرتبط ارتباطًا أساسيًا بوظيفة الكلمة في الأداء الفني أو التعبير الأدبي'' [١] .

وإذا كان ابن سنان قد جعل الفصاحة صفة للفظ دون تعليل مكتفيًا بالشروط التي وضعها لتحقيق تلك الفصاحة ، فإن ابن الأثير قد علل تفضيله اللفظ على المعنـى تعلـيلاً واضحًا . يقول : ''وإذن ثبت أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، وإنما كان ظاهرًا بينًا لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحـسنه مُـدرَك

---

[١] د . محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ص ٢٧٥ .

بالسمع ، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ ؛ لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح،، [١] .

ولم يلقَ هذا الرأي صدى عند صاحب الطراز ، فرفضه قائلاً : ''فأما من زعم أن الفصاحة متعلّقها اللفظ لا غير ، فقد أبْعَد ؛ فإن الألفاظ لا ذوق لها ولا يمكن الإصغاءُ إلى سماعها إلا لأجل دلالتها على معانيها ، فأمّا إذا خلت عن الدلالة عليها فلا وقْعَ لها بحال،، [٢] .

المذهب الثاني : أن الفصاحة من عوارض المعاني دون الألفاظ ، وهذا هو الذي يذهب إليه الفخر الرازي في كتابه (نهاية الإيجاز) [٣] . فإنه زعم أن الفصاحة عبارة عن الدلالات المعنوية لا غير ، من غير حاجة إلى اللفظ لا على جهة القصد ولا على جهة التبعية ، ولا يعني بالدلالة المعنوية هنا الدلالة المعجمية أو الوضعية ، فقد فرق بينهما ناسبًا الفصاحة إلى الأولى دون الثانية يقول :''وأما وصف اللفظ بالفصاحة ، فذلك عند دلالته المعنوية ، لا عند دلالته الوضعية،، [٤] . وإنما يعني بالدلالة المعنوية تلك الدلالة الفرعية التي من صورها الكناية والمجاز والاستعارة [٥] ، وهي أمور تنشأ عن التركيب .

ورفض صاحب الطراز هذا المذهب أيضًا . قال : ''وأبْعَدُ من هذا من زعم أن متعلق الفصاحة في المعاني فقط ، ...فإن المعاني إنما تُوصف بالبلاغة ، فأمّا الفصاحةُ فإنها من صفات الألفاظ،، [٦] .

---

(١) المثل السائر ١ / ٨٢ .

(٢) الطراز ص ٦٥ .

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٧٠ .

(٥) السابق ص ٧٢ .

(٦) الطراز ص ٦٥ .

المذهب الثالث : أن الفصاحة عبارة عن الألفاظ على أساس دلالتها على مسمياتها المعنوية . وهذا الرأي حكاه الرازي في كتابه النهاية ولم يَعْزُه إلى أحد من علماء البيان (١) . وحاصل مذهبهم أن الفصاحة عبارة عن الأمرين جميعًا فلا هي من أوصاف اللفظ على الخصوص ، ولا هي من أوصاف المعاني على الخصوص .

وهذا المذهب هو الذي يختاره صاحب الطراز ، فيقول مؤيدًا له : "والمختار عندنا تفصيل نشير إليه ، وهو أن الفصاحة من عوارض الألفاظ ، لكن ليس بالإضافة إلى مطلق الألفاظ فقط ، ولكن بالإضافة إلى دلالتها على معانيها ، فتكون الفصاحة عبارة عن الأمرين جميعًا : مطلق الألفاظ ودلالتها على ما تدلُّ عليه من معانيها المفردة والمركبة" (٢) .

المذهب الرابع : أن تكون الفصاحة للأمرين جميعًا ، ومفيدة لهما ، فيكون الأمران معًا ، المعاني والألفاظ من مسمى الفصاحة ، وهذا المذهب ـ كما يذكر صاحب الطراز ـ يخالف المذهب الثالث ، فإن هؤلاء جعلوا اللفظ والمعنى من مدلول لفظ الفصاحة . والذين قَبْلَهم جعلوا اللفظ هو الموصوف بالفصاحة على أساس أن المعنى مضموم إليه بالتبعية لا غير .

هذه هي المذاهب التي ذكرها صاحب الطراز، وتلخص الخلاف حول اللفظ والمعنى من جهة الفصاحة ، وأيهما أولى بها من الآخر ، وهو خلاف يوضح تلك الثنائية التي تفرق بين اللفظ والمعنى . ولعل الفصاحة لا ترجع لأحدهما دون الآخر أو

---

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٦٥ ، ونص كلامه "اعلم أن الذين يجعلون الفصاحة صفة للفظ ، فالأظهر أنهم يجعلونها صفة للألفاظ ، لأجل دلالتها الوضعية على مسمياتها" .

(٢) الطراز ص ٦٤ .

لمجموعهما خارج السياق وإنما ترجع إلى حسن تأليف الكلام وجمال نظمه ، فقد تجتمع للألفاظ المفردة كل صفات الفصاحة ومع ذلك نجد بعضها يقبح في موضعه في الكلام ؛ لأنه غير ملائم للمعنى أو متنافر مع الألفاظ المجاورة له ، وبعضها الآخر يحسُن لتمكنه في موضعه . ومن ذلك ما أورده ابن الأثير من لفظتي العسل والشهد ، إذ وردت الأولى غير حسنة في قول الأعرج :-

نَحنُ بنَوُ الموت إذا الموتُ نزل
لا عارَ بالموتِ إذا حُمَّ الأجلْ
الموتُ أحلىَ عِندنا مِنَ العسلَ [1]

ووردت الثانية حسنة فصيحة في قول المتنبي :

إذا شِئتُ حفَّتْ بي على كلِّ سابحٍ … رجالٌ كأنَّ الموتَ في فَمِها شَهْد [2]

يقول معلقًا على هاتين اللفظتين في موضعهما : "فهاتان لفظتان هما العسل والشهد ، كلتاهما حسن مستعمل لا يشك في حسنه واستعماله ، وقد وردت لفظة العسل في القرآن ، دون لفظة الشهد ؛ لأنها أحسن منها ، ومع هذا فإن لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج" [3] .

(1) مشطور رجز للأعرج المعنى ، ويقال إنه لعمر بن يثربي شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمري ١ /٢٩١ .
(2) البيت من الطويل من قصيدة يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي ديوانه ١ /٣٧٤ .
(3) المثل السائر ١/ ١٥٠ ، ١٥١ .

ولا شك أن المعيار الذي يقيم عليه ابن الأثير المفاضلة هنا معيار النظم أو السياق ، فإن اللفظة الأولى لم تتمكن في موضعها تمكن الثانية ، فالفضل عنده لا يرجع إلى اللفظ ذاته ، ولكن إلى الموضع الذي يعطي للفظ ذلك الحسن .

وقد أدرك الخطّابي قيمة هذا النظم الذي يربط بين اللفظ والمعنى قائلاً :''وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم,, [1] .

ولا ريب أن ما يقصده بالرباط الناظم هو النظم أو السياق اللغوي الذي يربط بين الألفاظ بما تحويه من معانٍ في نظام متناسق يعطي للألفاظ ومعانيها رونقًا وجمالاً إذا حسن ذلك النظم .

إذًا فالنظم هو الذي عليه المعول في بلاغة الكلام وفصاحته ، لا الألفاظ المفردة . وهو ما يذهب إليه القاضي عبد الجبار ، ويؤيده قائلاً : ''اعلم ... أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات ، إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها ، وحركاتها ، وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها,, [2] .

---

[1] بيان إعجاز القرآن ص ٢٧ .

[2] المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٦ / ١٩٩ .

والواضح مما ساقه عبد الجبار هنا أنه ينظر إلى الكلمة على أساسين مختلفين : نظرة في حال إفرادها ، ونظرة أخرى في حال نظمها مع غيرها من الكلام وهي في كلا الحالين واقعة تحت أوضاع ثلاثة :-

الأول : مفهومها في ذاتها ، من حيث الوضع الذي لها عند أهلها .
الثاني : مفهومها حين تختلف عليها علامات الإعراب ، فتكون فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأ أو خبرًا أو غير ذلك .
الثالث : مفهومها حين تأخذ مكانًا معينًا في الكلام فتتقدم أو تتأخر أو توضع موضع غيرها ونحو ذلك .

وعلى هذا يثبت أن النظم أو السياق اللغوي الذي ترد فيه الألفاظ هو الذي ترجع إليه الفصاحة أو البلاغة ، وهذا النظم يكون في ثلاثة أشياء : اختيار الكلمة في ذاتها ، ثم اختيار الوظيفة التي تؤديها في ذلك النظم ، ثم اختيار الموقع المناسب لها لتقوم فيه بأداء وظيفتها .

وقد ركز عبد القاهر الجرجاني على هاتين النقطتين الأخيرتين مبرزًا فضل المعاني النحوية التي تكتسبها الألفاظ من خلال وضعها في سياق معين لتطوير فكرة النظم التي أفاد فيها من مشكلة اللفظ والمعنى التي شغلت بال البلاغيين . يقول : ''واعلم أن الداء الدوي ، والذي أعيى أمره في هذا الباب، غَلَطُ من قدّم الشعر بمعناه ، وأقلّ الاحتفال باللفظ ، وجعل لا يُعطيه من المزّية إن هو أعطى إلا ما فضَل عن المعنى . يقول : ما في اللفظ لولا المعنى ؟ و هل الكلام إلا بمعناه ؟ . فأنت تراه لا يُقَدِّم شعرًا حتى يكون قد أودع حكمةً وأدبًا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر ، فإن مال إلى اللفظ شيئًا ، ورأى أن ينحله بعض الفضيلة ، لم يعرف غير الاستعارة ، ثم لا ينظر في حال تلك الاستعارة ؛ أحسُنت بمجرد كونها استعارة ، أم من أجل فرقٍ ووجهٍ أم للأمرين ؟ . لا

يحفل بهذا وشبهه ، قد قنع بظواهر الأمور ، وبالجمل ، وبأن يكون كمن يجلب المتاع للبيع ، إنما همّه أن يُرّوج عنه . يرى أنه إذا تكلم في الأخذ والسرقة ، وأحسن أن يقول : أخذه من فلان ، وألمّ فيه بقول كذا، فقد استكمل الفضلَ ، وبلغ أقصى ما يُراد .

واعلم أنّا وإن كنا إذا اتبعنا العرف والعادة ؛ وما يهجس في الضمير ، وما عليه العامة ، أرانا ذلك أن الصواب معهم ، وأن التعويل ينبغي أن يكون على المعنى ، وأنه الذي لا يسُوغ القول بخلافه ، فإن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق ، وإلى ما عليه المحصلون ؛ لأنا لا نرى متقدمًا في علم البلاغة ، مبرزًا في شأوها ، إلا وهو ينكر هذا الرأي ، ويعيبه ويزري على القائل به ويغضّ منه,, [1] .

فعبد القاهر لم يرجع الفضل إلى اللفظ وحده ولا إلى المعنى بمفرده ، وإنما إلى النسبة القائمة بينهما داخل السياق اللغوي أو ما أسماه بالنظم ، ونسب إليه الفصاحة أو البلاغة دون الألفاظ المفردة ، فالفضل يرجع إلى تأليف تلك الألفاظ في نظم واحد رابط لها . يقول تحت عنوان : فصل في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة : ''وهل يقع في وهمٍ، وإن جَهِد ، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان ، من غير أن يُنْظَر إلى مكان تقعان فيه من التأليفِ والنظمِ ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفةً مستعملةً ، وتلك غريبةً وحشية ، أو أن تكون حروف هذه أخفَّ ، وامتزاجها أحسنَ ، ومما يكد اللسان أبعد ؟ . وهل تجد أحدًا يقول : هذه اللفظة فصيحة ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحُسْنَ ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا : لفظة متمكنة، ومقبولةً ، وفي خِلافه : قَلِقَة ونابيةٌ ، ومُستَكْرَهة ، إلا وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ؛ وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم . وأن الأولى لم تَلَق بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقًا للتالية في مؤدّاها ؟,, [2] .

---

[1] دلائل الإعجاز ص ٢٥١ ، ٢٥٢.

[2] السابق ص ٤٤ ، ٤٥.

ويقول في موضع آخر مؤكدًا هذه الفكرة : "وجملة الأمر أنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه ، لكنا نوجبها لها موصولة بغيرها ، ومعلقًا معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة (وَٱشْتَعَلَ) من قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم : ٤) إنها في أعلى المرتبة من الفصاحة لم توجب تلك الفصاحةَ لها وحدَها ولكن موصولاً بها (ٱلرَّأْس) معرّفًا بالألف واللام ، ومقرونًا إليها الشيب منكّرًا منصوبًا" [١] .

وهذه النصوص التي سقناها لعبد القاهر تُوضح اهتمامه البالغ بالسياق اللغوي أو النظم الذي يعطي الكلمة كل ما لها من جمال ، من خلال موقعها الذي تقع فيه في هذا النظم ، متأثرة ومؤثرة فيما قبلها وما بعدها من كلام ، "فمضمون الكلمة عنده يقلُّ أو يكثر ينبسط أو ينكمش ، بحسب علاقتها بالموكب المتحرك الذي تسير فيه الكلمة مع ما تقدمها وما تلاها من ألفاظ ، فالكلمات عنده كالناس إذا أقمت بينها علاقة وثيقة فإنك لا تملك أن تحجب تأثير الواحدة في الأخرى" [٢] .

وهو بذلك الفكر الثاقب يتجاوز في دراسته الوحدات الجزئية التي لا تعطي القيمة الدلالية الفعلية للألفاظ إلى ما هو أكبر من ذلك من دراسة النص أو السياق الذي يحوي تلك المفردات، ويعطيها قيمتها ، وهو ما يذهب إليه المحدثون الآن "إذ يتضح في ضوء المفاهيم الكلية الحالية ابتداءً من نظرية (الجشطالت) التي أصبح مسلمًا بها معرفيًا أن وجود الوحدات وفاعليتها الوظيفية مرهون بموقعها من النص ودرجة كثافته ، ودورها في

---

[١] دلائل الإعجاز ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

[٢] د . محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ص ٣٣٦ .

متتالياته ، ولأن اتساقها في منظومات عريضة تشمل رقعة النص وما يتعالق معه هو الذي يحدد كفاءتها التعبيرية والجمالية الخاصة" [1] .

وليس معنى هذا أن نُغفل قيمة اللفظ في ذاته أو المعنى الذي ينقله إلينا ، فإننا "إذا نظرنا إلى النواحي المختلفة التي تُستخدَم الألفاظ فيها عن عمد وعن تدبر ، أدهشنا أننا في بعض الأحيانِ تعجبنا الألفاظ نفسها ، بقطعِ النظر عما قد تنقله إلينا من المعاني ، في حين لا نستطيع في حالات أخرى التفريق بين إعجابنا بالمعنى الذي وصل إلينا وإعجابنا بالعبارة التي أوصلته" [2] . فالسجع والجناس والازدواج – على سبيل المثال – ينظر في حسنها إلى اللفظ قبل ما تحمله من معنى ، والمطابقة يرجع حسنها إلى معنى اللفظ قبل النظر إلى شكله ، والالتفات لا نستطيع فيه أن نفصل بين اللفظ ومعناه إذ بنية اللفظ تؤدي إلى معنى معين وإن كانت جميعًا لا يتجلى الحسن فيها خارج السياق اللغوي الذي يبرز ذلك الحسن .

ولكي يشار إلى الأمر إشارة أكثر وضوحًا ، نرى الأدب يلجأ إلى استخدام مختلف القوى التي تستطيع بها الألفاظ أن تؤثر في الأفهام ، سواء أكان هذا من ناحية المعنى أم من ناحية اللفظ والصوت ، فإن تأثير الألفاظ في الفكر ذو نواحٍ أربع [3] :-

فمن حيث المعنى :-

(أ) بناء المعنى كما يقتضيه سياق الألفاظ ، والعكس صحيح ، فتبنى الألفاظ ، وتُؤلف وفقًا لدلالة السياق .

---

[1] د . صلاح فضل : بلاغة الخطاب و علم النص ص ١٦٩ .

[2] لاسل أبركرمبي : قواعد النقد الأدبي – ترجمة د . محمد عوض محمد ص ١٩ ، ٢٠ .

[3] السابق ص ٦٢ ، ٦٣ .

(ب) ثم المقدرة الإيحائية لبعض الألفاظ .

ومن حيث اللفظ :-
(ج) بناء اللفظ بناءً منسجمًا موسيقيًا .
(د) ثم ما لبعض المقاطع من محاكاة الموضوع .

فلكل من المعاني والألفاظ إذًا قيمتها التي تميزها ، ولكن لا تظهر هذه القيمة ، ويتجلى ما فيها من رونق وبهاء إلا إذا ارتبطت هذه الألفاظ في سياق واحد متماسك . ''فالسياق وحده هو القادر على أن يمنح اللفظة المفردة دلالتها المحددة ، وهو وحده كذلك القادر على أن يمنحها القدرة على الحركة والعمل ، فإن الذي يحدد قيمة الكلمة المفردة والذي يحكم عليها بالصلاح أو الفساد ، بالجودة أو الرداءة هو السياق الذي وردت فيه ؛ لأنه المجال الوحيد الذي يمكن للفظة أن تتحرك فيه ، وتعمل ، وطبيعي أن الكلمة لا تكتسب القيمة إلا وهي تتحرك وتعمل وتؤدي وظيفة ما ، فإن الوظيفة التي تؤديها والعمل الذي تعمله هو الذي يحكم لها أو عليها,, [1] .

كما أن جرس الكلمة وموسيقاها وخصائصها الصوتية لا تظهر إلا من خلال علاقتها بهذا السياق ''فليس هناك كلمة توصف بأنها حسنة في موسيقاها إلا إذا أصابت مكانها اللائق بها من السياق . كما أنها لا تستمد قدرتها الموسيقية من ذاتها ، وإنما من جملة أمور أخرى ، بعضها يتصل بالسياق نفسه وما يضفيه على الكلمة من موسيقى ، وبعضها متصل بتاريخ الكلمة وارتباطاتها ، وما هو مخزون فيها من طاقات أنتجتها التجربة الإنسانية وبثتها في اللفظة فزادت بمعناها خصبًا وحياة,, [2] .

---

[1] د . محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ٢٧٨ .
[2] السابق ص ٣٠٤ .

وكلما ارتبط اللفظ بسياقه واتحد معه ، بحيث لا نستطيع أن نستبدل به غيره وصفناه بأنه فصيح ومناسب لذلك السياق اللغوي الذي يرد فيه ، وهو ما نراه متحققًا تحققًا لا مثيل له في النص القرآني في واحدة من بين صور متعددة من صور المناسبة التي تتحقق في ذلك النص المعجز . فما طبيعة تلك المناسبة وأشكالها المختلفة ؟ وما أنواع تلك المناسبات المتحققة في القرآن الكريم والفرق بينها ؟ هذا ما سيحاول البحث الإجابة عنه في الصفحات الآتية .

المناسبة وأنواعها في القرآن الكريم

مفهوم المناسبة وفائدتها

المناسبة في اللغة المُشاكلة ، كذا قال صاحب لسان العرب [١] ، وهو ما قاله أيضًا صاحب القاموس المحيط [٢] ، وزاد صاحب تاج العروس الأمر تفصيلاً قائلاً : ''من المجاز : المناسبة المشاكلة ؛ يقال : بين الشيئين مناسبة وتناسب أي مشاكلة وتشاكل وكذا قولهم لا نسبة بينهما وبينهما نسبة قريبة,, [٣] .

ويعرّف الزركشي المناسبة بقوله : ''والمناسبة في اللغة : المقاربة ، وفلان يناسب فلانًا ، أي يَقْرُب منه ويشاكله ، ومنه النسيب : الذي هو القريب المتصل ، كالأخوين ، وابن العم ، ونحوه ؛ وإن كانا متناسبين بمعنى رابطٍ بينهما ، وهو القرابة . ومنه المناسبةُ في العلّة في باب القياس ، الوصفُ المقاربُ للحكم ، لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكْم ،ولهذا قيل : المناسبة أمر معقول ، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول,, [٤] .

هذا هو المعنى اللغوي للمناسبة ، وهو ما يمكن أن يقال في المعنى الاصطلاحي، فالمناسبة اصطلاحًا المقاربة ، أو المشاكلة أو الارتباط، ويكون ذلك بين الألفاظ من حيث البنية أو الدلالة ، أو بين المعاني الكلية الحاصلة من التأليف ، أو بين الألفاظ والسياقات التي ترد فيها من حيث الشكل أو المعنى ، وبتعبير آخر هي وضع الكلام موضعه الذي يليق به حتى يتم له الحسن والبلاغة ، وهو ما يشير إليه صاحب منهاج البلغاء بقوله :

---

[١] ابن منظور : لسان العرب (نسب) .
[٢] الفيروزابادي : القاموس المحيط (نسب) .
[٣] الزبيدي : تاج العروس (نسب) .
[٤] البرهان في علوم القرآن ١ / ٦١ .

''وإنما الوضع المؤثر وضع الشيء الموضع اللائق به ، وذلك يكون بالتوافق بين الألفاظ والمعاني والأغراض من جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلقًا ومقترنًا بما يجانسه ويناسبه ويلائمه من ذلك . والوضع الذي لا يؤثر يكون بالتباين بين الألفاظ والمعاني والأغراض من جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلقًا ومقترنًا بما يناقضه ويدافعه وينافره,, [1] .

وفائدة هذه المناسبة : ''جعل أجزاء الكلام بعضُها آخذًا بأعناق بعض ؛ فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء,, [2] .

فالمناسبة إذًا تعمل على ربط الكلام بعضه ببعض من جهة الألفاظ أو المعاني ، أو من جهتهما جميعًا ، بحيث لا نستطيع أن نستبدل أجزاء أخرى من الكلام بأجزائه الموجودة فيه أو تغيير وضعه الذي جاء عليه ، وإن حدث ذلك تنافر الكلام شكلاً ومعنى .

أنواع المناسبة في القرآن الكريم

للمناسبة في القرآن الكريم أنواع عديدة، فمنها ما يتعلق بالدلالة المحضة الحاصلة من تأليف الكلام على مستوى السور والآيات ، ومنها ما يتعلق بالألفاظ مفردة أو مركبة ، من حيث الشكل أو المعنى داخل السياق . ويمكن تقسيم هذه الأنواع كما يلي:-

(أ) المناسبة المتعلقة بالدلالة الحاصلة من التأليف

تنقسم هذه المناسبة إلى نوعين : مناسبة بين السور ومناسبة بين الآيات .

---

[1] حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ص ١٥٣ .

[2] الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١ / ٦٢ .

(١) المناسبة بين السور

ألّف في هذا الموضوع علماء عديدون ، كالبقاعي ، فقد وضع كتابًا أسماه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وهو في الأصل كتاب تفسير ضمّنه الكلام على بعض أنواع المناسبة كالتي تكون بين السور ، أو بين الآيات ، أو بين الألفاظ والسياق الذي ترد فيه . كما ألف أيضًا في هذا النوع من المناسبة السيوطي ، إذْ أفرد له كتابًا خاصًا أسماه (أسرار ترتيب القرآن) لم يضمّنه نوعًا آخر من أنواع المناسبة .

ومن صور تلك المناسبة ــ على سبيل المثال ــ ما ذكره البقاعي من مناسبة سورة البقرة لفاتحة الكتاب . يقول : ''وأما مناسبة ما بعد ذلك للفاتحة فهو أنه لما أخبر سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم الذي هو غير طريق الهالكين أرشدهم في أوّل التي تليها إلى أن الهدى المسؤول إنما هو في هذا الكتاب ، وبين لهم صفات الفريقين الممنوحين بالهداية حثًا على التخلق بها والممنوعين منها زجرًا عن قربها . فكان ذلك من أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة ، لأنها سيقت لنفي الريب عن هذا الكتاب ، ولأنه هدى للمتقين، ولوصف المتقين وما يجازَوْن به بما في الآيات الثلاث ، ولوصف الكافرين الذين لا يؤمنون لما وقع من الختم على حواسّهم والحتم لعقابهم ليُعلم أن ما اتصف به المتقون هو الصراط المستقيم فيُلزَم ، وما اتصف به مَنْ عَدَاهم هو طريق الهالكين فيُترَك ، وفي الوصف بالتقوى بعد ذكر المغضوب عليهم والضالين إشارة إلى أن المقام مقام الخوف,, [١] .

(٢) المناسبة بين الآيات

اهتمّ بهذه المناسبة بعض المفسرين ، كأبي حيان الأندلسي في تفسيره الكبير (البحر المحيط) إذ لم يكد يترك موضعًا يحتاج إلى توضيح هذه المناسبة إلا ووضّحه

---

[١] نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ١ / ٣٢ .

وأظهر مناسبة الآية لما قبلها ، كما اهتم به أيضًا البقاعي في كتابه السالف ذكره وغيرهما من المفسرين .

ومن هذا النوع ما ذكره أبو حيان في قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ (البقرة : ١٩٧) ، قال : ''لما أمر الله تعالى بإتمام الحج والعمرة ــ وكانت العمرة لا وقت لها معلومًا ــ بين أن الحج له وقت معلوم ، فهذه مناسبة هذه الآية لما قبلها,, [١] .

هذه إشارة موجزة إلى المناسبة المتعلقة بالسور والآيات ، وهي تأتي ــ كما نرى ــ على مستوى النص ، وتتضح من خلال ما يقوم به المفسرون من إيجاد العلاقة الدلالية بين أجزاء النص القرآني سوره وآياته ، وتعتمد على ربط أجزائه ربطًا دلاليًا على مستوى الوحدات الكبرى المتمثلة في الجمل والسياقات لا الوحدات الصغرى المتمثلة في المفردات . وهو يشابه إلى حد بعيد ما ينادي به المحدثون من علماء النص من النظر إليه (أي النص) نظرة كلية تتناول جميع أجزائه وعلاقة تلك الأجزاء بعضها ببعض على المستويين الشكلي والدلالي ، ويظهر ذلك من خلال تعريفهم له بأنه ''جمل متتابعة يرتبط بعضها ببعض سياقيًا ارتباطًا ملائمًا . وينبغي أن يبرز النص الخصائص التي تربطه بوصفه وحدة كلية من حيث الشكل (COHESION) والمضمون (COHERENCE),, [٢] . وبعبارة أخرى يمكن فهم النصوص على أنها ''تتابع منتظم من قضايا يرتبط بعضها ببعض عن طريق تداخلها، حيث لا تقتصر العلاقات على القضايا المتجاورة فحسب ، بل يتم التوصل إلى إيجاد روابط مواكبة أيضًا بين وحدات دلالية أكبر في النص,, [٣] .

---

[١] البحر المحيط ٢ / ٩٣ .

[٢] John Lyons : Linguistic Semantics P. 262 - 263.

[٣] فولفجانج هاتية من وديتر فيهفيجر : مدخل إلى علم اللغة النصي - ترجمة فالح بن شبيب العجمي ص ٤٨ .

وقد عني علم النص والمهتمون به بالترابط النصي ، وهو ما نراه عند المفسرين من خلال حديثهم عن المناسبة ، ويعد ذلك الترابط خاصية دلالية للخطاب تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى ، ويشمل هذا الترابط عندهم كلاً من الترابط النحوي أو الشكلي (COHESION) والترابط المعنوي أو التماسك الدلالي (COHERENCE) ويمكننا القول إن ''ثبات النص بوصفه نظامًا يتم من خلاله استمرارية الأحداث CONTINUITY OF OCCURRENCE . وتقوم فكرة الاستمرارية هنا على أساس أن أحداث النص المختلفة واستخداماتها في المواقف المتغايرة يرتبط بعضها ببعض من وجهة النظر المعرفية COGNITIVE TERMS ؛ كل حدث بمثابة خطوة أساسية للوصول إلى الحدث الآخر . ومن أبرز الأمثلة على ذلك النظام التركيبي للغة SYSTEM OF SYNTAX الذي يفرض نماذج تنظيمية على البناء السطحي للنص SURFACE TEXT ، واستخدام مصطلح الترابط الشكلي COHESION يهدف إلى تأكيد دور النظم SYNTAX في تحقيق التواصل اللغوي,, (١) وهو نفسه ما يهدف إليه استخدام مصطلح الترابط المعنوي COHERENCE الذي ''يعنى بترابط محتوى النص أكثر من اعتنائه بترابطه الشكلي ، ويظهر من خلال ارتباط وحدة النص بما سبقها وما يلحقها من وحدات,, (٢) .

(ب) المناسبة المتعلقة بالألفاظ

يتأنق القرآن الكريم في اختيار ألفاظه ، فيضع كل كلمة في موضعها اللائق بها ، فتأتي مستقرة في مكانها غير قلقة متلائمة مع ما يجاورها من ألفاظ ومناسبة للسياق الذي ترد فيه . ومن خلال هذا الاختيار الدقيق للألفاظ تأتي كل آية حافلة بالفكرة العميقة والمعنى البعيد . ولما بين الكلمات من فروق، ولما يبعثه بعضها في النفس من إيحاءات

---

(١) Robert De Beaugrande and Wolfgang Dressler : Introduction to Text Linguistics P.48 .

(٢) John Lyons op . cit p . 264

خاصة ، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ (البقرة : ١٠٤) .

وقد فطن الجاحظ إلى هذه الفكرة ، فقال : "وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحقُّ بذلك منها . ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر . والناس لا يذكرون السّغَب ، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامّة وأكثرُ الخاصّة لا يَفصِلون بين ذِكر المطر وبين ذكر الغيث . ولفظُ القرآنَ الذي عليه نَزَل أنه إذا ذَكَرَ الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين . ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ، ولا السمع أسماعا ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال" [1] .

فلابد إذًا في نظم القرآن من تخير الألفاظ التي تتلاءم مع الموضع الذي تأتي فيه "ثم استعمال أمسِّها رحمًا بالمعنى وأفصحها في الدلالة عليه ، وأبلغها في التصوير ، وأحسنها في النسق ، وأبدعها سناءً ،وأكثرها غناءً وأصفاها رونقًا وماءً ، ثم اطّراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل ، ثم إحكامه على أن لا مراجعة فيه ولا تسامح ، وعلى العصمة من السهو والخطأ في الكلمة وفي الحرف من الكلمة حتى يجيء ما هو كأنه صيغ جملة واحدة في نفس واحد وقد أديرت معانيها على ألفاظ في لغات العرب المختلفة فلبستها مرة واحدة" [2] .

---

[1] البيان والتبيين ١ / ٢٠ .

[2] مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٩٢ .

فالقرآن يختار ألفاظه بعناية فائقة اختيارًا تتنوع من خلاله المناسبة المتعلقة باللفظ ، وتتمثل هذه الأنواع فيما يلي:-

(١) المناسبة الصوتية

''تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض في المتصل من الكلام . فحين ينطق المرء بلغته نطقًا طبيعيًا لا تكلف فيه ، فإن أصوات الكلمة الواحدة قد يؤثر بعضها في البعض الآخر ، كما يلحظ أن اتصال الكلمات في النطق المتواصل قد يخضع أيضًا لهذا التأثر,, [١] . ويؤدي هذا التأثر إلى تغير بعض الأصوات ، بحيث تتماثل مع غيرها ، ويمكن تعريف هذه المماثلة بأنها ''التعديلات التكيفية للصوت بسبب مجاورته — ولا نقول ملاصقته — لأصوات أخرى وهي كما عرفها بعض آخر :تحول الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلاً جزئيًا أو كليًا,, [٢] . وهذه المماثلة هي نفسها ما يمكن تسميته بالمناسبة الصوتية ، فإن كانت بين أصوات متجاورة تسمى مماثلة تجاورية CONTACT ASSIMILATION ، وإن كانت بين أصوات غير متجاورة تسمى مماثلة تباعدية DISTANT ASSIMILATION [٣] .

ومن تلك المناسبة التي تكون بين صوتين متباعدين ما ذكره السيوطي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ ﴾ (طه : ٦٣) ، يقول : "وظهر لي وجه آخر ، وهو أن الإتيان بالألف لمناسبة﴿ لَسَـٰحِرَانِ يُرِيدَانِ ﴾كما نوّن (سلاسلاً) لمناسبة (أغلالاً) (الإنسان : ٤) و(من سبأ) لمناسبة (بنبإ) (النمل : ٢٢) ,, [٤] .

---

[١] د . ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ص ١٧٨ .

[٢] د . أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ص ٣٢٤ .

[٣] السابق ص ٣٢٥ .

[٤] الإتقان في علوم القرآن ٢ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ وتنوين (سلاسل) هو على قراءة نافع وعاصم في رواية أبي بكر والكسائي . انظر في ذلك كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٦٦٣ .

وتتعدد مظاهر هذه المناسبة في القرآن الكريم بين الألفاظ ، ولعل أشهر مظهر لها الفاصلة القرآنية ؛ لأن طبيعة الفاصلة أنها إتيان بخواتم الآيات طبقًا لاختيار أسلوبي مقصود ، بحيث يكون ثمة مناسبة صوتية بين رؤوس الآيات .

ومن أجل تحقيق المناسبة في هذه الفواصل القرآنية قد يعدل عن الأصل ، فيتقدم ما حقه التأخير، ويتأخر ما يجب أن يقدم ، ويحذف ما ينبغي أن يذكر والعكس أو يزاد حرف إلى آخر ذلك. يقول الزركشي : ''واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدًا ، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيرًا عظيمًا ، ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع : أحدها : زيادة حرف لأجلها ، ولهذا ألحقت الألف بـ (الظنون) في قوله تعالى:﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ (الأحزاب :١٠) ، لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف ، فزيد على النون ألف لتساوي المقاطع ، وتناسب نهايات الفواصل,, [1] .

وقد ذكر السيوطي في هذا الصدد أن شمس الدين ابن الصائغ قد ألف كتابًا اسماه (إحكام الراي في أحكام الآي) تتبع فيه أحكام هذه المناسبة ، يقول ناقلاً عنه : ''اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية ، يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول . قال : وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاةً للمناسبة فعثرت منها على نيفٍ عن الأربعين حكمًا,, [2] ثم أخذ يعدد هذه الأمور التي بلغت الأربعين موضعًا ، وكلها تمثل تلك المناسبة الصوتية التي يحرص عليها الأسلوب القرآني لإيقاع التناسق أو النغم الموسيقي بين الفواصل القرآنية .

---

(1) البرهان في علوم القرآن ١ / ٩١ .

(2) الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٩٦ .

ولعل هذا النسق الموسيقي الذي يعدل التعبير القرآني من أجله عن الأصل في بعض الأحيان أمر ضروري لما له من وقع شديد في النفس ، بل إنه ''يوشك أن يكون مناط الإعجاز الذي يتجه به القرآن إلى التأثير في نفوس سامعيه ، سواء أفهموا معانيه، وأحاطوا بأسرارها و دقائقها أم لم يفهموا أو يحيطوا بشيء منها,, (١) .

(١) المناسبة اللفظية

قسم ابن أبي الإصبع المصري المناسبة إلى لفظية ومعنوية (٢) ، ثم قسمَ الأولى التي يعني بها ''توخي الإتيان بكلمات متزنات,, (٣) — إلى ضربين تامة وغير تامة (٤) . فالتامة أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴾ (الطور : ١- ٤) . وغير التامة هي التي ليست بمقفاة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ (ق : ١ — ٢) .

أما ابن سنان فيجعلها شرطًا من شروط الفصاحة ، ويقسمها هو أيضًا إلى ضربين : مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة ، ومناسبة بينهما من طريق المعنى (٥) . فأما المناسبة بين الألفاظ في الصيغ فمنها السجع والازدواج (٦) ، كقوله تعالى : ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ

(١) د. محمود نحلة : لغة القرآن في جزء عمّ ص ٤٣٩ .

(٢) تحرير التحبير ص ٣٦٣ .

(٣) السابق ص ٣٦٧ .

(٤) السابق ص ٣٦٧ .

(٥) سر الفصاحة ص ١٦٢ .

(٦) سر الفصاحة ص ١٦٣ .

ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر : ١ ـ ٢) إذ بين لفظتي القمر ومستمر سجع وازدواج معًا .

ولعل ابن أبي الإصبع أكثر دقة من ابن سنان ، إذ لم يحدد الأمر في السجع والازدواج كما فعل الأخير وإنما اكتفى بتحديد الصفة التي ينبغي أن تكون عليها هذه المناسبة من حيث مجيء الألفاظ على زنة معينة وكونها مقفاة أو غير مقفاة ، فترك بذلك مجالاً لإدخال بعض أنواع الجناس التي يتحقق فيها ذلك الشرط ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ (الأنعام : ٢٦) ، وقوله : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل : ٢٢) .

غير أن التعبير القرآني قد يترك هذه الناحية الشكلية بين الألفاظ تحقيقًا لدلالة معينة لا تتأتى بالمحافظة عليها ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ (يوسف: ١٧) ؛ إذ المعنى وما أنت بمصدق لنا فعدل عن لفظ (مصدق) إلى لفظ (مؤمن) ، فيقال : ما الحكمة في العدول عن الجناس ، وهلا قيل : (وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين) فإنه يؤدي معنى الأول مع زيادة رعاية التجنيس اللفظي ؟ . يقول الزركشي مجيبًا عن هذا التساؤل : ''والجواب : أن في (مؤمن لنا) من المعنى ما ليس في (مصدق) ، وذلك أنك إذا قلت : (مصدق لي) فمعناه . قال لي : صدقت ، وأما (مؤمن) فمعناه مع التصديق إعطاء الأمن ، ومقصودهم التصديق وزيادة ، وهو طلب الأمن ، فلهذا عدل إليه,, [1] .

---

[1] البرهان في علوم القرآن ٣ / ٥١٠ .

وأما المناسبة بين الألفاظ من طريق المعنى فإنها ــ كما يرى ابن سنان ــ تتلسب من وجهين : [١] أحدهما أن يكون معنى اللفظين متقاربًا ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢١٨) فالمغفرة والرحمة بينهما تقارب في المعنى .

والثاني أن يكون أحد المعنيين مضادًا للآخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (النجم : ٤٣ ــ ٤٤) .

وقد يعدل التعبير القرآني عن هذه المناسبة الظاهرة بين الألفاظ في المعنى إلى مناسبة خفية لا تظهر إلا بالتدقيق والتدبر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (طه : ١١٨ــ ١١٩) فالذي يقتضيه المعنى المناسب في الظاهر أن يقال : أن لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ وأنك لا تعرى فيها ولا تضحى ، فيقرن الجوع بالظمأ ، والعري بالضحى . ولكن الأسلوب القرآني عدل عن ذلك إلى ما جاء في الآية لتحقيق مناسبة أخرى يبينها ابن القيم ، إذ يقول : ''فقد تقدم في المناسبة أنها تارةً يُقصد فيها مناسبة اللفظ والمعنى ، وتارةً يراعى فيها مناسبة اللفظ فقط ، وتارةً يراعى فيها مناسبة المعنى ، وهذه الآية منه ، وهو الذي أُريد لأن الجوع خلو الباطن عن الغذاء ، والتعري خلو الظاهر عن الثياب ، والظمأ احتراق الباطن بالحرارة ، والضحى احتراق الظاهر ، فظهرت المناسبة من حيث المعنى فيها'' [٢] .

وقبل أن أدع الكلام عن المناسبة اللفظية ، أود أن أشير إلى ما أسماه بعض البلاغيين إيهام التناسب ، إذ يأتي لفظ ذو معنيين مختلفين يتناسب أحدهما مع غيره .

---

[١] سر الفصاحة ص ١٨٨ .

[٢] الفوائد المشوق ص ١٧٤ .

والمراد المعنى الثاني ، ومن ذلك لفظ النجم في قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ (الرحمن : ٥ – ٦) . يقول السبكي في توضيح سبب هذا الإيهام في تلك الآية : "وسُمّيَ إيهام التناسب لأنه لما ذُكر لفظ الشمس والقمر ذُكر النجم والمراد به على أحد القولين النبات ، فذكر النجم بعد ذكر الشمس والقمر يوهم التناسب ، لأن النجم أكثر ما يطلق على نجم السماء المناسب للشمس والقمر بكونه في السماء فهو كما تقدم في إيهام التضاد لكونه مراعاة النظير في اللفظ لا المعنى" [١] .

(٣) المناسبة السياقية

وأعني بها المناسبة المتعلقة باللفظ من جهة السياق ، وتنقسم بحسب انقسام السياق إلى حالي (اجتماعي) ومقالي (لغوي) إلى ما يلي:-

(أ) المناسبة بين اللفظ وسياق الحال

يتناسب اللفظ في بعض صوره في القرآن الكريم مع سياق الحال الذي يرد فيه ويكون ذلك على مستويين : مستوى الجملة أو اللفظ المركب ومستوى اللفظ المفرد .

أولاً : مستوى اللفظ المركب

قد تتناسب الجملة اسمية أو فعلية مع سياق الحال الذي ترد فيه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ (البقرة : ١٤) . يقول ابن الأثير في تعليقه على هذه الآية : "فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بـ (إنّ) المشددة لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدقٍ ورغبةٍ ووفور نشاطٍ ، فكان ذلك متقبلاً منهم ، ورائجًا عند إخوانهم ، وأما الذي خاطبوا

---

[١] عروس الأفراح ٤ / ٣٠٥ .

به المؤمنين ، فإنما قالوا تكلفًا وإظهارًا للإيمان خوفًا ومداجاة ، وكانوا يعلمون لو قالوا بأوكد لفظ وأسدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجًا ظاهرًا لا باطنًا ، ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ، فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين (آمنا) وفي خطاب إخوانهم(إِنَّا مَعَكُمْ) [١] .

فمراعاة الحالة التي عليها المتكلمون والمخاطبون في هذه الآية هو من قبيل الاهتمام بسياق الحال أو السياق الاجتماعي الذي يناسبه مجيء الجملة الفعلية في الحالة الأولى والاسمية في الحالة الثانية .

ثانيا : مستوى اللفظ المفرد

وقد يتناسب اللفظ المفرد مع سياق الحال أو المقام الذي يرد فيه ، ومن ذلك استعمال القرآن للفظ (أكل) دون (افترس) في قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ (يوسف : ١٧) . فالأصل أن يقال افترسه الذئب لأن الافتراس من فعل الذئاب ، فعدل عنه التعبير القرآني إلى لفظ أكل ، ويعلل الخطّابي هذا الأمر بقوله : ''فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دق لعنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجْزائه وأعضائه . فلم يترك مفصلاً ولا عظمًا ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل ، على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع,, [٢] .

---

[١] المثل السائر ٢ / ٥١ .

[٢] بيان إعجاز القرآن ص ٤١ .

(ب) المناسبة بين اللفظ و السياق اللغوي

المقصود بهذه المناسبة أن يفضي السياق إلى استخدام لفظ بعينه أو تركيب ما ، دون غيره لوجود علاقة ما أو ارتباط معين دلالي أو غير دلالي بين هذا اللفظ مفردًا أو مركبًا وذلك السياق . وتأتي أيضًا على مستويين من جهة اللفظ المركب (الجملة) ، وهو قليل جدًا واللفظ المفرد ، وهو الأكثر انتشارًا .

أولاً : مستوى اللفظ المركب

من ذلك ما ذكره السكاكي في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٨) ، يقول : ''وما تسمع من تفاوت الجملتين الفعلية والاسمية ، تجددًا وثبوتًا ، هو يطلعك على أنه حين ادعى المنافقون الإيمان بقولهم : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ جائين به جملة فعلية على معنى أحدثنا الدخول في الإيمان وأعرضنا عن الكفر ليروج ذلك عنهم ، كيف طبق المفصل في رد دعواهم الكاذبة قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ حيث جيء به جملة اسمية ومع الباء، وعلى الباء وعلى تفاوت كلام المنافقين مع المؤمنين ومع شياطينهم فيما يحكيه جل وعلا عنهم وهو : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ ﴾ (البقرة : ١٤) تفاوتًا إلى جملة فعلية وهي آمنّا ، وإلى اسمية ومع إنّ ، وهي : إنا معكم ؛ كيف أصاب شاكله الرمي !,, [1] .

فحديث السكاكي هنا عن مقابلة التعبير القرآني بين الجملة الفعلية (آمنا) في الإخبار عن المنافقين ، والجملة نفسها في خطابهم للذين آمنوا ثم المقابلة بين الجملة

---

[1] مفتاح العلوم ص ٢١٨ .

الاسمية المؤكد نفيها بالباء في فاصلة الأولى ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، والاسمية المؤكدة بـ (إنّ) (إِنَّا مَعَكُمْ) في الآية الثانية ، هو حديث عن السياق اللغوي وما يناسبه من تفاوت الجمل بين الاسمية والفعلية .

ثانيًا: مستوى اللفظ المفرد

هذا النوع أكثر الأنواع شيوعًا في القرآن الكريم ، إذ قد يرتبط اللفظ بما قبله أو ما بعده من الكلام أو ما يُعرف بالسياق اللغوي ارتباطًا وثيقًا دلاليًا أو غير دلالي . هذا الارتباط يمكن أن نسميه بالمناسبة ، وتنقسم إلى قسمين ، وهما :-

(١) المناسبة بين اللفظ ودلالة السياق اللغوي

هذا القسم يرتبط فيه اللفظ بالسياق اللغوي ارتباطًا دلاليًا ، بحيث يتشابك في معناه أو بنيته أو الوضع الذي جاء عليه مع ذلك السياق ، ومن ذلك مجيء أحد الألفاظ مقدمًا في موضع ومؤخرًا في موضع آخر لعلة دلالية يقتضيها السياق، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (يونس : ٦١) ، إذ تقدّم لفظ الأرض على السماء على الرغم من مجيئه مؤخرًا في مواضع أخرى . يقول الزمخشري معللا ذلك التقديم : "فإن قلتَ : لمَ قُدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله في سورة سبأ : ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؟ (سبأ : ٣) قلت : حق السماء أن تُقدّم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قوله: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ لاءَمَ ذلك أن قدّم الأرض على السماء" [١] .

---

[١] الكشاف ٢ / ٣٥٥ .

ومن ذلك أيضًا مجيء لفظ له دلالة معينة في موضع ، ثم مجيء آخر قريب منه في المعنى في موضع مشابه ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١١ـ١٣) ، حيث جاءت فاصلة الأولى (يَشْعُرُون) والثانية (يَعْلَمُون) .

ويعلل أبو السعود ذلك الاختلاف في تفسيره للآية الأخيرة بقوله : ''وتفصيل هذه الآية الكريمة بـ (لايَعْلَمُون) لِمَا أنه أكثر طباقًا لذكر السَفه الذي هو فنّ من فنون الجهل ، ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوط بالتمييز بين الحق والباطل ، وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال . وأما النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسدًا . فأمر بديهي يقف عليه من له شعور ، ولذلك فُصلت الآية الكريمة بـ ﴿ لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ,,[1] . فناسب اللفظ الدال على الشعور معنى السياق الذي ورد فيه ، كما ناسب اللفظ الدال على العلم معنى السياق الذي جاء في خاتمته .

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) ١ / ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) المناسبة بين اللفظ وبنية السياق اللغوي

إنما أعني ببنية السياق هنا ذلك النظام أو النسق الذي يسير عليه السياق ، بحيث إذا اختلّ نفر منه السمع والذوق السليم ، وغالبًا ما يحدث هذا النظام أو ما يمكن تسميته بالإيقاع المنتظم في القرآن الكريم بسبب الفواصل القرآنية . فقد يحدث فيها ما يخالف الأصل للمحافظة على هذا الإيقاع الذي له تأثيره البالغ في النفس . ونرى ذلك واضحًا في قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ (طه : ٦٦- ٦٨) .

فجاء التعبير القرآني بالفاعل (مُوسَى) مؤخرا في اللفظ ليحافظ على الإيقاع الذي تسير عليه الآيات ؛ إذ لو غير النظم ، فقال : (قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس موسى خيفةً في نفسه قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) . فلا شك أنه يتنافى مع الذوق السليم ، ويحدث قلقًا في نفس السامع ، ولوقف أمامه من يسمعه موقف المتردد الذي يريد أن يتناوله ليعيده على النحو الذي نزل به .

وليست هذه الفواصل وما يحدث فيها من عدول محافظةً على الإيقاع مجرد توافق ألفاظ وأوزان تحدث إيقاعًا معينًا ، بل لهذه الفواصل علاقة وثيقة بما قبلها من نص في الآية ، وقد أبرز ذلك العلماء لدى تعريفهم للفاصلة ، فقال الرماني : "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني" [1] .

فلو رجعنا إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (طه : ٦٧) لوجدنا أن التعبير القرآني آثر تقديم شبه الجملة (فِي نَفْسِهِ) ليجاور الفعل ، ثم تلاه (خِيفَةً)

---

[1] النكت في إعجاز القرآن ص ٩٧ .

للإشارة إلى أن الشعور بالخوف ظل كامنًا في النفس لم يتجاوزها إلى الظاهر ، وهو أمر في غاية المناسبة للمقام الذي كان فيه موسى ، فالمقام مقام تحدٍّ يحتاج إلى الثقة التامة لا إلى إظهار الخوف، لاسيّما أنه في جانب الحق، فاستوجب الأمر أن تكون لديه ثقة كالتي لدى خصومه ، و يظهر ذلك جليًا في تخييرهم إياه بين أن يلقي أو أن يكونوا هم الملقين ، فالأمر لديهم سواء، إذ الواثق من نفسه لا يبالي إن كان هو البادئ أو المختتم ، بل إنهم أبدوا رغبة في أن يكونوا هم البادئين إمعانًا في ثقتهم بأنفسهم ، وأن النصر حليفهم ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى على لسانهم : ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ (طه : ٦٥) ، فاستدعى ذلك كله أن يتقدم ما حقه التأخير ويتأخر ما حقه التقديم ليصبح فاصلة ، ويتناسب في موقعه المتأخر مع المعنى الذي يقتضيه المقام .

ويذهب الدكتور تمام حسان في حديثه عن الفواصل إلى أن الغرض منها جمالي صرف ، وإن توافقت في بعض الأحيان مع المعنى ، يقول بعد تحليله لبعض الفواصل : ''ومعنى هذا الذي تقدم أن الفاصلة القرآنية لا تدلّ بالضرورة على تمام المعنى ، ومن ثم تصبح وظيفتها في القرآن غير نحوية و لا دلالية ، فإذا لم يكن للفاصلة غرض نحوي ولا دلالي، فماذا يكون الغرض منها إذًا ؟ أغلب الظن أن الغرض منها جمالي صرف وإن توافقت أحيانًا مع تمام المعنى ؛ فالذي يبدو للوهلة الأولى عند النظر إلى الفاصلة أنها قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآني كما ارتبط الإيقاع بذلك من قبلها,, [١] .

وهو على صواب في أن للفاصلة تلك القيمة الجمالية التي ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآني ، ولكنه ــ كما أرى ــ جانبَه الصواب عندما قَصَر قيمة الفاصلة على القيمة الجمالية ، وأن توافقَها مع المعنى ربما لا يكون مقصودًا ، فالإيقاع الموسيقي أو الجمال الفني الذي تحققه الفاصلة ليس مقصودًا لذاته، بل إن ذلك يأتي متفقًا مع المعنى ، وإن خفي ذلك علينا في بعض الأحيان . والقرآن لا يهتم بالصنعة اللفظية على

---

[١] البيان في روائع القرآن ص ٢٨٥ .

حساب المعنى، أو يأتي بالفواصل لمجرد تحقيق هذا الجمال أو الإيقاع الموسيقي . يقـول الزمخشري : ''لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مـع بقـاء المعـاني علـى سردها ، على المنهج الذي يقتضيه حُسْن النظم والتئامه ، فأما أن تهمـل المعـاني ويهـتمّ بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة ,, (١) .

فهو بذلك الرأي على حد قول أحد الباحثين المحدثين ''قد خـالف كـل علمـاء البلاغة الذين نزّهوا الفاصلة القرآنية عن السجع ، لأن السجع إما أن يأتي سـهلاً وتابعـًا للمعاني ، وإما أن يكون متكلفًا يتبعه المعنى . والقرآن لم يرد فيه إلا ما هو مـن القسـم الأول لعلوه في الفصاحة ، وعلى كلام أستاذنا الدكتور تمام أن الفاصلة لا تدل بالضرورة على تمام المعنى فهي مخالفة صريحة لما في القرآن من الفواصل لأنها ـ تبعًا لكلامه ـ يكون فيها تكلّف والقرآن ليس فيه تكلف,, (٢) .

فالفواصل في القرآن الكريم ''لها قيمتها في إتمام المعنى ، وهي مرتبطة بآياتها تمام الارتباط ، ولها أثرها الموسيقي في نظم الكلام ، ولهذه الموسيقية أثرها في الـنفس ، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى المؤثرة ومن أجلها حدث في نظم الآي ما يجعل هـذه المناسبة أمرًا مرعيًا,, (٣) .

هذه هى أنواع المناسبة في القرآن الكريم وما تنقسم إليه ، وقد آثـرت عرضـها عرضًا موجزًا لتوضيح الفرق بينها ، وللوصول إلى ذلك النوع الأخير الذي يتمثـل فـي المناسبة بين اللفظ المفرد والسياق اللغوي أو اللفظي والذي هو مناط هذا البحث .

---

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٣١٣ ، ٣١٤ . وهذا الكلام ينقله السيوطي عن الزمخشري كما يذكر من كشافه القديم .

(٢) د . كمال الدين المرسي : فواصل الآيات القرآنية ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) د . أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ص ٨٧ .

الفصل الأول

المناسبة بين معنى اللفظ المعجمي والسياق اللغوي

يختار القرآن ألفاظه بعناية كبيرة ، ويضع كل كلمة موضعها اللائق بها الذي يتناسب مع معناها أشد التناسب "ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كلاً حيث يؤدي معناه في دقة فائقة ، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خُلقت له تلك الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها ، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء ، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفًا ، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدًا" [1] .

ولما بين هذه الألفاظ من اختلافات دقيقة في المعاني دعا الأسلوب القرآني إلى عدم استخدام لفظ مكان غيره ، فقال : ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ (البقرة : ١٠٤) ، وقال أيضًا : ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ (الحجرات : ١٤) .

وقد حاول بعض علماء اللغة والبلاغة توضيح أن الألفاظ لا تتساوى في دلالتها ، وأن لكل لفظ معناه الخاص الذي يميزه من غيره ، ويحول بينه وبين أن يأتي في موضعه ، وأن الكلام البليغ هو الذي يراعي تلك الفروق الدقيقة، فيستخدم كل لفظ في موضعه المناسب له . يقول الخطابي : "ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ؛ ذلك أن في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، كالعلم

---

[1] د. أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ص ٥٧ .

والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، وبلى ونعم ، وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات ، والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها,, [١] .

فالألفاظ على هذا ليس بينها ترادف تام مهما بدا لنا في الظاهر أنها تتطابق في معانيها ، بل بينها فروق دقيقة تجعلها غير متطابقة ، وغاية ما يمكن أن توصف به أنها متقاربة المعاني ، وهو ما يذهب إليه علماء اللغة المحدثون ؛ إذ يرون ''أن معنى كل لفظة يمكن أن يحلل إلى عناصر دلالية ، كل عنصر منها يمثل جزءًا من دلالة الكلمة ، وأطلقوا على هذه العناصر أو الوحدات الدلالية مصطلح SEMEME ، وهذه الوحدة الدلالية ترتبط مع وحدات أخرى لكي تكوّن معًا دلالة لفظ ما ، و هي تساوي الفونيم PHONEME على المستوى الصوتي في التحليل البنيوي للكلام ، وفي مقابل الوحدة الدلالية يستخدمون مصطلح الوحدة المعجمية LEXEME للدلالة على الكلمة ، فإذا أردنا أن نعبر مثلًا عن العلاقات الدلالية بين مجموعة الكلمات المترادفة لنفرق بينها ، قلنا أن الوحدات المعجمية LEXEMES يمكن أن ترتبط بوحدة دلالية واحدة ، وهنا نجد أنه من الصعب إثبات التطابق التام بين الكلمات المترادفة ؛ لأن ذلك يعني أن الوحدات المعجمية تتطابق تمامًا مع الوحدات الدلالية ,, [٢] .

فإذا ما التأم لفظ بجميع عناصره الدلالية مع السياق اللغوي الذي يرد فيه التئامًا يحول بينه وبين استبدال آخر به تحققت المناسبة بينهما ، وهي التي يسميها ابن أبي الإصبع (المناسبة المعنوية) ، ويفرق بينها وبين (الملاءمة) ، فيقول : ''والفرق بين هذا

---

[١] بيان إعجاز القرآن ص ٢٩ .

[٢] د. حلمي خليل : العربية و الغموض ص ٨٢ .

الضرب وبين الملاءمة أن الملاءمة تكون في مفردات الألفاظ ومعانيها ، وهذا الضرب من المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها „ (١) .

فإذا كانت الملاءمة عنده بين مفردات الألفاظ ومعانيها ـ كما يذكر ـ فإنه أطلق على ذلك في موضع آخر مناسبة معنوية ، ففي تعليقه على قول ابن رشيق :

أصحُّ وَأَقْوَى ما رويناه في النَّدى ... من الخبر المأثُورِ منذ قديم
أحاديث تَرْوِيهَا السيولُ عن الْحَيَا ... عن البَحْرِ عَن جود الأميرِ تميمِ (٢)

يقول ابن أبي الإصبع : "وهذا أحسن شعر سمعته في المناسبة المعنوية ، لأنه ناسب فيه بين الصحة والقوة ، والرواية والخبر المأثور ، والقِدَم مناسبة معنوية إذ هذه الألفاظ يناسب بعضُها بعضًا ، وكذلك ناسب في البيت الثاني بين الأحاديث والرواية والعنعنة مناسبة معنوية أيضًا „ (٣) .

فالمناسبة بين الصحة والقوة ، وبين الرواية والخبر المأثور، وبين الأحاديث والرواية والعنعنة ، هي من قبيل ما أسماه الملاءمة ؛ لأنها بين ألفاظ مفردة ومعانيها ، لا بين جمل مركبة ومعانيها وهذا يجعله خاصًا بالمناسبة المعنوية .

والحق أنهما لفظان لمسمى واحد يطلقان أحيانًا علي الألفاظ المفردة ومعانيها، وأحيانًا على الجمل المركبة ومعانيها ، وأحيانًا أخرى على العلاقة بين الألفاظ والسياق

---

(١) بديع القرآن ص ١٤٦ .

(٢) البيتان من الطويل ـ الطراز ٤٦٩، الإيضاح ٣٩١، الحيا: المطر، و الأمير تميم هو ابن المعز باديس من أمراء الدولة الصنهاجية بأفريقيا (تونس) .

(٣) تحرير التحبير ص ٣٦٦ .

الذي ترد فيه ، إذ قد تسمى هذه العلاقة مناسبة معنوية كما يفعل ابن أبي الإصبع نفسه عند تحليله لبعض فواصل الآيات ومناسبتها لمعنى الآية [١] .

وقد يصفها بعضهم بالملاءمة ، وهو ما نراه عند قدامة في حديثه عن نعت ائتلاف القافية ، إذ يقول في هذا النعت : ''هو مع ما يدل عليه سائر البيت أن تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملاءمة لما مرّ فيه,, [٢] .

وجمع الزركشي بين التسميتين ، فجعلهما لمسمى واحد ، فقال في نهاية تعليقه على قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (هود : ٨٧) : ''فكان آخر الآية مناسبًا لأولها مناسبة معنوية ، ويسميه بعضهم ملاءمة ,, [٣] ، ثم لم يعقب على هذا الكلام فيدل على أنهما عنده بمعنى واحد .

وغالبًا ما تتحقق هذه المناسبة بين معاني الألفاظ والسياق اللغوي في الفواصل القرآنية ، إذ تتعلق معانيها بالمعنى الكلي للآية ، فتأتي متممة له غير زائدة على احتياج الكلام لها . يقول الزركشي : ''اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره ، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله ، فلابد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور ، أولاً وإلا خرج بعض الكلام عن بعض . وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك ، لكن منه ما يظهر ، ومنه ما يُستخرج بالتأمل للبيب,, [٤] .

---

[١] بديع القرآن ص ١٤٥ وما بعدها وتحرير التحبير ص ٣٦٣ وما بعدها .

[٢] نقد الشعر ص ١٦٧ .

[٣] البرهان في علوم القرآن ١ / ١٠٩ .

[٤] السابق ١ / ١٠٧ .

فالفاصلة تأتي لإتمام معنى الكلام متمكنة في موضعها تمكنًا تامًا غير قلقة ومستقرة في مكانها مرتبطًا معناها بمعنى الكلام السابق عليها ، وكأنه تمهيد لها يفضي إليها إفضاءً ، حتى إن الذوق السليم يدركها بطبعه وفطرته ، وهو ما أشار إليه الزركشي في تعريفه لتمكين الفاصلة ، إذ يقول : ''وهو أن يُمهد قبلها ، تمهيدًا تأتي به الفاصلة ممكّنة في مكانها ، مستقرة في قرارها ، مطمئنة في موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، متعلقًا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلقًا تامًا ، بحيث لو طُرِحَتْ اختل المعنى واضطرب الفهم ,, [١] .

وقد تتحقق المناسبة المعنوية بين لفظ ليس بفاصلة والسياق اللغوي ، فيتعلق معنى اللفظ بمعنى الكلام كله ، بحيث يأتي متمكنًا في موضعه ، نحو لفظ الرحمن في قوله تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ (ق : ٣٣) ، إذ الخشية تكون للجبار ، فعدل عنه إلى اللفظ المذكور لمناسبةٍ ، يشير إليها الزمخشري بقوله : ''فإن قلت : كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة ؟ قلت : للثناء البليغ على الخاشي ، وهو خشيته ، مع علمه أنه الواسع الرحمة ، كما أثنى عليه بأنه خاشٍ مع أن المخشي منه غائب,, [٢].

وتظهر هذه المناسبة المعنوية جلية واضحة بمقارنة الألفاظ بعضها ببعض ، سواء أكان ذلك بما يقاربها في المعنى أم ما يبدو مرادفًا لها أم ما يباينها ، فقد يستخدم التعبير القرآني ألفاظًا متقاربة المعاني في مواضع متشابهة أو متتالية ، فتتضح تلك المناسبة بالنظر إلى كل لفظ في موضعه ، أو يأتي بألفاظ مترادفة ، أو يظن فيها الترادف في مواضع مختلفة ، وقد يأتي بألفاظ متباعدة المعاني فيضعها في مواضع متشابهة أو متقاربة ، فيسأل السائل : لماذا جاء بهذا اللفظ هنا وذلك اللفظ هناك ؟ وبالتدقيق والتدبر

---

[١] السابق ١ / ١٠٨ .

[٢] الكشاف ٤ / ٣٩٠ .

والمقارنة بين المواضع المختلفة ومعاني الألفاظ نستطيع أن نصل في كثير من الأحيان إلى تلك المناسبة المعنوية .

وعلى ضوء ما سبق يمكن تقسيم الألفاظ التي يمكن إبراز المناسبة بينها وبين السياق اللغوي ، من حيث معناها المعجمي إلى ألفاظ متقاربة المعاني ، وأخرى يظن فيها الترادف ، وألفاظ متباعدة المعاني ، ونتناولها جميعًا بالتفصيل في المباحث الآتية .

المبحث الأول

المناسبة بين الألفاظ المتقاربة المعاني والسياق اللغوي

كثيرًا ما يأتي القرآن بألفاظ متقاربة المعاني في الآيات المتشابهة أو المتقاربة الموضع ، نحو (يعقلون) و(يتفكرون) ، (يعلمون) و(يشعرون) ، (يؤمنون) و(يوقنون) ... الخ .

وتتبادر إلى الذهن أسئلة عديدة منها لمَ يأتي القرآن بهذه الألفاظ في أكثر من موضع ؟ وهلا جاء بلفظ واحد يعبر عن المعنى المراد بدلاً من اختلاف الألفاظ ؟ وهل يجوز أن يأتي بأحدها في موضع الآخر دون أن يختل المعنى أو يتغير ؟ وإلى أي مدى يتناسب كل لفظ منها في موضعه مع دلالة السياق الذي يأتي فيه ؟. لاشك أن بين الألفاظ فروقًا دقيقة في معانيها تجعل كل لفظ ذا خصائص دلالية معينة لا تتحقق في غيره من الألفاظ ، فالعقل لا يتساوى مع التفكر ، والعلم يختلف عن الشعور ، والفعل يختلف عن الصنع..... الخ وإن كان كل لفظين منها يجمعهما معنى أساسي . والقرآن الكريم عندما يستخدم هذه الألفاظ فإنه يراعي ما بينها من فروق مراعاة شديدة بحيث يأتي بأقرب الألفاظ رحمًا للمعنى وأمسها وأشدّها تناسبًا معه.

ومن دقة اختيار ألفاظ القرآن والتمييز بين معانيها ما نجده من التفرقة في الاستعمال بين ألفاظ (بصير – خبير – عليم) ، فقد وردت في آيات متعددة مختومة بها منها قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٣٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٣٤) ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾(البقرة : ٢٨٣) ، فجاء لفظ بصير في ختام الآية الأولى و''البَصَرُ : حاسّة الرُّؤيةِ

وأبصَرْتُ الشيءَ رأيته ... والبَصَرُ : العِلْمُ . وبَصَرْتُ بالشيء : عَلِمتُهُ,, [1] . و''أبصَرَ الشيءَ : بَصُرَ به وقد بَصُرَ بعمله إذا صار عالمًا به,, [2] فأبصر يقال للحاسة ، وبصر يقال للعلم ''وقلّما يقال بَصُرْتُ في الحاسّة إذا لم يضامُّها رؤية القلب,, [3] .

وبمقتضى هذا المعنى نلحظ العلاقة بين اللفظ وسياقه في هذه الآية ، إذ سبقها الحديث عن أمر الله عز وجل للوالدات أن يرضعن أولادهن حولين كاملين ، وأن يقوم الزوج بالإنفاق على زوجته وأبنائه بالمعروف دون أن يتكلف ما فوق طاقته ، ثم يعلن الله عز وجل الزوجين برفع الإثم عنهما إن أرادا الانفصال عن رغبة منهما ورضا بذلك ، كذلك إذا أراد الأزواج أن يقوم الزوجات بإرضاع أولادهم بعد الانفصال فلا جناح في ذلك إذا أعطوهن ما يرضيهن . يقول عزّ وجلّ : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة : ٢٣٣) .

وهذه أمور تتعلق بما يكون بالقلب من رغبات ، فكان من المناسب أن يأتي في ختام الآية بلفظ (بَصِير) الدال على العلم بالبصر مضمومًا إليه رؤية القلب ، وهو ما يشير إليه البقاعي قائلاً : ''ولما كانت هذه الأحكام أدقّ مما في الآية التي بعدها ، وكثير منها

---

[1] الجوهري : الصحاح (بصر) .

[2] الزمخشري : أساس البلاغة (بصر) .

[3] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (بصر) .

منوط بأفعال القلوب ختمها بما يدل على البصر والعلم ، فقال : (بصير) أي بـالغ العلـم به ، فاعملوا بحسب ذلك,,[١] .

وعلى هذا النحو يأتي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة : ٢٣٧) ؛ إذ تقدمه الحديث عن عفو المطلقات أو تنازلهن عما فرض لهن من أزواجهن أو عفو وليهن ثم ترغيب الله عزّ وجلّ لهن في ذلك العفو ونهيه عن نسيان الفضل ﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ ﴾(البقرة : ٢٣٧) . والعفو والنسيان أمور تتعلق بالقلب وما يميل إليه . فناسَبَ أن تنتهي الآية بلفظ (بَصِير) الدال على ذلك .

وقد نظر أبو حيان في هذا اللفظ إلى معناه المتعلق بحاسة العـين أو المرئيـات مغفلاً الجانب الدلالي المتعلق بالعلم القلبي ، وعلى هذا الأساس حاول إيجاد المناسبة بينـه وبين السياق الوارد فيه . يقول : ''ختم هذه الآية بهذه الصفة الدالة على المبـصرات لأن ما تقدمه من العفو من المطلقات والمطلقين ، وهو أن يدفع شطر ما قبضن أو يكملون لهن الصداق هو مشاهد مرئي ، فناسب ذلك المجيء بالصفة المتعلقة بالمبصرات,,[٢] .

---

[١] نظم الدرر ١/ ٤٤٢ .

[٢] البحر المحيط ٢ / ٢٤٧.

وأما الآية الثانية فقد خُتِمت بلفظ (خَبِير) وخَبَرَ الأمْرَ : علَمه ، ويقال ''من أين خَبَرْتَ هذا الأمر؟ أي من أين علمت . والاسم (الخُبْرُ) بالضم ، وهو العلم بالشيء . و(الخَبِيرُ) العالِم,,[1] . وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران : ١٥٣) ''أي عالم بأخْبارِ أعمالِكُمْ ، وقِيلَ : أيْ عَالِمٌ ببِواطِنِ أمُورِكُمْ,,[2] .

وبمقتضى هذا المعنى يمكن أن تتضح لنا العلاقة بين هذا اللفظ والسياق اللغوي الذي ورد فيه ؛ إذ سبقه الحديث عما تفعله المتوفَّى عنها زوجها في نفسها وهو التعرض للخُطَّاب بالمعروف بالوجه الذي لا يُنكِره الشرع . والمعنى ـ كما يذكر الزمخشري ـ ''أنهن لو فعلن ما هو منكَر كان على الأئمة أن يكفُّوهن وإن فَرَّطوا كان عليهم الجناح,, [3] . يقول تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة : ٢٣٤) . وهذا الذي يفعلنه في أنفسهن قد لا تُعلَم حقيقتُه ، إذ قد يُسَرُّ في النفس أو يكون في الخفاء ، فلا يعلمه إلا من يطَّلع على بواطن الأمور ؛ ومن ثم خُتِمت الآية بلفظ (خَبِير) الدالّ على ذلك . وقد أشار أبو حيان إلى هذا الأمر بقوله : ''ولما كان آخر قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ (البقرة : ٢٣٤) الآية قوله ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ ﴾ مما يُدرك بلطف وخفاء ختم ذلك بقوله ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٣٤),,[4] .

---

[1] الجوهري : الصّحاح (خبر).

[2] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (خبر) .

[3] الكشاف ١ / ٢٨٢ .

[4] البحر المحيط ٢ / ٢٤٧ .

ونحو هذا جاء قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٧١) ، إذ سبقه حثّ الله عزّ وجلّ الناس على إخفاء الصدقات، وأن ذلك خير من إبدائها : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ (البقرة : ٢٧١) وإخفاء أمرٍ إنْ فعله الإنسان لا يعلمه إلا من له القدرة على معرفة بواطن الأمور وما يخفى منها ، فناسب أن يأتي هنا بلفظ (خَبِير) الدال على ذلك . يقول أبو حيان : "ختم الله بهذه الصفة لأنها تدل على العلم بما لطف من الأشياء وخفي، فناسب الإخفاءُ ختمَها بالصفة المتعلقة بما خفي" [١] .

وأما الآية الثالثة فقد ختمها ــ عز وجل ــ بلفظ (عَلِيم) ، والعلم "إدراكُ الشيء بحقيقته، وذلك ضربان : أحدهما إدراك ذات الشيء . والثاني : الحُكْمُ على الشيء بوجودِ شيء هو مَوْجُودٌ له أو نَفْي شيءٍ هو مَنْفيٌّ عنه" [٢] . والعلم : نقيض الجهل [٣] . "وعَلِمْتُ الشيءَ أعْلَمُهُ علمًا : عرفته" [٤] .

ومن خلال هذا المعنى المعجمي للفظ (عَلِمَ) يمكننا أن نلتمس العلاقة بين لفظ (عليم) وسياقه اللغوي ، حيث جاء في إطار الحديث عن أمر الله عزّ وجلّ لمن اؤتُمن على شيء أن يؤدي هذه الأمانة إذا طُلبت منه والنهي عن كتمان الشهادة . ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن

---

[١] السابق ٢ / ٣٣٩ .
[٢] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (علم) .
[٣] ابن منظور : لسان العرب (علم) .
[٤] الجوهري : الصحاح (علم) .

﴿ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (البقرة ٢٨٣) . ومن يخالف ذلك فإن الله لا شك شاهد عليه وعالم بما خالف ؛ لأنه عز وجل مدرك لكل شيء عارف به . فناسب الختم باللفظ الدال على ذلك .

ومن الألفاظ المتقاربة المعاني كذلك الألفاظ الدالة على الكفر والظلم والفسق ، إذ تأتي في آيات متتابعة ومتشابهة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة : ٤٤) ؛ وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، (المائدة : ٤٥) وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة : ٤٧) . وهي ألفاظ متقاربة المعاني ، إذ يجمع بينها أصل واحد وهو الكفر بالله أو الخروج عن الدين ، ولكن إذا رجعنا إلى معانيها الدقيقة نجد أن كل واحد منها له خاصية دلالية تميزه من الآخر . فالكفر "أصلُهُ التَّغطِيَةُ والسَّتْرُ ، وسُمِّيَ الكَافِرُ الشَّرْعيُّ كافرًا لأنَّه ستَرَ الحقَّ ، وغطَّى عليه ، وسُمِّيَ اللَّيلُ كافرًا لِسَتْرِهِ الأشياء بظلامه" [1] .

وأما الظُّلْم عند أهل اللغة فهو "وضع الشيء في غَيْرِ مَوْضِعِهِ المُخْتَصِّ بـه : إمَّا بنُقْصانٍ أو بزِيادَةٍ" [2] . وأما الفسق فهو "الخروج ، يقال فَسَقَت الرطبة إذا خرجت عن قشرها . والفِسْق الشرعي : الخروج عن الطاعة ، وهي امتثال الأوامر واجتناب النواهي" [3] .

---

[1] السمين الحلبي : عمدة الحفاظ (ك . ف . ر) .
[2] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (ظلم) .
[3] السمين الحلبي : عمدة الحفاظ (ف س ق) .

ومن المعاني الدقيقة لكل لفظ يتضح لنا إذا رجعنا إلى سياق الآيات سبب ختم كل واحدة منها باللفظ الذي خُتمت به . فالآية الأولى خُتِمت بلفظ (ٱلْكَٰفِرُونَ) وقد سبقها قوله تعلى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ (المائدة : ٤٣ ـــ ٤٤) . فالحديث هنا عن اليهود الذين يعرضون عن الحكم بما أنزل الله في التوراة وهي هدى ونور يحكم بها النبيون والذين أسلموا والربانيون والأحبار . فوصفهم الله عز وجل حين أعرضوا عن الحكم بما فيها بعدم الإيمان ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مؤكدًا ذلك بالباء الزائدة والجملة الاسمية ، وعدم إيمانهم هو الكفر ، ومن ثم جاءت الآية مختومة باللفظ الدال على ذلك وهو الكافرون .

وأما الآية الثانية فقد سبقها قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة : ٤٥) . فالحديث هنا عن القصاص وهو يقتضي العدل في الحكم أولاً ، وتنفيذ هذا الحكم ثانيًا ، ولا يجوز الظلم في أحد منهما . ومن تعدى هذا فإنما هو ظالم ، ومن ثم ختمت الآية باللفظ الدال على ذلك وهو (ٱلظَّٰلِمُونَ) .

وأما الآية الثالثة فقد سبقها قوله تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ (المائدة : ٤٧) . ومن لم يحكم بما جاء فيه فقد خرج عن شرع الله وحكمه ، والخروج عن ذلك إنما هو فسوق ؛ لذلك جاء في ختام الآية لفظ (ٱلْفَٰسِقُونَ) .

وقد أشار أبو حيان إلى ختم كل آية بما يناسبها قائلاً في تعقيبه على الآية الثانية :''ناسب فيما تقدّم ذكرُ الكافرين ؛ لأنه جاء عقيب قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة : ٤٤) ، ففي ذلك إشارة إلى أنه لا يحكم بجميعها ، بل يخالف رأسًا ، ولذلك جاء ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (المائدة : ٤٤) وهذا كفر ، فناسب ذكر الكافرين ، وهنا جاء عقيب أشياء مخصوصة من أمر القتل والجروح ، فناسب ذكر الظلم المنافي للقصاص ، وعدم التسوية ، وإشارة إلى ما كانوا قرروه من عدم التساوي بين بني النضير وبني قريظة,,[1] .

ثم يقول في الآية الثالثة : ''ناسب هنا ذكر الفسق ؛ لأنه خروج عن أمر الله تعالى ، إذ تقدم قوله ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ وهو أمر ، كما قال تعالى : ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف : ٥٠) ، أي :خرج عن طاعة أمره تعالى ، فقد اتضح مناسبة ختم الجملة الأولى بالكافرين ، والثانية بالظالمين ، والثالثة بالفاسقين,,[2] .

---

[1] البحر المحيط ٣ / ٥٠٩ .

[2] البحر المحيط ٣ / ٥١٢ .

وقد يقارن لفظ الظلم بألفاظ أخرى في القرآن الكريم كالجُرْمُ . والأول كما سبق أن ذكرنا "وضع الشيء في غير موضعه المختص به : إما بنقصان أو بزيادة ، وإما بعدول عن وقته أو مكانه ، ومن هذا يقال : ظلمتُ السقاء إذا تناولته في غير وقته ... والظُّلْمُ يُقالُ في مُجاوَزَة الحقِّ الذي يَجري مجرَى نُقْطةِ الدَّائرَةَ ويُقال فيما يَكثُر وفيما يقلُّ من التَّجَاوُزِ ، ولهذا يُستَعمَل في الذّنْب الكبير وفي الذّنبِ الصّغير" [1] .

وأما الثاني فمن جرَم جُرْمًا و" الجُرْمُ : الذنب والجريمةُ مثله تقول منه (جَـرَمَ) و(أَجْرَمَ) و(اجتَرم)" [2] . وأصل الجرم " قَطْعُ الثَّمرِ عن الشَّجرِ والثَّمرُ جَرِيْم والجُرَامَةُ الرَّدِيْء مِنْهُ أتى به على بِناء النُّفَايَةِ ، وأَجْرَمَ صار ذا جَرْمٍ ، واستُعير لكلِّ اكتسابٍ إلا أنّه غَلَبَ في المكْروهِ ومصدرُهُ الجَرْمُ " [3] .

فالظلم هو الذنب عظيمًا أو صغيرًا وهو أيضًا مجاوزة الحق إلى الباطل ، أما الجرم فهو اكتساب المكروه أو فِعله ، فهو بذلك دون الظلم ، وعلى ضوء هذين المعنيين نرى دورانهما في القرآن الكريم معبرًا كلٌّ لفظ منهما عن معناه الأصلي ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (الأنعام : ٢١) وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس : ١٧) .

وقد حاول الكرماني تعليل اختلاف الآيتين في هذين اللفظين مع ما بينهما من تشابه ، فذهب إلى أن الآية الأولى خُصَّتْ باللفظ المعبر عن الظلم "لأن الآيات التي

---

[1] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (ظلم) .

[2] الجوهري : الصحاح (جرم) .

[3] السمين الحلبي : عمدة الحفاظ (جرم) .

تقدمت في هذه السورة عطف بعضها على بعض بالواو ، وهي قوله : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام : ١٩) . ثم قال : (وَمَنْ أَظْلَمُ) ، ختم الآية بقوله (ٱلظَّٰلِمُونَ) ليكون آخر الآية لِفقًا لأوّل الأولى . وأما سورة يونس فالآيات التي تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاء ، وهو قوله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس : ١٦) ، ثم قال : (فَمَنْ أَظْلَمُ) بالفاء ، وختم الآية بقوله : (ٱلْمُجْرِمُونَ) أيضًا ، موافقة لما قبلها ، وهو : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يونس : ١٣)„ [١] .

وهو تعليل واهٍ اعتمد فيه على التوافق اللفظي بين (ٱلظَّٰلِمُون) و(أَظْلَم) في الأولى ، وبين (ٱلْمُجْرِمُونَ) و(ٱلْمُجْرِمِين) السابق عليه في الآية الثانية ، فإن كانت الآية الأولى انتهت بلفظ (ٱلظَّٰلِمُون) وفقًا للفظ (أَظْلَم) الذي ورد في أولها فلماذا لم تنتهِ الآية الثانية بالأمر نفسه إذ بدئت هي أيضًا بلفظ (أَظْلَم) ؟ .

إن الأمر يتعدى ما ذهب إليه الكرماني من المناسبة اللفظية إلى المناسبة المعنوية أو السياقية ؛ إذ تقدم الأولى قوله تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ﴾

---

[١] أسرار التكرار في القرآن ص ١٠٦ .

(الأنعام : ١٩) ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الأنعام :٢٠) ، فصرّح بشركهم وعدم إيمانهم وهو ذنب عظيم ، بل هو أعظم الذنوب ، فجاء باللفظ الدال على الظلم ليتناسب مع هذا الإثم الكبير ، إذ الشركُ بنص القرآن ظلم عظيم ، كما قال الله عزّ وجلّ على لسان لقمان : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ (لقمان ١٣) .

وأما الآية الثانية فقد سبقها قوله : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ ﴾ (يونس : ١٥) ، فلم يكن فيها تصريح بالشرك، بل أظهرت مجرد رغبتهم في تغيير القرآن أو تبديله ، وهو أمر وإن كان يؤدي إلى الكفر فإنه دونه أو دون الشرك في درجته، فكان ختام الآية بلفظ (المجرمون) الذي يدل على اكتساب المكروه، وهو دون الظلم في الذنب .

ومن الألفاظ المتقاربة المعاني كذلك (الخَلْق) و(الفِعْل) ، فالأول " أصله : التقدير المستقيم ، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء ، قال :﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ (الأنعام : ١) ، أي : أبدعهما ، بدلالة قوله : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (البقرة : ١١٧) ، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ (النساء : ١) ، ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ (النحل :٤) ، ﴿ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ ﴾ (المؤمنون : ١٢) ، ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ (الأعراف : ١١) ، ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ ﴾ (الرحمن : ١٥) ، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى ، ولهذا قالَ في الفصل الذي

بينهُ تعالى وبين غيره : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل : ١٧)،،[١] .

وأما الفِعْل فهو ''التأثير منْ جهةِ مُؤثِّر ، وهو عامٌ لِما كان بإجادة أو غير إجادة ، ولِما كان بعلم أو غير عِلْم ، وقصد أو غير قصدٍ ، ولِما كان من الإنسانِ والحيوانِ والجماداتِ ،،[٢] .

فالخلق على هذا هو إبداع الشيء من أصل أو إيجاد الشيء من الشيء ، ولا يكون هذا إلا من الله عزّ وجل ، والفعل تأثير من جهة مؤثرة ، أي نتيجة لسبب ما ، ويكون من الله ومن غيره ممن خلق . ومن خلال هذا الفرق بينهما يأتي استعمال لفظ (يَفْعَل) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (آل عمران : ٤٠) ولفظ (يَخْلُق) في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ (آل عمران : ٤٧) ، فجاء باللفظين مختلفين مع أن الآيتين تبشير بالولد لزكريا في الأولى ومريم في الثانية .

ويعلل ابن أبي* الإصبع هذا الاختلاف قائلاً : ''والانفصال عن ذلك أن استبعاد زكريا لذلك استبعاد لأمر غير خارق للعادة ، وإنما وقوع مثله نادر بعيد ، فحسُنَ أن يعبِّر عنه بلفظة (يَفْعَل)، لأن صيغة الفعل يُخبرَ بها عمَّن تكرَّر منه مثل ذلك الفعل ، واستبعاد مريم ــ عليها السلام ــ استبعاد أمر لا يقع مثله إلا خارقًا غير معتاد ، فكان الإخبار عنه

---

[١] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (خلق) .
[٢] السابق (فعل) .

سبحانه ، بوقوعه بلفظة الخلق أنسب ، لأن الخلق في اللغة هو التقدير ، والتقدير مقدم على التصوير ، وهو في اصطلاح الشرع الاختراع ، وفعل ما لا يقع مثله أولى بالاختراع ، فناسب الإخبار عنه بلفظة الخلق ,, [١] ، كما أن الغلام الذي بشر به زكريا سببه موجود وهو الأبوان على الرغم من تعطل خاصية الولادة فيهما ، أما السبب عند مريم فغير موجود أصلاً ، ومن هنا كان استعمال كل لفظ في موضعه .

وقد أرجع الدكتور تمّام حسان هذا الاختلاف في الألفاظ إلى أمر آخر لا يتعلق بالدلالة المعجمية لكلا اللفظين ، بل يرجع إلى الدلالة الاجتماعية التي أكسبها المجتمع لهما ، فرأى أن '' التعبير بلفظ (يَفَعّل) في حالة زكريا لا يثير خواطر سيئة ؛ لأن زكريا وامرأته زوجان فلا شبهة إن حملت المرأة لأن زوجها بجانبها ، وقد كان إخصابها بواسطة تسخير زوجها لذلك ، والتسخير والإخصاب من فعل الله ، أما في حالة مريم فإن التعبير بلفظ (يَفَعّل) ربما أثار خواطر سيئة ، فاللفظ لهذا غير مناسب ومن هنا جاء الفعل (يَخلُق),, [٢] .

فهو بذلك يخضع الألفاظ في هذه الحالة إلى تفكير مجتمعنا المعاصر ، وهو تفكير يختلف تمامًا عن المجتمع العربي القديم الذي عاصر نزول القرآن والذي كان يقدر قيمة اللفظ وما يوحي به من دلالات تختلف عن دلالات غيره من الألفاظ مهما كانت درجة التقارب أو التشابه بينها ، ولعل ما ذهب إليه لم يطرأ على ذهن هؤلاء الذين استقبلوا القرآن وكانوا يتمتعون بفطرة لغوية سليمة ، والأولى أن يعتد بالفرق الدلالي بين اللفظين ومناسبة دلالة كل منهما لمدلول السياق اللغوي ، وذلك ما فعله ابن أبي الإصبع في تعليله الذي سقته لتوضيح هذا الاختلاف .

---

[١] بديع القرآن ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

[٢] البيان في روائع القرآن ص ٢٩٧ .

وقد يأتي في بعض المواضع بلفظين متقاربين ومعهما لفظ ثالث بعيد عنهما في المعنى في آيات متتابعة كألفاظ (مؤمنين، يوقنون، يعقلون) نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الجاثية : ٣ - ٦) .

فختمت الآيات الثلاث بألفاظ مختلفة ، بين الأول والثاني منها تقارب في المعنى ، ويرجع هذا الاختلاف إلى المعنى الدقيق لكل لفظ منها وما سبقه في صدر الآية ، وهو مختلف الدلالة في الآيات الثلاث ، فلفظ (مُؤْمِنِين) من آمن إيمانًا ، ''والإيمان : ضِدُّ الكفر ، والإيمانُ : بمعنَى التَّصديق ، وضدُّهُ التَّكْذيب . يُقالُ : آمَنَ به قوم وكَذَّبَ به قَوْمٌ,,[١] . وأما (يوقنون) فأصله من ، يَقِنَ يقينًا ، و''اليقين : العِلْمُ وإزاحة الشك تحقيق الأمر ، وقَدْ أَيْقَنَ يُوقِنُ إيقانًا ، فَهُوَ مُوقِنٌ ، ويَقِنَ يَيْقَنُ يَقينًا ، فهو يَقِنٌ ، واليَقِين : نَقيضُ الشَّكِّ ، والعِلْمُ نقيضُ الجهل,,[٢] . ولما (يَعْقِلُون) فمن عقل ، والعقل ''مأخُوذٌ من عَقَلْتُ البَعِيرِ إذا جَمَعْتَ قَوائِمَه ، وقِيلَ : العَاقِلُ الذي يَحْبِسُ نَفْسَهُ ويَرُدُّها عن هواها ... والعقلُ : التَّثَبُّتُ في الأمور ... وسُمِّيَ العَقْلُ عَقْلاً لأنَّه يَعْقِلُ صاحِبَهُ عن التَّورُّط في المهالك ، أي يحبسه ، وقِيل : العَقْلُ هو التَّمْييزُ الذي به يَتَمَيَّزُ الإنسان من سائر الحيوان,,[٣] .

---

[١] ابن منظور : لسان العرب (أمن) .

[٢] السابق (يقن) .

[٣] السابق (عقل) .

وعلى ضوء هذه المعاني الدقيقة لتلك الألفاظ الثلاثة والسياق الذي وردت فيه ندرك مجيء كل منها في موضعه ، فالآية الأولى اقتضت أن تكون فاصلتها ﴿مُؤْمِنِين﴾ وذلك على ــ حد قول ابن أبي الإصبع ــ "لأنه سبحانه ذكر العالم بجملته ، حيث قال : السموات والأرض ، ومعرفة ما في العالم من الآيات الدالة على أن المخترع له قادر عليم حكيم ، وإن دل على وجود صانع مختار فدلالتها على صفاته مرتبة على دلالتها على ذاته، فلابد أولاً من التصديق بذاته حتى تكون هذه الآيات دالة على صفاته ، لتقدم الموصوف وجودًا واعتقادًا على الصفات" [1] .

كذلك تدل الآيات الموجودة في السماوات والأرض على وجود الله ، ومن ثمَّ الإيمان به لمن له نظر و عقل يتدبر به ، ومن تلك الآيات كما يذكر الإسكافي " أنه لا شيء أعظم في الموجودات منها، ثم اتساق النجوم فيها وتسخيرها على انتظام مما يدل على مدبرها ، ثم وقوفها مع عظمها وثقل جرمها بغير دعامة من تحتها ولا علاقة من فوقها تدل على قدرة قادر لا يشبهه قادر ، فمن وفى النظر في ذلك وفي سائر ما فيها من الآيات الأخر حقه أدّاه إلى الإيمان بالله تعالى ، فلذلك قال : ﴿ لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾فخصتهم لانتفاعهم بها وإن كانت الآيات منصوبة لهم ولغيرهم ، إلا أنهم لما لم ينتفعوا بها صارت كأنها لم تكن لهم آيات" [2] .

وأما ختم الآية الثانية بلفظ (يُوقِنُون) الدال على العلم وطرح الشك، فذلك ــ على حد قول الإسكافي أيضًا ــ لأن "العجائب في خلق الحيوان وماله من الأعضاء والحواس التي بها يدرك المحسوسات ، ثم في باطنه من جوانب المواد التي بها قوام الحياة، ثم

---

[1] تحرير التحبير ص ٥٢٨ .

[2] درة التنزيل ص ٢٤٧ .

الروح التي بها ثبات الأجساد أكثر من أن تُحصَى و تُعد ، فإن عَرَضَت شُبهة لمُلْحِد بأنْ كونَ الولَد بإحبال الوالدِ أمَّه ومن نطفته يأخذ شبَهه ، فإنه يطرح ذلك ويرتاح بالآيات التي ليس إلى الوالد فعلها ولا جارحة من جوارحه يحيط علمه بنشأتها والحكمة في تركيبها ، فكيف أن يكون فاعلها تبارك وتعالى من صنعها وزينها بالعقل الذي هو أكبر نعمة . فهذا هو للمتفكر في ذلك ينتقل من ظن إلى علم ، وتيقن بعد شك ، واليقين علم يحدث بعد تشكك ، ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه موقن ، ويوصف بأنه عالم ، فلهذا قال ﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[1] .

وأما اختصاص الآية الثالثة بلفظ (يَعْقِلُون) الدال على الحَبْس والتثبّت في الأمور فذلك لأنها تحدثت عن جزئيات متضمنة في خلق السماوات والأرض ، وهي اختلاف الليل والنهار وإنزال الماء من السحاب وإحياء الأرض بعد موتها وتصريف الرياح ، فكل هذه أمور جزئية خصها المتدبر فيها بالفكر والنظر دون غيرها مما يوجد من آيات في السماوات والأرض ، وفي هذا التخصيص قصر للعقل عليها وحبس له في التدبر فيها دون ما سواها . يقول ابن أبي الإصبع في إبراز وجه المناسبة هنا :"وكذلك معرفة جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار وإنزال الرزق من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح تقتضي رجاحة العقل ورصانته ، ليعلم أن من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع العالم الكلي الذي هي أحسن منه ، وعوارض عنه ، ولا يجوز أن يكون بعضها صنع بعضًا بعد قيام البرهان على أن للعالم الكلي صانعًا مختارًا ، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ وإن احتيج للعقل في الجميع ، إلا أن ذكره ههنا أمسّ بالمعنى من الأول ، إذ بعض من يعتقد صانعاً للعالم ربما

---

[1] درة التنزيل ص ٢٤٧ .

قال : إن بعض هذه الآثار يصنع بعضاً ، فلابد إذًا من التـدبر بـدقيق الفكـر وراجـح العقل„ [١] .

ومن هنا اقتضى كل موضع من المواضع الثلاثة اللفظ الذي ورد فيه بمعناه الـدال عليه ، ولو تبادلت الألفاظ مواقعها وجيء بألفاظ أخرى في موضع هذه الألفاظ لما انـتظم المعنى ، وهذا بخلاف ما يراه دكتور تمام حسان في هذه الآيات وفواصـلها الـثلاث ، إذ يرى أنها جميعاً تكاد تتحد في معناها لا فرق بينها يستدعي تغايرهـا . يقـول : "ولقـد تتوالى الفواصل في آيات متتابعة ومعناها مع تواليها واحد أو متشابه وإنما توالـت علـى رغم وحدة المعنى لغرض لولاه لأجزأت عن التوالي فاصلة واحدة . من ذلك أن المؤمنين هم بالضرورة موقنون ، لأنهم لا يؤمنون إلاّ مع رسوخ اليقـين بمـا آمنـوا بـه وهـم بالضرورة يعقلون ما أيقنوا به ، لأن يقينهم لا يأتي إلا نتيجـة تـدبر ودلالـة عقليـة أي (ٱلْمُؤْمِنُونَ) (يُوقِنُونَ) و(يَعْقِلُونَ) ، ومعنى هذه الألفاظ كما يتضح متشابه إلى درجة قـرب دلالتها من التوحيد„ [٢] .

ثم يقول بعد عرضه لهذه الآيات ومحاولة إثبات أنه لا فرق بـين فواصـلها فـي معانيها : "لابد أن يثور في أذهاننا سؤال عن السبب الذي دعا إلى إيراد هـذه الكلمـات بهذا التتابع مع شدة الترابط في المعنى بينها، ولست أدري لذلك جوابًا أقرب مـن رعايـة الفاصلة„ [٣] .

وهذا الذي يذهب إليه يجافي الحقيقة، فالإيمان غير اليقين ، وهمـا يختلفـان كـل الاختلاف عن العقل فلا تتحد في المعنى أو تتشابه ، وقد أوضح مـا سـقته مـن كـلام

---

[١] تحرير التحبير ص ٥٢٨ و٥٢٩ .

[٢] البيان في روائع القرآن ص ٢٨٤ .

[٣] السابق ص ٢٨٥ .

الإسكافي وابن أبي الإصبع أن كل آية استدعت كل لفظ ختمت به دون غيره ؛ لأنه يرتبط في معناه ارتباطًا وثيقًا بدلالة الآية التي ورد فيها ، فهو أمسّ الألفاظ بها معنى وأقرب لها رحمًا ، لا يمكن تغييره أو تبديله ، ومن هنا يسقط الاستدلال بما ذكره دكتور تمام من أن هذه الألفاظ متحدة في المعنى يمكن أن يجزيء أحدها عما سواه .

المبحث الثاني

المناسبة بين الألفاظ التي يظن فيها الترادف والسياق اللغوي

رأينا في المبحث السابق أن ثمة ألفاظًا تتقارب في معانيها تقاربًا شديدًا ، كألفـاظ الكفر والفسق والظلم ، أو خبير وبصير وعليم ، أو فعل وخلق وغير ذلك . وإنما يرجـع التقارب في المعنى بين كل مجموعة من هذه الألفاظ إلى أنها تدل على مدلول واحـد ، أو تقع في مجال دلالي واحد ، ولكننا إذا رجعنا إلى معانيها المعجمية الدقيقة وحللنا كل وحدة معجمية منها إلى وحداتها الدلالية الصغرى وجدنا أن ثمة فروقًا ظاهرة تجعل من اليسير علينا معرفة الفرق بينها ؛ فالكفر يختلف في بعض وحداته الدلالية عن الظلـم ، وهكـذا الحال في سائر الوحدات المعجمية التي مرت بنا ويضمها مجال دلالي واحد .

وهناك ألفاظ لها صلة وثيقة بالألفاظ السابق ذكرها ، ولكنها أشد تقاربًا في معانيها إلى درجة تكاد تصل بها إلى حد التطابق ، بحيث يصعب على كثير من اللغويين التفريق بينها، فيجعلونها بمعنى واحد ، وهذه الألفاظ هي ما يعرف بالألفاظ المترادفـة ويعرفهـا السيوطي قائلاً ''والمترادفة هي التي يقام لفظ مقام لفظ ؛ لمعانٍ متقاربة، يجمعها معنـى واحد,, [١] ، فالمترادفات على هذا ''هي ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينها فـي أي سياق ، والترادف التام على الرغم من عدم استحالته نادر الوقوع إلى درجة كبيـرة ، فهو نوع من الكماليات التي لا تستطيع اللغة أن تجود بها في سهولة ويسر ، فإذا ما وقـع هذا الترادف التام فالعادة أن يكون ذلك لفترة قصيرة محدودة حيـث إن الغمـوض الـذي يعتري المدلول، والألوان أو الظلال المعنوية ذات الصبغة العاطفيـة أو الانفعاليـة التـي تحيط بهذا المدلول لا تلبث أن تعمل على تحطيمه وتقويض أركانه ، وكذلك سرعان مـا

---

[١] المزهر ١ / ٣٧ .

تظهر بالتدريج فروق معنوية دقيقة بين الألفاظ المترادفة ، بحيث يصبح كل لفظ منها مناسبًا وملائمًا للتعبير عن جانب واحد فقط من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد,, [1] .

فالترادف إذًا بين الألفاظ — إنْ وقَع — ترادف جزئي، أما الترادف التام أو المطلق إذا حدث على ندرته فإنما يكون ذلك بشروط إذا تحقق واحد منها تحقق هذا الترادف، وهي:— [2]

١- إذا كانت كل معاني الألفاظ متطابقة، أي تتطابق جميع وحداتها الدلالية .

٢- إذا كانت مترادفة في السياقات كافة .

٣- إذا كانت متطابقة في كل مجالات المعنى التي ترتبط بعلاقة ما .

وهذه الشروط يصعب تحققها أو تحقق واحد منها ، لهذا فإن الترادف المطلق يصعب وقوعه في اللغة ، ومن هنا يمكن القول إن الترادف الذي يبدو بين بعض الألفاظ ترادف جزئي ، وهو ما يتحقق في الألفاظ التي يتضمنها هذا المبحث .

ومن تلك الألفاظ : (الإعراض) و(الصَّدْف) أو (الصدوف) ، إذ يأتيان في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، فالأول منهما قد وردت مادته بصورها المختلفة فيه ثلاثًا وخمسين مرة ، وهو من أعرض إعراضًا ''وأعْرَضَ : أظْهَرَ عُرْضَهُ أي : ناحيَتَهُ . فإذا قيلَ أعْرَضَ لي كذا . أيْ بدا عُرْضُهُ . فأمكَنَ تَنَاوُلُه . وإذا قيل : أعْرَضَ عَنِّي فمعناه ولَّى مبديًا عُرْضَه قال :﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ (السجدة : ٢٢) ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾(النساء : ٦٣),, [3] . وأما اللفظ الثاني فقد وردت مادته دالة على الإعراض أربع مرات ''وصَدَف الرجل عن الشيء يصدِف ويصدُف ، والكسر على (صُدوفا) إذا مال عن

---

[1] ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ، ترجمة د . كمال بشر ص ١٠٩ .

[2] جون لاينز : اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة د. عباس صادق الوهاب ص ٥٤ .

[3] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (عرض) .

الشيء ، فهو صادف وأصدفت أنا إصدافًا,, [١] ، و''صَدَفَ عنه : أعرض إعراضًا شديدًا يجري مَجْرَى الصَّدَفِ ، أي :الميل في أَرْجُلِ البَعيرِ ، أو في الصَّلابة كصَدَفِ الجَبَلِ أي : جانبه,, [٢] .

وإذا تأملنا المعنى الدقيق لكلا اللفظين اتضح لنا سبب مجيء كل منهما في موضعه في القرآن الكريم ، فعندما يقتضي المعنى الإعراض الشديد والصلابة في هذا الإعراض يأتي اللفظ الثاني ، نحو قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام : ٤٦) . فالله عز وجل قد سدَّ عليهم جميع المنافذ التي يستقبلون بها الهدى بما قدَّموا من صدٍ عن سبيل الله وإعراض عنه ، فلم يبق لهم شيء يستقبلون به هذا الهدى إذ لا سبيل له إليهم ، فكان إعراضهم إعراضًا شديدًا، فناسب أن يأتي بلفظ (يَصْدِفُون) الدّال على ذلك .

وعلى هذا النحو يأتي قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام : ١٥٧) ، إذ نفى الله عز وجل أن يكون هناك من هو أظلم ممن جاءته بينة من ربه وهدى ورحمة ثم ترك كل هذا مما يؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة والفوز بهما وبما عند الله من نعيم مقيم ، فمن ترك كل هذا فإنما تَركه لإعراضه الشديد عنه ، ذلك الإعراض الذي جعل بينه وبين هدى الله

---

[١] ابن دريد : جمهرة اللغة (دَ صَ فَ) ٢٧٢/٢ .

[٢] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (صدف) .

ورحمته وبيناته حاجزًا شديدًا لم يسمح له أن يرى ما في هذه الأمور من خير ، فناسب أن يأتي بلفظ (صدف) الدال على ذلك .

وأما عندما يخلو السياق من مثل هذه الأمور التي تنشأ عن الإعراض الشديد ، أو تكون سببًا له فإن التعبير يكون باللفظ الأول الذي ليس له دلالة الثاني في الشدة ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (الأنعام : ٤) وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٢) وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (النور : ٤٨) .

ومن الألفاظ التي يبدو فيها الترادف أيضًا (يذر) و(يدع) ، وقد وردت مادة الأول منهما في النظم الحكيم خمسًا وأربعين مرة ''وذَرْه أي دَعْهُ ، ويَذَرُه أي يَدَعُه . والأصل وَذِرَهُ يذره مثال : وَسِعَهُ يَسَعُه ، ولكن قد أُميت مصدره (والفعل الماضي) ، فلا يقال : وذِرَهُ ولا واذِرٌ استغنوا عنهما بتركه وتارك'' [١] . قال الراغب :''يقال فلان يذر الشيء أي : يقذفه لقلة اعتداده به ولم يستعمل ماضيه . والوَذْرَةُ : قطعة من اللحم ، وتسميتها بذلك لقلة الاعتداد بها نحو قولهم فيما لا يعتد به : هو لَحْمٌ على وضَمٍ'' [٢] .

وأما (يدع) فقد وردت مادته بالمعنى المشار إليه هنا مرتين [٣] ، وهي ''تدل على الترك والتخلية . ودع الرجل فهو وديعٌ ووادِعٌ ، أي ساكنٌ ، مثل حَمُضَ فهو حامِضٌ ، يقال نال المكارم وادعًا ، أي من غير كُلْفَةٍ ومشقة . وعليك بالمودوع أي بالسكينة

---

[١] الفيروز أبادي : بصائر ذوي التمييز ، بصيرة في (ودى ووذر) .

[٢] مفردات ألفاظ القرآن (وذر) .

[٣] وذلك في آيتي الأحزاب ٤٨ ، الضحى ٣ .

والوقار . وودعت فلانًا توديعًا من وداع السلام، والدعة : الخَفْضُ والراحــة ، والهـاءُ عوضٌ من الواو,, [1] . قال الراغب : ''الدعة : الخَفْضُ . يقال : وَدَعتْ كذا أَدَعُهُ ودعًا . نحو : تركته وادعًا ، وقال بعض العلماء : لا يستعمل ماضيه واسم فاعله وإنما يقال : يَدَعُ وَدَعْ,, [2]

وإذا ما تأملنا المعنى الدقيق لكل لفظ منهما يمكننا أن نلحظ العلاقة بينهما وبين السياق الذي وردا فيه ، فعندما يراد ترك الشيء لقلة الاعتداد به يؤتى باللفظ الأول ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ (البقرة : ٢٧٨) ، وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام : ١١٢)، وقوله : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ (الأعراف : ٧٠) ، وقوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (الصافات : ١٢٥) .

فالآية الأولى أمر من الله عز وجل لترك الربا ، وهو من المحرمات التي ينبغي على المسلم اجتنابها ، والآية الثانية أمر للرسول صلى الله عليه وسلم ـ لترك ما يقوله الكافرون من كذب على الله غير معتدٍّ ولا مبالٍ بما يزعمون ، والآية الثالثة استنكار من الكافرين أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم غير معتدّين به . وكل هذه المعاني تستدعي مجيء اللفظ الدال على الترك الناشئ عن قلة الاعتداد ، فناسب أن يأتي التعبير القرآني بمادة (وذر) دون (ودع) .

أما الآية الرابعة فعدل التعبير القرآني فيها عن لفظ (تَدَعون) المجانس لـ (تدْعون) إلى (تَذَرونَ) غير المجانس ، وذلك ـ على حد قول السيوطي فيما ينقله عن

---

[1] الفيروز آبادي : بصائر ذوي التمييز ، بصيرة في (ودع) .

[2] مفردات ألفاظ القرآن (ودع) .

الخويّ ــ لأن "(يدع) أخص من (يذر)؛ لأنه بمعنى ترك الشيء مع اعتنائه بشهادة الاشتقاق ، نحو الإيداع ، فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها. ولهذا يختار لها من هو مؤتمن عليها ، ومن ذلك الدّعة بمعنى الراحة ، وأما (تذر) فمعناه الترك مطلقًا ، أو الترك مع الإعراض والرفض الكلي . قال الراغب : يقال : فلان يَذَرُ الشيء ، أي يقذفه لقلة الاعتداد به ومنه الوَذْر : قطعة من اللحم لقلة الاعتداد به ، ولا شك أن السياق إنما يناسب هذا دون الأول ، فأريد هنا بتشبع حالهم في الإعراض عن ربهم ، وأنهم بلغوا الغاية في الإعراض" [1] .

ولعل ما يذكره السيوطي هنا لا يوضح وجه المناسبة توضيحًا تامًا ، بخلاف البقاعي الذي كان تعليله لاختيار لفظ (وَتَذَرُونَ) دون (تَدْعُونَ) أكثر إبرازًا لوجه هذه المناسبة ، يقول : "ولما كان دعاؤهم إياه للعبادة بيّنه بقوله : (تَذَرُونَ) ومادة (وذر) تدور على ما يكره ، فالمعنى : وتتركون ترك المهمل الذي من شأنه أن يزهد فيه ، ولو قيل : و (تَدْعُونَ) تهافتًا على الجناس لم يفد هذا وانقلب المراد" [2] .

ولما إذا أريد الترك مع لطف ووداعة وسلام جيء بمادة (وَدَعَ) الدالة على هذه المعاني ، نحو قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (الضحى : ٣) ؛ لأن تأخير نزول الوحي على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليس لتركه وقلة الاعتداد أو الاعتناء به ، وإنما لاراحته وتشويقه إليه ، فالله عز وجل ما كان ليدَعَهُ أو يتركه . يقول البقاعي :"ولما أقسم بهذا القسم المناسب لحاله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أجابه بقوله تعالى : (مَا وَدَّعَكَ) أي تركك تركًا يحصل به فرقة كفرقة المودع ولو على أحسن

---

[1] الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٧٤ .

[2] نظم الدرر ٦ / ٣٣٨ .

الوجوه الذي هو مراد المودع (رَبُّك) أي الذي أحسن إليك بإيجادك أولاً ، وجعلك أكمل الخلق ثانيًا ، ورباك أحسن تربية ثالثًا ، كما أنه لا يمكن توديع الليل للنهار ، بل الضحى للنهار الذي هو أشد ضيائه ، ولا يمكن توديع الضحى للنهار ولا لليل وقت سجوه له,, (١) .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الأحزاب : ٤٨)، فقد جاء فيه الأسلوب القرآني بلفظ (دَع) دون (ذَر) ؛ لأن السياق في هذا الموضع خطاب من الله لرسوله الكريم ، يصفه فيه بالنبوة التي تقتضي اللين والتسامح في معاملة الناس ، ويخبره بأنه عز وجل قد أرسله مبشرًا ونذيرًا مقدمًا التبشير على الإنذار ، يدعو الى الله بإذنه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٤٥ ــ ٤٦) . ومن كان كذلك ينبغي أن يتصف بالدعة والرفق ؛ لتلقى دعوته القبول لدى الناس ، ومن ثمَّ جاء التعبير القرآني في هذا الموضع بلفظ (دَع) ؛ ليتفق في معناه المعجمي مع مدلول السياق .

ومن هذا القبيل لفظا (الشُّح) و(البُخْل) فأما أولهما فقد جاء بصوره المختلفة في النظم الحكيم خمس مرات ، والشح : '' بُخْلٌ مع حِرْص ، وذلك فيما كان عادةً,,(٢) ، والشُّح'' أشدُّ البُخْلِ يقال شَحَّ يَشُحُّ ويَشِحُّ ويَشَحُّ مُثلَّثُ عَيْنِ المُضارع ، ورَجُلٌ شَحِيحٌ

---

(١) نظم الدرر ٨ / ٤٥٣ .

(٢) الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (شح) .

وشَحَّاحٌ ، ومنه استُعير زَنْدٌ شَحَاحٌ ، أي لا يُورِي . والجمع أَشِحَّةٌ,, [١] . وأما البخل فقد وردت مادته في اثني عشر موضعًا من القرآن الكريم ، وهو ''إمساك المقْتنيات عما لا يحقُّ حبسها عنه ، ويقابله الجُود ، يقال : بَخِل فهو باخل ، وأما البخيلُ فالذي يُكْثر منه البُخل ، كالرَّحيم من الراحم . والبُخل ضربان : بُخل بقْنيات نفسه ، وبخل بقْنياتِ غيره ، وهو أكثرهما ذمًّا,,[٢] . والبخل كذلك ''ثمرة الشُّحّ ، والشح يأمر بالبُخْل ... فالبخيل : مَنْ أجاب داعيَ الشحّ ، والمؤثر من أجاب داعيَ الجُود ، والسخاء ، والإحسان,, [٣] .

وبمقتضى هذا المعنى المعجمي لكلا اللفظين نرى دورانهما في القرآن الكريم ؛ فعندما يراد شدة البخل أو الحرص على المال أو كونه عادة فُطِرت عليها النفس يأتي اللفظ الدال على الشح نحو قوله تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ (النساء : ١٢٨) ، فالمقام هنا مقام حث لمن يقومون على أمر يتامى النساء ، ولا يؤتونهن ما كُتب لهن ، أن يعطوهن حقهن بالمعروف ، وأن يقوموا لليتامى بالقسط ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (النساء : ١٢٧) ، فمن يمنع الحق عن أصحابه ليس بخيلاً فحسب ، بل هو حريص على المال ؛ لأنه لا يكتفي أن يمنع ماله عن الآخرين ، وإنما يمنع الآخرين حقهم الذي يقوم عليه ، ومن هنا جاء القرآن بلفظ الشح الدال على شدة البخل والحرص .

---

[١] السمين الحلبي : عمدة الحفاظ (ش . ح . ح) .

[٢] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (بخل) .

[٣] الفيروز أبادي : بصائر ذوي التمييز (بصيرة في البخل) .

ثم يأتي السياق بعد ذلك ليتحدث عن الأزواج الذين يعرضون عن أزواجهم ، ويحثهم على الصلح والإحسان ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ (النساء : ١٢٨) ، فمن أعرض عن امرأته وتركها فإنما يفعل ذلك لنفوره منها ورغبته عنها ، ومن كان شعوره كذلك ثقل على نفسه الإنفاق عليها ، وكره ذلك الأمر ، فيبخل عليها ، بل يشتد بخله ، ومن هنا كان حث الله تعالى بالإحسان في قوله ﴿ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ حتى لا يطاوع نفسه بالشح على أهله ، فناسب أن يأتي بهذا اللفظ الدال على ذلك المعنى .

وعلى هذا النحو يأتي قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(الحشر : ٩) ، إذ يأتي السياق قبل هذه الآية مخبرًا عن الأنصار الذين أحبوا من هاجر إليهم وآثروهم على أنفسهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ ﴾ (الحشر : ٩) ، فمن آثر غيره على نفسه على الرغم من حاجته الشديدة فإنما يستجيب لداعي الجود والسخاء ، ومن يفعل ذلك فالكرم عادة فطرت عليها نفسه ، فناسب في هذا السياق أن يحث على اجتناب الشح الذي هو عادة في النفس مُرغبًا – عز وجل – في ذلك ، بجعل الجزاء على تركه ووقاية النفس منه الفلاح في الدنيا والآخرة .

وأما عندما يأتي السياق ليحث الناس على الإنفاق في سبيل الله والجود والإحسان وعدم إمساك المال عما لا يجوز حبسه عنه فإننا نجد التعبير القرآني يأتي بلفظ البخل الدال على تلك المعاني ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ (محمد : ٣٨) ، فالمال مال الله وإنما الناس قائمون عليه، فمن أمسكه ولم ينفقه في سبيل الله فإنما هو يحبس ما يقتنيه ، وهو ملك لله عمّا يجب أن يُنفَق فيه ، ومن ثم أتى بلفظ البخل الدال على تلك المعاني .

وعلى هذا النحو يأتي قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (الحديد : ٢٤) ، إذ وردت هذه الآية بعد عدة آيات تحضّ الناس على الإنفاق في سبيل الله ، وتحببهم فيه ، وهي قوله تعالى : ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الحديد : ٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحديد : ١٠ـ ١١) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحديد : ١٨) . فكل هذه الآيات تحضّ على الإنفاق في سبيل الله ؛ لأن ما يملكه

الإنسان من مال ملك لله عز وجل ، وإمساكه هو إمساك له عما لا يحق حبسه عنه، فناسب أن يأتي بلفظ يبخلون الذي له هذا المعنى .

ومن هذا القبيل لفظا (الجَدَل) و(الامتراء) أو (المِراء) ، فأما الجدل فقد ورد بصوره المختلفة في القرآن تسعًا وعشرين مرة ، ''وأصله من جَدَلْتُ الحَبْل ، أي : أحكمتُ فتله ، ومنه : الجديل ، وجدلْتُ البناء : أحكمته ، ودِرعٌ مجدولة ، والأجْدل : الصقرُ المحكم البنية ، والمُجْدَل : القصر المحكم البناء ، ومنه : الجِدال ، فكأنّ المتجادلين يفتل كلٌ واحد الآخر عن رأيه ، وقيل: الأصل في الجدال : الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة ، وهي الأرض الصلبة,, [1] . والمجادلة ''المُخَاصَمَة والمُقاوَحَة على سبيل المغَالَبَة ، وهي مذْمُومة في الأشياء الظاهرةَ غير المحتَمَلَة للجدال,, [2] .

وأما الثاني فقد جاءت مادته في عشرين موضعًا ثمانية نلحظ فيها معنى الجدل [3] واثني عشر خلصت للشك [4] وفقًا لما ذكره المفسرون في معنى هذه المادة في مواضعها المختلفة . وأصله من مَرَّىَ مِرَاء ومِريَة و''المِريْة بالكسر وبالضمّ : التردد في الأمر . وهو أخصّ من الشكّ,, [5] . قال صاحب اللسان : ''المِريَةُ و المُريَة : الشَّكُ والجَدَلُ ، بالكسرِ والضمِّ.، وقرِيء بهما قولُهُ عزّ وجلّ : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ (هود : ١٧) ، والامتَراءُ في الشَّيءُ : الشكُ فيه ، وكذلك التَّمارِي . والمِراءُ : المُماراةُ ، والجَدَلُ ،

---

[1] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (جدل) .

[2] السمين الحلبي : عمدة الحفاظ (ج د ل) .

[3] وذلك في آيات الأنعام ٢ ، الحجر ٦٣ ، الكهف ٢٢ ، مريم ٣٤ ، الشورى ١٨ ، الزخرف ٦١ ، النجم ١٢ ..

[4] وذلك في آيات البقرة ١٤٧ ، آل عمران ٦٠ ، الأنعام ١١٤ ، يونس ٩٤ ، هود ١٧ ـ ١٠٩ ، الحج ٥٥ ، السجدة ٢٣ ، فصلت ٥٤ ، الدخان ٥٠ ، النجم ٥٥ ، القمر ٣٦ .

[5] الفيروز أبادي : بصائر ذوي التمييز (بصيرة في مرى) .

والمِراءُ أيضًا : من الامتراء والشك وفي التنـــزيل العزيز : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ (الكهف :٢٢) ؛ قال : وأصلُهُ في اللغة الجِدَال ، وأن يستخرج الرجل من مُنَاظِرِه كلامًا ومعاني الخُصومة وغيرها من مَرَيْتُ الشاة إذا حلبْتَها . واستخرجْتَ لبنها ، وقدْ ماراهُ مماراةً ومِيراء ,, [١] . أي إن المراء أو الامتراء الجدل الذي يتصف بالشك والتردد ، وهو ما يؤكده أبو حيان في تفسير لفظ (تَمْتَرُون) في قوله تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (الأنعام : ٢) إذ يقول : ''و(تَمْتَرُون) : معناه تشكون ، أو تجادلون جدال الشاكين ، والتماري : المجادلة على مذهب الشك,, [٢] . أما الجدل فهو الصراع في الرأي وإحكام الحجة لدحض رأي الخصم .

وبمقتضى هذا المعنى الدقيق لكلا اللفظين نرى ورودهما في القرآن الكريم ؛ فعندما يراد مغالبة الخصم في الرأي وإحكام الحجة وإبطال ما يذهب إليه يأتي لفظ الجدل ، نحو قوله تعلى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥) ، فالدعوة إلى الله تستلزم حجة قوية وحكمة في الرأي لإقناع من يشك في ذلك ، وقوله : ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحج : ٦٨) ؛ فالمقام هنا مقام دعوة إلى الله وهي تحتاج ــ كما ذكرنا ــ إلى حجة قوية وقدرة على الإقناع حتى لا يستطيع الكافرون المنازعة في الأمر والمغالبة عليه . يقول تعالى : ﴿ فَلَا

---

[١] ابن منظور : لسان العرب (مرا) .

[٢] البحر المحيط ٤ / ٧٧ .

يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(الحج : ٦٧) ، فناسب لن يأتي بلفظ (جَٰدَلُوكَ) الدال على إحكام الرأي والحجة .

وعلى هذا النحو تأتي آيات عديدة يتطلب سياقها لفظ الجدل دون غيره ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾ (البقرة : ١٩٧) ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر : ٣٥) ، وقوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ ﴾ (الزخرف : ٥٨) .

وأما عندما يراد الجدل الذي ليس عن حجة قوية ، بل يكون فيه تردد وشك فإنه يؤتي بالمراء أو الامتراء نحو قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ (الحجر : ٦٣) ، وقوله : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا ﴾ ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ (مريم : ٣٤) ، وقوله : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ (النجم : ١٢) . فالسياق الذي وردت فيه الآيات السابقة : إما يدل على الجدل في الشيء بغير علم ، كما في الآيتين الثانية والرابعة ، وإما يدل على الجدل المجافي للحقائق ، كما في الآيتين الأولى والثالثة ، وهذان النوعان من الجدل يتصفان بالشك والتردد في الأمر وعدم وجود حجة قوية فيهما ؛ لأنهما يقومان على عدم العلم أو البعد عن الحق .

المبحث الثالث

المناسبة بين الألفاظ المتباعدة المعاني والسياق اللغوي

إذا كانت هناك ألفاظ متقاربة المعاني تتعقد بينها المقارنة لِتُرَى مناسبة كل لفظ من حيث معناه لسياقه اللغوي ، فإن ثمة ألفاظًا في القرآن لا نستطيع أن نعدها متقاربة المعاني ، وإنما بين معانيها تباين واضح ، وإن كان لا يخلو الأمر من وجود قدر مشترك من المعنى بينها . وهذه الألفاظ يمكننا أن نعقد بينها مقارنة من حيث مناسبة كل واحد منها لسياقه اللغوي الذي ورد فيه لنرى مدى التلاؤم بينه وبين هذا السياق، و هل كان من الممكن أن يأتي أحدها في موضع الآخر ؟ .

ومن هذه الألفاظ المتباينة تلك الدالة على التقوى والشكر والرشد ، وجاءت جميعها في ختام آيات متتابعة ، وقد سبقها اللفظ الدال على الترجي ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٩) ، وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(البقرة : ١٨٣) ، وقوله : ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) ، وقوله :﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(البقرة : ١٨٦) ، فجاء اللفظ الدال على التقوى في ختام الآيتين الأوليين وجاء اللفظان الدالان على الشكر والرشد في ختام الآيتين الأخريين، وذلك تبعًا لسياق كل آية والمعنى الدقيق لكل لفظ .

فلفظ (تتقون) من (وقى) ، و''وَقَاه الله وقْيًا ووِقَايةً ووَاقِيَةً : صانَه ...، ووَقَيْتُ الشيْءَ أَقِيه إذا صننته وسَتَرْتَه عن الأذى ... والاسم التَّقوى ...وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر : ٥٦) ، أي هو أهلٌ أن يتقي عقابُهُ وأهلٌ أن يعمل بما يؤدي إلى مغفرته,, [١] .

وأما الشُكر فهو''تَصَوُّر النِّعْمَة وإظهارها ، قيلَ : وهو مقلوب عــن الكَــشْر ، أي : الكَشْفِ ، ويُضادُّه الكُفر ، وهو : نِسْيَانُ النِّعْمة وستْرُها ، ودابةٌ شــكورٌ : مُظْهِــرَةٌ بِسِمَنِها إسداء صاحبها إليها,, [٢]. وهو أيضًا ''عِرْفَان الإحسانِ ونَشْرُهُ,, [٣] ، و''شــكرتُ لله تعالى نعمتَه وقد يقال : شكرت فلانًا ، يريدون نعمة فلان,, [٤] .

وأما الرُشْد أو الرشاد فهو ــ على حد قول صاحب الصحاح ــ خلاف الغي [٥] ، و''رَشَدَ الإنسانُ ، بالفتح ... ، يَرشَدُ رَشَدًا ورَشادًا ، فهو راشِدٌ ورشِيد ، وهو نقيض الضَّلال ، إذا أصاب وَجْهَ الأمْرِ والطريق,, [٦] .

ولو رجعنا إلى المعنى الدقيق لكل لفظ من هذه الألفاظ والسياق الــذي ورد فيــه لَتَكشَّفَ لنا سر وضع كل لفظ منها في موضعه . فلفظ (تَتَّقُون) يدل على الصون وحمايــة النفس من الأذى والتعرض لعقاب الله ، وقد ورد في الآية الأولى عقــب الحــديث عــن

---

[١] ابن منظور : لسان العرب (وقى) .
[٢] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (شكر) .
[٣] ابن منظور : لسان العرب (شكر) .
[٤] الزمخشري : أساس البلاغة (شكر) .
[٥] الجوهري : الصحاح (رشد) .
[٦] ابن منظور : لسان العرب (رشد) .

القصاص ، وأحرى بالإنسان أن يقي نفسه، ويصونها من التعرض لهذا العقاب الشديد ، وهو القتل . ثم نراه يرد في الآية الثانية عقب الحديث عن الصيام ، وهو فريضة تقي النفس من أهوائها وتمنعها عن الشهوات ، سواء أكان ذلك بالفعل أم بالقول، ومن هنا جاء أمر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لمن يستطيع النفقة بالزواج ومن لم يستطع بالصوم ، قال : "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" [1] ، أي حماية ووقاية من الشهوات ، فناسب بذلك أن تختم الآية بترجّي التقوى.

وقد ذهب أبو حيان إلى أن هذا الختام يرجع إلى أن التقوى تتناسب مع الأمور التي فيها مشقة، يقول : "وجاء عقيب قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وقبله :﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ ثم قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لأن الصيام والقصاص من أشق التكاليف ، وكذا يجيء أسلوب القرآن فيما هو شاقّ" [2] . وهو بذلك لا يوضح الصلة بين التقوى والآيات التي ورد فيها هذا اللفظ ، ولم يبين وجه المناسبة بينهما، وذلك لأنه لم يذكر المعنى المعجمي للفظ وصلة هذا المعنى بسياق الآيات التي ورد فيها مكتفيًا بالقول : إنه يأتي بعد الأمور التي فيها مشقة .

ولعل الفخر الرازي كان أقرب إلى توضيح هذه الصلة ووجه المناسبة بينهما ، فيرى :"أنه سبحانه وتعالى بين بهذا الكلام أن الصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى ، فإنه يَرْدَع عن الأَشَر والبَطر والفواحش ، ويُهَوِّن لَذَّاتِ الدنيا ورياستها ، وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج ، وإنما يسعى الناس لهذين ، كما قيل في المثل السائر : المرء يسعى لغارية بطنه وفرجه. فَمَنْ أكثر الصوم هان عليه أمرُ

---

[1] رواه البخاري : كتاب النكاح ، باب من لم يستطع الباءة فليصم .

[2] البحر المحيط ٢ / ٥٢ .

هذين ، وخفّت عليه مؤنتهما ، فكان ذلك رادعًا له عن ارتكاب المحارم والفواحش ، ومهونًا عليه أمر الرياسة في الدنيا ، وذلك جامع لأسباب التقوى ، فيكون معنى الآية : فرَضتُ عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم في كتابي ، وأعلمتُ أن هذا الكتاب هدًى لهم . ولما اختص الصوم بهذه الخاصية حسُن منه تعالى أن يقول عند إيجابها : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ منبهًا بذلك على وجه وجوبه لأن ما يمنع النفس عن المعاصي لابد وأن يكون واجبًا„ [1] .

وأما الآية الثالثة من الآيات المذكورة سابقًا فقد جاء في ختامها قوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي باللفظ الدال على العرفان بالإحسان والنعم وعدم سترها ، وذلك لأن السياق السابق عليه يتحدث عن إنزال القرآن ، وهو هداية للناس يهديهم إلى الطريق المستقيم ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة : ١٨٥) ، ثم يتحدث عن بعض التيسيرات التي أنعم الله بها على عباده في الصيام ، كالسماح لهم بالفطر في حالتي المرض والسفر رغبة في التيسير وبعدًا عن التعسير ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) . وهذه نِعَمٌ توجب الشكر والعرفان بها ؛ لذلك كان من المناسب أن يأتي في ختام هذه الآية ترجّي الشكر . ويشير إلى هذا أبو حيان بقوله :''وإذا كان التكليف شاقًا ناسَب أن يعقب بترجّي التقوى ، وإذا كان تيسيرًا ورخصةً ناسَبَ أن يعقب بترجّي الشكر ، فلذلك ختمت هذه الآية بقوله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

---

[1] مفاتيح الغيب ٥ / ٦٠ ، ٦١ .

لأن قبله ترخيصًا للمريض والمسافر بالفطر وقوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾,, [1] . وهو في تعليله هذا لم يوضح وجه المناسبة بذكر المعنى المعجمي للفظ الدال على الشكر ومدى مناسبة هذا المعنى للسياق الذي ورد فيه ، كما فعل في تعليله السابق .

وإذا كان أبو حيان قد ذكر أحد الأمرين اللذين يستوجبان الشكر في هذه الآية ، وهو التيسير فإن الفخر الرازي قد ذكر الأمر الثاني ، وهو الهداية، فيقول : ''إن الله تعالى لما أمر بالتكبير ، وهو أمر لا يتم إلا بأن يعلم العبد جلال الله وكبرياءه وعزته وعظمته ، وكونه أكبر من أن تصل إليه عقول العقلاء، وأوصاف الواصفين ، وذكر الذاكرين ، ثم يعلم أنه سبحانه مع جلاله وعزته واستغنائه عن جميع المخلوقات ، فضلاً عن هذا المسكين خصّه الله بهذه الهداية العظيمة لابد وأن يصير ذلك داعيًا للعبد إلى الاشتغال بشكره ، والمواظبة على الثناء عليه بمقدار قدرته وطاقته ، فلهذا قال : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾,, [2] .

وأما الآية الرابعة فقد ورد في ختامها لفظ ﴿يَرْشُدُونَ ﴾ الدالّ على إصابة وجه الأمر ومعرفة الطريق المستقيم ، وذلك لأنه سبقه أمر الله عز وجل لعباده بالاستجابة لأوامره والإيمان به ، وفي الاستمساك بهذا و تحقيقه ما يؤدي إلى الرشد بإصابة الأمر والهداية إلى الطريق السليم . ويشير أبو حيان إلى وجه هذه المناسبة قائلاً : ''وختْمُ الآية برجاء الرشد من أحسن الأشياء ؛ لأنه تعالى لما أمرهم بالاستجابة له وبالإيمان به نبّه على أن هذا التكليف ليس القصد منه إلا وصولكَ بامتثاله إلى رشادك في نفسك لا يصل إليه تعالى منه شيء من منافعه ، وإنما ذلك مختص بك ، ولما كان الإيمان شبّه بالطريق المسلوك في القرآن ناسب ذكر الرشاد وهو الهداية كما قال تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

---

[1] البحر المحيط ٢ / ٥٢ .

[2] مفاتيح الغيب ٥ / ٨٠ .

﴿ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة : ٦) ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (الشورى : ٥٢) ، ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ (الصافات : ١١٨)„ [١] .

ومن تلك الألفاظ المتباينة اللفظان الدالان على القرب والعَدْوِ ، إذ جاء كلّ واحدٍ منهما في موضع يشبه الموضع الذي ورد فيه الآخر ، ومع ذلك لا نستطيع أن نستبدل أحدهما بالآخر ؛ لأن السياق الذي ورد فيه يتطلبه دون غيره، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا ﴾ (البقرة : ١٨٧)، وقوله: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ﴾ (البقرة : ٢٢٩) .

وقد ركز المفسرون في تعليلهم اختلاف اللفظين في الآيتين على أن الآية الأولى قد تقدّمها نواهٍ، فناسب أن يأتي في ختامها قوله ﴿ فَلَا تَقۡرَبُوهَا ﴾ ، وتقدم الثانية أوامر، فناسب أن يأتي في ختامها قوله: ﴿ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ﴾. يقول أبو حيان في الآية الأولى : "وجاء هنا ﴿ فَلَا تَقۡرَبُوهَا ﴾ ، وفي مكان آخر ﴿ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ﴾، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢٢٩) وقوله ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ (النساء : ١٤) لأنه غلب هنا جهة النهي ، إذ هو المعقّب بقوله :﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ وما كان منهيًا عنه فعله كان النهي عن قربانه أبلغ„ [٢] . ويقول النيسابوري في الآيتين معًا : "وقيل الأحكام

---

[١] البحر المحيط ٢ / ٥٤ .

[٢] السابق ٢ / ٦١ .

المذكورة بعضها أمر وأكثرها نهي فغلب جانب التحريم ؛ أي : لا تقربوا تلك الأشياء التي مُنعتم عنها . وأما في الأوامر فقال ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ : أي اثبتوا عليها ولا تتخطوها„ [1].

وإذا تتبعنا السياق السابق على الآيتين نجد أن العكس هو الصحيح، فالآية الأولى قد كثرت قبلها الأوامر ، نحو : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (البقرة : ١٨٥) و﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (البقرة : ١٨٧) ، ولم يسبقها إلا نهي واحد، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ (البقرة : ١٨٧) .

وأما الآية الثانية فنجد أن النواهي قد كثرت قبلها مع كثرة الأوامر أيضًا نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ (البقرة : ٢٢١) ، وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ (البقرة : ٢٢٤) . فالعلة في ختم كل آية بما ختمت به لا ترجع إلى الأوامر أو النواهي، وإنما ترجع إلى المعنى الدقيق لكلا اللفظين اللذين وردا في ختام الآيتين و مناسبة هذا المعنى للسياق اللغوي السابق عليه ، فالقُرْبُ ''نقيضُ البُعدْ . قَرُبَ الشيءُ ، بالضمّ ، يَقْرُبُ قُرْبًا وقُرْبانًا وقربانًا ، أي دنا ، فهو قريب„ [2] . وأما العدو أو التعدي فهو التجاوز ''يقال عدا يَعْدُو عدوًا وَعدوانًا إذا تجاوز ما حُدَّ لَهُ . قال تعالى :

---

[1] غرائب القرآن ٢ / ١٣١ .

[2] ابن منظور : لسان العرب (قرب) .

﴿ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ (الأنعام : ١٠٨) أيْ ظُلْمًا. وأصل العَدْوِ التَّجاوُزُ ومنافاة الالتئام.. [١].

فالقرب الدنو من الشيء ، والعَدْو أو العدوان تجاوز الحد ، ومن المعنَيَيْن يتضح لنا سبب ختم الآية الأولى بقوله : ﴿ فَلَا تَقۡرَبُوهَا ﴾ والثانية بقولـه : ﴿ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ﴾، إذ تقدم الأولى الحديث عن بعض العبادات ، كالصوم والاعتكاف ، وهما عبادتـان لا يحـلّ فيهما للإنسان أن يقرب فيهما بعض الأشياء أو يدنو منها ، فيمتنع عليه في صيامه الطعام والشراب ومباشرة النساء ، ويحل لـه ذلك في أثناء الليل وكذلك الاعتكاف ، ويزيد علـى الصوم أن المعتكف يمتنع عن النساء حتى في أثناء الليل ، فهي أمور يجـب ألاّ يقتـرب منها ، لذا جاء في ختام الآية قوله ﴿ فَلَا تَقۡرَبُوهَا ﴾ ، أي اللفظ الدال على الدنو والقرب من الشيء .

وأما الآية الثانية فقد تقدمها مجموعة من العادات لا العبادات ، كزواج المسلم من مشركة والعكس والأيمان التي تجري على ألسنة الناس والإيلاء وعـدة المطلقـة وقتـل الأجنة وعدد مرات الطلاق، وكل هذه الأمور لا ينهى عن الدنو منها ، ولكن يُنْهَى عـن تجاوز الحد فيها، فلا يجوز للإنسان أن يزيد على عدد مرات الطلاق أو تنقص المطلقـة من أيام عدتها أو ينقص الزوج عدد الأيام التي حددها الله إذا حدث منه إيـلاء أو يزيـد عليها ... إلى آخر ذلك ، فلا يجوز تجاوز الحد في مثل هذه الأشياء ، ومـن هنـا كـان الأنسب الختم باللفظ الدال على تجاوز الحد والنهي عنه ﴿ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ﴾.

---

[١] السمين الحلبي : عمدة الحفاظ (ع . د . و) .

وقد لمس أبو حيان هذا الأمر عند حديثه عن التعدي ، فأوضح أنه يأتي عقب أشياء لا يجوز تجاوز الحد فيها ، يقول : ''وأما حيث جاء ﴿ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ﴾فجاء عقب بيان عدد الطلاق ، وذكر أحكام العدة ، والإيلاء ، والحيض ، فناسب أن يُنْهَى عن التعدي فيها ، وهو مجاوزة الحد الذي حده الله فيها ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ (النساء : ١٤) جاء بعد أحكام المواريث ، وذكر أنصباء الوارث ، والنظر في أموال الأيتام ، وبيان عدد ما يحلّ من الزوجات ، فناسب أن يذكر عقيب هذا كله التعدي الذي هو مجاوزة ما شرعه الله من هذه الأحكام إلى ما لم يشرعه,, [١] .

ويلخص الإسكافي القضية بقوله : ''والحدود ضربان : حدٌّ هو مَنْعٌ من ارتكاب المحظور ، وحدٌّ هو فاصل بين الحلال والحرام ، فالأول ينهي عن مقاربته ، والثاني ينهى عن مجاوزته ، وهما المذكوران في هذه السورة ، وحد النهي عنهما,, [٢] .

ومن هذه الألفاظ أيضًا اللفظان الدالان على الكسب والكفر ، وقد ورد الأول في قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٩) ، وورد الثاني في قوله ﴿ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ (الأنفال : ٣٥) ، و(الكسب) في معناه المعجمي من كسب ''والكَسْبُ في الأصلِ ما يتحرّاه الإنسانُ مما فيه جلْبُ نَفْع أو دَفْعُ ضرٌ ، وغَلَبَ استِعْمالُه في تحصيلِ الأموالِ وتوابِعها,, [٣] . وأما الكفر فمن كفر و''الكُفْرُ أصلُهُ التَّغطيةُ والسَّتْرُ ، وسُمِّيَ الكافر الشرعي كافرًا لأنه سَتَرَ الحقَّ وغطَّى عليه,, [٤] .

---

[١] البحر المحيط ٢ / ٦١ .

[٢] درة التنـزيل ص ٢٥ .

[٣] السمين الحلبي : عمدة الحفاظ (ك س ب) .

[٤] السابق (ك ف ر) .

ومن خلال هذا المعنى المعجمي لكلا اللفظين والسياق اللغوي الذي وردا فيه ، يتضح لنا سبب مجيء كل منهما في موضعه ؛ إذ ورد الأول بعد قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٨) . "فأخبر أن أخراهم تسأل الله أن يُضعِفَ العذاب لأولاهم لأنهم ضلُّوا و أضلّوا ، فيستحقون العقاب على قدر الاكتساب ، فلذلك طلبوا أن يكون عذابهم ضعف عذاب هؤلاء لإثمهم فيما كسبوا بضلالهم في أنفسهم وإثمهم فيما اكتسبوا من إضلال غيرهم" [1] . فاقتضى هذا الموضع أن يأتي باللفظ الدال على الكسب لما اقترفه هؤلاء من إضلال غيرهم ، فقال : ﴿ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ .

و أما (يكفرون) فقد ورد بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ (الأنفال : ٣٣ - ٣٥) ، وهذه الآيات في كفار قريش الذين كفروا بآيات الله ، وجحدوا بها واستكبرتها أنفسهم وهؤلاء "لم تكن صلاتهم تسبيحًا وتمجيدًا وخضوعًا

---

[1] الخطيب الإسكافي : درة التنزيل ص ١٠٣.

لله تعالى ، كما يفعل المؤمنون ، فيقال لهم في الآخرة (ذوقوا العذاب بكفركم) . ولم تتقدم هذه الآية ما يوجب قدرًا من العذاب دون قدر حتى يقال : ذوقوا من العذاب بقدر كسبكم له كما كان في الآية الأولى ,,[1] ، و إنما ذكر كفرهم من حيث ما ورد في الآيات السابقة من صدّهم عن المسجد الحرام وصلاتهم التي لم تكن إلا صفيرًا وتصفيقًا ، فناسب أن يأتي باللفظ الدال على الكفر في قوله : ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

ومن هذا القبيل أيضًا اللفظان الدالان على الإهلاك والإملاء ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ (الحج : ٤٥) ، وقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ (الحج : ٤٨) ، فقال في الأولى (أَهْلَكْنَٰهَا) وفي الثانية (أَمْلَيْتُ) .

والإهلاك في اللغة من هلك الشيء ، وله دلالات عدّة منها ''بُطْلانُ الشَيء من العالَم وعَدَمُهُ رأسًا وذلك المُسَمَّى فَنَاءَ المشارُ إليه بقوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾(القصص : ٨٨) ، ويقال للعذابِ والخوفِ والفَقْرِ : الهَلاكُ,,[2] . وبمقتضى هذا المعنى والسياق الذي ورد فيه هذا اللفظ نلحظ المناسبة بينهما ، إذ ''جاء بعد قوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ (الحج : ٤٢) إلى قوله : ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (الحج : ٤٤) ، فلما جاء عقيب ما وصف من إهلاكهم وصفهم بذلك,,[3] .

---

[1] السابق ص ١٠٣ ، ١٠٤.

[2] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (هلك) .

[3] الخطيب الإسكافي : درة التنزيل ص ١٧٢.

وأما إن أخذنا بالمعنى الآخر وهو العذاب فمتفق أيضًا مع سياق الآيات ، إذ تحدثت عن تكذيب الكافرين رسلهم ، ونتيجة هذا التكذيب هو تعذيبهم ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ، أي كيف كان إنكاري وتعذيبي لهم ، إذ النكير من نكر "ونَكِرْتُ على فلانٍ وأنكرتُ : إذا فعلْتَ به فِعلاً يَرْدَعُهُ ... والنُّكْرُ : الدَّهَاءُ والأمرُ الصَّعْبُ الذي لا يُعْرَفُ" [1] .

وأما الآية الثانية فقد ناسبها لفظ (أَمْلَيْت) ، و"الإملاء : الإمْدَادُ ، ومنه قيلَ للمُدة الطويلة مَلاوَةٌ منَ الدَّهْرِ، ومَلِيٌّ من الدَّهْرِ" [2] . وهو معنى متفق مع سياق الآية التي ورد فيها هذا اللفظ ، وذلك لأنها جاءت "بعد قوله : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ (الحج : ٤٧ ــ ٤٨) ، فذكر عقيب استعجالهم العذاب، والله يريد غيره من الإملاء لهم و تأكيد الحجة عليهم" [3] .

كما أن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ فيه إشعار بالتراخي وطول المدة التي يأتي بعدها العذاب لمن كفر إذا قيست بحساب البشر ، لذلك جاء التعبير القرآني بلفظ (أَمْلَيْت) الدالّ على الإمداد وطول المدة .

---

[1] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (نكر) .
[2] السابق (ملا) .
[3] الخطيب الإسكافي : درة التنــزيل ص ١٧٢.

ومن تلك الألفاظ المتباينة لفظا (تَسْمَعُونَ) و(تُبْصِرُونَ) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص : ٧١ ــ ٧٢) ، فجاء لفظ (تَسْمَعُونَ) في ختام الآية الأولى ، و"السمع : قُوَّةٌ في الأُذن به يُدْرِكُ الأصواتَ" [١] ، وذلك ــ على حد قول ابن أبي الإصبع ــ : "لما أسْنَدَ جَعْلَ الليل سرمدًا إلى يوم القيامة لنفسه ، وهو القادر الذي جعل الشيء ، لا يقدر غيره على مضادته ولا لغيره ، قال في فاصلة الآية : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لمناسبة السماع للظرف المظلم من جهة صلاحية الليل للسماع دون الإبصار ، لعدم نفوذ البصر في الظلمة" [٢] .

ويذهب ابن جماعة إلى تعليل آخر ، فيرى أن مجيء لفظ (تَسْمَعُونَ) في هذا الموضع يرجع إلى أن "عموم المسموعات في النهار لسبب كثرة الحركات والكلام والمخاطبات والمعاش أكثر من الليل ، فناسب ذكر السمع" [٣] . وما يذهب إليه هنا يقتضي أن تختم الآية الثانية لا الأولى بلفظ السمع ، لأنها هي التي تفترض جعل النهار أبديًا ، ولعل ما يذهب إليه ابن أبي الإصبع هو الأولى ؛ لأنه يرى أن افتراض جَعْل الليل أبديًا في الآية الأولى يتناسب معه السمع ، إذ حاسة السمع هي الأولى أن تعمل في هذا الظلام لا حاسة البصر .

---

[١] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (سمع) .

[٢] بديع القرآن ص ١٤٧.

[٣] كشف المعاني ص ٢٨٧ .

أما الآية الثانية فقد جاء في ختامها بلفظ (تُبْصِرُونَ) ، والبَصَرُ ''حاسة الرؤية ، وأبصرتُ الشيءَ رأيتُهُ,,[1] ، وذلك لأنه سبحانه و تعالى ــ كما يذكر ابن أبي الإصبع ــ : ''لما أسند جَعْل النهار سرمدًا إلى يوم القيامة لنفسه ، كان الوجود كأنْ لم يُخلَق فيه ليلٌ البتة ، قال في فاصلة هذه الآية : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لمناسبة ما بين النهار والإبصار,,[2] .

أما ابن جماعة فقد ذهب إلى تعليل آخر يرجع بمقتضاه مجيء هذا اللفظ في موضعه هذا ، فيقول: ''وقوله تعالى فيَ الثانيةَ : (تُبْصِرُونَ) لأن ظلام الليل يغشى الأبصار كلها فناسب ختمها بذكر البصر,,[3] . وهو تعليل واهٍ ؛ لأن صدر الآية يتحدث عن افتراض جعل النهار أبديًا إلى يوم القيامة ، أما الحديث عن الليل فيها فهو لنفي أن يستطيع أحد الإتيان بليل إن جعله الله سرمدًا .

وأكثر ضعفًا من هذا التعليل ما ذهب إليه الرازي في مسائله ، إذ يعلّل الأمر بقوله : ''السماع والإبصار المذكوران لا تعلّق لهما بظلمة الليل ولا بضياء النهار ، فلذلك لم يقرن الإبصار بالضياء ، وبيانه أن معنى الآيتين : أفلا يسمعون القرآن سماع تأمل وتدبر ، فيستدلوا بما فيه من الحجج على توحيد الله تعالى ، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة,,[4] . فهو بذلك لم يزد على أن جعل العلاقة الدلالية بين ما ختمت به كلتا الآيتين والسياق اللغوي لا وجود لها.

---

[1] الجوهري : الصحاح (بصر)

[2] بديع القرآن ص ١٤٧.

[3] كشف المعاني ص ٢٨٧.

[4] مسائل الرازي وأجوبتها ، من غرائب آي التنـزيل ص ٢٦٤ .

هذه نماذج للمناسبة بين معنى اللفظ المعجمي والسياق اللغوي في القرآن ، ولعلها تبرز بوضوح مدى الترابط والتناسب بين الطرفين ، وكيف يأتي القرآن بألفاظه مستقرة في موضعها غير قلقة ولا نافرة مرتبطًا بعضها بعناق بعض ولو تركنا القلم يرصد ويحلل المزيد من الشواهد لملأ مئات الصفحات ، بل يزيد ، ولنفد مداده على كثرته ، ثم لا يستخرج في النهاية جميع ما في هذا الشكل من أشكال المناسبة من درر ، ولكن لندع هذا الجانب من جوانب اللفظ اكتفاءً بما ورد ، في محاولة لتسليط الضوء على جانب آخر من جوانبه ، وهو صفته ومناسبة هذا الجانب للسياق اللغوي ، وهذا ما نتحدث عنه في الفصل القادم .

الفصل الثاني

المناسبة بين صفة اللفظ والسياق اللغوي

إذا كانت هناك ألفاظ تتناسب مع السياق اللغوي من حيث معانيها المعجمية فإن ثمة ألفاظًا أخرى تختلف في مناسبتها عما سبق ؛ إذ لا تتعلق المناسبة فيها بمعنى اللفظ ولكن بصفته ، وإن كان المعنى قد يكون له دور في تلك المناسبة بشكل ما . وتنقسم هذه الصفات إلى نوعين : الأول منهما يتعلق بتلك الصفات التي يكتسبها اللفظ عن طريق العرف ، ويشير إليها عبد القاهر بقوله : ''واعلم أنك كلمّا نظرتَ وجدتَ سبب الفساد واحدًا ، وهو ظنُّهم الذي ظنوه في (اللَّفظ) ، وجَعلُهم الأوصاف التي تجري عليه كلها أوصافًا له في نفسه ، ومن حيث هو لفظ ، وتركهم أن يميزوا بين ما كان وصفًا له في نفسه ، وبين ما كانوا قد كسبوه إياه من أجل أمرٍ عَرَضَ في معناه،، [1] .

ويمكن أن نطلق على هذه الصفات الصفات العرفية ، كالغرابة التي تنشأ عن قلة استعمال اللفظ أو الاستعارة أو اختلاف اللهجات ، وكالمبالغة والشرف والقبح وغير ذلك من الصفات التي قد تنشأ من طريق الطاقات الإيحائية للفظ نفسه أو تطوره الدلالي أو طريقة استعماله وغير ذلك من الأمور التي يمكن أن تعطي للفظ خصائص معينة يتميز بها من غيره .

فإذا ما روعيت هذه الصفات في السياق الذي ترد فيه ، فجاءت مطابقة لما يدل عليه ، كأن يؤتى بالألفاظ الغريبة في المقام الذي تتحقق فيه الغرابة أو بالألفاظ المتداولة في المقام الذي له دلالة ويكثر فيه استعمالها . إذا ما روعي هذا تحققت بلاغة الكلام ، وهو ما يشير إليه ابن أبي الإصبع بقوله : ''ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزلاً

---

[1] دلائل الإعجاز ص ٣٩٩ .

إذا كان المعنى فخمًا، ورقيقًا إذا كان المعنى رشيقًا ، وغريبًا إذا كان المعنى غريبًا بحتًا ، ومستعملاً إذا كان المعنى مولدًا محدثًا، كقول زهير:

أثافيَّ سُفْعًا في مُعَرَّس مِرْجَلِ ... وَنُؤْيا كجِذْمِ الحَوْضِ لم يتثلَّمِ
فلمّا عَرَفْتُ الدّارَ قلتُ لرَبْعها ... ألا انْعمْ صباحًا أيُّها الربعُ واسْلَمِ

فإن زهيرًا لما قصد إلى تركيب البيت الأول من ألفاظ تدلُّ على معنى عربيٍّ لكن المعنى غير غريب ، ركَّبه من ألفاظ متوسطة بين الغرابة والاستعمال ، ولما قصد في البيت الثاني إلى معنى أبين من الأول وأعرف وإن كان غريبًا ركّبه من ألفاظ مستعملة معروفة،، [١] .

وأما النوع الثاني من نوعي صفة اللفظ فهو ذلك النوع المتعلق بخصائصه الصوتية ، فهناك ألفاظ لها خصائص صوتية معينة تُكسب اللفظ صفات خاصة ، كتكرار الصوت الذي يجعل اللفظ يوحي بحدوث الأمر أكثر من مرة ، وتفخيم بعض الأصوات الذي يوحي بدلالة اللفظ على الفخامة أو العظمة أو المبالغة وغير ذلك ، وفيما يلي تفصيل هذين النوعين .

---

[١] تحرير التحبير ص ١٩٥ ، والبيتان من الطويل ديوان زهير بن أبي سلمى ، بشرح الأعلم الشنتمري ، ص ٤ . والأثافي : جمع أثفية وهي ما توضع عليه القدر ، والسفع : السود ، والمرجل : القدر يطبخ فيها ، والنؤي : الحجارة ، جزم الحوض : أصله ، ويتلثم : يتكسر .

المبحث الأول

المناسبة بين صفة اللفظ العرفية والسياق اللغوي

تتعدد الصفات التي تشتهر بها الألفاظ أو تُعرف عنها نتيجة لاستعمالات معينة لها أو تطورات دلالية تلحق بها أو طاقات إيحائية تؤدي باللفظ إلى اكتساب صفات معينة تُعرف عنه ، ومن ذلك ما يلي:

(١) الغـرابة

في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها الغرائب ، وليس المقصود هنا أنها شاذة أو غير فصيحة أو نافرة "وإنما اللفظة الغريبة ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل ، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس" [١] .

وإذا استنطقنا المعاجم بحثًا وراء معنى الغريب وجدنا أنها تدور في تعريفها له حول معنى البعد عن المألوف والتفرد في الجنس . يقول الراغب : "وقيل لكل متباعد : غريب ، ولكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير : غريب" [٢] ، وقال الزمخشري : "يقال : غرّبه : أبعده ، وغرّب : بَعُد ... وتكلم فأغْرَبَ إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره ، وتقول : فلان يُعرب كلامه ويُغْرب فيه ، وفي كلامه غرابة ، وغَرُب كلامُه ، وقد غَرُبَتْ هذه الكلمة أي غَمُضت فهي غريبة ، ومنه : مصنَّفُ الغريب" [٣] .

فالألفاظ الغريبة على هذا ما غمض معناها لبعدها عن الاستعمال وقلة دورانها على الألسنة . فيحتاج لمعرفة معناها إلى البحث عنه في المعاجم ، وهو ما يذكره

---

[١] مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٩ .

[٢] مفردات ألفاظ القرآن (غرب) .

[٣] أساس البلاغة (غرب) .

السيوطي في تعريفها قائلاً : ''والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ؛ فيحتاج في معرفتها إلى أن ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة،، [١].

وإذا طبقنا هذا المعنى على النص القرآني وجدنا أنه لا يحتوي من هذه الألفاظ إلا على القليل، فمعظم ألفاظه من الألفاظ الشائعة المتداولة في اللغة . وهو ما يوضحه الخطابي بقوله : ''إنا إذا تلونا القرآن وتأملناه وجدنا معظم كلامه مُبينًا ومؤلفًا من ألفاظ مبتذلة في مخاطبات العرب مستعملة في محاوراتهم ، وحظ الغريب المُشكِل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومراسليه عدد يسير،، [٢] .

ويرجع سبب الغرابة التي تتصف بها بعض ألفاظ القرآن عند الإمام عبد القاهر إلى أمر واحد به تتحقق تلك الصفة، وهو نقل الألفاظ من الحقيقة إلى المجاز . أما أن تكون الألفاظ غريبة في ذاتها فذلك قليل عنده، يقول : ''وتتأملُ ما جمعه العلماء في غريبِ القرآن ، فترى الغريب منه ــ إلاَّ في القليل ــ إنَّما كان غريبًا من أجل استعارةٍ هي فيه ، كمثل ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ (البقرة : ٩٣) ، ومثل :﴿ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ (يوسف : ٨٠) ، ومثل : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر : ٩٤) ، دون أن تكون اللفظة غريبة في نفسها ، إنما ترى ذلك في كلمات معدودةٍ كمثل : ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ (ص : ١٦) ، و﴿ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ (القمر : ١٣) ، و ﴿ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ (مريم : ٢٤)،، [٣] .

---

[١] المزهر ١ /١٨٦ .

[٢] بيان إعجاز القرآن ص ٣٥ .

[٣] دلائل الإعجاز ص ٣٩٧ .

وإنما ترجع قلة الغريب عنده في القرآن الكريم إلى أن الإكثار منه يخرجه من باب الإعجاز والتحدي ، وينأى به عن الفضيلة ؛ لأن العرب كانوا يرون أن تجنب الغريب في الكلام يعطي له الفضل على ما سواه ، يقول :"ثم إنه لو كان أكثر ألفاظ القرآن غريبًا ، لكان مُحالاً أن يدخل ذلك في الإعجاز ، وأن يَصِحّ التَّحدي به ؛ ذلك لأنه لا يَخْلو إذا وقع التحدّي به من أن يتحدى من له علمٌ بأمثاله من الغريب ، أو من لا علم له بذلك ؛ فلو تُحُدِّيَ به من يعلم أمثالَهُ لم يتعذر عليه أن يعارضه بمثله ، ألا ترى أنه لا يتعذّر عليك إذا أنت عرفت ما جاء من الغريب في معنى (الطويل) أن تعارض من يقول : (الشَّوْقبُ) ، بأن تقول أنت (الشَّوْذَب) ، وإذا قال (الأمَقّ) أن تقول (الأشَقّ) ؟، وعلى هذا السبيل . ولو تُحُدِّي به مَنْ لا علمَ له بأمثالِ ما فيه من الغريب ، كان ذلك بمنـــزلة أن يُتَحدّى العرب إلى أن يتكلموا بلسان التُّرك . هذا وكيف بأن يدخل الغريبُ من باب الفضيلة، وقد ثبت عنهم أنهم كانوا يَرَوْن الفضيلة في ترك استعماله وتجنُّبه ؟ أفلا ترى إلى قول عمر رضي الله عنه في زهير : إنه كان لا يُعَاظِلُ بين القول ، ولا يتتبع حُوشيَّ الكلام ؟ فقَرَن تتبُّع (الحُوشيّ) وهو الغريب من غير شُبْهة إلى (المعَاظلة) التي هي التعقيد" [1] .

وإذا كان سبب الغرابة عند الإمام عبد القاهر يرجع إلى الاستعارة ، فقد رأى غيره أسبابًا أخرى ترجع إليها تلك الغرابة ، من هؤلاء الأستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي يرى أن منشأ الغرابة فيما عدّوه من الغريب "أنْ يكون ذلك من لغات متفرقة ، أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يُخرجها مُخرج الغريب : كالظلم ، والكفر ، والإيمان ، ونحوها مما نُقِل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثة أو

---

[1] دلائل الإعجاز ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

يكون سياق الألفاظ ، قد دلّ بالقريب على معنى معين غير الذي يُفهم من ذات الألفاظ كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ (القيامة : ١٨) أي فإذا بيناه فاعمل به،، (١) .

وأرجعها غيره إلى سببين (٢) : أولهما : أن تكون الكلمة بحيث يحتاج في معرفة معناها إلى بحث وتنقير في كتب اللغة ، والثاني : ألا تخرج الكلمة إلا على وجه بعيد ، بل تخرج على وجه من الوجوه . ويضاف إلى هذا سبب آخر وهو ندرة استعمال اللفظ في البيئة اللغوية التي من المفترض أن يستعمل فيها فيكون غريبًا على المتلقي .

وعلى هذا إذا تأملنا القرآن الكريم وجدنا أن الألفاظ الغريبة فيه قليلة ''ولعل من وجوه بلاغة استخدام هذه الألفاظ الأدبية التي لم تشع على الألسنة إلا قليلاً ، ما نراه من اختيار ما حسُن وقعه على الأذن ، وجريُه على اللسان منها ثم في وضعه حيث لا يُغني غيره من الألفاظ غِناءه ، لتناسب موسيقاه أو لأنه يؤدي المعنى الدقيق دون سواه ، وفي ذلك من براعة الاستعمال ما لا نجده في الألفاظ المستعملة الشائعة،، (٣) .

ومن هذه الألفاظ لفظ (حرض) الذي لم يرد إلا في قوله تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ (يوسف : ٨٥) . والحَرَض ''ما لا يُعتَدّ به ولا خيرَ فيه ، ولذلك يقال لِما أشرف على الهلاك : حَرَضٌ،، (٤) ، ''والحرض ، الذي قد أذابه الحزن أو العشق،، (٥) ، ويفسره ابن عباس

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٥٩ .

(٢) عبد المتعال الصعيدي : البلاغة العالية ـــ علم المعاني ص ١٣ وما بعدها .

(٣) د . أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ص ٩١ ، ٩٢ .

(٤) الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن الكريم (حرض) .

(٥) أبو عبيدة : مجاز القرآن ١ / ٣١٦ .

بالتلف أو المرض الذي ما دون الموت [١] ، والحارضُ ـ كما يرى الفرّاء ـ: الفاسد في جسمه أو عقله [٢] ، أي إن الحرض هو الهلاك ، أو الإشراف عليه من الحزن أو العشق أو المرض ، أو هو الفساد في الجسم أو العقل ، أو هو التلف ، وهذه ألفاظ متداولة بخلاف لفظ الحرض الذي يندر استعماله ، ومع ذلك آثر التعبير القرآني أن يأتي به دون غيره من الألفاظ .

ويعلل ابن أبي الإصبع هذا الأمر قائلاً : ''فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخوتها فإن التاءِ أقلّ استعمالاً ، وأبعد من أفهام العامّة ، والباء والواو أعرف عند الكافّة ، وهي أكثر دورانًا على الألسنة ، واستعمالاً في الكلام ، أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها ، فإنّ (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من (تفتأ) وهم (لَكان) وما قاربها أكثر استعمالاً منها ، وكذلك لفظ (حَرَضًا) أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك ، فاقتضى حُسن الوضع في النظم أن تجاوَر كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخيًا لحسن الجوار ، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم،، [٣] .

وما يذهب إليه هنا هو من قبيل المناسبة اللفظية ؛ إذ جاء لفظ (الحرض) مناسبًا ــ كما يرى ــ للفظ (تفتأ) في غرابته أو قلة استعماله ، وكذلك حرف القسم التاء ، وهو أقل حروف القسم استعمالاً ، مغفلاً بذلك العلاقة بين هذه الألفاظ وما لها من صفات ودلالة السياق اللغوي الواردة فيه .

---

[١] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٦٢٤

[٢] معاني القرآن ٢ / ٥٤ .

[٣] بديع القرآن ص ٧٧ ، ٧٨ .

ولعل الأمر أبعد مما يذهب إليه ، فلو تأملنا السياق الذي وردت فيه هذه الألفاظ لأدركنا سرّ مجيئها على الرغم من ندرة استعمالها ، فالسياق هنا يتحدث عن إخوة يوسف عندما أرادوا إخبار أبيهم أن ابنه (بنيامين) قد سرق وأنهم لم يقولوا إلا الحق ، يقول عز وجل على لسانهم : ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ (يوسف :٨١) ، فلما رجعوا إليه ، وأخبروه بذلك كان رده عليهم ردًا عجيبًا وغريبًا بالنسبة لهم ، فهم يخبرونه أن ابنه بنيامين لم يأت معهم لأنه سرق ، فإذا هو يُعرِض عما يقولون ، ويتحسَّر على يوسف وما جرى له، على الرغم من أنهم لم يذكروه في حديثهم : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ (يوسف : ٨٣ ــ ٨٤) ، فناسب أن يأتي التعبير القرآني بلفظ الحَرَض واللفظين الآخرين ليدل بها على غرابة موقفه وتعجبهم الشديد من هذا الموقف .

ومن هذا القبيل لفظ الإدّ ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ (مريم : ٨٨ ــ ٨٩) ، وهو لفظ وحيد المادة والصيغة في القرآن ، والإدّ يفسره الفراء – بأنه الشيء العظيم– [١] ، ويفسره القرطبي –بالشدة– [٢] ،

---

[١] معاني القرآن ٢ / ١٧٣ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٥٨٦ .

والإد عند الراغب : الأمر المنكر الفظيع الذي يقع فيه جلبة [١] ، وعند ابن منظور هو "الْعَجَبُ والأمْرُ الفَظِيع العظيمُ والدَّاهِيةَ"[٢] .

وهذه الألفاظ التي تدل على معنى الإدّ يكثر استعمالها ، وقد عدل عنها التعبير القرآني إلى هذا اللفظ القليل الاستعمال ؛ وذلك لأن السياق الذي ورد فيه يعرض لأمر في غاية الغرابة و العجب ؛ إذ زعم بعضهم أن الله عز وجل قد اتخذ ولدًا ليكون ابنًا له ، وهو أمر لا يقول به من له عقل، لأن الله منــزه عن ذلك ، فلا يجوز أن يتخذ صاحبة ولا ولدًا ، فقد زعموا بذلك أمرًا عظيمًا منكرًا فظيعًا ، ولذلك يقول عز وجل في قولهم هذا :﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ ﴾ (مريم : ٩٠ ــ ٩١) ، فناسب أن يأتي بهذا اللفظ الغريب الذي يندر استعماله والذي يدل على كل المعاني السابقة ؛ ليتفق في صفته ومعناه مع ما ذهبوا إليه من زعم عظيم منكر ، فيه من الغرابة والعجب ما فيه .

ويضاف إلى هذا أن لفظ (إدًا) يتناسب في جرسه الموسيقي مع فواصل الآيات السابقة عليه واللاحقة له ، نحو (عدًّا / وَفْدًا / وِرْدًا / عَهْدًا / وَلَدًا / هَدًّا / عَبْدًا / عدًا / فَرْدًا / وُدًّا / لُدًّا). ولو أتى التعبير القرآني بلفظ آخر مكان هذا اللفظ ، فقال على ــ سبيل المثال ــ (لقد جئتم شيئًا عظيمًا أو شيئًا منكرًا أو شيئًا فظيعًا) لاختل هذا النسق الموسيقي الذي تسير عليه الآيات .

وهناك لفظة أخرى وحيدة في مادتها وصيغتها، وهي من أغرب ألفاظ القرآن ، وهي لفظة (ضِيزَى) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ ﴾(النجم :

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (إد) .

(٢) لسان العرب (أدد) .

٢٢) و''ضيزى أي : ناقصة ، ويقال جائرة ، ويقال : أضازه حقّه إذا نقصه ، وضاز في الحكم إذا جار فيه،، [١] ، وقال الكسائي: ''يقال ضازَ يَضيز ضَيْزًا ، وضازَ يَضُوز ضَوْزًا ، وضَأز يَضأز ضَأْزًا إذا ظلم ، وتعدّى وبخس وانتقص،، [٢] . وقال الجوهري : ''ضاز في الحكم ، أي جار . يقال : ضازه حقه يضيزه ضيزًا ، وعن الأخفش أي بخسه ونقصه،، [٣] .

وعلى هذا فإن لفظ (ضِيزَى) يعنى ناقصة أو جائرة أو ظالمة ، وهي ألفاظ يكثر استعمالها تركها التعبير القرآني في هذا الموضع ، وأتى باللفظة المذكورة لتحقيق أمرين معًا ؛ أولهما متعلق ببنية السياق أو النسق الموسيقي الذي تسير عليه السورة بأكملها ؛ إذ تنتهي جميع فواصلها بالألف اللينة، فناسب أن تأتي هذه اللفظة دون أخواتها لتحقيق هذا الإيقاع. وأما الأمر الثاني فيتعلق بدلالة السياق الذي وردت فيه ، إذ يخبر عن قسمة عجيبة غريبة جعل فيها الكافرون الذكور لأنفسهم والإناث لله مع أن هؤلاء الإناث في نظرهم هم الجنس الأدنى ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ (النجم :٢١) . فلو كانت هناك قسمة عادلة لجعلوا الجنس الأعلى للخالق ، والأدنى للمخلوق إن أرادوا التقسيم ، ولكن الله عز وجل منـــزه أن يكون له هذا أو ذاك .

وقد نظر ابن الأثير في توجيهه لهذه اللفظة إلى الجانب المتعلق ببنية السياق أو الإيقاع الذي تسير عليه الآيات دون أن يلقي بالاً إلى الجانب الآخر ، فيقول : ''وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن ، وهي لفظة (ضِيزَى) فإنها في موضعها لا يسد غيرها مسدها ، ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء ، فقال

---

[١] السجستاني : تفسير غريب القرآن (ضيزى) ص ١٤٩.

[٢] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٩ / ٤١٧ .

[٣] الصحاح (ضيز) .

تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾ (النجم : ١ ـ ٢) وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢ ﴾ (النجم : ٢١ ـ ٢٢) فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسد مسدها في مكانها ، وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا : إن غير هذه اللفظة أحسن منها ، ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ولا مناسبة ، لأنها تكون خارجة عن حرف السورة ، وسأبين ذلك فأقول : إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى ، إلا أنا إذا نظمنا الكلام قلنا : ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ظالمة لم يكن النظم كالنظم الأول وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام،، (١) .

وعلى الرغم من أن ابن الأثير قد أحسن في توجيه هذا اللفظ ــ كما يرى دكتور أحمد بدوي ــ (٢) فإنه قد أغفل الجانب الدلالي للسياق ومناسبة اللفظ وما يتصف به من غرابة لهذا السياق، وهو ما راعاه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في تعليله لمجيئه في هذا الموضع ، يقول محسنًا التعليل و مراعيًا الجانبين البنيوي و الدلالي للسياق : ''وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه وهي كلمة (ضِيزَى) من قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢ ﴾ ، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ، فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم مفصلة كلها على الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب ؛ إذ وردت في ذكر

---

(١) المثل السائر ١/ ١٦٢ والصواب أن يقال مسجوعة على حرف الألف .

(٢) من بلاغة القرآن ص ٨٧ .

الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات ، فقال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصورّ في هيئة النطق بها الإنكارَ في الأولى والتهكمَ في الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية . والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام ، وله نظائر في لغتهم ، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسُن إلا في موضعها ، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقت له بلفظها وهيئة منطقها ، فكان في تأليف حروفها معنى حسي وفي تألف أصواتها معنى مثله في النفس،، [١] .

(٢) المبالغـــة [٢]

أعني بالمبالغة هنا أن يمتاز لفظ من غيره بزيادة في صفته ، كالقوة أو الشدة ، أو بزيادة في معناه تؤدي إلى زيادة في صفته ، كالعِلْم الذي هو أبلغ في دلالته من العقل أو الضوء الذي يأتي النور دونه في الدلالة . ويمكن أن تتحقق هذه المبالغة في الألفاظ بأمور عديدة تتمثل فيما يلي:

---

[١] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٩٦.

[٢] قد يستخدم بعض العلماء أفعل التفضيل (أبلغ) وهم لا يقصدون أكثر بلاغة وإنما يعنون به أكثر مبالغة كأن يقولوا انفجر أبلغ من انبجس ، أي إنه أكثر مبالغة منه في الدلالة على معناه أو أن يقولوا : الرحمن أبلغ من الرحيم ، أي إنه أكثر مبالغة منه في الدلالة على الرحمة .

(أ) استعمال صوت معين في اللفظ

من الأمور التي قد تُكسِب اللفظ المبالغة استعمال أحد الأصوات التي توحي بتلك المبالغة فيه، كالتاء في (مقتدر) فبها يصير أبلغ أو أكثر مبالغة من قادر . والطاء في (يصطرخون) الذي هو أكثر مبالغة من يصرخون . والكاف والباء في (كبكبوا) ، فتكرار هذين الصوتين في هذا اللفظ يوحي بالمبالغة . وسيأتي الحديث في هذا النوع من المبالغة في المبحث الثاني من هذا الفصل الخاص بالأصوات .

(ب) صيغة اللفظ

من الأمور التي قد تنشأ عنها المبالغة في اللفظ الصيغة التي يأتي عليها، ونرى ذلك متحققًا في صيغ المبالغة، كصيغة (فَعّال)، وعليها لفظ (سَحّار) في قوله تعالى :

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(الشعراء : ٣٦ ــ ٣٧) ، فجاء التعبير القرآني بصيغة المبالغة في هذه الآية على الرغم من أنه قد جاء في آية أخرى مشابهة لها بصيغة اسم الفاعل (ساحر) التي لا تدل على المبالغة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الأعراف : ١١١ ــ ١١٢) .

وقد علل ابن جماعة هذا الأمر بأن الآية في سورة الشعراء قد سبقها قوله (بسحره) ، فناسب أن تأتي صيغة المبالغة في هذا الموضع [1] . وهو تعليل ضعيف إذ لم يقف فيه على السبب الحقيقي الذي جعل لفظ (سحار) يأتي في آية الشعراء دون آية الأعراف .

---

(1) كشف المعاني ص ١٨٧ .

والناظر إلى سياق كلتا الآيتين يدرك سبب مجيء كل لفظ في موضعه، فالسياق في سورة الشعراء ورد فيه وصف فرعون موسى بأنه ساحر عليم ، ثم أكد ذلك بإضافة السحر إليه : ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ ﴾ (الشعراء : ٣٤ ـ ٣٥) ، فجاء الوصف من فرعون نفسه ، وكلامه عند قومه معظم لا يساويه كلام آخر، فعندما يصفه بالسحر والعلم به فمعنى هذا أنه قد بلغ الغاية في وصفه عند هؤلاء الملأ، فناسب أن يأتي التعبير القرآني في هذا الموضع بصيغة المبالغة المتفقة مع عِظم ما قاله فرعون في نظر سامعيه .

وأما الآية الثانية فلم يكن الوصف قبلها لموسى بأنه ساحر عليم على لسان فرعون ، بل كان على لسان الملأ من قومه : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ (الأعراف : ١٠٩) ، وكلامهم هذا لا يصل في مكانته إلى ما قاله فرعون ، فلم يحتج الأمر منهم إلى المبالغة في وصف موسى ، فجاء التعبير القرآني في هذا الموضع بالوصف الخالي من المبالغة .

وقد تدل صيغة اللفظ على المبالغة من خلال وضعها في سياق معين ، وإن كانت في ذاتها لا تدل على ذلك . ومن هذا القبيل لفظ (كَلِمَٰتِ) في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝ ﴾ (الكهف : ١٠٩) فجاء التعبير القرآني هنا بلفظ (كَلِمَٰت) . وهو جمع قلة ، ولم يأت بجمع الكثرة المناسب في ظاهره مع كثرة عجائب الله ، وهو ما يعلله الرازي قائلاً : ''فإن قيل : الكلمات جمع قلة ، والمقصود التفخيم والتعظيم ، فكان جمع الكثرة وهو الكَلِم أشد

مناسبة ؟ قلنا : جمع القلة هنا أبلغ فيما ذكرتم من المقصود ؛ لأن جمع القلة إذا لم يَفْنَ بتلك الأقلام وذلك المداد ، فكيف يفنى جمع الكثرة،، [١] .

(ج) الاستعارة

قد يكون للاستعارة دور كبير في تحقيق المبالغة للفظ، فاللفظ المستعار لمعنى معين بطبيعة الحال أكثر مبالغة من اللفظ الحقيقي ، إذ يأتي بزيادة في المعنى لا تكون له .

ومن هذا القبيل الاستعاري ما نراه في لفظ (طغى) عند إسناده للماء في قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ (الحاقة : ١١) . فمن المعروف أن ''كل كلمة مفردة منطوقة لها دلالة أولية وتنتمي إلى حقل دلالي أو مجال دلالي معين . هذه الحقول الدلالية مصنفة في عقول أبناء اللغة المعينة بأسس مختلفة،، [٢] . و''كل كلمة من حقل دلالي معين قد تشترك معها كلمات من حقلها الدلالي، أو من حقول أخرى تكون بينها صفات مشتركة من أي جانب تستجيب للدخول في علاقات نحوية من نوع ما ، سواء أكان ذلك على سبيل الحقيقة أم على سبيل المجاز مع كلمات من حقول دلالية أخرى ، ولا تستجيب بالضرورة لبعضها الآخر،، [٣] . وعلى هذا يجب أن يتم اختيار الكلمات لإدخالها في تركيب ما من مجال دلالي معين يتناسب مع الكلمات الأخرى الداخلة معها في علاقات نحوية داخل التركيب . ''وبناء على هذا الاختيار الذي تتوقف عليه الوظائف النحوية أيضًا ، إذ إنها لا تكون في فراغ ، تتحقق درجات الصحة النحوية DEGREES OF GRAMMATICALNESS أي إن بعض الكلمات تكون أكثر استجابة لكلمات أخرى من غيرها،، [٤] .

---

[١] مسائل الرازي وأجوبتها ، من غرائب آي التنـــزيل ص ٢٧٣ .

[٢] د . محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ص ٨٨ .

[٣] السابق ص ٨٩ .

[٤] السابق ص ٥٠ .

فإذا توافقت خصائص بعض الكلمات مع بعض ، كونت تركيبًا تتحقق فيه أعلى درجات الصحة النحوية ، وكلما قل هذا الاتفاق في الخصائص قلت بذلك درجة تلك الصحة النحوية المشار إليها ، وحدث ما يسمى بالانكسار أو التصادم أو الانتهاك أو ما يطلق عليه الدكتور تمام حسان المفارقة المعجمية [1] .

وإذا رجعنا إلى جملة (طغى الماء) في الآية السابقة ، نجد أنفسنا أمام هذا الانكسار أو تلك المفارقة المعجمية ، وذلك أن الفعل (طغى) قد استعير من مجال التكبر والتجبر والغطرسة والاستعلاء ، وهي معان لا تناسب الفاعل (الماء) الذي تناسبه ألفاظ من مجال السلاسة والعذوبة والكثرة . ويعتمد جبر المفارقة الدلالية أو المعجمية في هذه الآية على أن ''نحلل الفعل (طغى) إلى مكوناته الأساسية ، ثم نأخذ من هذه المكونات معنى الاستعلاء ، وهو معنى يناسب الماء إذا كثر وعلا ، غير أن معطيات السياق تجعل للتضامّ المجازي (طغى الماء) دلالة أبلغ من دلالة مقابله الحقيقي المفترض (علا الماء) ، وذلك لأن طغيان فرعون كان في حاجة إلى طغيان أكبر منه لينتصر عليه ويقهره،، [2] . ولذلك يبين الزركشي في تعليقه على هذه الآية أن (طغى) يحمل معنى علا في شيء من القهر ، فهو أبلغ في هذا المقام من اللفظ الحقيقي . قال : ''لأن حقيقة (طغى) علا ، والاستعارة أبلغ ، لأن (طغى) ، علا قاهرًا . وكذلك ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (الحاقة : ٦) ، لأن حقيقة (عَاتِيَة) شديدة ، والعتو أبلغ ، لأنه شدة فيها تمرد،، [3] .

---

[1] الأصول دراسة إيبمستولوجية ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

[2] مصطفى عبد الرحمن نمر : قرينة التضام ص ١٤٧ .

[3] البرهان في علوم القرآن ٣ / ٤٩٦ .

ومن الاستعارة التي نرى فيها المبالغة أيضًا استعارة لفظ (أذاق) لما يُلْبَس ثم استعارة الثاني للجوع والخوف في قوله تعالى :﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل : ١١٢) ، فنرى هنا مفارقة معجمية بين (أذاق) و(لباس) ، ثم مفارقة أخرى بين (لباس) ولفظي (الجوع) و(الخوف) ؛ إذ عدل التعبير القرآني عن أن يقول : كساها الله لباس الجوع وأذاقها الله طعم الجوع حتى يكون الكلام على حقيقته إلى تلك الاستعارة أو المفارقة المعجمية التي أضفت على الكلام مبالغة اقتضاها السياق ؛ لأن الله عز وجل في هذا الموضع يضرب مثلاً لقرية كانت تعيش مطمئنة يأتيها رزقها بغير عناء لا من مكانٍ واحدٍ ، بل من كل مكان فحق على أهلها أن يشكروا الله على ما وهبهم من النعم ، ولكنهم كفروا بنعمه عليهم جاحدين فضله ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ (النحل : ١١٢). وما اقترفوه من إثم ليس ذنبًا صغيرًا وإنما هو ذنب عظيم ، فلم يكتفوا بعدم الشكر على نعم الله عليهم ، بل إنهم كفروا بتلك النعم ، فاستوجبوا بذلك أن يكون العقاب على ما فعلوه عظيمًا يتناسب مع ذنبهم ، ومن هنا كانت الاستعارة التي توحي بالمبالغة حتى يتناسب الجزاء مع الفعل .

وقد أحسن صاحب الطراز في تعليقه على هذه الآية إظهار ما في هذه الاستعارة من المبالغة ، فيقول : ''ومن التجريد قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ ﴾ ، ولو قال : كساها الله لباس الجوع والخوف ، لكان توشيحًا ، فبالغ في شدة ما أصابهم بقوله : (فَأَذَاقَهَا) ؛ لأن الذوق أبلغ في الإحساس وأدخل في الإيلام من قوله : كساها . لا يقال فأراهُ لما قال : (أذاقها) فلِمَ لم يقُل : طَعْمَ الجُوع والخوف ، ليلائم قوله : (فَأَذَاقَهَا) ولِمَ قال : لباس الجوع وبين اللباس والطعام تنافر؟ لأنا نقول إن الطعم وإن كان ملائما

للإذاقة ، لكنه لو ذكره لما كان مقويًا لبيان اشتمال الجوع والخوف لهم ، وعموم أثرهما على جميع البدن ، كما تَعُمّ الملابس وتغطي جميع البدن ، فلا جرم حصل من لفظ الإذاقة المبالغة في إدراك ألم الجوع والخوف بالإدراك بآلة الذوق ، وحصل من لفظ اللباس المبالغة في العموم والاشتمال ، فلأجل هذا كان الأولى ذكر اللباس ليحصل المعنيان جميعًا،، [1] .

(د) دلالة اللفظ

قد يكون لدلالة اللفظ المعجمية أثر كبير في تحقيق المبالغة ؛ فقد تجعله يزيد في معناه على غيره من الألفاظ التي تقاربه في المعنى ، ومن ذلك لفظا (انفجر) و(انبجس) ، وهما كما يرى ابن منظور بمعنى واحد ؛ فانبجس أصله بجس والبجس عنده ''انْشِقاقُ في قِرْبَه أو حَجَرٍ أو أرْضٍ يَنْبُعُ منه الْماءُ ، فإن لم يَنْبُعْ فليس بانبجاس ... وبَجَسْتُ الماء فانْبَجَسَ أيْ فَجَرْتُهُ فانْفَجَرَ،، [2] . ولكن الراغب يفرق بينهما بأن ''الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع،، [3] . كما يفرق بينهما ابن عطية : إذ الانفجار عنده ''انصداع شيء عن شيء ، ومنه الفُجر ، والانبجاس في الماء أقل من الانفجار،، [4] ، أي إن الأول يزيد في معناه على الثاني، فهو أبلغ منه أو أكثر مبالغة .

وعلى ضوء ما في اللفظ الأول من زيادة في المعنى تؤدي إلى مبالغة ليست في الثاني كان وروده في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ

---

[1] العلوي : الطراز ص ١١٣.

[2] ابن منظور : لسان العرب : (بجس) .

[3] مفردات ألفاظ القرآن : (بجس) .

[4] المحرر الوجيز : ١ / ١٥٢.

ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ (البقرة : ٦٠) ، وكان ورود الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ (الأعراف: ١٦٠) . ويعلل ابن جماعة هذا الاختلاف ويتبعه السيوطي [١] في الرأي نفسه بأن ''الانفجار أبلغ في كثرة الماء، فعلى هذا أن سياق ذكر نعمته اقتضى ذكر الانفجار ، وناسبه،، [٢] .

وإنما كان اختلاف اللفظين في الآيتين علىٰ حد قول ابن الزبير لأن''الواقع في الأعراف طلب بني اسرائيل من موسى ، عليه السلام ، السقيا ، قال تعالى :﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾ ، والوارد في البقرة طلب موسى ــ عليه السلام ــ من ربه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ ، فطلبهم ابتداء فناسبه الابتداء ، وطلبُ موسى ــ عليه السلام ــ غايةٌ لطلبهم ، لأنه واقع بعده ومرتب عليه ، فناسب الابتداءُ الابتداءَ ، والغايةُ الغايةَ ؛ فقيل جوابًا لطلبهم : (فانبجست) ، وقيل إجابةً لطلبه (فانفجرت) ، وتناسب ذلك، وجاء على ما يجب، ولم يكن ليناسب العكس،، [٣] .

ومن خلال ما قرره ابن الزبير يمكننا القول إنه لما كان طلب السقيا في الآية الأولى موجهًا من موسى لربه ، وفي الثانية موجهًا لموسى من قومه ، كان ذكر انفجر

---

[١] معترك الأقران في إعجاز القرآن : ١ / ٦٨ .

[٢] كشف المعاني : ص ٩٨ ، ٩٩ .

[٣] ملاك التأويل : ١ / ٢١٢ ، ٢١٣ .

الأبلغ في معناه أنسب لمعنى الآية الأولى ؛ إذ يتفق مع قدرة الله التي تعلو على قدرة البشر .

وقد يكتسب اللفظ المبالغة من خلال السياق الوارد فيه لا من دلالته ، بل قد يجعله السياق أكثر مبالغة من لفظ يزيد عليه في معناه ، نحو لفظ النور في قوله تعالى : ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة : ١٧) ، وهو أدنى في معناه من الضوء ، بدليل نسبة الأخير إلى الشمس في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ (يونس :٥) ، قال أبو حيان : ''ولما كانت الشمس أعظم جرمًا خُصَّت بالضياء ؛ لأنه هو الذي له سطوع ولمعان، وهو أعظم من النور،، [1] .

وقد عدل التعبير القرآني في هذا الموضع عن لفظ الضوء الذي يدل على زيادة ليست في لفظ النور المذكور على الرغم من أنه يتفق في مادته مع قوله في الآية الكريمة نفسها ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ (البقرة : ١٧) ؛ وذلك ــ على حد قول الزمخشري ــ ''لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة . فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورًا ، والغرض إزالة النور عنهم رأسًا وطمسه أصلاً . ألا ترى كيف ذكر عقيبه ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ ﴾ ، والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه ، وكيف جمعها ، وكيف نكرها ، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شبحان ، وهو قوله : ﴿ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ ،، [2] . فاكتسب لفظ النور المبالغة من السياق الوارد فيه حتى صار أبلغ من الضوء الذي هو أشد منه .

---

[1] البحر المحيط ٥ / ١٢٩ .

[2] الكشاف ١ / ٧٤ .

(٣) شـــرف اللفظ

قد توصف بعض الألفاظ بالشرف من حيث كونها تطلق على شيء يستحق ذلك الوصف، كلفظ (ذو) بمعنى صاحب الذي يتصف بهذا الوصف ؛ لأنه يأتي مضافًا دائمًا . قال أبو حيان: ''والوصف بذو أشرف عندهم من الوصف بصاحب ؛ لأنهم ذكروا أن ذو أبدًا لا تكون إلا مضافة لاسم، فمدلولها أشرف ، ولذلك جاء ذو رُعَيْن ، وذو يَزِن ، وذو الكُلاع ، ولم يسمّوا بصاحب رعين ، ولا صاحب يزن ، ونحوها ، وامتنع أن يقول : في صحابي أبي سعيد أو جابر ذو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاز أن يقول : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك وصف الله تعالى نفسه بقوله (ذو الجلال) (ذو الفضل)،،[1] .

وبمقتضى هذه الصفة نرى مجيء هذا اللفظ في قوله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء : ٨٧) ، وورود لفظ (صاحب) في قوله تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾ (القلم : ٤٨) ، فجاء التعبير القرآني في الآية الأولى باللفظ الأشرف ؛ لأن المقام مقام مدح ليونس عليه السلام ؛ لأنه وهو في هذا الضيق والغم والكرب العظيم أخذ يستغفر ربه معترفًا بخطئه ، إذ ذهب مغاضبًا من قومه، فاستجاب له الله ، ونجاه من هذا الأمر ؛ لأنه من المؤمنين . يقول تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنبياء : ٨٨) . وأما الآية الثانية فكانت في سياق نهي الرسول أن يكون مثل صاحب الحوت ، فيذهب مغاضبًا قومه ، بل

---

[1] البحر المحيط ١/ ٥١٠ .

عليه بالصبر ، وهو مكان ليس فيه من المدح ما كان في الآية السابقة ، لذلك عبر القرآن في هذا الموضع بلفظ (صاحب) الذي هو أدنى في الشرف من لفظ (ذو) .

وقد رأى السهيلي صفة الشرف في آية الأنبياء متحققة في لفظ آخر غير لفظ (ذو) ، وهو لفظ (النون) ، يقول في كتابه الأعلام فيما ينقله عنه الزركشي : ''فإنه حين ذكره في موضع الثناء عليه ، قال : (ذا النون) ، ولم يقل (صاحب الحوت) ، ولفظ (النون) أشرف ، لوجود هذا الاسم في حروف الهجاء ، في أوائل السور ، نحو ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ (القلم : ١) . وقد قيل : إن هذا قسم بالنون والقلم ، وإن لم يكن قسمًا ، فقد عظمه بعطف المقسم به عليه ، وهو القلم ، وهذا الاشتراك يشرف هذا الاسم وليس في الاسم ، وليس في اللفظ الآخر ــ وهو الحوت ــ ما يشرفه،، [1] .

(٤) دونيــة اللفظ

إنما أعني بدونية اللفظ هنا أن بعض الألفاظ قد تكون أدنى من غيرها في أداء معنى معين أو في طبيعتها ، من حيث اتصافها بصفة معينة أو دلالتها على مسمى ما ، فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (هود : ١١٣) ، وهو لفظ دون الإحراق في دلالته على الإحساس بالنار ؛ لذا ورد في هذه الآية ، وذلك ــ كما يذكر ابن أبي الإصبع ــ لأنه''لما كان الركون إلى الظالم دون فعل الظالم وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم ، ومس النار في الحقيقة دون الإحراق ، ولما كان الإحراق عقابًا للظالم أوجب العدل أن يكون المسّ عقاب الراكن إلى الظالم ، فلهذا عدل عز وجل عن قوله : (وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ) فتدخلوا النار ، لكون الدخول مَظِنة

---

[1] البرهان في علوم القرآن ٤/ ٧٤ .

الإحراق ، وخص المس ليشير به إلى ما يقتضي الركون من العقاب ، ويميز بين ما يستحق الظالم وبين ما يستحق الراكن له من العقاب،، [١] .

ومن النوع الثانى لفظ (شِرْذِمة) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ (الشعراء : ٥٤ - ٥٥) . وهو وحيد الصيغة والمادة في القرآن ، و(شرذمة) ــ كما يفسرها ابن عطية ــ ''الجمع القليل المحتقر،، [٢] ، ''وشرذمة كل شيء : بقيّته الخسيسة،، [٣] كذا ذكر أبو حيان ، فآثر التعبير القرآني المجيء بهذا اللفظ الذي نرى فيه الدلالة على التحقير دون لفظ (جماعة) ، وذلك لأن السياق هنا يتحدث عن قوم موسى الذين يراهم فرعون وقومه قومًا لا قيمة لهم، ومع ذلك فعلوا ما يزيد غضبه عليهم وغيظه منهم . قال أبو حيان : ''والمعنى أنهم لقلتهم ، لا يبالي بهم ، ولا تتوقع غفلتهم ، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور،، [٤] .

ومن ذلك ما فعله موسى ، إذ انتصر على السحرة الذين جمعهم فرعون ، بل جعلهم يؤمنون بالله وحده كافرين بفرعون وسلطانه ، يقول تعالى : ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ

---

[١] بديع القرآن ص ٧٨ .
[٢] المحرر الوجيز ٤ / ٢٣٢ .
[٣] البحر المحيط ٧ / ٥ .
[٤] السابق ٧ / ١٧.

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الشعراء : ٤٥ – ٤٩) ، ثم لم يكتفِ موسى بهذا، بل أخذ قومه هاربًا بهم من فرعون وهو يستتر بظلمة الليل ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ (الشعراء : ٥٢) ، فأدى هذا كله إلى أن يزداد غضب فرعون وملئه عليهم وغيظهم منهم ، لاسيما وهم القلة المحتقرة الخسيسة في نظرهم . والغاضب المغتاظ تتصف لهجته بالحدة والعنف ومحاولة الاستهزاء والسخرية من خصمه وتحقير شأنه ، فناسب أن يأتي التعبير القرآني بلفظ (شرذمة) الذي فيه ملحظ التحقير متصفًا بالقلة زيادة في هذا التحقير ؛ ليتفق مع دلالة السياق اللغوي التي تبرز غضب فرعون وملئه من هؤلاء القوم بدليل قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ وهي مقولة توضح مدى هذا الغيظ بما فيها من أشكال التوكيد المختلفة ممثلة في (إن) و(اللام) واسم الفاعل (غائظون) والجملة الاسمية . كما يتفق مع سياق الحال الذي روعي فيه جانب المتكلم فرعون وملئه ، وما هم عليه من غضب وغيظ من هؤلاء القوم وما فعلوه ، فأدى إلى استخدام هذا اللفظ الدال على التحقير في ذلك الموضع ، ليعبر أصدق التعبير عن الحالة النفسية التي كانوا عليها .

ومن الألفاظ التي هي أدنى من غيرها لدونية المسمى لفظ (التراب) الوارد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ (آل عمران : ٥٩) ''فعدل سبحانه عن الطين الذي أخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه ، منها قوله تعالى : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (ص : ٧١) وقوله سبحانه حكاية عن إبليس : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (ص : ٧٦) ، فعدل عز وجل ـــ وهو أعلم ـــ عن ذكر الطين الذي هو مجموع التراب والماء إلى ذكر مجرد التراب ، لأنه أدنى العنصرين وأكثفهما لما كان المقصود مقابلة من ادّعى في المسيح الألهية بما يصغّر

أمر خلقه عند من ادّعى ذلك ، فلهذا كان الإتيان بلفظة التراب أمتن بالمعنى من غيرها من العناصر ، ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود ، ولما أراد سبحانه الامتنان على بني إسرائيل بعيسى ـ عليه السلام ـ ، أخبرهم عنه أنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير تعظيمًا لأمر ما يخلقه بإذنه ، إذ كان المعنى المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظّموا قدر النعمة به،، [1] .

---

[1] ابن أبي الإصبع : تحرير التحبير ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

المبحث الثاني

المناسبة بين صفة اللفظ الصوتية والسياق اللغوي

يتكون أي لفظ من مجموعة من الأصوات ، تدل باجتماعها معًا على معنى معين . والصوت والمعنى كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطًا لا يقبل التفرقة ، وكل لفظ تعبر عنه أصوات معينة ، وقد يكون لهذه الأصوات دلالتها الخاصة بها ، كالتفخيم أو الشدة أو اللين أو الهمس أو التكرار وغير ذلك ، ''كذلك قد يراعى في الألفاظ ناحية أدق وأخفى من هذه ، وهي أن يكون بين أصواتها والموضوع ملاءمة بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف ، أو وحي إلى الخاطر يصعب تحديده ، ولكنه محسوس ، وهذه الخاصية للكلمات يُنظَر فيها إلى كل كلمة على حِدة ، وتأثير أصواتها ، ولكن هنالك ناحية أخرى لتأثير الكلمات ، وهي التي ينظر فيها إلى الكلمات متتالية متعاقبة . وهذا هو ما يعبر عنه بالانسجام أو موسيقى اللفظ (RYTHM) ، فهنا لا يُنظر إلى الأصوات المقطعية ونوعها ، بل إلى تموجات الأصوات ، وإلى مقدارها في عدة جمل ، وهذا الاختلاف في المقدار قد يكون راجعًا إلى الاختلاف في قوة الصوت وضعفه أو في طوله وقصره أو في ارتفاعه وانخفاضه ، والتموجات الموسيقية عبارة عن تعاقب كل هذه الاختلافات الصوتية أو بعضها بطريقة جلية واضحة،، (١) .

وليس معنى هذا أننا نستطيع أن نذهب إلى أن لمقاطع الكلمة الواحدة من حيث هي لفظ مفرد دلالات موسيقية لها تأثير معين في النفس أو إيحاء محدد بشيء ما ''وإنما قد تنشأ هذه الدلالات من تلاقي بعض المقاطع والحروف في السياق كله أو في العبارة الواحدة ، عندئذ يمكن للأصوات أن تشيع في النفس إحساسًا عاطفيًا معينًا ، فليس هناك مقاطع أو حروف معينة يمكن أن تتصف في ذاتها بإحساس الحزن أو الفرح ، وإنما الذي يحدد العلاقة بين أصوات المقاطع والحروف وبين إحساس معين هو النغم الناشيء من

---

(١) ابركرومبي : قواعد النقد الأدبي ص ٤١، ٤٢ .

جملة كاملة ، ذلك أن الانفعال في داخل أي عمل أدبي لا يمكن تحقيقه من لفظة مفردة ، إنه يتحقق من تداخل الكلمات صوتًا وإحساسا،، [1] .

وإذا نظرنا في القرآن الكريم نجد أنه يراعي تمام المراعاة ما للّفظ من خصائص صوتية تتفق مع السياق الوارد فيه ، فإذا كان السياق للتفخيم أو للتهويل كان في ألفاظه من المقاطع الصوتية ما يدل على ذلك كزيادة صوت أو تفخيمه ، أو كان يدل على التردد والحيرة كان في ألفاظه تكرار للصوت ، أو كان يدل على التمهل والصبر أو التباطؤ كانت الألفاظ فيه تتوالى فيها السواكن والحركات ، بحيث يعقب كلّ متحرك ساكن إلى آخر ذلك ، وفيما يلي تفصيل لما سبق .

(١) زيادة الصوت

لا شك أن زيادة صوت في لفظ ما يجعل له طاقات إيحائية ودلالات لا توجد في اللفظ نفسه قبل هذه الزيادة . قال ابن الأثير : ''اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه ، فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً ؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني ، وأمثلة للإبانة عنها ، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني ، وهذا لا نزاع فيه.، لبيانه ، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة . فمن ذلك قولهم : ولهم خشُن واخْشَوْشَنَ ، فمعنى خشن دون معنى اخْشَوْشَنَ ، لما فيه من تكرار العين وزيادة الواو نحو فَعلَ وافْعَوْعَل ، وكذلك قولهم: أعْشَبَ المكان ، فإذا رأوا كثرة العشب قالوا : اعْشَوْشَبَ،، [2] .

---

[1] د . محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ص ٣٠٨ .

[2] المثل السائر ٢ / ٥٦ .

ومن هذه الألفاظ التي تتحقق فيها الزيادة لفظ (مقتدر) ، إذ زيد فيه صوت التاء ، فهو من افتعل ، وأصله (فعل) ، والتاء صوت في وصف سيبويه له شديد [١] ''لا فرق بينه وبين الدال سوى أن التاء مهموسة والدال نظيرها المجهور ، ففي تكون التاء لا يتحرك الوتران الصوتيان ، بل يتخذ الهواء مجراه في الحلق والفم حتى ينحبس بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ، فإذا انفصلا انفصالاً فجائيًا سمع ذلك الصوت الانفجاري،، [٢] . أي إنه ''يقف الهواء وقوفًا تامًا حال النطق بالتاء عند نقطة التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة ويضغط الهواء مدة من الزمن ، ثم ينفصل اللسان فجأة تاركًا نقطة الالتقاء فيحدث صوت انفجاري،، [٣] . ومعنى هذا أن التاء صوت شديد يعطي للفظ الذي يوجد به إيحاءً بالقوة بسبب خاصية الانفجار التي تصحب نطقه . ومن هنا يتصف لفظ (مقتدر) الذي نحن بصدده بقوة وشدة لا توجدان في (قادر) أو (قدير) . قال ابن جني : ''فاقتدر أقوى معنًى من قولهم : قدر ، كذلك قال أبو العباس ، وهو محض القياس،، [٤] .

وبمقتضى ما يتصف به هذا اللفظ نراه يأتي في مواضع معينة من القرآن الكريم ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ ﴾ (القمر : ٤١ ـ ٤٢) ، فآثر التعبير القرآني أن يأتي هنا بلفظ (مقتدر) دون (قادر) أو (قدير) ؛ لأن الحديث عن فرعون وقومه الذين كذبوا بآيات الله وهم قوم قد علوا في الأرض واستكبروا . يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى

---

[١] الكتاب ٤ / ٤٣٤ .

[٢] د . ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ص ٦١ .

[٣] د . كمال بشر : علم الأصوات ص ٢٤٩ .

[٤] الخصائص ٣ / ٢٦٤، ٢٦٥ .

ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (القصص : ٤) ، ويقول أيضًا : ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾ (القصص : ٣٩) ، فكأنّ أخذهم على استكبارهم وطغيانهم لا يكون إلا ممن يتصف بالقوة وشدة البأس ، فجاء بلفظ (مقتدر) الذي يعطي هذا المعنى ، وهو ما يشير إليه ابن جني بقوله : ''فمقتدر هنا أوفق من قادر ؛ من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ ،، [1] .

وقد تفخم التاء الزائدة في بعض الألفاظ، فتتحول إلى صوت الطاء، وهو كما يصفه سيبويه صوت شديد [2] مطبق [3] ، فهو ''النظير المفخّم للتاء . فشكل اللسان مع الطاء يكون غير شكل اللسان مع التاء ، ففي حالة النطق بالطاء يرتفع مؤخر اللسان نحو أقصى الحنك ، ويتأخر قليلاً نحو الجدار الخلفي للحلق . ويرى بعضهم أنه في حالة النطق بالطاء يكون اللسان مقعرًا ، أي يرتفع أقصاه وطرفه مع تقعير وسطه . وهذا هو المقصود بالإطباق عند علماء العربية . فهو صوت مطبق أو مفخم، وليست كذلك التاء ، فهي مرققة [4] .

ونرى هذا في ألفاظ عديدة في القرآن ، منها لفظ (يَصْطَرِخُون) في قوله تعالى : ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ (فاطر : ٣٧) ، فعدل التعبير القرآني هنا عن لفظ (يصرخون) إلى هذا اللفظ الدال على التفخيم لما فيه من صوت الطاء الدال على ذلك وما سبقه من صوت

---

[1] الخصائص ٣ / ٢٦٥ .
[2] الكتاب ٤ / ٤٣٤ .
[3] السابق ٤ / ٤٣٦ .
[4] د . كمال بشر : علم الأصوات ص ٢٥٠ .

مفخم أيضًا هو الصاد ، وذلك لأن المقام الذي ورد فيه مقام تهديد ووعيد للكافرين وتهويل لما يرونه من عذاب . يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ (فاطر : ٣٦) .

فهؤلاء الكافرون أعد الله لهم تلك النار مقصورة عليهم خاصة بهم ، يدل على ذلك وضع اللفظ الدال عليهم موضع المسند إليه ، فأسند إليهم النار دون غيرهم ، فلم يقل : للذين كفروا نار جهنم وهذا يوحي بالتخصيص المشار إليه ، ثم تقديم الجار والمجرور (لَهُم) على المبتدأ (نَار) ، وهذا يوحي أيضًا بتخصيصها لهم وقصرها عليهم ، ثم إضافة هذا المبتدأ (نَار) إلى لفظ (جهنم) الذي يوحي بالهول وشدة العذاب ، ثم الإخبار بعد ذلك بأنهم خالدون فيها يتمنون الموت من هول ما يرون، فلا هم ينالون ما يتمنون فيقضى عليهم ولا يخفف عنهم شيء من هذا العذاب الذي يرون، فهو عذاب عظيم في جميع أشكاله ؛ يدل على ذلك الحرف الدال على بيان الجنس (مِن) ، إذ قال (مِّنْ عَذَابِهَا) ولم يقل (يخفف عنهم عذابها) مباشرة للدلالة على أن هذا العذاب شديد في جميع أشكاله ؛ فناسب مع هذا الهول الذي يرونه من نار جهنم وشدة العذاب أن يأتي بهذا اللفظ المتصف بالتفخيم ؛ ليتفق مع دلالة السياق التي توحي بالهول والشدة .

وقد يستبدل بصوت التاء صوت الدال ـ كما نرى ـ في لفظ (يَهِدِّي) على قراءة عاصم برواية حفص [1] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهِدِّيٓ إِلَى

[1] ابن مجاهد : كتاب السبعة في القراءات ٣٢٦ .

ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾(يونس : ٣٥) ، فجاءَ التعبير القرآني بلفظ (يَهِدِّى) ، وأصله ـ كما يرى أبو حيان ـ ''يهتدي ، فقلب حركة التاء إلى الهاء وأدغمت التاء في الدال،، [١].

وقد آثر التعبير القرآني هذا العدول ؛ لأن السياق في هذه الآية يتحدث عمن يدعون من دون الله من الشركاء ، وهم ـ كما يفسرهم القرطبي ـ ''الأصنام التي لا تهدي أحدًا ، ولا تمشي إلا أن تُحمل ، ولا تنتقل عن مكانها إلا أن تُنقل،، [٢] ، فهذه الأصنام التي يتحدث عنها السياق جمادات لا حراك بها لا تنفع ولا تضر تحتاج إلى من يحملها ؛ كي تنتقل من مكان إلى مكان ، فهي تابعة لحاملها كالجزء منه ، وهي معانٍ يوحي بها لفظ (يَهِدِّى) مما تحقق فيه من تحويل التاء إلى صوت الدال وتسكين هذا الصوت ، فأشار هذا التسكين إلى سكون هذه الأصنام أو انعدام الحركة فيها ، كما أشار ما حدث من تحويل التاء إلى الدال ليكون صوتًا مماثلاً للصوت الذي يليه ثم إدغامه حتى صار كالصوت الواحد ، إذ لا يترك اللسان موضعه بعد نطق الصوت الأول حتى يبدأ في نطق الصوت الثاني ، بخلاف لو جاءت التاء التي ينفصل اللسان تمامًا عن موضعه بعد نطقها قبل أن يتهيأ لنطق الدال فأشار ذلك كله إلى تبعية هذه الأصنام لغيرها وأنه لا تهدي نفسها أو غيرها ، بل تحتاج إلى من يهديها أو يحملها ، ومن هنا جيء بهذا اللفظ بما حدث فيه من عدول أصواته كي يتناسب مع دلالة السياق الذي ورد فيه .

وقد حاول الدكتور تمام حسان أن يوضح ما يوحي به ما حدث في هذا اللفظ من عدول صوتي قائلاً : ''وكأن التشديد قد جاء هنا ليبلغ حالة خاصة تدور حول ملحظ في

---

[١] البحر المحيط ٥ / ١٥٧ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٥ / ٣٥٢ .

استعمال الفعل هو الدلالة على أن هذا الشخص المشار إليه لا يهتدي بنفسه ، وأنه إذا جاء من يقوده إلى الطريق السوي لم يسلس قياده له ، فكأن وصوله إلى الهداية آخر الأمر يأتي بعد أخذ ورد ، وكأن الذي ندب نفسه لهدايته يأخذ بيده جذبًا إلى الغاية المرجوة ، لكنه يحاول الإفلات منه ، فما يصل به إلى الغاية إلا بعد مشقة ، هذا ما يوحي به السكون الذي يسبق الحركة في التشديد ، وهو إيحاء من طريق الحكاية،، [1] . وهو تعليل ابتعد به كثيرًا عن الإيحاءات الحقيقية لهذا اللفظ ، تلك الإيحاءات التي نستطيع أن نلحظها إذا ما نظرنا إلى هذا اللفظ من خلال سياقه الوارد فيه .

وقد يستبدل بصوت التاء صوت آخر هو السين ، وهو صوت ــ كما يصفه سيبويه ــ مهموس رخو [2] ، ويحدث هذا الصوت ''بأن يعتمد طرف اللسان على اللثة بينما يرفع وسط اللسان نحو الحنك الأعلى ، ويكون الفراغ بين طرف اللسان واللثة قليلاً جدًا يرفع الحنك اللين ولا يتذبذب الوتران الصوتيان ، فالسين صامت مهموس لثوي احتكاكي [3] ،، ويتميز بأنه عند النطق به ''تقترب الأسنان العليا من السفلى ، فلا يكون بينهما إلا منفذ ضيق جدًا ، كما أن السين العربية عالية الصفير إذا قيست بها السين في بعض اللغات الأوروبية ، كالإنجليزية مثلاً ، فالنطق بالسين يدفع الهواء مارًا بالحنجرة ، فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يأخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج ، وهو كما تقدم عند التقاء طرف اللسان بالثنايا السفلى أو العليا ، بحيث يكون بين اللسان والثنايا مجرى ضيق جدًا يندفع خلاله الهواء ، فيحدث ذلك الصفير العالي،، [4] .

---

[1] البيان في روائع القرآن ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

[2] الكتاب ٤ / ٤٣٤ .

[3] د . محمود سعران : علم اللغة ص ١٧٥.

[4] د . ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ص ٧٥ ، ٧٦ .

ونرى ذلك الاستبدال في لفظ (يَسَّمَّعُون) بتشديد السين والميم على قراءة حمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية حفص [1] في قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ (الصافات: ٨) ، وأصله ــ كما يوضح القرطبي ــ ''يتسمعون ، فأدغمت التاء في السين لقربها منها،، [2] . فعدل التعبير القرآني عن لفظ (يَسَّمَّعُون) إلى هذا اللفظ بما فيه من عدول صوتي ، وذلك لأن السياق يتحدث عن هؤلاء الشياطين الذين يصعدون إلى السماء ''فيسترق الواحد منهم شيئًا مما يتفاوض فيه الملائكة ، مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ، وهذا لخفة أجسام الشياطين، فيُرجمون بالشُّهب حينئذ،، [3] ، فهم على هذا يسمعون بعض الأصوات أو الكلمات القلائل المتداولة في هذا المقام يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (الصافات : ١٠) ، '' أي اختلس الكلمة أو أكثر ، مرة من المرات منهم،، [4] كذا فسر البقاعي هذه الآية .

ولكي يسترقوا السمع يجتهدون ويتحايلون حتى لا تصيبهم الشهب التي يقذفون بها إذا ما فعلوا ذلك ، وهو ما يوحي به الإدغام في لفظ (يَسَّمَّعُون) . قال البقاعي : ''وأوضحت هذا المعنى قراءة من شدد السين والميم بمعنى يتسمعون ، أي بنوع حيلة ، تسمعًا منتهيًا إلى ذلك ، وهو يفهم أنهم يتسمعون ، ولكن لا ينتهي تسمعهم إلى ذكر ، بما

---

[1] ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ٢ / ٣٥٦ .
[2] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٨ / ٤٣٩ .
[3] السابق ٨ / ٤٤٠ .
[4] البقاعي : نظم الدرر ٦ / ٢٩٤ .

أشار إليه الإدغام ، وهو يشير أيضًا إلى أنهم يجتهدون في إخفاء أمرهم،، [1] ، فناسب أن يعبر الأسلوب القرآني بهذا اللفظ بما فيه إيحاء ناشيء عن الإدغام أو التشديد ؛ ليتفق مع هذا المعنى .

وإذا كانت الآية الثانية تدل على أنهم يسمعون بعض الكلمات فهم لا يستمعون إلى الصمت، بل إلى أصوات معينة ناسب أن يأتي بهذا اللفظ الذي عدل فيه عن التاء إلى السين ، ثم سُكِّنَتْ تلك السين ، وذلك لأننا ''إذا أسكنا التاء حصلنا من شدتها على الصمت ، وإذا اسكنا السين حصلنا من رخاوتها على الصفير ، وكلا الحرفين مهموس ، ولا شك أن الصفير المهموس أدل على معنى التسمع من الصمت ؛ لأننا في العادة لا نتسمع إلى الصمت ، وإنما نسمع إلى الهمس،، [2] .

وقد يتخذ الإبداع القرآني من حذف هذا الصوت الزائد طريقًا إلى إيحاءات معينة يتطلبها السياق، كما نرى من حذف التاء في لفظ (تَسْطِع) في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (الكهف : ٨٢) ، فعدل التعبير القرآني عن زيادة التاء هنا على الرغم من زيادتها في موضعين آخرين متقدمين على هذه الآية في القصة نفسها ، وذلك في قوله تعالى على لسان الخضر لموسى : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف : ٦٧) ، وقوله : ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (الكهف : ٧٨) .

---

[1] السابق ٦ / ٢٩٤ .

[2] د . تمام حسان : البيان في روائع القرآن ص ٣٥٣ .

ويرى ابن جماعة أن سبب ذلك يرجع إلى أنه ''تقدم أولاً : ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع﴾، فخفف الثاني لدلالة الأول عليه،، [1] . وهو تعليل يغفل ما للسياق من أثر في هذا العدول ، فلو نظرنا إلى سياق الآية الأولى لوجدنا أنه مقام تعليم يُعلم فيه الأستاذ تلميذه ، وهذا المقام يحتاج إلى ترفق ولين من المعلم بمن يطلب منه العلم ، ومن هنا كان حذف التاء التي توحي بالشدة والقوة ، والمقام لا يحتاج إلى هذين الأمرين ، فجاء اللفظ خاليًا منها ليتناسب مع ما يتطلبه السياق من لين ورفق .

أما الآيتان الأخريان فقد جاءتا في مقام زجر من الخضر لموسى ، الأولى كي يبتعد عنه ، ولا يحاول صحبته لأنه لا يقدر على هذه الصحبة : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ (الكهف : ٦٦-٦٨) ، والثانية لأنه لم يلتزم بوعده معه الذي يقضي بألا يسأله عن شيء حتى يخبره هو بنفسه عنه ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف : ٧٠) ، فنسي هذا الوعد ، وأخذ يسأله عما يفعله في كل مرة : عند خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ، فناسب أن يأتي في هاتين الآيتين باللفظ الذي يحتوي على التاء الزائدة التي توحي بالشدة ؛ ليتفق في شدته هذه مع زجر الخضر لموسى وغلظته معه وشدته في هذين الموضعين .

(٢) المغايرة بين صوتين

قد تكون المغايرة بين لفظ وآخر إحدى صور الإبداع للتعبير القرآني ، فيغاير بين أصوات الألفاظ وفقا للسياق الوارد فيه كل لفظ وما يتطلبه من ألفاظ معينة لها

---

[1] كشف المعاني ص ٢٤٤ .

خصائصها الصوتية المميزة لها، تلك الخصائص التي توحي بإيحاءات تتفق ودلالة السياق اللغوي .

ومن ذلك لفظا (مذءومًا) و(مذمومًا) ، وهما بمعنى واحد ''يقال : ذِمتُهُ أذيمُه ذَيْمًا ، وذَمَمْتُه أذُمُّه ذَمًا ، وذَأَمتُه ذأمًا،، [١] ، كذا قال الراغب ، غير أن الأول منهما فيه شدة أو مبالغة لا توجد في الثاني لوجود صوت الهمزة فيه ، وهو صوت ــ على حد وصف ابن جني له ــ شديد [٢] و''ينطق بإغلاق الأوتار الصوتية إغلاقًا تامًا ، يمنع مرور الهواء ، فيحتبس خلفهما ثم تفتح فجأة ، فينطلق الهواء متفجرًا،، [٣] . وهذا الانفجار الذي يحدث أثناء نطق هذا الصوت يعطي له قوة وشدة ، وهو ما يجعل اللفظ الذي يشتمل عليه يوحي بتلك القوة .

أما اللفظ الثاني فيكاد يخلو من هذه الشدة لخلوه من الأصوات المتصفة بذلك ، فصوت الميم الذي يحتوي عليه مقابلاً للهمزة في اللفظ الأول صوت بين الشديد والرخو ــ على حد وصف ابن جني له ــ [٤] ''وللنطق به تلتقي الشفة السفلى بالأسنان العليا ، بحيث ينحبس الهواء داخل الفم، وتتدلى اللهاة ، فينفتح ممر الهواء الأنفي، وينطلق الهواء من الرئتين مسببًا تذبذب الأوتار الصوتية ويخرج عن طريق ممره الأنفي فيحدث الصوت،، [٥] . ومعنى هذا أنه لا يحدث عند نطقه ذلك الانفجار الذي يحدث عند نطق الهمزة ، ولا نجد فيه تلك الشدة التي نجدها في هذا الصوت .

---

[١] الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (ذلم) .

[٢] سر صناعة الإعراب ١ / ٦١ .

[٣] د . رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ص ٥٦ .

[٤] سر صناعة الإعراب ١ / ٦١ .

[٥] د . عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

فإذا ما اقتضى السياق شدة أو مبالغة جاء اللفظ الأول دون الثاني لما فيه من هذه الصفة ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الأعراف: ١٨) . فالسياق في هذا الموضع يتحدث عن إبليس وتوعده لبني آدم أن يغويهم بكل الطرق ، ويبعدهم عن الصراط المستقيم حتى يعصوا ربهم . يقول تعالى على لسانه : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف : ١٦ ــ ١٧) ، فبالغ في معصيته وإصراره على إغواء الناس وإضلالهم ، فناسب أن يشتد الله في الرد عليه والمبالغة في ذمه ، فجاء بلفظ (مَذْءُومًا) ؛ ليحقق ذلك الغرض . قال الكرماني : "لأنه سبحانه وتعالى لما بالغ في الحكاية عنه بقوله : (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ) بالغ في ذمه فقال : (ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا) ، والذءم : أشد الذم"[1] .

وأما عندما لا يحتاج السياق القرآني إلى الشدة أو المبالغة فنراه يأتي باللفظ الثاني دون الأول، نحو قوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الإسراء : ١٨) ، وقوله : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ (الإسراء : ٢٢) . فالمقام في هاتين الآيتين ، وإن كان فيه شيء من الوعيد في الآية الأولى فهو مقام للنصح للناس من الله عز وجل بالنهي غير المباشر لهم أن يشتروا الدنيا بالآخرة في الآية الأولى ، وبالنهي المباشر في الثانية أن يشركوا بالله أحدًا ويجعلوا له أندادًا يعبدونه من دونه ، والنصح لا يستقيم مع الشدة .

---

[1] أسرار التكرار في القرآن ص ١١٩ .

يضاف إلى هذا أن الخطاب هنا للناس ينهاهم الله فيه عن المعصية قبل أن يقترفوها ، فليس هناك إصرار منهم عليها في هذا الموضع بل لا توجد معصية وقعت منهم في الأصل ؛ كي تكون هناك مبالغة وشدة في نهيهم ، بخلاف ما جاء في سورة الأعراف ؛ إذ الخطاب فيها كان لإبليس، وهو مصر على المعصية وإغواء الناس يدل على ذلك أسلوب القسم الذي صدر به الكلام .

ومن ذلك لفظا (أزّ) و(هزّ) ، إذ نرى في الأول منهما ملمحًا يوحي بشيء من القوة والشدة لا يوجد في الآخر ، نتيجة لوجود الهمزة ، وهو صوت ــ كما ذكرنا من قبل ــ يتصف بالشدة ، وذلك لحدوث انفجار عند النطق به ، وهذا الانفجار يعطي له قوة وشدة ، وهو ما يجعل اللفظ الذي يشتمل عليه يوحي بذلك .

وأما اللفظ الثاني فقد تغير فيه الصوت الأول فنرى الهاء في الموضع الذي كانت فيه الهمزة ، وهو صوت ــ كما يصفه ابن جني ــ مهموس [١] رخو [٢] ''يتم نطقه بأن يحتك الهواء الخارج من الرئتين ، بمنطقة الأوتار الصوتية دون أن تحدث ذبذبة لهذه الأوتار ويرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفي، ويتخذ الفم عند النطق بالهاء نفس الوضع ، الذي يتخذه عند النطق بالحركات،، [٣] . فصوت الهاء العربية ــ على هذا ــ صوت ''صامت مهموس حنجري احتكاكي،، [٤] ، وهي صفات لا تعطي للفظ المشتمل عليه ما تعطيه الهمزة من قوة وشدة في النطق .

---

[١] سر صناعة الإعراب ١ / ٦٠ .

[٢] السابق ١ / ٦١ .

[٣] د . رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ص ٥٨ ، ٥٩ .

[٤] د . محمود السعران : علم اللغة ص ١٧٩ .

وعلى ضوء هذه الخصائص الصوتية التي يعطيها كل صوت من الصوتين السابقين للفظ المشتمل عليه نرى ورود الأول في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ (مريم : ٨٣) ، وورود الثاني في قوله : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم : ٢٥) ، وذلك لأن السياق في الآية الأولى يدور حول الشياطين وتحريكهم للكافرين تحريكًا شديدًا يؤدي بهم إلى الغواية والكفر بالله ، وهو ما يدل عليه قوله (تؤزهم أزًا) . قال البقاعي في تفسير ذلك: ''أي تحركهم تحريكًا شديدًا ، وتزعجهم في المعاصي والدنايا التي لا يشكون في قباحتها وعظيم شناعتها ، وهم أشد الناس عيبًا لفاعليها ونصًا لمرتكبيها إزعاجًا عظيمًا بحيث يكونون في تقلبهم ذلك مثل الماء الذي يغلي في القدر ، ومثل الشرر المتطاير،، [١] . فمعنى (تؤزهم) ــ على حد قول أبي حيان ــ تحركهم إلى الكفر [٢] ، والأزّ في أصل معناه ــ كما يذكر ابن دريد ــ : ''الحركة الشديدة ، وأزت القدر إذا اشتد غليانها،، [٣] وهو كما يفسره القرطبي التهييج والإغراء [٤] .

فالشياطين تدفع هؤلاء الكافرين دفعًا شديدًا إلى الكفر ، وتحركهم تحريكًا كي يقعوا فيه مبتعدين عن توحيد الله والاعتراف بوجوده ، وهو ما دل عليه السياق السابق على هذه الآية ، إذ اتخذ الكافرون أندادًا من دون الله لينصروهم ، وما ذلك إلا بإغواء الشياطين . يقول تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾ (مريم:٨١) . وهذا أمر عظيم في الضلال أن يتخذ الإنسان آلهة يعبدها من دون الله ، ولا يكون إلا

---

[١] نظم الدرر ٤ / ٥٥٧ .
[٢] البحر المحيط ٦ / ٢٠٣ .
[٣] جمهرة اللغة (أزز) ١ / ١٧ .
[٤] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٦/ ٥٨٠ .

بإغراء الشياطين له إغراءً شديدًا ودفعهم إياه دفعًا لا يستطيع معه التوقف للحظات ؛ كي يعمل عقله ويتفكر فيما حوله ، فيهتدي بفطرته السليمة التي فطره الله عليها على عبادة الله وحده ، ومن هنا جاء التعبير القرآني في هذا الموضع بهذا اللفظ الذي يوحي بالشدة والقوة مؤكدًا بالمفعول المطلق (أزًا) ؛ ليدل على تحريك الشياطين للكافرين ودفعهم إياهم دفعًا شديدًا ؛ كي يظلوا على كفرهم . وقد أشار ابن جني إلى هذا المعنى قائلاً في تعليقه على تلك الآية : "فهذا في معنى تَهزُّهم هزًّا ، والهمزة أخت الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين . وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ ، لأنك قد تهزّ ما لا بال له ، كالجِذْع وساق الشجرة" [1] .

ولما لم يحتج السياق إلى هذه القوة جاء اللفظ الثاني (وَهُزِّي) في الآية الثانية ، إذ يدور السياق فيها حول مريم وهي في حالة المخاض ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ (مريم : ٢٣) ، وهي حالة ضعف شديد لا تقوى فيه المرأة أن تأتي بأفعال تتصف بالقوة أو الشدة ؛ لذلك كان الأمر إليها بلفظ (هُزِّى) الذي يتصف بالرخاوة ، وذلك لاشتماله على صوت الهاء الذي يتصف بأنه صوت رخو مهموس مرقق .

(٣) تكرار الصوت

قد يكون تكرار الصوت في اللفظ الواحد مع ما يتصف به من خصائص أخرى أحدَ أساليب التعبير القرآني في استعمال الألفاظ استعمالاً يتناسب مع السياق الذي ترد فيه ، ومن ذلك لفظ (مُّذَبْذَبِينَ) في قوله تعالى : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ

---

[1] الخصائص ٢ / ١٤٦ .

﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ (النساء : ١٤٣) ، وهو لفظ وحيد الصيغة والمادة في القرآن يشتمل على صوتي الذال والباء ، والأول منهما ــ وهو الذال ــ صوت مجهور [١] ، وهو ''النظير المجهور للثاء ، فلا فرق بينهما إلا أن الأوتار الصوتية تتذبذب في حالة النطق بالذال ، ولا تتذبذب في نطق الثاء . فالذال إذًا : صوت مما بين الأسنان . احتكاكي . مجهور'' [٢] . وللنطق به ''يوضع طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى، وينطلق الهواء من الرئة إلى ممره في الفم مسببًا ذبذبة الأوتار الصوتية وعند مروره بين الأسنان وطرف اللسان يُحدِث احتكاكًا مسموعًا'' [٣] . وأما الباء فهو صوت ــ كما يصفه سيبويه ــ مجهور شديد [٤] ، وعند النطق به ''يقف الهواء الصادر من الرئتين وقوفًا تامًا عند الشفتين ؛ إذ تنطبق هاتان الشفتان انطباقًا كاملاً، ويضغط الهواء مدة قصيرة من الزمن . ثم تنفرج الشفتان فيندفع الهواء فجأة من الفم ، محدثًا صوتًا انفجاريًا ، ويتذبذب الوتران الصوتيان في أثناء النطق . فالباء إذًا صوت شفوي وقفة انفجارية مجهور'' [٥] .

فالذال والباء صوتان مجهوران ، أي يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق بهما ، يتميز أولهما بأنه احتكاكي ، والثاني بأنه انفجاري ، وهاتان صفتان أعطتا للفظ (مُّذَبْذَبِينَ) خصائص صوتية تتناسب والسياق اللغوي الوارد فيه ، إذ يدور هذا السياق حول المنافقين الذين يظنون أنهم يخادعون الله ، ويظهرون خلاف ما يبطنون رياءً للمؤمنين ، إذ يظهرون لهم الإيمان وهم في حقيقة أمرهم كافرون . يقول عز وجل :
﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ

---

[١] سيبويه : الكتاب ٤ / ٤٣٤ .
[٢] د . كمال بشر : علم الأصوات ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
[٣] د . عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ص ٢٠٢ .
[٤] الكتاب ٤ / ٤٣٤ .
[٥] د . كمال بشر : علم الأصوات ص ٢٤٨ .

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء : ١٤٢) ، فهم متحيرون يظهرون شيئًا ويخفون آخر ، مترددون بين الكفر والإيمان ، وهو ما عبر عنه قوله تعالى : (مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ) . يقول الخازن في تفسيره هذه الآية : ''يعني متحيرين مترددين بين الكفر والإيمان ؛ لأنهم ليسوا مع المؤمنين المخلصين ولا مع المشركين المصرحين بالشرك،، [1] ، فناسب أن يأتي مع هذه الحيرة وذلك التردد بهذا اللفظ الذي يدل ــ كما يذكر ابن دريد ــ على الاضطراب [2] والذي له من الخصائص الصوتية ما يدل على ذلك من خلال ما يحدث من تذبذب الأوتار الصوتية عند نطق صوتي الذال والباء وهو ما يوحي بالتردد المستمر ، ثم تكرار كل صوت منهما وهو ما يدل على حيرة هؤلاء المنافقين ؛ إذ لا يكادون يخرجون من أمر إلى غيره حتى يعودوا إلى الحالة التي كانوا عليها، ثم هذا الاحتكاك الذي نراه في الصوت الأول وتحوله إلى انفجار في الصوت الثاني وتكرار هذا الأمر يوحي بعدم الاستقرار والتردد المستمر بين أمرين مختلفين ، ومن هنا آثر الأسلوب القرآني أن يعبر في هذا الموضع بذلك اللفظ بما يتصف به من خصائص صوتية تدل على التردد والتذبذب ؛ ليتفق في صفاته هذه مع دلالة السياق .

ومن التكرار الصوتي في لفظ واحد ما نراه في لفظ (كُبْكِبُوا) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝﴾ (الشعراء : ٩١ ــ ٩٥) ، وهو لفظ وحيد الصيغة في القرآن . قال ابن دريد في أصل معناه : ''كبكبت الشيء إذا ألقيت بعضه على بعض،، [3] ، وقال ابن فارس ''والكبكبة :

---

[1] لباب التأويل ١ / ٤٠٨ .
[2] جمهرة اللغة : (ب ذ ب ذ) ١ / ١٢٥ .
[3] جمهرة اللغة (بَ كَ بَ كَ) ١ / ١٢٨ .

أن يتدهور الشيء إذا أُلقي في هوة حتى يستقر ، فكأنه تردد في الكب،، [١] . ومعنى (كُبْكِبُوا) ــ على حد قول الزجاج ــ ''طُرِحَ بعضهم على بعض ، وقال أهل اللغة معناه هُوِّرُوا ، وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب كأنه إذا أُلقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها،، [٢] .

ويتميز هذا اللفظ بتكرار صوتي الكاف والباء ، فأما الكاف فهو صوت يصفه ابن جني بأنه شديد [٣] ، وللنطق به ''ترتفع مؤخرة اللسان حتى تلامس سقف الحنك الرخو وترتفع اللهاة ومؤخرة سقف الحنك أيضًا لتسد الممر الأنفي ، وينطلق الهواء من الرئتين مارًا بالأوتار الصوتية دون أن يسبب اهتزازها فيملأ الفراغ المحصور بين مؤخرة اللسان وأعلى الحنجرة (أي البلعوم الحنجري والبلعوم الفموي) ويستمر ضغط الهواء حتى يفارق اللسان السقف الرخو فيحدث انفجار مسموع،، [٤] .

وأما الباء فهو ــ كما ذكرنا من قبل ــ ''صوت شديد مجهور مرقق،، [٥] ، ويتكون بأن ''يوقف الهواء وقفًا تامًا وذلك بأن تنطبق الشفتان انطباقًا كاملاً ويرفع الحنك اللين فلا يسمح بمرور الهواء إلى الأنف يضغط الهواء مدة من الزمن ، وعندما تنفرج الشفتان يندفع الهواء فجأة من الفم محدثًا صوتًا انفجاريًا ويتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق وهكذا يوصف الباء بإيجاز بأنه : صامت مجهور شفوي (شفتاني) انفجاري،، [٦] .

---

[١] مقاييس اللغة ، باب الكاف وما بعدها في الثنائي أو المطابق (كب) .

[٢] معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٩٤ .

[٣] سر صناعة الإعراب ١ / ٦١ .

[٤] د . عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ص ٢١٢ .

[٥] د . رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ص ٤٢ .

[٦] د . محمود السعران : علم اللغة ص ١٥٤ .

فالكاف والباء على هذا صوتان شديدان ، وتنشأ هذه الشدة مما يحدث أثناء النطق بهما من حبس الهواء حبسًا تامًا ثم انفجاره دفعة واحدة ، وهو ما يعطي هذين الصوتين قوة وشدة في نطقهما .

وقد عدل التعبير القرآني في هذا المقام عن لفظ (كُبُّوا) إلى ذلك اللفظ الذي يتصف بالقوة والشدة لما فيه من صوتي الكاف والباء الشديدين الانفجاريين ثم تكرارهما ليدل ذلك على مبالغة وشدة يتطلبها السياق. قال ابن الأثير : ''فإن معنى كبكبوا من الكب ، وهو القلب ، إلا أنه مكرر المعنى ، وإنما استعمل في الآية دلالة على شدة العقاب ؛ لأنه موضع يقتضي ذلك،، [1] .

وإنما ترجع هذه الشدة التي يقتضيها السياق إلى أنه يتحدث عن أكثر الفئات بعدًا عن الله وكفرًا به ، وهم : الآلهة الذين يعبدون من دون الله ، ويعبر عنهم ضمير الجمع في لفظ (كبكبوا) كذا فسره الزمخشري[2] ، والغاوون وهم عبدة هؤلاء الآلهة وهو ما ذكره الزمخشري أيضًا [3] ، وفسرهم القرطبي نقلاً عن السُّدّي بأنهم هم الآلهة أنفسهم [4] ، ويضاف إلى هاتين الفئتين جنود إبليس وهم متبعوه من عصاة الجن والإنس ، كذا ذكر الزمخشري [5] ، فناسب أن يؤتى مع هذه الفئات الضالة المضلة بلفظ (كبكبوا) الدال على تكرار الكب والموحي بالمبالغة في العذاب والشدة؛ ليتفق في صفته هذه مع عظم ما عليه من يتحدث عنهم السياق من ضلال وكفر وما يستحقون من شدة العذاب . قال العلوي مشيرًا إلى هذا المعنى : ''والكبكبة تكرير الكب ؛ لأنه إذا ألقي في النار فإنه

---

(1) المثل السائر ٢ / ٥٧. .
(2) الكشاف ٣ / ٣٢٢ .
(3) الكشاف ٣ / ٣٢٢ .
(4) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٧ / ٤٩٤ .
(5) الكشاف ٣ / ٣٢٢ .

يكب فيها مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها ، فجعل تكرير اللفظ دلالة على تكرير المعنى على جهة المطابقة،، [1] .

(٤) تعاقب السواكن والحركات

قد يتخذ التعبير القرآني من تعاقب السواكن والحركات وتتابعها سبيلاً يتفق فيه اللفظ مع سياقه اللغوي من خلال ما يوحيه هذا التعاقب ، وذلك ما نراه في لفظ (ادّارءتم) على قراءة الجمهور [2] وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٢) . ومعناه ــ كما يذكر الزمخشري ــ اختلفتم أو تخاصمتم أو تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض أو دفع بعضكم بعضا عن البراءة والتهمة [3] . وأصل هذا اللفظ -كما يذكر ابن عطية- تدارءتم [4] ، ''ولكن التاء أدغمت في الدال لأنهما من مخرج واحد ، فلما أدغمت سكنت فاجتلبت لها ألف الوصل ، فتقول : ادّارأ القوم أي تدافع القوم،، [5] كذا قال الزّجاج .

والناظر إلى ما حدث لهذا اللفظ يجد أنه تحول من (تدارءتم) البادىء بمتحركين متتابعين إلى (ادارءتم) الذي يتميز بتتابع السواكن والحركات ، بحيث يعقب كل متحرك ساكن ، وهذه صفة تجعل اللفظ يوحي بالتوقف المستمر ، إذ ما تكاد تحدث حركة حتى يعقبها سكون . ولو رجعنا إلى السياق الوارد فيه اللفظ نرى أنه يتطلب ذلك الإيحاء ، إذ يدور حول قضية وقع فيها بنو إسرائيل ، وأراد الله أن يرفع الغموض عنها ، فما كان

---

[1] الطراز ص ٣٦٤ .

[2] أبو حيان : البحر المحيط ١ / ٤٢٤ .

[3] الكشاف ١ / ١٥٣.

[4] المحرر الوجيز ١ / ١٦٥ .

[5] معاني القرآن وإعرابه ١ / ١٥٣ .

منهم إذا أمروا أمرًا إلا أن يتوقفوا عند ذلك الأمر متسائلين متباطئين في تنفيذ أمره حتى إنهم كادوا لا ينفذون ذلك الأمر . يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (البقرة : ٦٧-٧١) .

فالله عز وجل أمرهم على لسان موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة ليضربوا ببعضها قتيلاً لهم فينطقه الله باسم قاتله دون أن يحدد لهم تلك البقرة تاركًا لهم اختيارها ، فأبوا إلا أن يضيقوا على أنفسهم ويسألوا عن صفاتها ، فإذا ما أخبرهم موسى سألوه عن لونها حتى إذا ما فعل طلبوا إليه أن يحددها لهم ، وما ذلك إلا تباطؤ منهم في تنفيذ أمر الله ، إذ كلما أخبرهم عن شيء وقفوا ليسألوا عن غيره دون أن يكلفهم الله بذلك كله ، كأنهم لا يريدون الإذعان لأمر الله تعالى وهو ما يدل عليه قوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ ، فناسب أن يأتي مع هذا التباطؤ منهم والتوقف المستمر للتساؤل عن أشياء لم يطلبها الله منهم بهذا اللفظ الذي يتصف بوجود ساكن بعد كل متحرك ؛ ليدل على أنهم لا يكادون يخبرون عن أمر يقربهم من تنفيذ ما أراد الله حتى يقفوا متسائلين عن غيره.

كذلك فإن الخصائص الصوتية للحروف التي يتكون منها هذا اللفظ توحي بتلك التوقفات المستمرة ؛ إذ هي في معظمها أصوات انفجارية يُحبس الهواء حبسًا تامًا عند النطق بها ثم ينطلق دفعة واحدة ، فلا يكاد ينطلق حتى يحبس ثانية لنطق صوت آخر ، وهو ما نراه في أصوات الدال والهمزة والتاء والميم . ويتوسط هذه الأصوات صوت آخر ، وهو الراء الذي يصفه سيبويه بأنه صوت مكرر يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام [١] ، و''يتم نطقه بأن يترك اللسان مسترخيًا في طريق الهواء الخارج من الرئتين ، فيرفرف اللسان ، ويضرب طرفه في اللثة ضربات متكررة ، وهذا معنى وصف الراء بأنه صوت تكراري . هذا بالإضافة إلى حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية عند نطق هذا الصوت،، [٢] ، وهذه الصفة التي يتميز بها هذا الصوت توحي بتردد هؤلاء القوم في تنفيذ ما أمر الله به واختلافهم وتدافعهم المستمر بين شد وجذب، إما لنفي التهمة عن أنفسهم، وإما إلصاقها بغيرهم .

يضاف إلى ما سبق أن ذلك التعاقب بين السواكن والحركات يوحي بما عليه هؤلاء القوم من تدافع واختلاف وتخاصم حول القاتل الحقيقي ، وما حدث بينهم من اختلاط في الأمور حتى إن الأمر قد عُمي عليهم ، فلم يعرفوا من قام بهذه الفعلة .

وأخيرًا فإننا إذا نظرنا إلى عدد السواكن في هذا اللفظ نجده أربعة ، وهو نفسه عدد التساؤلات التي توقف بها بنو إسرائيل سائلين موسى عنها استنكارًا أو استفسارًا ، إذ أنكروا عليه أولاً الأمر بذبح البقرة قائلين ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ حتى إذا ما أكد لهم أنه أمر من الله سألوه عن صفاتها، ثم عن لونها ، ثم سألوه أخيرًا عن تحديدها لهم .

---

[١] الكتاب ٤ / ٤٣٥ .

[٢] د . رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ص ٤٨ .

ومن ذلك التعاقب ما نراه في لفظ (ٱدَّارَكُوا) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٨) . ومعنى (ٱدَّارَكُوا) ــ كما يذكر ابن عطية ــ تلاحقوا [١] ، وأصله على ــ حد قول أبي حيان ــ '' تداركوا أُدغمت التاء في الدال ، فاجتلبت همزة الوصل،، [٢] .

وهذا العدول أدى إلى تعاقب الحركات والسواكن في المقطعين الأولين ، وهو ما أعطى اللفظ إيحاءً بالتتابع ، وهذا هو ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ ، فمعنى هذا أنهم لم يدخلوا مجتمعين ، بل متتابعين ، لهم أول ولهم آخر . قال أبو حيان : ''والمعنى أنهم يدخلون فوجًا ففوجًا لاعنًا بعضهم بعضًا إلى انتهاء تداركهم وتلاحقهم في النار واجتماعهم فيها،، [٣] ، فكان من المناسب أن يأتي التعبير القرآني بهذا اللفظ الذي تتابعت فيه الحركات والسواكن ليدل على تعاقبهم وتتابعهم في دخول النار . كذلك ''فإن التشديد هنا يوحي بتداعيهم في النار متزاحمين بغير نظام ، بل إن اشتمال التشديد على سكون ، ثم حركة يدل على أن تزاحمهم على النار جعل بعضهم يعوق بعضًا قبل أن يترددوا فيها ، فكان النقطة التي تداعوا عندها كانت كعنق الزجاجة،، [٤] .

---

[١] المحرر الوجيز ٢ / ٣٩٩ .

[٢] البحر المحيط ٤/ ٢٩٨ .

[٣] السابق ٤ / ٢٩٨ .

[٤] د . تمام حسان : البيان في روائع القرآن ص ٢٨٧ .

(٥) الثقل في النطق

ومما قد يتصف به اللفظ من الخصائص الصوتية ثقله في النطق على اللسان ، إما لطول اللفظ ، وإما لإدغام بعض أصواته ، فيحدث هذا الإدغام نوعًا من الثقل في نطق اللفظ ، وإما لتنافر الأصوات المؤلف منها ، كأن يتجاور فيه بعض أصوات الحلق . يقول ابن دريد : ''واعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت ؛ لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرسًا واحدًا وحركات مختلفة . ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء فأمكن لوجدت الهمزة تتحول إلى هاء في بعض اللغات لقربها منها ، نحو قولهم في (آم والله) هم والله ، وكما قالوا في (أراق) هراق الماء ، ولوجدت الحاء في بعض الألسنة تتحول هاءً،، [١] .

وليس المقصود بالتقارب الذي يذكره صاحب الجمهرة جميع الحروف المتقاربة المخارج ، إذ قد تجتمع بعض الأصوات المتصفة بذلك في ألفاظ معينة ، ويمكن نطقها بيسر ، كما نرى في اجتماع الهمزة والعين والهاء في لفظ (أعهد) ، وكلها أصوات من الحلق ، ولعل ما يقصده تلك الأصوات التي يحدث بينها التنافر عند اجتماعها في لفظ واحد ، وهو ما يذكره السيوطي قائلاً : ''فالتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها ، كما روي أن أعرابيًا سُئل عن ناقته ، فقال : تركتها ترعى الهمخع،، [٢] .

ويعد استعمال الألفاظ الثقيلة في نطقها عيًا في الكلام ، ولكن إذا اقتضاها المقام كانت من أهم مظاهر فصاحته . فلفظة (مستشزرات) على سبيل المثال على الرغم من ثقلها

---

[١] جمهرة اللغة ١ / ٩ .

[٢] المزهر ١ / ١٨٥ .

على اللسان ؛ لطولها وتوسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء الشديدة والزاي المجهـورة . (١)
فإنها تعد مستحسنة في بيت لامرئ القيس :

وفَرعٍ يُغشّي المَـتْنَ أَسـوَدَ فـاحمٍ ... أَثيـثٍ كقِنْـو النَّخلـةِ المُتَعَثْكِـلِ
غـدائرُه مستـشزِرَاتٌ إلـى العُـلا ... تضلُّ المدارَى في مُثَنّى ومُرْسَـلِ (٢)

وذلك ''لأنها لاءمت المقام ، حيث يصف شَعرًا كثيفًا غزيرًا قد تـراكم وصـار كقنو النخلة المتعثكل ، ولو قال (مرتفعات) لأخل بما يقتضيه السياق ويتلاءم مع الألفـاظ التي وصف بها الشعر» (٣) .

وإذا انتقلنا إلى القرآن الكريم لننظر في بعض ألفاظه المتصفة بالثقل وجدنا أن هذه الألفاظ إنما جاءت لملاءمة هذا الوصف للسياق الذي وردت فيه . ولنأخذ ــ على سبيل المثال ــ لفظ(ٱثَّاقَلْتُم) في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ (التوبة : ٣٨) .

---

(١) ينظر في صفات هذه الأصوات الكتاب لسيبويه ٤ / ٤٣٤ ، ٤٣٥

(٢) البيتان من الطويل ديوانه ص ١٦ ، ١٧ . والفرع : الشعر الطويل ، والفاحم : الشديد السواد كالفحم ، والأثيث : الكثير النبات والقنو : عنقود النخلة ، والمتعثكل : المتداخل لكثرته ، والغدائر : ذوائب الشعر ، ومستشزرات إلى العلا : أي مفتولات إلى فوق

(٣) د. بسيوني عبد الفتاح ، علم المعاني ١ / ١٥.

وأصل هذا اللفظ (تتاقلتم) ، وبه قرأ الأعمش [١] . قال الزجاج : ''المعنى تثاقلتم ، إلا أن التاء أدغمت في الثاء ، فصارت ثاءً ساكنة ، فابتدئت بألف الوصل،، [٢] .

ولا ريب أن ما حدث في هذا اللفظ من إبدال التاء ثاءً ثم إدغامها في الثاء الثانية ، يجعل اللفظ أكثر ثقلاً من اللفظ الأصلي ، ولعل هذا ما يشير إليه البقاعي في إبرازه ما يوحي به هذا الإدغام بقوله : ''وفيه ما لم يذكروا له سبباً ظاهرًا بما أشار إليه الإدغام إخلادًا وميلاً إلى الأرض،، [٣] . وفي هذا الثقل ما يحقق المناسبة بين اللفظ والسياق ''لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض ، واستشعارهم مشقة الجهاد ، وعزوف أرواحهم عنه ، وقد دعوا إليه في عام العسرة ، فكان منهم ما وصفت الآية ، ولذا جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم ، فقال سبحانه وتعالى :﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ﴾ (التوبة : ٣٩)،،[٤] .

وعلى هذا النحو يأتي لفظ (أَنُلْزِمُكُمُوهَا) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود : ٢٨) .

---

[١] الزمخشري : الكشاف ٢ / ٢٧١ .

[٢] معاني القرآن وإعرابه ٢ / ٤٤٧ .

[٣] نظم الدرر ٣ / ٣١٧ .

[٤] د . بسيوني عبد الفتاح ، علم المعاني ١ / ١٦ .

وإنما يرجع الثقل في هذا اللفظ إلى اتصال ضمير النصب الثاني به مع جواز انفصاله . يقول الزمخشري : ''وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعًا . ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً، كقولك: أنلزمكم إياها . ونحوه ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة : ١٣٧) . ويجوز (فسيكفيك إياهم)،،[1] . فاختار الأسلوب القرآني الاتصال ؛ لأن السياق هنا يتحدث عن قوم نوح الذين تكبروا على ما جاء به ، واستنكروا أن يؤمنوا له ويتبعوه ، وقد اتبعه من يرونهم أقل منهم شأنًا مستثقلين ذلك على أنفسهم ، يقول تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ (هود : ٢٧) . فجاء هذا اللفظ بما يتصف به من ثقل لكثرة أصواته مصورًا حال هؤلاء القوم من صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون ، ولو جاء الكلام على الوجه الثاني بفصل الضمير عن الفعل ، فقيل : أنلزمكم إياها لما صور هذا الاستثقال الذي كانوا يشعرون به ، وتحكيه الآيات .

وهكذا ترقى القيمة الصوتية للألفاظ إلى ما ترصده المعاجم اللغوية لها من معانٍ عرفية ، وما ذكرناه من شواهد إنما هو نماذج من النص القرآني تبرز لنا ما تعطيه هذه القيمة الصوتية للألفاظ من إيحاءات ومعانٍ فرعية تضاف إلى معانيها الأصلية ، وترقى بها في كثير من الأحيان إلى ما يقتضيه السياق من إيحاءات معينة تحقق للألفاظ التلاؤم بينها وبين ذلك السياق .

---

[1] الكشاف ٢ / ٣٩٠ .

الفصل الثالث

المناسبة بين معنى اللفظ الوظيفي والسياق اللغوي

قد كانت نظرتنا في الفصلين السابقين إلى اللفظ ، من حيث معناه المعجمي وصفته ، وهما أمران يتعلقان باللفظ في ذاته . وما زالت هذه النظرة مستمرة معنا في هذا الفصل ، ولكن الأمر يختلف هنا بعض الاختلاف ، ولا أقول كل الاختلاف ؛ إذ تتعلق النظرة هنا في جانب كبير منها ببنية اللفظ أو صيغته وما تؤديه هذه البنية من معنى صرفي أو وظيفي ، وهو أمر يتصل باللفظ في ذاته ، ثم تتعلق في جانب آخر منها بموقع اللفظ في التركيب أو ما يؤديه من وظيفة نحوية .

والمقصود بالوظيفة هنا ''المعنى المحصل من استخدام الألفاظ أو الصورة الكلامية في الجملة المكتوبة أو المنطوقة على المستوى التحليلي أو التركيبي,, [1].''وتأتي وظيفة الكلمة من صيغتها ووضعها ، لا من دلالتها على مفهومها اللغوي,, [2] .

وهذا المعنى الذي يفهم من اللفظ على مستوى البنية أو مستوى التركيب يختلف تمام الاختلاف عن المعنى المعجمي الذي ترصده المعاجم للألفاظ ، إذ ''يجب أن ندرك أن المعنى له وجهان ، فلفظة مثل (شجرة) ينبغي أن ينظر إليها من ناحيتين : الأولى على أنها عنصر في النسق اللغوي يرتبط في معناه بعلاقة ما بالكلمات الأخرى في النسق ، والثانية أن معناها مرتبط بصنف معين من الأشياء المعروفة في العالم الخارجي ، واللغويون ينظرون إلى هاتين الصورتين على أنهما متكاملتان ، فهم يفحصون المنظور الأول ثم الثاني مبتدئين بالعلاقات الداخلية بين العناصر اللغوية,, [3] .

---

[1] د . فاضل الساقي : أقسام الكلام العربي ص ٢٠٣ .

[2] د . تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ٢٢٧ .

[3] Jean Aitchison : Linguistics – An Introduction p . 81 .

وهذه العلاقات تعطي لكل لفظ وظيفة في الكلام ، كوظيفة الفاعل أو المفعول أو الحال أو النعت أو غير ذلك ، بالإضافة إلى الوظائف التي تعطيها لنا مباني الألفاظ التي تتصف ببنية معينة . وقد ''أطلق الباحثون على هذا المعنى الذي تكشف عنه المباني التحليلية للغة اسم (المعنى الوظيفي) FUNCTIONAL MEANING واضعين إياه بإزاء المعنى المعجمي LEXICAL MEANING الذي تدل عليه الكلمة المفردة ، كما في المعاجم ثم المعنى الدلالي SEMANTIC MEANING أو المعنى المقامي CONTEXTUAL MEANING أي المعنى الذي لا يكتفي بتحليل تركيب المقال ولا بمعنى كلماته المفردة ، وإنما يراه فوق ذلك في ضوء المقام CONTEXT OF SITUATION,,[1] .

وبناءً على ما سبق فإن المعنى الوظيفي للفظ ما هو إلا نتاج أحد أمرين بنية اللفظ أو موقعه في التركيب ، ومن ثم فإن الوظائف التي يعبر عنها هذا المعنى يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسين هما الوظائف الصرفية والوظائف النحوية [2] .

أولاً : الوظائف الصرفية للفظ

''وهي المعاني الصرفية المستفادة من الصيغ المجردة لمباني التقسيم,,[3] . فاسم الفاعل مثلاً هو اسم مشتق على وزن فاعل من الثلاثي ، وهو يدل على معنى مجرد حادث وعلى فاعله أيضًا ، ولذا فهو يشتمل على أمرين معًا هما :

١- المعنى المجرد الحادث من مورفيم الجذر .

٢- فاعل هذا الحادث من مورفيم الصيغة .

---

(1) د . تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٩.

(2) د . فاضل مصطفي الساقي : أقسام الكلام العربي ص ٢٠٣ وما بعدها ، د. حلمي خليل : الكلمة – دراسة لغوية معجمية ص ٥٦ وما بعدها ..

(3) د . فاضل مصطفي الساقي : أقسام الكلام العربي ص ٢٠٣ .

مثال ذلك كلمة (كاتب) ، حيث تدل على معنى الكتابة والذات التي فعلت الكتابة . وهذا المعنى مستفاد من الصيغة أو الوزن ، أو بعبارة أخرى من الوظيفة الصرفية لاسم الفاعل التي تميز كل كلمة جاءت على هذا الوزن في اللغة العربية عن غيرها من الكلمات التي على وزن اسم المفعول مثلاً [1] أو صيغ المبالغة التي تعبر من خلال بنيتها عن دلالات تزيد على ما تعطيه صيغ أخرى ، كأسماء الفاعلين أو المفعولين ، فكلمة (كذاب) ـ على سبيل المثال ـ تعطي قدرًا من الدلالة ليس في (كاذب) وذلك لأن ''الأولى جاءت على صيغة يجمع اللغويون القدماء على أنها تفيد المبالغة . فكلمة (كذاب) تزيد في دلالتها على كلمة (كاذب) ، وقد استمدت هذه الزيادة من تلك الصيغة المعينة ، فاستعمال كلمة (كذاب) ، يمد السامع بقدر من الدلالة لم يكن ليصل إليه أو يتصوره لو أن المتكلم استعمل (كاذب),, [2] .

ومثل ذلك المعنى نجده في الألفاظ التي تصنف على أنها أسماء ، فالمعنى الصرفي لها هو دلالتها على المسمى ، ومعنى ذلك أن التسمية هي وظيفة الاسم الصرفية ، وهو لا يدل على زمن البتة ، ولهذا فقد عرف النحاة الاسم بأنه ما دل على معنى في نفسه أو على مفرد دلالة مجردة عن الاقتران بالزمن [3] . ''علمًا بأن الدلالة على الحدث المجرد أو عدده أو نوعه هي المعاني الصرفية لما يندرج تحت مفهوم الاسم ، فهي الوظائف الصرفية للمصدر ، واسم المصدر ، واسم الهيئة ، واسم المرة,, [4] .

---

[1] د . حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية ص ٥٦ ، ٥٧ .

[2] د . إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص ٤٧ .

[3] ابن يعيش : شرح المفصل ١ / ٢٢.

[4] د . فاضل مصطفى الساقي : أقسام الكلام العربي ص ٢٠٣، ٢٠٤.

أما الأسماء المشتقة كاسم الفاعل أو المفعول وصيغ المبالغة فمعناها الوظيفي الاتصاف بالحدث مع مراعاة الفروق الدلالية لكل صيغة منها . كذلك فإن الأسماء التي ليس لها اشتقاقات أو لا تخضع لصيغ صرفية معينة لها هي الأخرى معانٍ وظيفية عامة ، كالضمائر الشخصية التي تدل على عموم الحضور أو الغيبة وأسماء الإشارة التي تدل على الحضور بالإشارة والأسماء الموصولة التي تدل كذلك على عموم الغيبة والظروف التي تدل على الزمان والمكان [١] .

هذا هو المعنى الصرفي العام للأسماء ، وهو الدلالة على مسمى معين ، فالتسمية ــ كما ذكرنا ــ هي الوظيفة الصرفية للأسماء ''وحين تتصرف الأسماء تصريفات مختلفة بحسب اختلاف الإفراد ، والتثنية ، والجمع ، والتذكير ، والتأنيث ، والتعريف والتنكير ، بواسطة اللواصق والزوائد المعروفة يكون الاسم دالاً على وظائف فرعية بجانب وظيفته الصرفية العامة التي هي الدلالة على المسمى . فالإفراد في الأسماء وظيفة يؤديها الاسم في حالة إفراده والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث والتعريف والتنكير كلها وظائف فرعية يؤديها الاسم في حالة التصاقه بمباني التصريف المختلفة,, [٢] .

وإذا انتقلنا إلى الأفعال فإننا نجد أن معناها الصرفي عامةً هو ''الدلالة على الحدث والزمان معًا ، ودلالة الفعل على الزمن دلالة ضمنية ، ومعنى الزمن أو الحدث هو جزء من دلالة صيغة الفعل أو وزن الفعل . وهما وظيفتا الفعل الصرفية,, [٣] .

وهناك وظائف فرعية يؤديها الفعل ، كالإسناد الذي يختلف باختلاف أقسام الفعل ، فالفعل (ضَرَبَ) بمفرده يؤدي وظيفة الإسناد للغائب بالضمير المستتر فيه ،

---

[١] السابق ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.

[٢] فاضل مصطفى الساقي ص ٢٠٧ ، ٢٠٨.

[٣] د . حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية ص ٥٧ .

والفعل المضارع بمفرده يؤدي وظيفة الإسناد بأنماط متعددة بحسب حروف المضارعة ، كالإسناد إلى الغائب أو الغائبة ، والمتكلمين والمخاطب . ويتم ذلك بواسطة الضمائر المستترة فيه أيضًا ، وفعل الأمر بمفرده يؤدي هو الآخر وظيفة الإسناد للمخاطب بواسطة الضمير المستتر فيه [١] .

كذلك فإن "الوظائف الصرفية الفرعية للأفعال تتعدد بتعدد الحالات التي تتقبل فيها الأفعال المجردة أحرف الزيادة واللواصق الأخرى ، فالتعدية والصيرورة والمشاركة والموالاة والإزالة والمطاوعة والاتخاذ والطلب والتحول والتحرك ، وغير ذلك كلها وظائف صرفية معينة يؤديها الفعل عند اتصاله بالمختار من اللواصق والزوائد لكل وظيفة من هذه الوظائف" [٢] .

وأما حروف المعاني وما شاكلها من الأسماء والأفعال أو ما يطلق عليه المحدثون الأدوات [٣] ، فليست لها هي الأخرى صيغ معينة ، ولا تدخل في علاقات اشتقاقية مثل الأسماء والأفعال "وإنما هي مورفيمات لا تظهر وظيفتها الأساسية إلا من خلال التركيب ، بمعنى أن الأداة تحمل وظيفة الأسلوب أو الجملة ، وهذا هو معناها الوظيفي . فالمعاني التي تؤديها حروف الجر والعطف وواو المعية وأدوات القسم والاستثناء ، والأدوات التي تدل على معاني الجمل كالشرط والاستفهام والتمني ، وغير ذلك ليست لها معانٍ معجمية ، وإنما تؤدي جميعًا معناها الوظيفي ، بوصفها مورفيمات من خلال التركيب ، وهذا هو الشأن أيضًا في (كان) وأخواتها وأفعال المقاربة والرجاء

---

[١] د . فاضل الساقي : أقسام الكلام العربي ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

[٢] د . فاضل مصطفى الساقي : أقسام الكلام العربي ص ٢٠٧ .

[٣] ليس في اللغة العربية ما يعرف بالأداة وإنما ينقسم الكلام — كما ذكر النحاة القدماء — إلى اسم وفعل وحرف وقد استخدم المحدثون هذا اللفظ ليعبروا به عن حروف المعاني وما شاكلها من الأسماء والأفعال كأسماء الاستفهام والشرط والإشارة والموصولات وأسماء الأفعال والأفعال الجامدة ... الخ .

والشروع كلها مورفيمات مستقلة ، قد يكون لبعضها معنى معجمي ، ولكنها تؤدي معنى نحويًا,, [١] .

ثانيًا : الوظائف النحوية للألفاظ

وهي تتصل بترتيب الكلمات في الجمل ، و''تحددها العلاقات المتبادلة بين الأشكال في النظم النحوية القائمة في اللغة,, [٢] . وهذه الوظائف هي ما أسماها عبد القاهر الجرجاني النظم ، يقول: ''معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض . والكلم ثلاث : اسم ، وفعل ، وحرف . وللتعليق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما,, [٣] . ثم يقول بعد ذلك :''فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض ، وهي ، كما تراها ، معاني النحو وأحكامه ، وكذلك السبيل في كل شيء كان له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض ، لا ترى شيئًا من ذلك يعدو أن يكون حكمًا من أحكام النحو ومعنى من معانيه,, [٤].

والنظم بهذا المعنى الذي ذكره عبد القاهر الجرجاني له علاقة وثيقة بالمورفولوجيا عند علماء اللغة المحدثين . ولعله كان يعني بالتعليق ما يقصده هؤلاء العلماء بالعلاقات التركيبية [٥] STRUCTURAL RELATIONS أو ''العلاقات التي تربط بين العناصر اللغوية ، داخل الجملة,, [٦].

---

(١) د . حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية ص ٥٨ .

(٢) د . محمود السعران : علم اللغة ص ٢٣٧ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٤ .

(٤) السابق ص ٨ .

(٥) Hartmann & Stork , op . cit , p 81.

(٦) Hartmann & Stork , ibid , p 138

أما ما يقصده بمعاني النحو فهو ما يشيرون إليه تحت اسم الوظائف النحوية للكلمة في الجملة ، والمقصود بهذه الوظائف هنا المعاني النحوية التي تحددها الكلمات في الجملة . تلك المعاني التي توضح إذا ما كانت الجملة خبرية أو إنشائية أو ما يتعلق بالأدوار التي تؤديها العناصر المختلفة والتي تتغير بها المورفيمات في التركيبات النحوية المختلفة [١] ، وبناء على ذلك يمكن أن تنقسم هذه المعاني النحوية بالنسبة للغة العربية إلى قسمين : وظائف نحوية عامة ووظائف نحوية خاصة [٢] .

أولاً : الوظائف النحوية العامة

وهي المعاني العامة المستفادة من الجمل والأساليب ، وتتمثل هذه الأساليب في دلالة الجمل أو الأساليب على الخبر والإنشاء ، والإثبات والنفي ، والتأكيد ، وفي دلالتها على الطلب بأنواعه المختلفة ، وفي دلالتها على الشرط ، كل ذلك باستخدام العناصر اللغوية التي تحمل وظيفة الجملة أو الأسلوب باستثناء الجمل التي لا تحتاج بطبيعتها إلى تلك العناصر . كما تتمثل هذه الوظائف النحوية العامة في قدرة الجملة على الإفصاح باستخدام أسماء الأفعال والأصوات وأفعال المدح والذم ، وفي قدرتها على الإفصاح عن التعجب والقسم باستخدام العناصر اللغوية الدالة على ذلك [٣].

ثانيًا : الوظائف النحوية الخاصة

وهي معني الأبواب النحوية أو المواقع الوظيفية التي تشغلها الألفاظ في الجملة ، وتتضح الصلة بين الوظيفة النحوية الخاصة والباب النحوي إذا عرفنا أن الكلمة التي تقع

---

[١] د . حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية ص ٦١ ، ٦٢ .

[٢] د . فاضل مصطفى الساقي : أقسام الكلام العربي ص ٢٠٩ وما بعدها ، د. حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية ص ٦٢ وما بعدها .

[٣] د . فاضل مصطفى الساقي : أقسام الكلام العربي ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

في باب من أبواب النحو تقوم بوظيفة ذلك الباب ، ويتمثل هذا في وظيفة الفاعلية التي يؤديها الفاعل ، والمفعولية التي يؤديها المفعول ، والحالية التي يؤديها الحال [1]... الخ .

فاللفظ الذي يقع في موقع معين يمنحه هذا الموقع وظيفة معينة أو معنىً وظيفيًا خاصًا "والمواقع الوظيفية هي مواضع في أطر مركبات تحدد الدور الذي تقوم به الأشكال اللغوية في المركب ، بالقياس إلى غيرها من الأجزاء الموجودة في المركب نفسه ، والوظائف عبارة عن ارتباطات نحوية تحدد الدور الذي يقوم به الشكل في المركب ، كالمسند إليه ، والمسند ، والمفعول به ، والحال ، والتمييز ، وغير ذلك" [2] .

فإذا ما وقع اللفظ في موقع من تلك المواقع دل على معنى معين ، وهو معنى وظيفي نحوي "وهذه المعاني تحرسها قرائن صوتية كالعلامة الإعرابية ونغمة الكلام ، أو صرفية كالبنية الصرفية والمطابقة والربط والأداة ، أو تركيبية كالتضام والرتبة . ومعنى هذا أن الأبواب النحوية وظائف تكشف عنها القرائن ، أو بعبارة أخرى معانٍ وظيفية للقرائن المستمدة من الأصوات والصرف والماثلة في التركيب والسياق" [3] .

هذه هي المعاني الوظيفية الصرفية والنحوية للألفاظ . وعلى ضوئها يمكن تناول أقسام الكلام المختلفة ــ كما يقسمها النحاة القدماء [4] ــ وهي الأسماء والأفعال وحروف المعاني ومناسبة ما تدل عليه من تلك المعاني للسياق اللغوي في النص القرآني .

---

[1] السابق ص ٢١٢ .

[2] د . رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ص ١٩٢

[3] د . تمام حسان : الأصول دراسة إيبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي ص ٣١٨ .

[4] انظر الكتاب لسيبويه ١ / ١٢ .

المبحث الأول

المناسبة بين الأسماء والسياق اللغوي

رأينا أن المعاني الوظيفية للأسماء إما صرفية تتصل ببنية اللفظ ، وإما نحوية تتصل بالموقع الذي يقع فيه . ومن ثم يمكن تناول المعاني الوظيفية للأسماء ومناسبة هذه المعاني للسياق اللغوي من خلال ما تدل عليه مباني الأسماء ثم ما تدل عليه مواقعها الوظيفية .

أولاً : المعنى الوظيفي لبنية الاسم (المعنى الصرفي)

تتعدد هذه المعاني وتختلف بحسب اختلاف الأسماء وأنواعها ، فمنها ما يتصل بصيغة اللفظ من حيث تعريفه وتنكيره ، ومنها ما يتصل بصيغته من حيث نوعه تذكيرًا وتأنيثًا ، ومنها ما يتصل به من حيث عدده إفرادًا وتثنية وجمعًا ، ومنها ما يتعلق به من حيث اشتقاقه ، كأسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة ، ومنها ما يتعلق بالأسماء التي لا اشتقاق لها ، كالموصولات وأسماء الإشارة والضمائر والظروف . وفيما يلي تفصيل هذه الأمور :

(أ) النكرة والمعرفة

يعرف ابن عصفور الأسماء التي تتصف بالتنكير أو التعريف قائلاً : ''النكرة كل ما علق في أول أحواله على الشياع في مدلوله . والمعرفة كل ما علق في أول أحواله على أن يخص مسماه ,, [1] . ويقول العلوي : ''اعلم أن المعرفة ، ما دلت على شيء بعينه ، والنكرة ، ما دلت على شيء لا بعينه,, [2] .

---

[1] شرح الجمل ٢/ ١٣٤.

[2] الطراز ص ٢٠٨ .

فالتنكير يعطي الاسم دلالة على الشيوع والعموم ، والتعريف يعطيه دلالة على التخصيص والتحديد . وعلى هذا الأساس يأتي استعمال الأسماء المنكرة والمعرفة في القرآن الكريم إلا إذا منحها السياق دلالة أخرى تضاف إلى معناها الأصلي . فإذا اقتضى السياق الشيوع والتعميم وما يتولد عن هذا من ابهام أو تهويل أو تحقير أو تعظيم ، بحسب موقع الكلمة من سياقها اللغوي والاجتماعي جاء اللفظ منكرًا ، ومن ذلك لفظ (رَجُلٌ) في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (القصص : ٢٠) ''فليس المراد هنا تعيين الرجل ، ولكن يراد هنا أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار عليه بالقتل,, [١] . وذلك كي ينجو بنفسه من هؤلاء القوم في أسرع وقت . ومن هنا كان تنكير هذا اللفظ ؛ إذ ليس التركيز في هذا السياق على الرجل الذي أوصل الخبر ، بل التركيز على وصول الخبر نفسه ، فناسب أن يأتي اللفظ منكرًا .

أما إذا اقتضى السياق التحديد أو التخصيص ، فإنه يؤتى باللفظ معرفًا ليدل على هذا المعنى ، ومن ذلك لفظ(ٱلْحَقِّ) في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ (غافر : ٧٥) ، فالسياق هنا يتحدث عن الذين كفروا ممن يجادلون في آيات الله ، ويكذبون بالكتاب وما أرسل به الرسل؛ إذ يلقون في النار يوم القيامة ، فيقال لهم : أين هؤلاء الذين كنتم تشركون بالله ؟ يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (غافر : ٧٣ ــ ٧٤) ، فــ ''لو قال بغير حق لم

---

[١] د . أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ص ١٢٨ .

يكن في ذلك إشارة إلى الكفر ونكران الدين بل إن الذي يفهم في هذه الحالة هو (ضد الباطل) وليس (ضد الإيمان) أما تعريف الحق فقد صرف المعنى إلى الاحتمال الثاني،[1]، فناسب التعريف هنا ليحدد المعنى المراد من اللفظ .

وقد استعمل التعبير القرآني اللفظ الواحد منكرًا في موضع ومعرفًا في آخر بحسب مقتضيات السياق وما يتطلبه من دلالات تنشأ عن تعريف اللفظ أو تنكيره ، ومن ذلك لفظ (ٱلْبَلَدَ) الذي يأتي منكرًا في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ (البقرة : ١٢٦) ، ثم يأتي معرفًا في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم : ٣٥) .

وقد اختلف العلماء في تعليل المغايرة بين اللفظين في هاتين الآيتين ، فذهب الإسكافي إلى أن سبب ذلك يرجع إلى أحد أمرين أولهما : أن يقال الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جُعِلَ بلدًا، فكأنه قال اجعل هذا الوادي بلدًا آمنًا ؛ لأن الله عز وجل حكى عنه أنه قال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ (إبراهيم : ٣٧) بعد قوله : اجعل هذا الوادي بلدًا ، والدعوة الثانية وقعت وقد جُعِلَ بلدًا ، فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذي صيرته كما أردت ومصرته كما سألت ، ذا أمن على من آوى إليه ، فُعرِّف حين عرف بالبلدية ، ونُكِرَ حيث كان مكانًا من الأمكنة غير مشهور بالتمييز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس . وأما الأمر الثاني فهو أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلدًا ، وإنما طلب من الله أن يجعله آمنًا ،

---

[1] د . تمام حسان : البيان في روائع القرآن ص ٣٦٠ .

والقائل يقول : اجعل ولدك هذا أديبًا ، وهو ليس يأمره بأن يجعله ولدًا ؛ لأن ذلك ليس إليه ، وإنما يأمره بتأديبه ، فكأنه قال : اجعله بهذه الصفة ، فذكر الموصوف ، وأتبعه الصفة، فكذلك قوله : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَـٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله عنها في الموضعين . ورفض الرأي القائل بأن اللفظ جاء في الآية الأولى نكرة ، فلما أعيد عُرّف [١] .

وقد أخذ الكرماني بالرأي الأول ؛ لأن اسم الإشارة في البقرة ـ كما يرى ـ هو إشارة إلى المذكور في قوله : ﴿ بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ قبل بناء الكعبة ، وفي إبراهيم إشارة إلى البلد بعد الكعبة . فيكون (بَلَدًا) في هذه السورة المفعول الثاني ، و(ءَامِنًا) صفته و(هَـٰذَا ٱلۡبَلَدَ) في إبراهيم المفعول الأول ، و(ءَامِنًا) المفعول الثاني [٢] .

كما أخذ به أبو حيان ، وحكى الرأي الثاني دون تعليق ، فرأي أن الآيتين سواء ، فتحتمل آية التنكير أن يكون قبلها معرفة محذوفة أي : اجعل هذا البلد بلدًا آمنًا ، ويكون (بَلَدًا) النكرة توطئة لما يجيء بعده [٣] .

أما الفخر الرازي فقد قال بمثل ما قال به الإسكافي في الوجهين كليهما ، ولكنه زاد على الثاني أن التنكير في الآية الأولى فيه دلالة على المبالغة ، فقوله : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ

---

(١) درة التنـــزيل ص ١٦ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ٧٨ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٥٥٤ .

﴿ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ معناه : اجعله من البلدان الكاملة في الأمن ، وأما قوله : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة [1] .

ونظر ابن الزبير إلى الأمر نظرة مختلفة عما سبق ، فالوجه عنده أن اسم الإشارة في البقرة لم يقصد إتباعه بتابع اكتفاءً بالواقع قبله من قوله : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ (البقرة : ١٢٥) ، وقوله : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ (البقرة : ١٢٥) ، وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد ، فورد اسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع المبين جنسه اكتفاءً بما تقدمه مما يحصل منه مقصود البيان ، فانتصب (بَلَدًا) مفعولاً ثانيا و(ءَامِنًا) نعتًا له واسم الإشارة مفعولاً أول غير محتاج إلى تابع لقيام ما تقدم مقامه . وأما آية سورة إبراهيم فلم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار إليه ،.فلم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعًا له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه باسم جامد في الغالب عطف بيان أو نعت ، فانتصب اسم الإشارة المتبع على أنه مفعول أول و(ءَامِنًا) على أنه مفعول ثانٍ. أما ما ذهب إليه صاحب الدرة في الوجه الثاني الذي سبقت الإشارة إليه فيصفه ابن الزبير بأنه بعيد ، إذ ليس بمفهوم من لفظ الآي [2] .

وتعتمد هذه الآراء جميعًا على ما يدل عليه التنكير من الإبهام وانتفاء المعرفة وما يدل عليه التعريف من عكس ذلك ، ولم تنظر هذه الآراء إلى ما يدل عليه اللفظ

---

[1] مفاتيح الغيب ٤ /٥٠ .

[2] ملاك التأويل ١ /٢٣٤ ، ٢٣٥ .

النكرة من الشيوع والعموم وما تدل عليه المعرفة من التعيين والتخصيص . ولو نظرنا إليهما بهذا المعنى لكان ذلك أقرب إلى السياق الذي ورد فيه كلا اللفظين . فالمقام الذي ورد فيه اللفظ الأول يدور حول التعميم والشيوع ؛ إذ يخبر الله عز وجل نبيه إبراهيم أنه جعله إمامًا للناس كافة ، ثم يخبر عز وجل أنه جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا لهم يحجون إليه ، ويحتمون به ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة : ١٢٤ ـ ١٢٥) ، ثم يخبر أنه يرزق فيه جميع الناس من آمن منهم ومن كفر لا يفرق بينهم في الرزق ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(البقرة : ١٢٦) ، فناسب هذا التعميم أن يأتي بلفظ (بَلَدًا) في صورة التنكير ؛ ليتفق بما يدل عليه من تعميم وشيوع مع دلالة السياق .

وأما السياق في سورة إبراهيم فلم يكن فيه هذا التعميم بل قام على التخصيص ؛ إذ يدعو فيه إبراهيم ربه أن يأوي بعض الناس إلى بيته المحرم لتكون ذريته في جوارهم وأن يرزقهم رزقًا من لدنه ، يقول تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم : ٣٧) ، فقال أفئدة من الناس ولم يقل أفئدة الناس

داعيًا الله أن يرزقهم من الثمرات ، فكان الدعاء خاصًا بأهله ومن يسكنون معهم ، فناسب تعريف البلد ، ليدل على هذا التخصيص والتحديد .

وقد اقترب البقاعي من وجه هذه المناسبة عند إشارته إلى ما في سياق الآية الأولى من تعميم، يقول : ''ولما كان السياق للمنع من المسجد وللسعي في خرابه ، وكان ذلك شاملاً بعمومه للبادي ، ولذلك قرر أنه مثابة للناس عامة وأمن كان من الأنسب تنكير البلد ، فقال : (بَلَدًا) يأنس من يحل به (ءَامِنًا) إفصاحا بما أفهمه ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ ﴾، والمعنى أنكم عققتم أعظم آبائكم في دعوتيه كلتيهما : في كونه بلدًا ، فإنه إذا انقطع الناس عن أهله خُرب ، وفي كونه آمنًا ، وهذا بخلاف ما يأتي في سورة إبراهيم عليه السلام,, [١] .

(ب) المذكر والمؤنث

قد يحتمل السياق القرآني أن تستعمل فيه بعض الألفاظ على وجهين مختلفين من حيث التنكير والتأنيث ، فيؤثر التعبير القرآني أحد الوجهين على الآخر ؛ لاتفاقه مع دلالة السياق أو بنيته . ومن ذلك :

(١) قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام لبني إسرائيل : ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ٤٩) ، وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ

[١] نظم الدرر ١ / ٢٤١ .

وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ (المائدة : ١١٠) . فقال في الآية الأولى : فأنفخ فيه بضمير المذكر ، وقال في الثانية فتنفخ فيها بضمير المؤنث . وإنما يرجع ذلك ــ على حد قول ابن جماعة ــ إلى ''أن آية آل عمران من كلام المسيح عليه السلام في ابتداء تحديه بالمعجزة المذكورة ، ولم تكن صورة بعد ، فحسن التنكير والإفراد . وآية المائدة من كلام الله تعالى له يوم القيامة معددًا نعمه عليه بعد ما مضت ، وكان قد اتفق ذلك منه مرات ، فحسن التأنيث لجماعة ما صوره من ذلك ونفخ فيه,, [1] .

(٢) قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ٩١) ، وقوله : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (التحريم : ١٢) ، فقال في الآية الأولى : فنفخنا فيها بضمير المؤنث ، وفي الثانية : فنفخنا فيه بضمير المذكر .

ولعل الاختلاف في الآيتين السابقتين بين التذكير والتأنيث يرجع إلى أن القصد في الآية الأولى إبراز جعل مريم وابنها ــ عليهما السلام ــ آية للعالمين ، فناسب أن يرجع الضمير إلى مريم بوصفها آية من آيات الله ، وأما السياق في الآية الثانية فهو سياق يضرب فيه المثل بمريم التي آمنت بربها محصنة فرجها ومصدقة بكلمات ربها وكتبه ، فالقصد فيه ضرب المثل بإيمان مريم ، فناسب ذلك أن يرجع الضمير إلى إحصان فرجها بوصفه صورة من صور الإيمان . يقول الإسكافي موضحًا : ''لما كان القصد في سورة الأنبياء إلى الإخبار عن حال مريم وابنها وأنهما جُعِلا آية للناس وكان

---

[1] كشف المعاني ص ١٢٩ .

النفخ فيها مما جعلها حاملاً ، والحامل صفة الجملة ، فكأنه قال والتي أحصنت فرجها فصيرها النفخ حاملاً حتى ولدت ، والعادة جارية أن لا تحمل المرأة إلا من فحل ولا يولد الولد من غير أب ، فلما كان القصد التعجب من حالتها وأنها بالنفخ صارت حاملاً ، رد الضمير إلى جملتها ، إذ كان النفخ في فرجها نفخًا فيها أوجب القصد إلى وصفها بعد النفخ بصفة ترجع إلى جملتها دون بعضها ، كان قوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ أولى من قوله : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ ... أما قوله في سورة التحريم : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ فلما لم يكن القصد فيه إلى التعجب من حالها بالحمل عن النفخ وولادتها لا عن ضراب الفحل ، لم يكن ثم من القصد إلى وصف جملتها بغير الصفة التي كانت عليه قبلها ما كان في الآية الأولى ، فجاء اللفظ على أصله ، والمعنى فنفخنا في فرجها ، ولم يسق الكلام إلى ما سيق إليه في سورة الأنبياء من وصف حالها بعد النفخ فاختلفا لذلك,, [1] .

(ج) المفرد والمثنى والجمع

قد يتصل إفراد اللفظ أو تثنيته أو جمعه في القرآن الكريم بدلالة السياق أو بنيته ، فيأتي باللفظ الواحد على أكثر من شكل من حيث عدده في مواضع مختلفة تبعًا لما يقتضيه السياق . ومن ذلك :

(١) إفراد لفظي المشرق والمغرب في قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المزمل : ٩) ، ثم تثنيتهما في قوله تعلى : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (الرحمن : ١٧) ، ثم جمعهما في أكثر من موضع ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ

---

[1] درة التنزيل ص ١٦٨ .

ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ (المعارج : ٤٠) . فغاير الأسلوب القرآني بين هذه الألفاظ إفرادًا وتثنية وجمعًا من آية إلى أخرى .

وقد أرجع الرازي هذه المغايرة إلى أن "القرآن نزل بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه ومن أساليب كلامهم وفنونه الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز ، فأجمل تارة بقوله تعالى : ﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴾ أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيها على الإجمال ، وفصل تارة بقوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ ﴾ أراد جمع مشارق السنة ومغاربها" [1] .

وما ذهب إليه هنا قد يكون من مقاصد القرآن ، ولكنه لا يعمد إليه في ذاته ، فوراء ذلك التنويع الأسلوبي ملحظ بياني وعلاقة دلالية بين كل لفظ في موضعه والسياق الوارد فيه . وقد أحسن الزركشي إبراز تلك العلاقة ، بحيث لا يجوز أن يأتي المفرد في موضع المثنى أو الجمع والعكس ، فيقول : "أما ما ورد مثنى في سورة (الرحمن) ، فلأن سياق السورة سياق المزدوجين . الثاني : فإنه سبحانه أولاً ذكر نوعي الإيجاد ؛ وهما الخلق والتعليم ، ثم ذكر سراجي العالم ومظهر نوره ، وهما الشمس والقمر ، ثم ذكر نوعي النبات ؛ فإن منه ما هو على ساق ، ومنه ما انبسط على وجه الأرض ، وهما : النجم والشجر . ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض، ثم أخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ، ووسط بينهما ذكر الميزان ، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهي عن الظلم ، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض ، وهما الفاكهة والحبوب ، ثم ذكر نوعي المكلفين ، وهما : نوع الإنسان والجان ، ثم ذكر نوعي المشرق والمغرب ، ثم ذكر بعد ذلك البحر من الملح والعذب ، فلهذا حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه

---

[1] مسائل الرازي وأجوبتها ، من غرائب آي التنـــزيل ص ٢٩١ .

السورة . وإنما أُفردا في سورة (المزمل) لما تقدم من ذكر الليل والنهار ، فإنه ــ سبحانه ــ أمر نبيه بقيام الليل ، ثم أخبر أنه له في النهار سبحًا طويلاً ، فلما تقدم ذكر الليل والنهار ، تممه بذكر المشرق والمغرب ، اللذين هما مظهر الليل والنهار ، فكان ورودهما منفردين في هذا السياق ، أحسن من التثنية والجمع ؛ لأن ظهور الليل والنهار فيهما واحد .

وإنما جمعا في سورة المعارج في قوله : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴾ (المعارج : ٤٠ ــ ٤١) ؛ لأنه لما كان هذا القسم في سعة مشارق ربوبيته ، وإحاطة قدرته ، والمقسم عليه إذهاب هؤلاء ، والإتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب ؛ لتضمنها انتقال الشمس التي هي إحدى آياته العظيمة ، ونقله سبحانه لها ، وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب ، فمن فعل هذا ، كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء ، وينقل إلى أمكنتهم خيرًا منهم !؟ .

وأيضًا : فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهود ، وقد جعله الله بحكمته سببًا لتبدل أجسام النبات ، وأحوال الحيوانات وانتقالها من حال إلى حال ، ومن بَرْد إلى حر ، وصيف وشتاء ، وغير ذلك بسبب اختلاف مشارق الأرض ومغاربها ، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على تبديل من هو خير ! وأكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴾ فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظ الجمع,, [1] .

---

[1] البرهان في علوم القرآن ٤ / ٢٠ ، ٢١ .

(٢) جمع لفظ (خطيئة) جمع تكسير في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة : ٥٨) ، ثم جمع اللفظ نفسه جمع سلامة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف : ١٦١) .

فقال في الأولى (خَطَٰيَٰكُم) وهو جمع يدل على الكثرة ، وقال في الثانية (خَطِيٓـَٔـٰتِكُم) وهو جمع يدل على القلة ، والدليل على ذلك أنه إذا صغر جمع التكسير ''وإن كان له واحد من لفظه فلا يخلو من أن يكون له جمع قلة أو لا يكون . فإن كان له جمع قلة رد إليه وصغر جمع القلة نحو فلوس تقول فيها أُفَلِيس ؛ وما ليس له جمع قلة رد إلى واحده ، وصغر الواحد وجمع بالألف والتاء إن كان لما لا يعقل,, [١] ، ومن ذلك لفظ دراهم الذي يصغر على (دُرَيْهمات) ، فيرد إلى المفرد ثم يصغر ، ويجمع جمع القلة الملائم للتصغير ، وكذلك لفظ (خطايا) .

فإذا كان الأمر كذلك يمكننا إذا رجعنا إلى سياق كل آية أن ندرك السر وراء استعمال جمع الكثرة في الآية الأولى وجمع القلة في الآية الثانية ، وهو ما يكشف عنه الإسكافي قائلاً : ''استعمل لفظ الكثير في الموضع الذي جعل الإخبار فيه عن نفسه بقوله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ ﴾ وشَرَطَ لمن قام بهذه الطاعة ما يشرطه الكريم إذا وعد من مغفرة الخطايا كلها ، وقرن إلى الإخبار عن نفسه جَلَّ ذِكْره ، ما يليق بجوده وكرمه ،

---

[١] ابن عصفور : شرح الجمل ٢ / ٢٩٢ .

وأتى باللفظ الموضوع للشمول فيصير كالتوكيد بالعموم ، كما لو قال : نغفر لكم خطاياكم كلها أجمع ، ولما لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه عزّ اسمه ، وإنما قال : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ...﴾فلم يسمّ الفاعل ، أتى بلفظ الخطيئات ، وإن كان المراد بها الكثرة كالمراد بالخطايا ، إلا أنه أتى في الأول لما ذكر الفاعل بما هو لائق بضمانة من اللفظ ، ولما لم يُسَمّ الفاعل في الثاني في سورة الأعراف ، وضع اللفظ غير موضعه للفرق بين ما يؤتى به على الأصل وبين ما يعدل عنه إلى الفرع„ [١] .

(د) أسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة

عرفنا أن الأسماء المشتقة تدل بصيغها على معانٍ وظيفية صرفية ، وهي الاتصاف بالحدث مع مراعاة أن كل اسم منها يختلف في دلالته عن الأسماء الأخرى بحسب صيغته . ويحدد السياق الاسم الذي يتطلبه تبعًا لما يقتضيه معنى السياق أو بنيته ، وتتجلى هذه العلاقة بين الأسماء المشتقة بما لها من معانٍ صرفية والسياق اللغوي في القرآن الكريم ؛ إذ يختار من تلك الألفاظ دون غيرها ما يتناسب في صيغته مع ما يقتضيه ، وما يتطلبه ، ومن ذلك :

(١) استعمال التعبير القرآني اسم الفاعل (باسط) دون الفعل (أبسط) في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (المائدة : ٢٧ – ٢٨) .

---

[١] درة التنزيل ص ٨ .

وإنما يرجع إيثار اسم الفاعل هنا دون الفعل ؛ لأنه يدل بصيغته على الاتصاف بالحدث ، كما يدل على عدم التقييد والتجدد "وعدمهما هو إفادة الدوام المقابل للتقييد بزمن مخصوص وإفادة مطلق الثبوت المقابل للتجدد" [١] . قال الفخر الرازي : "إذا قلنا زيد منطلق . أفاد ثبوت الانطلاق لزيد ، من غير إفادة لدوام ذلك الثبوت أو انقطاعه ، ومن غير إشعار منه بالزمان المخصوص لذلك الثبوت ، بل على ما يعم المؤقت والمقيد ومقابليهما" [٢] . فاسم الفاعل يدل على الثبوت من ناحية ، ومن ناحية أخرى يدل على الحال والاستقبال والمضي [٣] معًا ، ويحدد السياق الزمن المراد به ، وهذا على خلاف الفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحال أو الاستقبال .

والمتأمل لسياق الآية السابقة يجد أنه آثر اسم الفاعل (باسط) على الفعل لهذه المعاني ؛ إذ يخبر عن ابني آدم ، وأحدهما يتصف بالتقوى والخوف من الله ، والآخر زين له الشيطان عمله وأغواه ، وهو ذو استعداد أن يفعل أي شئ ، ولو كان ذلك الشيء قتل أخيه ، والدليل على ذلك استخدام التعبير القرآني أسلوب القسم الدال على التوكيد في قوله تعالى : (لأَقْتُلَنَّكَ) ، وأما الأول فهذا الاستعداد غير موجود عنده ؛ لخوفه من الله وتقواه ، يدل على ذلك أسلوب القسم الذي حكاه القرآن عنه ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي ﴾ ليؤكد به نفيه الإقدام على هذا الأمر ، ثم استخدام الجملة الاسمية الدالة على الثبوت ثم نفيها وتأكيد هذا النفي بالباء الزائدة ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ ﴾ . يقول أبو السعود : "ثم صرح بتقواه ، على وجه يستدعي سكون غيظه لو كان له عقل وازع حيث قال بطريق التوكيد ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ

---

[١] ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح ٢ / ٢٩ وينظر أيضا عروس الأفراح : للسبكي ٢ / ٢٩ .

[٢] نهاية الإيجاز ص ١٠٩ .

[٣] ابن عصفور : شرح الجمل ١ / ٥٥٠ .

﴿لأَقْتُلَكَ﴾ حيث صدر الشرطية باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح إيذانًا من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه ، ولم يجعل جواب القسم الساد مسد جواب الشرط جملة فعلية موافقة لما في الشرط ، بل اسمية مصدّرة بـــ (ما) الحجازية المفيدة لتأكيد النفي بما في خبرها من الباء للمبالغة في إظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفي البسط ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٨) ، وقوله : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ﴾ (المائدة : ٣٧)،، [١] ، فناسب هذا كله أن يستكمل تلك الصورة باسم الفاعل (باسط) الوارد في جملة منفية ، لينفي به اتصافه بتلك الصفة ، وهي استعداده بالإقدام على قتل أخيه ، وينفي به أيضًا هذا الاستعداد في أي وقت من الأوقات في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، ولو جاء بالفعل لنفي مجرد تجديد الحدث لا ثبوته في زمن معين .

ومن حسن استعمال اسم الفاعل في القرآن الكريم ما نراه في لفظ (مُخْرِج) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ (الأنعام : ٩٥) . وذلك على خلاف ما جاء في آيات أخرى ، إذ استعمل التعبير القرآني الفعل دون الاسم نحو قوله تعالى : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (آل عمران : ٢٧) . ومثل هذه الآية ما نراه في آيتي يونس ٣١ ، والروم ١٩ .

---

[١] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) ٣ / ٢٧ .

ويمكن إرجاع سبب إيثار اسم الفاعل في تلك الآية إلى أمور ثلاثة : الأول منها يتعلق بالمناسبة اللفظية ؛ إذ جاء الاسم هنا "توخيًا لحسن الجوار في النظم ليجاور كل لفظ ما يلائمه في مناسبة الزنة ، لتتعادل ألفاظ النظم عند التركيب ، ولو أتى هذا الحرف في الأنعام كما جاء أمثاله في آل عمران ، ويونس ، والروم لخرج نظم آية الأنعام عن الاعتدال ، لمجيء صيغة الفعل حيث يقول : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ متوسطًا بين أسماء الفاعلين من قوله : ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وقوله : ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ (الأنعام : ٩٦) ، كما أنه لو جاء مكان ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ في آل عمران﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ لتنافرت الألفاظ وعيب نظم الكلام لسوء الجوار لمجيء اسم الفاعل بين صيغ الأفعال" [١] .

أما الأمر الثاني فيرجع إلى دلالة السياق ؛ إذ يدور حول التمدّح بقدرة الله على فلق الحب والنوى وفلق الإصباح من الظلام وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ، والمناسب لهذا المدح اسم الفاعل لا الفعل ؛ لأنه أبلغ منه ؛ إذ يدل ــ كما يذكر صاحب مواهب الفتاح ــ على مطلق الثبوت والدوام اللذين يدلان على كمال المدح أو الذم ؛ لأنهما بالدائم الثابت أكمل [٢] ، وهو ما يكشف عنه ابن أبي الإصبع قائلاً : "ولما أوجبت البلاغة أن يأتي خبر (إن) في سورة الأنعام بصيغة اسم الفاعل في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ يكون اسم الفاعل المضاف يدل على المُضِيّ ، والفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال دون المُضِيّ ، فالآية سيقت للتمدح بالقدرة المطلقة التي هي صفة ذاتية لله سبحانه ، والاعتداد بالنعم على عباده ، فكان التمدح بها مع الإتيان بصيغة اسم الفاعل أبلغ من الإتيان بصيغة الفعل ، لما يدل عليه اسم الفاعل من المُضِيّ المطلق الدال على العدم ، فإن مجئ ذلك على ما جاء عليه يستفاد منه قدم القدرة ، ويلزم من قدمها قدم

---

[١] ابن أبي الإصبع : بديع القرآن ص ٢٦٦ .

[٢] ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح ٢ / ٢٩ .

الموصوف بها ، ولما علم ـــ سبحانه وتعالى ـــ أن تمدحه بمجرد فلق الحب والنوى في بطن الأرض غير تام لأنه لا ينتفع به حتى يخرج نباته إلى ظهر الأرض ، فحينئذ يكون نعمة يعتد بها على العبيد لانتفاعهم به ، وليظهر لأعينهم فيشاهدون به قدرة مخرجه ومخترعه ، أخبر بأنه يخرج نباتًا من الأرض ليتم معنى التمدح ، ووجب أن يكون الخبر عنه بصيغة الفعل المضارع ليقع الإخبار به على ترتيب وقوعه في الوجود ، لا يتقدم منه ما يجب تأخيره ، ولا يتأخر ما يجب تقديمه ، إذ كان انفلاق الحب والنوى في بطن الأرض مقدمًا على خروج النبات إلى ظهر الأرض ، فكان زمن انفلاق الحب والنوى ماضيًا بالنسبة إلى زمن خروج النبات ، وخروج النبات مستقبلاً بالنسبة إليه استقبالاً أوله زمن الحال ، وآخره زمن الاستقبال ، فكان مقتضى البلاغة الإتيان بصيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال بعد اسم الفاعل المضاف الدال على المضي,, [1] .

وأما الأمر الثالث فيرجع إلى بنية السياق أو نظمه ، وهو ما يوضحه كذلك ابن أبى الإصبع ، إذ يقول : "وأتى في هذه الجملة باسم الفاعل لأنه خبر مبتدأ مستأنف تقديره ، وهو مخرج الميت من الحي ؛ ليأتي نظم الجملة الثانية على ما أتى عليه نظم الجملة الأولى ، حيث قال ـــ عز وجل ـــ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ فجاء خبر إن اسمًا ، فكذلك أوجبت البلاغة أن يأتى خبر المبتدأ في الجملة الثانية (اسمًا),, [2] .

(٢) استعمال اسم المفعول في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ (الفاتحة : ٦ ـــ ٧) ، فقال عز وجل : (ٱلْمَغْضُوبِ) ، ولم يقل (غضبت) ؛ ليتفق مع قوله : (أَنْعَمْتَ) ، وذلك

---

[1] بديع القرآن ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

[2] السابق ص ٢٦٩ .

لأن السياق سياق دعاء من العباد إلى ربهم أن يهديهم صراطه المستقيم ، ذلك الصراط الذي أنعم به على مَنْ اهتدى من عباده ، فكان من المناسب أن يسند الإنعام إليه ؛ لأن المقام مقام دعاء ورجاء ، ولم يكن ليناسب أن يُسند الغضب إليه ؛ لأن من يطلب الهداية لا يستحق غضب الله عليه بل إنعامه عليه بها . قال صاحب الدر المصون : "وأتى بصلة أل اسمًا ليشمل سائر الأزمان ، وجاء به مبنيًا للمفعول تحسينًا للفظ ؛ لأن من طلبت منه الهداية ونسب الإنعام إليه لا يناسبه نسبة الغضب إليه ؛ لأنه مقام تلطف وترفق لطلب الإحسان ، فلا يحسن مواجهته بصفة الانتقام" [١] ، ومن هنا جاء التعبير القرآني باسم المفعول المغضوب الذي لا يسند فيه الغضب إلى الله في ظاهر اللفظ .

ومن بديع هذا الاستعمال كذلك ما ورد في قوله تعالى :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (هود : ١٠٣) ، فآثر الأسلوب القرآني في هذا الموضع اسم المفعول (مَّجْمُوع) دون الفعل الذي آثره في موضع آخر ؛ فقال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ (التغابن : ٩) .

وقد علل الزمخشري مجيء اسم المفعول في الآية الأولى مقارنًا إياه بورود الفعل في الثانية تعليلاً يتعلق بما يدل عليه اللفظ نفسه من خلال صيغته دون أن يربط ذلك بالسياق ، فيقول :"فإن قلت : لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله ؟ قلت : لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه يوم لابد من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى الناس ، وأنهم لا ينفكون منه ، ونظيره قول المتهدد : إنك لمنهوب مالك محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل ، وإن شئت فوازن بينه

---

[١] السمين الحلبي : الدر المصون ١ / ٧٥ ، ٧٦ .

وبين قوله ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ تعثر على صحة ما قلت لك„ [١] . وإلى مثل هذا الرأي ذهب ابن الأثير[٢] ، ونقله أبو حيان[٣] دون تعليق منه .

والناظر إلى السياق الذي ورد فيه اسم المفعول يجد أنه يتضمن بعض ما يحدث يوم القيامة ، فها هو فرعون يتقدم أهله ليدخلوا النار جميعًا ملعونين من الله في هذا اليوم ، كما لُعنوا في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝ ﴾ (هود : ٩٨ ـ ٩٩) ، ثم يُخبر ـ عز وجل ـ عن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم واتخاذهم آلهة من دون الله مما لا يُغنى عنهم من عذاب الله شيئًا ، فما تزيدهم عبادتها يوم القيامة إلا خسرانًا وعذابًا ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ ﴾ (هود : ١٠١) ، فالحديث في هذا المقام عما هو حادث وواقع بالفعل لا ما سيحدث أو يقع ، فلم يكن ليناسب أن يأتى بما يدل على المضي أو الاستقبال ؛ لأن المقام فيما هو واقع ، ولا بالفعل الدال على الحال ؛ لأن الجمع قائم ولا تجدد فيه ، فاستوجب ذلك أن يأتى هنا باسم المفعول (مَجْمُوع) ؛ ليدل على مطلق ثبوت هذا الجمع يوم القيامة وأن زمنه غير ممتد لا يعلم منتهاه إلا الله .

---

(١) الكشاف ٢ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(٢) المثل السائر ٢ / ١٦ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ٢٦١ .

وأما السياق الذي وردت فيه الآية الثانية فهو سياق إنكار من الذين كفروا أنهم سيبعثون ، فأمر الله نبيه أن يخبرهم مقسمًا لهم أن ذلك واقع لا محالة في ذلك ، يقول تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ (التغابن : ٧) ، فنفي هؤلاء الكافرين لهذا البعث إنما هو نفي لما سيحدث في المستقبل ، وتأكيد حدوثه بالقسم إنما هو تأكيد لما سيقع ؛ إذ لا يكون القسم إلا لما سيحدث ، فناسب أن يأتي التعبير القرآني في هذا الموضع بالفعل الدال على الاستقبال .

(٣) وقد استعمل التعبير القرآني صيغ المبالغة على أوجه متعددة ، فيأتي باللفظ الواحد على أكثر من صيغة في مواضع مختلفة أو يأتي بأكثر من صيغة لمعانٍ مختلفة في موضع واحد ، نحو صيغتي (فعَّال) و(فعول) ، وتدل الأولى على تكرار حدوث الفعل لما في هذه الصيغة من تضعيف . قال المبرد : "تقول : رجل قتَّال ، إذا كان يكثر القتل . فأما قاتل فيكون للقليل والكثير ؛ لأنه الأصل وعلى هذا تقول : رجل ضرَّاب وشتَّام" [١] ، وقال ابن يعيش : "إنما يعملونه فيما كان صنعة ومعالجة لتكثير الفعل ؛ إذ صاحب الصنعة مداوم لصنعته ، فجعل له البناء الدال على التكثير وهو فعال بتضعيف العين ؛ لأن التضعيف للتكثير ، وما كان من هذا ذا شئ وليس بصنعة يعالجها أتوا بها على (فاعل) ، وذلك لأن فاعلاً هو الأصل ، وإنما يعدل عنه إلى فعال للمبالغة ، فإذا لم ترد المبالغة جئ به على الأصل" [٢] .

---

[١] المقتضب ٢ / ١١٢ .

[٢] شرح المفصل ٦ / ١٣ .

وأما الثانية فتدل على حالة ثابتة أو مستقرة تحدث مرة بعد مرة دون انقطاع ، وهو ما يشير إليه المبرد بقوله : "تقول : هو ضروب زيدًا ، إذا كان يضربه مرة بعد مرة" [1] .

وفرّق أبو هلال بين الصيغتين قائلاً : "وإذا كان قويًا على الفعل قيل : (فعول) مثل (صبُور) و(شكُور) ؛ وإذا فعل الفعل وقتًا بعد وقت قيل (فعَّال) مثل (علاَّم) و(صبَّار)" [2] .

أما ابن جماعة فيرى أن صيغة (فعول) تدل على الدوام كصدوق ورحوم وشبهه . أما صيغة (فعَّال) لا تشعر بالدوام ، كنوَّام وركَّاب وأكَّال[3] . ومعنى هذا أن فعولاً تدل على الدوام والاستمرار وفعَّالاً تدل على التكرار والتعدد .

ومما ورد في القرآن من الصيغ التي تدل على معنى واحد صيغتا (غفَّار) و(غفور)، فوردت الأولى في آيات عديدة ، منها قوله تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ ﴾ (نوح : ١٠) ، فجاء هنا بصيغة فعال الدالة على تكرار الحدث ، وذلك لأن نوحًا كثر منه دعوة قومه ليؤمنوا بربهم ، فيغفر لهم ، حتى إنه كان يدعوهم ليلاً ونهارًا سرًا وعلانيةً ، ويدل على ذلك التكرار لفظ (كلما) الذي استعمله للإشارة إلى تلك الكثرة في الدعوى ، يقول تعالى على لسانه : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾

---

[1] المقتضب ٢ / ١١٣ .

[2] الفروق اللغوية ص ٣٦ .

[3] كشف المعاني ص ٢٢٠ .

(نوح : ٧ – ٩) ، فناسب مع هذه الدعوة المتكررة منه لقومه كي يغفر لهم ربهم ذنوبهم أن يأتي بلفظ (غَفَّارًا) الدال على تكرار المغفرة وكثرتها ؛ ليتفق ودلالة السياق .

فإذا ما خلا السياق من هذه الدلالة على التكرار نرى الأسلوب القرآني يأتي بصيغة (فعول) الدالة على الاستمرار لا التكرار ، نحو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل : ١١٠) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل : ١١٥) .

فكل من الفتنة في الدين والهجرة والجهاد في سبيل الله والاضطرار من أكل ما حرم الله والصبر على ذلك جميعًا ليس من الأمور التي تحدث كثيرًا ، وتتكرر مرات عديدة ، بل قد تكون مرة واحدة أو ما يزيد على ذلك قليلاً ، وجميعها تحتاج إلى قوة وصبر للقيام بها ، فناسب مع هذا كله أن يأتي الأسلوب القرآني بلفظ (غَفُور) الذي لا تُشعر صيغته بتكرار الأمر ، والذي يدل أيضًا من خلال تلك الصيغة ـ كما ذكر صاحب الفروق ـ على القوة في فعل الشيء والقيام به .

ومن بديع استعمال القرآن لصيغ المبالغة كذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم : ٥) ، فغاير الأسلوب القرآني بين

صيغتي المبالغة ، فقال (صَبَّارٍ شَكُورٍ) ، ولم يأت بعكس ذلك ، أو يأت بهما على صيغة واحدة ، وذلك لأن السياق هنا يتحدث عن بني إسرائيل ، إذ أمر الله نبيه موسى أن يذكرهم بأيام الله ، وهي ــ كما يفسرها ابن عباس ومجاهد وقتادة ــ نعم الله عليهم، وعن ابن عباس أيضًا ومقاتل وابن زيد أنها وقائعه ونقمه في الأمم الماضية [١] . قال الزجاج: "وتذكيرهم بأيام الله ، أي تذكيرهم بنعم أيام الله عليهم ، وبنقم الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود ، أي ذكرهم بالأيام التي سلفت لمن كفر وما نزل بهم فيها ، وذكرهم بنعم الله" [٢] . والنقم من الأمور التي لا تتصف بالدوام على الغالب ، بل قد تحدث وقتًا بعد وقت ؛ لذلك كان من المناسب أن يأتي الأسلوب القرآني بلفظ (صَبَّار) على هذه الصيغة ليتفق مع تلك الصفة ، وأما النعم فهي أمر دائم مستمر لا ينقطع ؛ لذلك ناسب معها لفظ (شَكُور) على صيغة (فعول) الدال على الدوام ، ليظل الشكر عليها مستمرًا دون انقطاع .

وفي تعليل ختم الآية بتلك الصفتين يقول أبو حيان : "وهما مشعرتان بأن أيام الله المراد بهما بلاؤه ونعماؤه ، أي : (صَبَّار) على بلائه ، (شَكُور) لنعمائه ، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو بما أفاض عليهم من النعم ، تنبه على ما يجب عليه من الصبر إذا أصابه بلاء ، ومن الشكر إذا أصابته نعماء ، وخص الصبار والشكور ، لأنهما هما اللذان ينتفعان بالتذكير والتنبيه ، ويتعظان به ، وقيل : أراد لكل مؤمن ناظر لنفسه ، لأن الصبر والشكر من سجايا أهل الإيمان" [٣] .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ / ٣٩٥ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣ / ١٥٥ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ٣٩٥ .

وهذا التعليل رغم ما فيه من حسن لا يوضح سبب المغايرة بين الصيغتين ، وإنما يوضح سبب ختم الآية بهاتين الصفتين دون غيرهما بقطع النظر عن صيغتهما ، وهو ما أدركه ابن جماعة إذ يقول : "نعم الله تعالى مستمرة ومتجددة في كل حين وأوان فناسب (شَكُور) ، لأن صيغة (فعول) تدل على الدوام كصدوق ورحوم وشبهه . وأما المؤلمات المحتاجة إلى الصبر عليها فليست عامة ، بل تقع في بعض الأحوال ، فناسب صبار ، لأن (فعالا) لا يشعر بالدوام ، كنوام وركاب وأكال ، ولمراعاة رؤوس الآي" [1] .

(هـ) أسماء لا اشتقاق لها

هناك من الأسماء التي لا تتصف بصفة الاشتقاق ما يستعمله الأسلوب القرآني في مواضع معينة لما توحي به من دلالات يقتضيها السياق ، ومن ذلك ما يلي :

(١) الموصولات

يعرّف ابن يعيش هذه الأسماء قائلاً : "معنى الموصول أن لا يتم بنفسه ويفتقر إلى كلام بعده تصله به ليتم اسمًا فإذا تم بما بعده كان حكمه حكم سائر الأسماء التامة " [2] . ومما تستعمل له هذه الأسماء زيادة التقرير لما تحتويه من جملة صلة تساعد على هذا التقرير . وقد يتصل سياق التعريف بالموصولية بما يتصف به من صفة التقرير بطبيعة الغرض المسوق له الكلام ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ

---

[1] كشف المعاني ص ٢٢٠ .

[2] شرح المفصل ٣ / ١٣٨ .

عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف : ٢٣ ــ ٢٤) . قال صاحب مواهب الفتاح : "فالغرض المسوق له الكلام نزاهة يوسف وبُعده عن مظنة الفحشاء ، وما ذكر أشد تحقيقًا وتقريرًا لتلك النزاهة مما لو قيل : وراودته امرأة العزيز ؛ لأنه إذا امتنع مع كونه في بيتها متمكنًا في خلوة منها كان في غاية النزاهة ، ونهاية في الطهارة باطنًا وظاهرًا عن الفحشاء ، وفيه أيضًا تقرير المراودة التي هي المسند لما يفيده كونه في بيتها من فرط الألفة والاختلاط في خلوة ، فيتمكن منها على أتم وجه ، فقد أفاد تقريرها ووجودها بأتم وجه بما ذكر من الموصول وصلته ، وفيه أيضًا تقرير المسند إليه ونفي احتمال التشابه والاشتراك اللذين يمكن حصولهما لو قيل مثلاً امرأة العزيز أو زليخا"[١] ، فناسب بهذا أن يستعمل التعبير القرآني الاسم الموصول في هذا الموضع دون غيره ، لاتفاقه ودلالة السياق .

وقد تستعمل الأسماء الموصولة للدلالة على ما هو مبهم وغير محدد ، إذ هي ــ على حد قول ابن يعيش ــ "ضرب من المبهمات وإنما كانت مبهمة لوقوعها على كل شئ من حيوان وجماد وغيرهما كوقوع هذا وهؤلاء ونحوهما من أسماء الإشارة على كل شئ"[٢] .

ومن بديع استعمالها للدلالة على هذا الأمر ما ورد في قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ (طه : ٧٨) ، وقوله عز وجل : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ (النجم : ٥٣ ــ ٥٤) ، فأبهم في الآيتين ما غشيهم ، ولم يصرح به . قال العلوي تعقيبًا على الآية الثانية : "فهذه أبلغ من الآية التي

---

[١] ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح ١ / ٣٠٥ .

[٢] شرح المفصل ٣ / ١٣٩ .

قبلها ، لأن إبهامها أكثر ، فلهذا كان أبلغ وأوقع ، ولهذا فإنه قال في الأولى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ واليم هو البحر ، فصار الذي أصابهم من الألم والتعب إنما هو من البحر خاصة لا من غيره ، بخلاف الثانية ، فإنه أبهم فيها الأمر الذي غشيها ، ولم يخصه بجهة دون جهة ، وهذا لا محالة يكون أبلغ ، لأن الإنسان يرمى به خاطره فيه كل مرمى ، ويذهب به كل مذهب،، [1] .

وهذا الذي ذكره صاحب الطراز يبين ما في هاتين الآيتين من مبالغة ناشئة عن الإبهام ، ولكنه لم يبين السر وراء هذه المبالغة وعلاقة ذلك بالسياق . والمتأمل في السياق الذي وردت فيه كلتا الآيتين يتجلى له سر ذلك فالآية الأولى تخبر عن فرعون وهو لم يضل عن الهدى فحسب بل أضل قومه ، ولم يهدهم إلى الطريق المستقيم ، وهو ما تخبر عنه الآية اللاحقة لتلك الآية ، قال تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ (طه : ٧٩) ، فهذا الذي فعله أمر عظيم ؛ لأنه لم يكتف بإضلال نفسه بل أضل غيره ، فتحمل وزره وأوزارًا مثل أوزارهم ، فناسب ذلك إبهام (ما غشيهم من اليم) ؛ ليتفق هذا الإبهام في دلالته على المبالغة والتهويل مع ضلال فرعون وقومه .

أما الآية الثانية فجاءت لتخبر عن مدائن قوم لوط معبرًا عنها بلفظ (ٱلْمُؤْتَفِكَةَ) . قال أبو حيان : "سميت بذلك لأنها انقلبت ومنه الإفك لأنه قلب الحق كذبًا ، أفكه فائتفك ، قيل : ويحتمل أن يراد بـــ (ٱلْمُؤْتَفِكَةَ) كل ما انقلبت مساكنه ودبرت أماكنه (أَهْوَىٰ) : أي خُسِفَ بهم بعد رفعهم إلى السماء ، رفعها جبريل ـــ عليه السلام ـــ ثم أهوى بها إلى

---

[1] الطراز ص ٢٤١ .

الأرض ,,[1] . فناسب أن يعبر الأسلوب القرآني في هذا الموضع بقـــوله : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ أي بإبهام ما حدث لهم ؛ ليتفق هذا الإبهام بما يدل عليه من تهويل وتعظيم للأمر مع هول ما حدث لهم من خسف الأرض بهم وقلبها عليهم .

(٢) أسماء الإشارة

ويعرِّفها ابن يعيش قائلا : "لو قلت ذلك ، فذا إشارة إلى القريب بتجردها من قرينة تدل على البعد فكانت على بابها من إفادة قرب المشار إليه* لأن حقيقة الإشارة الإيماء إلى حاضر فإذا أرادوا الإشارة إلى متنحٍّ متباعد زادوا كاف الخطاب وجعلوه علامة لتباعد المشار إليه فقالوا ذاك,,[2] .

وقد تلحق بهذه الأسماء اللام ؛ لتعطيها إيحاءً أكثر بالبعد ؛ لأن من دلالات هذا الحرف الدلالة على هذا المعنى ، كذا ذكر ابن هشام[3] ، وقال ابن يعيش : "فإن زاد بعد المشار إليه أتوا باللام مع الكاف فقالوا ذلك واستفيد باجتماعهما زيادة في التباعد لأن قوة اللفظ مشعرة بقوة المعنى,, [4] .

وقد يوحي هذا البعد الذي تدل عليه اللام والكاف في تلك الأسماء بتعظيم المشار إليه ، وهو إحدى دلالات ذلك المعنى . ومن ذلك ما نراه في قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ (يوسف :

---

[1] البحر المحيط ٨ /١٦٧ .

[2] شرح المفصل ٣ / ١٣٥ .

[3] مغنى اللبيب ١ / ٢٦٤ .

[4] شرح المفصل ٣ / ١٣٥ .

٣٢) . قال صاحب مفتاح العلوم : "ولم تقل : فهذا يوسف حاضر رفعًا لمنـــزلته في الحسن ، واستحقاق أن يحب ويفتتن به ، واستبعادًا لمحله" [١] .

وقد يرجع تعظيمها لـــه في هذا المقام إلى أمر آخر يضاف إلى ما ذكره صاحب المفتاح ، وهو استعصامه منها وعدم إقباله عليها رغم مراودتها لـــه يدل على ذلك أنها لم تذكر للنسوة اللائى جمعتهن من أمره سوى عصمته ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ ، فكبُر في عينها ، وعظم شأنه ، فناسب أن تشير إليه لا بمجرد اللفظ الدال على الحضور بل باللفظ الدال على التعظيم .

ولما لم يكن الأمر نفسه متحققًا لدى النسوة اللاتي جمعتهن ، فلم يختبرنه ،لم يعرفن من شأنه ما عرفت كانت إشارتهن إليه بمجرد اللفظ الدال على الحضور الخالي من التعظيم رغم افتتانهن بحسنه ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (يوسف : ٣١) ، وهذا بخلاف امرأة العزيز التي جمعت بين افتتانها وحبها الشديد لـــه واختبارها لـــه بالمراودة ، فلم يستجب لها .

وعلى هذا النحو من الحسن نرى استعمال اسم الإشارة في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ (مريم : ٦٣) ، فقال عز وجل (تِلْكَ) ، وهو

---

[١] السكاكي : مفتاح العلوم ص ١٨٤ .

لفظ يوحي بالتعظيم لوجود حرف اللام الدال على البعد فيه ، ولم يأت بلفظ (هذه) الخالي من هذا التعظيم ، وذلك لأن السياق في هذا الموضع يتحدث عن الجنة التي يورثها الله من عباده من كان تقيا ، والتقوى ــ كما يذكر أبو حيان ــ لا تكون إلا في أمر فيه مشقة[1] ، فالجنة لا تُنال إلا بالشاق من العمل من صبر على المكاره وإخلاص في العبادة وقوة في الإيمان ؛ لذلك نرى أن الله عندما يأمر عباده بعد هذه الآية بآيات قليلة أن يعبدوه يأمرهم بالصبر على هذه العبادة ، يقول تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ (مريم : ٦٥) ، فلم يقل (اصبر) بل قال (ٱصْطَبِرْ) بالمبالغة في اللفظ لما في العبادة من مشقة ومن ثم كان مجيء اسم الإشارة الدال على التعظيم في هذا الموضع ؛ ليتفق في دلالته مع عظم الجنة ولأنها بعيدة المنال إلا على من أخذ نفسه بالشدة ، وتحمل المشاق ، وصبر على العبادة والطاعة .

فإذا ما خلا السياق من ذلك التعظيم ، وأريد محض الإشارة إلى القريب لا غير أتى الأسلوب القرآني بالاسم الدال على ذلك ، نحو قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (يس : ٦٣ ــ ٦٤) ، فالمراد هنا لا يتعدى الإشارة إلى قرب النار من هؤلاء الكافرين الذين عبدوا الشيطان ، ولم يستجيبوا لله ، والدليل على قربها منهم أمره عز وجل إليهم أن يصلوها ، ولا يوجه إليهم هذا الأمر إلا إذا كانت جهنم قريبة منهم بالفعل .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الرحمن : ٤٣ ــ ٤٤) فقال عز وجل : (هَٰذِهِۦ) للدلالة على أنها قريبة

---

[1] البحر المحيط ٢ / ٦١ .

منهم . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : "أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشاهدونها عيانًا ، يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتصغيرًا وتحقيرًا"[1] ، والآية قد سيقت في مقام تصوير بعض مشاهد يوم القيامة إحضارًا له في الذهن وتقريبًا له إلى السامع ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الرحمن : ٣٧)، ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ (الرحمن : ٤١) ، فحسن استعمال اسم الإشارة الدال على القريب هنا ؛ ليساعد في استحضار هذا اليوم واستحضار تلك النار حتى كأنها ترى بالعين .

(٣) الضمائر

(أ) ضمير الشأن

قال ابن يعيش : "اعلم أنهم إذا أرادوا ذكر جملة من الجمل الاسمية أو الفعلية فقد يقدمون قبلها ضميرًا يكون كناية عن تلك الجملة وتكون الجملة خبرًا عن ذلك الضمير وتفسيرًا له ، ويوحدون الضمير ؛ لأنهم يريدون الأمر والحديث"[2] ، وهو ضمير لا يعود على شخص بعينه بل هو "مرجع له ، تسمعه النفس ، فينبه لسماع ما يأتي بعده ؛ لأن الأسلوب العربي لا يأتي بهذا الضمير إلا في المواطن التي يكون فيها أمر مهم تراد العناية به ، فيكون هذا الضمير أداة للتنبيه يدفع المرء إلى الإصغاء ، فإذا وردت الجملة بعده استقرت في النفس ، وثبتت في الفؤاد"[3] .

كما يأتي هذا الضمير لتحقيق المبالغة وتعظيم الأمر . يقول صاحب الطراز : "فاعلم أن ضمير الشأن والقصة على اختلاف أحواله ، إنما يرد على جهة المبالغة في

---

[1] تفسير القرآن العظيم ٤ / ٢٧٥ .

[2] شرح المفصل ٣ / ١١٤ .

[3] د . عبد الفتاح لاشين : المعاني في ضوء أساليب القرآن ص ٢١٠ .

تعظيم تلك القصة وتفخيم شأنها وتحصيل البلاغة فيه من جهة إضماره أولاً ، وتفسيره ثانيًا ؛ لأن الشيء إذا كان مبهمًا ، فالنفوس متطلعة إلى فهمه ، ولها تشوق إليه ، فلأجل هذا حصلت فيه البلاغة ولأجل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يكاد يرد إلا في المواضع البليغة المختصة بالفخامة,, [1] .

ومن بديع استعماله في القرآن للدلالة على تعظيم القصة ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المؤمنون : ١١٧)، فلم يقل عز وجل إن الكافرين لا يفلحون بل عدل عن ذلك إلى استعمال ضمير الشأن ، فقال : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ "والسر البلاغي لذلك : هو التفصيل بعد الإجمال والبيان بعد الإبهام ، وذلك أن الضمير يدل على معناه دلالة يشوبها الإجمال والإبهام ، والجملة التي تلي الضمير ــ وهي جملة المخصوص بالمدح أو الذم ، وجملة الحال والشأن ــ تدل على هذا المعنى بوضوح وبيان ، والبيان بعد الإبهام أوقع في النفس وأليق بمقام المدح أو الذم ، وذلك لأن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظرًا لعقبى الكلام كيف يكون ، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكن ، وبذلك يتسنى ذكر مدلول الضمير مرتين ، مرة على سبيل الإبهام ، وأخرى على سبيل التوضيح ، وذلك مما يحقق المقصود وهو التقرير والتمكين,, [2] .

فالسياق في هذه الآية سياق استنكار على من أشرك بالله وتهديد له أن حسابه عسير عند الله، فمن فعل ذلك فلا يجنى من فعلته تلك إلا الخسران المبين والخروج من رحمة الله ورضوانه ومغفرته . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

---

[1] العلوي : الطراز ص ٢٧٠ .

[2] د . عبد الفتاح لاشين : المعاني في ضوء أساليب القرآن ص ٢١٠ .

ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء : ٤٨) . وليس لهؤلاء المشركين الكافرين جزاء عند الله إلا النار يعذبون فيها أشد العذاب . يقول عز وجل : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ (المائدة : ٧٢) .

وما يلقاه هؤلاء المشركون الكافرون من عقاب يؤكد خسارتهم وعدم فلاحهم وفوزهم ، فناسب أن يعدل الأسلوب القرآني عن القول في ختام تلك الآية (إن الكافرين لا يفلحون) إلى قوله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ؛ لينبه على عدم فلاح من يشرك بالله ، ويؤكد ذلك تأكيدًا لا ريب فيه باستعمال هذا الضمير الذي يوحي بتقرير ما بعده وتمكينه . قال عبد القاهر : "فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ، أما لو قيل : (إن الكافرين لا يفلحون) ، لم يستفد ذلك . ولم يكن ذلك كذلك إلا لأنك تعلمه إياه من بعد تقدمة وتنبيه ، أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطد ، ثم بنى ولوح ثم صرح . ولا يخفي مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق,, [١] .

(ب) الضمائر الشخصية

يعرّف ابن الحاجب الضمير بأنه :" ما وضع لمتكلم ، أو مخاطب ، أو غائب ، تقدم ذكره لفظًا أو معنى ، أو حكمًا ,, [٢] ، وتعد هذه الدلالات التي تعبر عنها الضمائر المعاني الوظيفية الصرفية لها ، فالدلالة على الغيبة هي المعنى الوظيفي للضمير المعبر عن ذلك سواء أكان مفردًا أم مثنى أم جمعًا مذكرًا أو مؤنثًا ، وكذلك الحال في الضمائر

---

[١] دلائل الإعجاز ص ١٣٣ .

[٢] شرح الرضي على الكافية ٢ / ٤٠١ .

التي تدل على الخطاب والتكلم ، فالخطاب المعنى الوظيفي للأولى ، والتكلم المعنى الوظيفي للثانية .

ومن بديع التنوع في استعمال الضمائر بين موضع وآخر ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (النحل ٥٣ ــ ٥٥) ، فقال عز وجل : (تمتعوا) بالضمير الدال على الخطاب ، وهو نفسه ما ورد في موضع آخر ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الروم : ٣٣ ــ ٣٤) ، ثم عدل عن ذلك إلى الضمير الدال على الغائب في موضع آخر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (العنكبوت : ٦٥ــ ٦٦) .

وفي تعليل هذا الاختلاف من موضع إلى آخر قال الخطيب الإسكافي : "إن الآية الأولى افتتحت بخطاب الشاهد فأجرى قوله : ﴿ فَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ على هذا اللفظ ، والآية الأخيرة افتتحت بالإخبار عن الغائب وهو ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ومر سائر الأفعال في هذه الآية على ذلك ولم يكن لها نظيرة في لفظها ترد إليها

فأجرى قوله : ﴿ لِيَتَمَتَّعُوا ﴾ عليه ، والآية التي في سورة الروم وإن افتتحت بلفظ الإخبار عن الغائب فإن لها في لفظها نظيرة ردت إليها وصارت كالفرع عليها وهي قوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر : ٨) ، فهذه الآية مفتتحة بمثل ما افتتحت به تلك ، إلا أن هذه الآية لواحد من الناس ، وتلك للجمع ، فصارت كالفرع على الأولى ، فكان حملها في هذه اللفظة عليها أولى,, [١] .

(٤) الظروف

يعرّف ابن يعيش الظرف بأنه :,,ما كان وعاءً لشيء وتسمى الأواني ظروفًا ؛ لأنها أوعية لما يجعل فيها ، وقيل للأزمنة والأمكنة ظروف ؛ لأن الأفعال توجد فيها ، فصارت كالأوعية لها ، والظرف على ضربين ظرف زمان ومكان,,[٢] .

ومن بديع استعمال هذا النوع من الأسماء في القرآن الكريم ما نراه من استعمال الظرف الدال على المصاحبة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ ﴾ (الحجر : ٢٨ ــ ٣٢) ، فقال عز وجل (مَعَ

[١] درة التنــزيل ص ١٤٧ .

[٢] شرح المفصل ٢ / ٤١ .

ٱلسَّٰجِدِينَ) ، ولو قال (من الساجدين) ؛ لدل ذلك على أن إبليس من الملائكة ؛ إذ الأمر بالسجود موجه إليهم ، وهو ليس كذلك قال ابن الزبير : "فأشارت الآية بظاهرها إلى أن إبليس من الملائكة ، وقد نطقت الآية أن الملائكة هم المأمورون بالسجود ، فبحسب هذا البادي من الظاهر وردت المعية في قوله ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ فلما لم يكن في أصل الخلقة والمادة منهم ، وكان الأمر بظاهر العبارة لهم وإن كان مرادًا أنه معهم ، فبحسب هذا قيل له : ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ، فقيل (معهم) إذ ليس منهم قال تعالى : ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف : ٥٠)" [١] .

ومن بديع هذا الاستعمال كذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ ﴾ (الكهف : ٤٤) ، فآثر الأسلوب القرآني أن يأتي بالظرف (هُنَالِك) دون غيره فلم يقل (حينئذ) أو (عندئذ) ، وذلك لأن الآية سيقت عقب الحديث عن ذلك الرجل الذي وهبه الله جنتين من أعناب ونخل وزروع مختلفة ، وجعل بينهما نهرًا يرويهما ، قال تعالى : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الكهف : ٣٢ ــ ٣٣) ، فاغتر بتلك الجنة وألهته عن الله ، وظن متوهمًا أنها باقية له خالدة لن يصيبها هلاك ، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فظن أن الساعة لا قيام لها إمعانًا في التوهم بخلود ما بين يديه من نعم ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ ﴾ (الكهف : ٣٥ ــ ٣٦) .

---

[١] ملاك التأويل ١ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

وبينما هو في ظنه هذا وتوهمه إذ بتلك الجنة تصير حطامًا وهشيمًا تذروه الرياح ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (الكهف : ٤٢) ، وأمام تلك المفاجأة التي كان يظن أنها لن تحدث أبدًا وجد نفسه بين يدي تلك الحقيقة التي كان يستبعدها ، فكان التعبير بهذا الظرف الذي يدل على البعد بما يحتويه من حرفي اللام والكاف الدالين على ذلك مصورًا أدق تصوير لذلك الموقف الذي صار فيه صاحب الجنة والذي كان بعيدًا عن ذهنه أشد البعد ، فما لبث أن صار إليه ، وكذلك ليصور عظم هذا الخطب الذي يحيط به بما يدل عليه هذا اللفظ من تعظيم .

ثانيًا : المعنى الوظيفي لموقع الاسم (المعنى النحوي)

إذا كان لبنية اللفظ ــ كما رأينا ــ دور فعال في إبرازِ علاقة المناسبة بين اللفظ وسياقه ، فإن لموقع اللفظ داخل التركيب الدور نفسه في تحديد تلك العلاقة ، إذ قد يُبرز إبرازًا جليًا في مواضع عديدة مدى المناسبة والعلاقة الدلالية بين اللفظ والسياق الوارد فيه . وفيما يلي صور لتلك العلاقة .

(١) المسند إليه

يمثل المسند إليه أحد ركني الإسناد في الجملة ، سواء أكانت اسمية أم فعلية ، ويمثل المسند الركن الثاني ، وتربط هذين الركنين علاقة هي علاقة الإسناد ، ويفتقر كل منهما إلى الآخر ، إذ يجب وجودهما لتتحقق الفائدة عند الإخبار بجملة ما [١] . قال سيبويه : "وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المتكلم منه بدًا ، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنى عليه . وهو قولك : عبد الله أخوك : وهذا أخوك . ومثل ذلك :

---

[١] السكاكي : مفتاح العلوم ص ١٧٠ .

يذهب عبد الله ، فلابُد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدُ من الآخر في الابتداء ,, [١] .

والمسند إليه هو الركن الأعظم ، وذلك ــ على حد قول صاحب مواهب الفتاح ــ ''لأنه عبارة عن الذات ، والمسند كالوصف له ، والذات أقوى في الثبوت من الوصف ، فالمسند إليه والمسند ، ولو افتقر في الإفادة إلى كل منهما لكن الدال منهما على الذات أشد في الحاجة عند قصد الإفادة من الدال على الوصف,, [٢] .

وقد يتقدم المسند إليه على المسند إذا كان فعلاً ، فيقع مبتدأ ، وقد يتأخر ، فيقع فاعلاً أو نائبًا عن الفاعل ، وتتغير دلالة التركيب بتغير ذلك الموقع . وقد تنشأ علاقة المناسبة بين اللفظ والسياق بسبب هذا التغير في موقع المسند إليه ، وقد تنشأ من أمر آخر لا يتعلق بتقدم المسند إليه أو تأخره ، وإنما تتعلق بمدلوله أو طبيعته ، وفيما يلي بيان ذلك .

(أ) موقع المسند إليه من حيث التقديم والتأخير [٣]

قد يقدم المسند إليه في الجملة ، لأسباب عديدة ، منها أن يكون ''ذكره أهم إما لأنه الأصل ، ولا مقتضى للعدول عنه . وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع ؛ لأن في المبتدأ تشويقًا إليه,, [٤] ، كذا قال القزويني .

---

[١] الكتاب ١ / ٢٣ .

[٢] ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح ١ / ٢٧٤ .

[٣] ليس المقصود هنا بالتقديم والتأخير أن أحدهما أصل والثاني فرع عليه ، وقد أوضح السبكي في كتابه عروس الأفراح ١ / ٣٨٩ المقصود في تعليقه على ما ذكره القزويني ، فيقول : ''يريد التقديم المعنوي فإن المسند إليه محكوم عليه ، والمحكوم عليه متقدم في الذهن على المحكوم به ، وإن أراد التقديم اللفظي ، فذلك يختلف ، فإن الأصل في المسند إليه التقديم إن كانت الجملة اسمية والتأخير إن كانت فعلية,,

[٤] القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ص ٨٤ .

كذلك قد يكون في تقديمه تأكيد لا يتحصل من تأخيره . قال الإمام عبد القاهر : "فإن قلت : فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل ، آكد لإثبات ذلك الفعل له ، وأن يكون قوله : (هما يلبسان المجد) ، أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال : (يلبسان المجد) ؟ فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرًى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه . وإذا كان كذلك ، فإذا قلت : (عبد الله) ، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً : (قام) أو قلت : (خرج) ، أو قلت : (قدم) فقد علم ما جئت به وقد وطَّأت له وقدمت الإعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المهيأ لـــه المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفي للشبهة ، وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق" [1] .

ومن بديع تقديم المسند إليه في القرآن الكريم ما نراه في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (البقرة : ١٥) ، فقُدِم في هذا الموضع المسند إليه ، ليصير مبتدأ ، ولم يقل ، عز وجل ، يستهزئ الله بهم ، فيضعه في موضع الفاعل أو المسند إليه المؤخر عن الفعل ، وذلك لأن السياق هنا يدور حول المنافقين الذين يدّعون الإيمان ، وما هم بمؤمنين ، فإذا لقوا الذين آمنوا يظهرون لهم الإيمان ، وإن خلوا إلى شياطينهم من رؤوس الكفر أو اليهود أو الكهنة أكدوا لهم موافقتهم لهم ومشاركتهم إياهم في عقيدتهم واستهزاءهم من المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (البقرة : ١٤) ، فكان إخبارهم بالإيمان خاليًا من التوكيد بخلاف إخبارهم لأتباعهم بالكفر والاستهزاء ، إذ كان مؤكدًا بأكثر من توكيد ، قال أبو حيان : "فلم يكتفوا بالإخبار بالموافقة ، بل بينوا أن سبب

---

[1] دلائل الإعجاز ص ١٣٢ .

مقالتهم للمؤمنين إنما هو الاستهزاء والاستخفاف لا أن ذلك صادر منهم عن صدق وجد ، وأبرزوا هذا الإخبار في جملة اسمية مؤكدة بإنما مخبر عن المبتدأ فيها باسم الفاعل الذي يدل على الثبوت ، وأن الاستهزاء وصف ثابت لهم لا أن ذلك تجدد عندهم ، بل ذلك من خلقهم وعادتهم مع المؤمنين„ (١) .

فاستدعى ذلك أن يأتى الأسلوب القرآني في هذه الآية بالمسند إليه مقدمًا في موضع المبتدأ ؛ لأن ذلك آكد في إثبات الفعل له وأمنع للشك وأدخل في التحقيق ـ كما ذكر عبد القاهر ـ ؛ ليؤكد بذلك ، عز وجل ، أنه مستهزئ منهم لا ريب في ذلك ، وليقابل هذا التوكيد توكيد هؤلاء المنافقين استهزاءهم من المؤمنين .

ومن حسن ما نراه من تقديم المسند إليه تارة ثم تأخيره تارة أخرى ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النساء : ٢٦ ـ ٢٨)، فجاء الأسلوب القرآني بالمسند إليه مؤخرًا في الآيتين الأولى والثالثة أي في موضع الفاعل ، وعدل عن ذلك في الثانية ، فجاء به مقدمًا أو في موضع المبتدأ "فإذا بحثنا عن السبب وجدنا تقديم لفظ الجلالة في مورده الثاني ، وإنما كان لوضعه موضع المقارنة مع الذين يتبعون الشهوات ، أما في المرة الأولى والثالثة فالاهتمام معلق بالإرادة لا بالمقارنة„ (٢) .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٢٠٢ .

(٢) د . تمام حسان : البيان في روائع القرآن ص ٣٧٩ .

فناسب تلك المقارنة تأكيد أن الله لا يريد من عباده إلا أن يتوب عليهم ، بخلاف متبعي الشهوات الذين يريدون منهم أن يميلوا عن الطريق المستقيم واتباع الحق ، ولا يتأتى هذا التأكيد إلا بتقديم المسند إليه ؛ لأن ذلك أشد لثبوت الفعل وأنفي للشبهة عنه وأمنع للشك من تحققه ، هذا بخلاف الآيتين الأخريين اللتين لم تحتاجا لذلك التأكيد ؛ لخلوهما من تلك المقارنة ، فناسب فيهما أن يأتى المسند إليه في موقع الفاعل لا في موقع المبتدأ .

(ب) اختلاف طبيعة المسند إليه أو مدلوله

إنما أعنى هنا باختلاف المسند إليه في طبيعته أو مدلوله أنه قد يسند أكثر من فعل في سياق ما لمسند إليه معين ، ثم يعدل الأسلوب القرآني في أحد الأفعال ، فيسنده إلى فاعل آخر ، أو يأتى فعل ذو دلالة معينة ، فيسند إلى أكثر من مسند إليه في سياقات متعددة تبعًا لمقتضيات كل سياق .

ومما يتحقق فيه الأمر الأول ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ﴾ (البقرة : ٥٥ ـ ٥٧) .

فأسند ، عز وجل ، جميع الأفعال التي فيها إنعام لنفسه ، فقال : بعثنا ، وظللنا ، وأنزلنا ، ورزقناكم ، ثم عدل عن ذلك في الأمر الذي فيه نقمة ، فأسنده إلى عيره ، فقال : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾. قال أبو حيان في تعليل هذا الأمر : "وسر ذلك أنه موضع تعداد للنعم فناسب نسبة ذلك إليه ليذكرهم آلاءه ، ولم ينسب النقم إليه ، وإن كانت منه حقيقة ؛

لأن في نسبتها إليه تخويفًا عظيمًا ربما عادل ذلك الفرح بالنعم والمقصود انبساط نفوسهم بذكر ما أنعم الله به عليهم ، وإن كان الكلام قد انطوى على ترهيب وترغيب فالترغيب أغلب عليه,,[1] .

ومما يتحقق فيه الأمر الثاني ما نراه من إسناد الفعل الدال على التوفي في القرآن ، إذ يأتي مسندًا لأكثر من مسند إليه في سياقات متعددة ، وقد يكون لمعناه المعجمي دور في ذلك ، إذ يأتي ــ كما يذكر ابن الجوزي ــ على ثلاثة وجوه : أحدها : قبض الأرواح بالموت ، ومنه في النساء ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (النساء : ٩٧) ، وفي النحل ﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (النحل : ٢٨) ، وفي السجدة ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (السجدة : ١١) ، وفي غافر ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ (غافر : ٧٧) ، والثاني : قبض الحس بالنوم ، ومنه في الأنعام ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ (الأنعام : ٦٠) ، وفي الزمر ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ (الزمر : ٤٢) ، والثالث : الرفع إلى السماء ومنه في المائدة ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾ (المائدة : ١١٧) [2] .

وإذا تأملنا هذه الأوجه في القرآن الكريم نجد أنه إذا جاء الفعل بمعنى النوم أسند إلى الله عز وجل ، كما في آيتى الأنعام والزمر السابقتين ، ويلحق بهذا المعنى ــ على

---

[1] البحر المحيط ١ /٣٧٧ .

[2] الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص ٨٤ .

خلاف بين العلماء ــ قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (آل عمران : ٥٥)[١] ، كذلك يسند إلى الله إن كان بمعنى الرفع كما في آية المائدة السابق ذكرها .

أما إذا جاء بمعنى الموت فالإسناد فيه على وجهين : إما إلى الله ، وإما إلى غيره ، فإن كان إلى الله فيأتي على صورتين : الأولى أن يكون الخطاب موجهًا منه ، عز وجل ، إلى أحد أنبيائه نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ (يونس : ٤٦) ، ومثلها (الرعد : ٤٠) ، و(غافر : ٧٧) .

والصورة الثانية أن يكون الخطاب موجهًا من نبي أو ممن صلح من العباد إلى الله ، وعليها قوله تعالى : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران : ١٩٣) ، ومثلها تأتي آيات (الأعراف : ١٢٦) ، (يونس : ١٠٤) ، (يوسف : ١٠١) .

ولعل هذا الإسناد يرجع إلى أن الخطاب موجه من الأنبياء والصالحين أو إليهم ، وهم قوم رضي الله عنهم وأرضاهم ، ولقاء الله عندهم أحب إليهم من البقاء في الدنيا ، وإسناد التوفي إليه لا يقع في أنفسهم كما يقع في أنفس غيرهم ممن دونهم في الإيمان والتقوى .

ولا يشذ عن هذا الأمر سوى قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾ (النحل : ٧٠) ، فجاء

---

[١] ذكر صاحب لباب التأويل ١/ ٢٣٤ للفظ الدال على التوفي في هذه الآية عدة معانٍ : الأول : القبض ، والرفع من غير موت ، والثاني : النوم ، والثالث : حقيقة الموت ، والرابع : التوفي عن الشهوات ، والخامس : أخذه وافيًا روحًا وجسدًا .

فيها الفعل مسندًا إلى الله ، ولم يكن الخطاب موجهًا إلى نبي من الأنبياء ، وذلك لأن الآية سيقت ؛ لإبراز قدرة الله على الخلق ، فهو ، عز وجل ، قادر على أن يخرج من بطون الأنعام لبنًا سائغًا للشاربين ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ (النحل : ٦٦) ، وهو قادر أن يخرج من النحل شرابًا فيه شفاء لمن شرب منه ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (النحل : ٦٩) ، وهو أيضًا قادر أن يخلق الخلق وقادر أن يميتهم أو يمد لهم العمر كيف يشاء ومن هنا جاءت الفاصلة معبرة عن قدرته في خلق الأشياء وفنائها .

أما عندما يسند هذا الفعل إلى غير الله فنرى المسند إليه يتعدد ، فقد يسند إلى المفعول بعد حذف الفاعل ، ويأتي ذلك في آيات أربع ، في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ (البقرة : ٢٣٤) ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ (البقرة : ٢٤٠) ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ (الحج : ٥) ، وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر : ٦٧) .

ولعل العدول هنا من الإسناد عن الفاعل إلى المفعول يرجع إلى أن الآيتين الأوليين سيقتا لتشريع العدة لمن يتوفى عنها زوجها وتحديد وقتها ، والموجه إليها الحديث هنا قد تكون في حالة من الحزن الشديد لفقد زوجها ، فجاء الأسلوب القرآني مراعيًا تلك الحالة ، فعدل عن الإسناد عن الفاعل الحقيقي إلى غيره ؛ كي لا يرتبط التوفي عند تلك المرأة وهي في هذه الحالة بالله حتى يتم لها الخروج من هذا الحزن .

أما الآية الثالثة فسيقت للحديث عن البعث ، فكما خلق الناس من عدم بادئًا خلقهم من تراب ثم من نطفة ، ثم يتدرج نموهم وتطورهم إلى أن يخرجوا إلى الحياة ، ويبلغوا فيها أشدهم ، فكان الحديث كله عن الإحياء بعد الموت لا عن الموت نفسه ، فلم يكن من المناسب في هذا الموضع أن يسند التوفي إلى الله ، ومن ثم عدل الأسلوب القرآني هنا إلى الإسناد لغير الفاعل .

أما الآية الرابعة فسيقت للدلالة على قدرة الله عز وجل على خلق الناس من العدم ثم تطور خلقهم حتى يكونوا أطفالاً ثم شيوخًا ، فالحديث هنا أيضًا عن الإحياء لا عن الموت . ولو تأملنا ما سبق هذه الآية من آيات لوجدناها جميعًا تتحدث عن الحياة وما أعده الله فيها للبشر ، يقول تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (غافر : ٦١) ، ويقول أيضًا : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (غافر : ٦٤) ، ثم نراه ، عز وجل ، يأتي بإحدى صفاته وهي الحي دون غيرها للدلالة على صفة الحياة التي وهبها للإنسان ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (غافر : ٦٥) ، فناسب مع

هذا كله أن يعدل الأسلوب القرآني في هذا الموضع عن إسناد التوفي إلى الله ؛ لإبراز أمر الحياة الذي يدل عليه سياق الآيات .

وقد يسند هذا الفعل إلى لفظ الملائكة أو لفظ الرسل الدال عليهم ، ويأتي الإسناد إلى الأول منهما في خمس آيات : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (النساء : ٩٧) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الأنفال : ٥٠) ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (النحل : ٢٨) ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٣٢) ، وقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ (محمد : ٢٧) .

وإنما كان الإسناد إلى الملائكة دون غيرهم في هذه الآيات ؛ لأن الآية الأولى تأتي بعد إخبار الله ، عز وجل ، عن نفسه بأنه غفور رحيم ، يقول تعالى : ﴿ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ (النساء : ٩٦) ، فلم يكن ليتناسب مع هذه الرحمة منه أن يسند التوفي إليه ، فأسنده إلى الملائكة .

وأما الآية الثانية فجاءت في سياق حض المؤمنين على القتال في سبيل الله والثبات أمام الأعداء ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأنفال : ٤٥ ــ ٤٦) ، وإذا كان ، سبحانه ، يحث المؤمنين على القتال والثبات عند اللقاء والصبر عليه ، فما كان ليذرهم حتى ينصرهم ، فهو ، سبحانه ، قد كتب على نفسه نصرهم إذا نصروه ، فيقول تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (محمد : ٧) ، ويقول أيضًا : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الروم : ٤٧) ، فاستدعى ذلك أن يلقى الرعب في قلوب الكافرين عند اللقاء ، فكان من المناسب لتحقيق ذلك أن يسند الفعل هنا إلى الملائكة عملاً على إرهابهم حتى تذهب قوتهم .

وأما الآية الثالثة فسيقت في إطار إنذار الله للكافرين بأنهم سيحملون أوزارهم وأوزار من يضلونهم إلى يوم القيامة ، يقول تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (النحل : ٢٥) ، وأنه مهما مكروا فلن ينفعهم مكرهم شيئًا ، ولو كان نافعهم لنفع من قبلهم ، يقول تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ (النحل : ٢٦ ــ ٢٧) .

وهذا الإنذار منه ، عز وجل ، بمثابة الإنعام عليهم ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ (الرحمن : ٣٥) ، وقوله : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ (الرحمن : ٤١) ، وقوله : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ (الرحمن : ٤٣ ـ ٤٤) ، فهذه كلها نقم أعقب كل واحدة منها بقوله : ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؛ لأن الإنذار بهذه الأشياء ليتقى شرها وفي حد ذاته نعمة من الله ، وكذلك كان إنذاره للكافرين في سورة النحل نعمة منه ، إذ يحذرهم من عاقبة كفرهم حتى يرجعوا عنه ، فلم يكن ليناسب أن يسند التوفي إليه في هذا الموضع لهذا الأمر ، فأسنده إلى الملائكة .

وكذلك الأمر في الآية الرابعة إذ سيقت في إطار تعداد النعم على المتقين ، يقول تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (النحل : ٣١) ، فعدل ، عز وجل ، مع هذا التعداد للنعم عن إسناد التوفي إليه إلى إسناده للملائكة ، فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ .

أما الآية الخامسة فجاءت لتتحدث عن أولئك الذين ارتدوا على أدبارهم بعد إيمانهم ، إذ يريد منهم الله أن يطيعوه ويعودوا إلى صوابهم ، يقول تعالى : ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (محمد : ٢٠ ـ ٢١) ، ثم يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد : ٢٤) .

وهذا الحث منه ليثوبوا إلى رشدهم هو ترغيب في الإيمان والعودة إليه ، ومن ثمّ أسند التوفي إلى الملائكة لا إليه ؛ إذ المقام مقام ترغيب وحث على الرجوع إلى الله .

أما الإسناد إلى لفظ الرسل الدال على الملائكة فيأتي في آيتين : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنعام : ٦١) ، وقوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الأعراف : ٣٧) .

فعدل ، سبحانه ، في هاتين الآيتين ــ كما رأينا في الآيات السابقة عليهما ــ عن إسناد التوفي إلى نفسه مسندًا إياه إلى لفظ الرسل . يقول صاحب لباب التأويل في تعليل ذلك وهو بصدد الحديث عن آية الأنعام : "فإن قلت : قال الله تعالى في آية : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (الزمر : ٤٢) ، وقال في آية أخرى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ (السجدة : ١١) ، وقال هنا : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ فكيف الجمع بين هذه الآيات . قلت وجه الجمع بين هذه الآيات أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنــزع روح ذلك العبد من جسده ، فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه ، فحصل الجمع بين الآيات ، وقيل المراد من قوله ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ ملك الموت

وحده ، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيمًا له,, [١] .

وهو تعليل يغفل جانب السياق ودوره في اختيار الألفاظ في مواقعها ، ولو رجعنا إليه في كلتا الآيتين متأملين إياه لوجدنا أن الآية الأولى تقدمها بآيات عدة قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام : ٥٤) ، والذي يكتب على نفسه الرحمة يجل عن أن يقرنها بما يشق على العباد ، والموت ــ لا ريب ــ يشق على الأنفس ؛ إذ ليس هناك ما هو أصعب منه عليهم ؛ لذلك عدل ، سبحانه ، عن أن يسنده إلى نفسه بعد أن كتب على نفسه الرحمة ، فأسنده إلى الملائكة معبرًا عنهم بلفظ الرسل ، إذ ذكر في الآية نفسها أنه يرسل حفظة ، ومن يرسلهم إنما هم رسل من عنده ، فأعقب ذلك بقوله : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ مناسبة لذلك .

وأما الآية الثانية فقد تقدمها قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٥) ، فأخبر ، عز وجل ، في هذه الآية أنه يرسل رسلاً للناس يخبرونهم بآياته ، فمن اتقى وصدق بهذه الآيات فلا خوف عليه ، ومن كذب فليس له جزاء إلا النار ، ثم أعقب ذلك بالحديث عن هؤلاء الذين كذبوا ما جاء به الرسل عندما يحضرهم الموت ، فكان من المناسب أن يسنده إلى رسله الموكلين بقبض أرواح الناس استهزاءً بهم وسخرية منهم ، فإن كان هؤلاء الكافرون كذبوا رسله فلا مناص لهم من رسل آخرين يقبضون أرواحهم .

وقد يستند فعل التوفي إلى ملك الموت لا إلى الملائكة أو لفظ الرسل الدال عليهم ــ كما رأينا في الآيات السابقة ــ وذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ

---

[١] الخازن : لباب التأويل ٢ / ٢٢ .

﴿ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ (السجدة : ١١) .

والناظر إلى تلك الآية يرى أنها سيقت بعد آيات متعددة تدور حول بدايات الخلق ، وكيف بدأه ، عز وجل ، وكم يومًا أتم فيه خلق السماوات والأرض ؟ يقول تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ (السجدة : ٤) ، ثم يخبر ، سبحانه ، أنه بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم سواه بعد خلقه نافخًا فيه من روحه ، وهذه هي البداية الأولى للخلق ، قال تعالى : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ (السجدة : ٧ ــ ٩) ، فكان الحديث عن بدايات الخلق وأصله ، فناسب مع ذلك أن يأتي بمن هو أصل من الملائكة في نسبة الموت إليه ، ومن ثم كان إسناد فعل التوفي إلى ملك الموت دون غيره .

وقد يسند فعل التوفي إلى الموت ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ (النساء : ١٥) . قال الألوسي في تعليل هذا الإسناد : "وإسناده إلى الموت باعتبار تشبيهه بشخص يفعل ذلك ، فهناك استعارة بالكناية ، والكلام على حذف مضاف ، والمعنى حتى يقبض أرواحهن الموت ، ولا يجوز أن يراد من التوفي معناه المشهور ، إذ يصير الكلام بمنزلة حتى يميتهن ولا معنى له إلا أن يقدر مضاف يسند إليه الفعل أي ملائكة الموت ، أو يجعل الإسناد مجازًا من إسناد ما

للفاعل الحقيقي إلى أثر فعله" [1] .

وجعل الإسناد في هذه الآية من قبيل الإسناد المجازى أو تقدير مضاف يسند إليه الفعل هو أمر يوضح المفارقة المعجمية بين الفعل وما أسند إليه ، ولكنه لا يكشف عن السر وراء هذا الإسناد ، ولعلنا إذا تأملنا السياق النفسي الذي تكشف عنه الآية اتضح لنا هذا السر ، إذ سيقت الآية لتشريع حد للاتي يأتين بفاحشة ، وهو الحبس في البيوت حتى يقضى أجلهن ويجعل الله لهن مخرجًا ، وذلك قبل أن تنسخ هذه الآية بالآية التي تليها ، ثم نسخ ذلك بآية سورة النور وحديث الرجم في الثيب [2] ، كذا ذكر القرطبي ، ومن يُقضى عليها بهذا الحكم ويتم تطبيقه ، فتظل في بيتها لا تخرج منه فإن الموت يصبح أملها وغايتها المنشودة في هذه الحياة ؛ لتسترد به حريتها المسلوبة ، ومن ثم كان من المناسب أشد المناسبة أن يسند الفعل إليه لا إلى غيره .

(٢) الخبر

وهو الركن الثاني من أركان الجملة الاسمية ، إذ يمثل المسند ، ويعرفه ابن عصفور بقوله : "والخبر هو الجزء المستفاد من الجملة ، وذلك أنك إذا قلت : زيد قائم ، فإن المستفاد من هذه الجملة إنما هو الإخبار عن زيد بالقيام" [3] . ويدل وجود الخبر في الجملة على اسميتها ، والجملة الاسمية أدل على الثبوت من الفعلية التي تدل على التجدد . قال أبو حيان في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ (البقرة : ٧) "وكانت هذه الجملة ابتدائية ليشمل الكلام الإسنادين : إسناد الجملة الفعلية وإسناد الجملة الابتدائية ، فيكون ذلك آكد ؛ لأن الفعلية تدل على التجدد والحدوث ، والاسمية تدل على الثبوت" [4] .

---

[1] روح المعاني ٤ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

[2] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٣ / ٣١٤ .

[3] شرح الجمل ١ / ٣٤٠ .

[4] البحر المحيط ١ / ١٧٦ .

وهذا الثبوت يجعل الجملة آكد في دلالتها وأبلغ من الجملة الفعلية ، وهو ما يصرح به أبو حيان في موضع آخر عند تعليقه على قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة : ٤) إذ يقول : "وإيراد هذه الجملة اسمية وإن كانت الجملة معطوفة على جملة فعلية آكد في الإخبار عن هؤلاء بالإيقان ؛ لأن قولك (زيد فعل) آكد من (فعل زيد) لتكرار الاسم في الكلام بكونه مضمرًا "[١].

ويكتسب الخبر بوصفه جزءًا من الجملة الاسمية الدلالة على الثبوت ، ومن ثم يصير أبلغ وآكد في دلالته من الألفاظ التي تقع في مواقع وظيفية أخرى ، وهو ما نراه متحققًا في قوله تعالى : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝ ﴾ (الذاريات : ٢٤ ــ ٢٥) ، فجاء الأسلوب القرآني بلفظ (سَلَٰمٗا) منصوبًا أو في موقع المفعول المطلق في قول الملائكة ، ثم عدل عن ذلك إلى رفعه ليقع في موقع الخبر في قول إبراهيم . قال صاحب الطراز في تعليل ذلك : "وأما ما ذكره ثالثًا من نصب سلام الملائكة ، ورفع سلام إبراهيم ، فلأن سلام الملائكة إنما ورد على جهة الإشعار بالفعل ، وكونه مصدرًا عنه تقريرًا لخاطره ، وإزالة الوحشة الحاصلة من جهتهم بامتناع الأكل ، كما نبه عليها بقوله تعالى : ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ ﴾ (الذاريات : ٢٨) ، وهذا المعنى إنما يظهر بالنصب بخلاف السلام من جهة إبراهيم ، فإنما هو وارد على جهة التحية ، كأنه قال منّي سلام ، أو عليكم سلام ، غير متعرض لتقييد الفعل ، والانتصاب عنه ، أو نقول ليس واردًا على جهة التحية ، وإنما هو تعرض للمصالحة والمسالمة ، وقد نبه على هذا قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اقرءوا : ﴿ قَالَ

---

[١] البحر المحيط ١ / ١٦٨ .

سَلَٰمٌ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ، ومن ثم قال أهل التحقيق من علماء البيان . إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة يشيرون به إلى ما ذكرناه,,[1] .

وكذلك فإن تحية الملائكة كانت في أول الكلام ، وتحية إبراهيم ما هي إلا رد عليها ، ورد التحية غالبًا ما يكون أبلغ من البدء بها تصديقًا لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ (النساء : ٨٦) .

•

ويؤكد كون الخبر أبلغ من المفعول المطلق ورود لفظ (سَلَٰم) في هذا الموقع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝﴾ (يس : ٥٥ـ ٥٨) ، ثم وروده مفعولاً مطلقًا في قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٞ ۝ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ۝﴾ (الواقعة : ١٠ ــ ٢٦) .

---

[1] العلوي : الطراز ص ٢١١ .

فاختلف اللفظان في موقعهما بين الرفع على الخبر والنصب على المفعول المطلق رغم أن المقامين اللذين وردا فيهما متشابهان ، بل يكادان يتحدان ، إذ يخبر كل منهما عن النعيم الذي أعد لأهل الجنة ، وإنما يرجع ذلك إلى أن المتكلم ليس واحدًا ، ففي الموضع الأول كان الخطاب من الله إلى عباده ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ . وإذا كان الخطاب من الله وقعت التحية فيه أبلغ ممن سواه ، ومن هنا كان رفع (سَلَـٰم) على الخبر في هذا الموضع ، إذ يدل الخبر على اسمية الجملة ، ومن ثم يدل على الثبوت والدوام ، وهما صفتان آكد في التحقيق وأدل على الكمال .

وأما الخطاب في الموضع الثاني فاختلف فيه ، قال القرطبي حاكيًا عن ابن عباس : "أي يحيي بعضهم بعضًا ، وقيل تحييهم الملائكة ، أو يحييهم ربهم عز وجل" [1] . والخلاف في التحية هنا يدل على أنها ليست ثابتة لله ، بل قد تكون منه أو من غيره ؛ لذلك لم تكن على الدرجة نفسها التي كانت منسوبة لله يقينًا ، ومن هنا جاء السلام منصوبًا في هذا الموضع ، بخلاف الآيات السابقة للتفريق بين الخطابين . بل إن الراجح أنها ليست من الله ؛ لأن السلام لم يأت في القرآن منه إلا مرفوعًا على الخبر ؛ لأنه الأبلغ ، إذ يدل على الثبوت الذي يوحي بتمام الكمال ، فجاء منصوبًا في هذا الموضع ، لأنه ليس منه .

(٣) المفعول به

وهو ــ على حد قول ابن الحاجب ــ : "ما وقع عليه فعل الفاعل ، نحو : ضربت زيدًا وأعطيت عمرًا درهمًا" [2] .

---

[1] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٩ / ٥١١ .

[2] شرح الرضى على الكافية ١/ ٣٣٣ .

وقد يكون نصب اللفظ على المفعول أقرب إلى دلالة السياق من وضعه في موضع آخر قد يحتمل ، ومن ذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٢٤) ، فقال ، عز وجل ، (ٱلظَّـٰلِمِينَ) بنصب اللفظ على المفعول ، ولم يقل (الظالمون) برفعه على الفاعل ، وهو ما قرأ به أبو رجاء وقتادة والأعمش[1] ، ويتحمله التركيب ؛ لأن الفعل (نال) من الأفعال التي يمكن معها أن يعكس وضع ما تعمل فيه ، فيأتي المفعول فاعلاً ، والعكس كما نرى في قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران : ٩٢) ، فأتى الأسلوب القرآني بضمير الجمع في موضع الفاعل ، ونصب لفظ البر ، وهو عكس ما نراه في آية البقرة .

وإنما يرجع ذلك إلى أن سياق آية البقرة أسندت فيه الأفعال إلى الله ، فهو الذي ابتلى إبراهيم ، وجعله إمامًا ، كذلك فهو الذي يعطي العهد لمن يشاء من عباده ، فالمعطي هو الله ، ومن يتلقى العطاء ليس له يدٌ في ذلك ، بل هو مجرد مستقبل ، كذلك الظالمون فهم مجرد مستقبلين للأمر ، واقع عليهم ما يريده الله دون إرادة منهم ومقدرة ، وهو ما يشعر به نصب هذا اللفظ ، ولو جيء به مرفوعًا لأشعر أن لهم إرادة أو مقدرة في نيل هذا العهد ، ولكان النفي لوصوله إليهم لا لمقدرتهم على نيله ، والغرض نفي مقدرتهم وإرادتهم في وصول هذا العهد إليهم ، إذ الأمر متعلق بالله لا بهم ، فناسب أن ينصب اللفظ على المفعول لا أن يرفع على الفاعل .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ١ / ٥٤٨ .

وأما آية آل عمران فجاء فيها الفاعل ضمير الجماعة ، وجاء البر منصوبًا على المفعول ؛ لأنه من الأشياء التي يمكن أن ينالها الإنسان إن أراد ، فمعناه ــ كما يفسره القرطبي ــ الجنة أو العمل الصالح ، وتقدير الكلام لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون[1] وهذا الثواب يناله الإنسان إذا آمن وأصلح واتقى ، بخلاف العهد الذي يفسره ابن عباس بالنبوة ، ويفسره السُدّي ومجاهد بالإمامة [2] ، وهما أمران لا يمنحهما الله لأي إنسان ، بل لمن يصطفيه ، ويختاره من البشر ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الحج : ٧٥) .

ومن بديع استعمال المفعول به كذلك في النص القرآني ما نراه في قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات : ٢٧ ــ ٣٣) .

فآثر الأسلوب القرآني نصب الأرض والجبال على المفعول ، ولم يأتِ بهما مرفوعين على الابتداء مع إمكانيتهَ ، وذلك لأن تقديم الاسم ورفعه على الابتداء يشعر بالاهتمام به وتركيز الأمر عليه . قال عبد القاهر : "وهذا الذي قد ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له ، وقد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا قدم فرفع بالابتداء ، وبنى الفعل الناصب كان له عليه ، وعدي إلى ضميره فشغل به . كقولنا في (ضربت عبد اللــه) : (عبد اللــه ضربته)" [3] .

---

[1] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٣ / ٦٢ .

[2] السابق ١ /٥٩٤ .

[3] دلائل الإعجاز ص ١٣١ .

وليس الغرض هنا الاهتمام بالأرض والجبال في ذاتهما والتنبيه عليهما ، وإنما إبراز قدرة الله على الخلق وتسخير ما يخلق لمن يشاء ، فهو ، سبحانه ، إن كان قد خلق السماوات والأرض والجبال وهي أشد في خلقها من الناس ، وسخرها لهم ، ليتمتعوا بها هم وأنعامهم قادر على أن يأخذ من طغى واستكبر ، ويصليه نارًا دون أن يعصى عليه ذلك ، يقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ (النازعات : ٣٧ ــ ٣٩) ، وكذلك كان فعله مع فرعون ، فأخذه أخذ عزيز مقتدر . ولم يفلته رغم جبروته وطغيانه إلى الدرجة التي ادعى فيها أنه رب الناس الأعلى ، حتى يكون عبرة لمن كان له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد ، يقول ، سبحانه ، حاكيًا عنه ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝ ﴾ (النازعات : ٢٤ ــ ٢٦) ، فناسب أن ينصب لفظا الأرض والجبال على المفعول لا أن يرفعا على المبتدأ ؛ ليكون جُل الاهتمام بمبدعها وهيمنته عليها رغم قوتها لا أن يكون بها في ذاتها .

فإذا انصرف المقام إلى الاهتمام بالمفعول به أو ما يتعلق به من دلالة بنى الكلام عليه ، ورفع كما نرى في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾ (الحج : ٧٢) ، فعدل الأسلوب القرآني عن نصب لفظ النار على المفعول إلى رفعه على المبتدأ بانيًا الكلام عليه ؛ لأن الكلام هنا يدور حول الذين كفروا بالله مشركين به ما لا سلطان له ومنكرين آياته ، قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ (الحج ٧١ ــ ٧٢).

فهؤلاء الكافرون هم أهل النار وأولى الناس بها ، فكان بناء الكلام على هذا اللفظ أبلغ في تهديدهم بها وأكثر توكيدًا في نسبتهم إليها واختصاصها بهم ؛ ليتفق ذلك مع عظم جرمهم ، وهو الشرك بالله ، ذلك الجرم الذي قد يغفر الله ما دونه ، ولكنه لا يتجاوز عنه ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء : ٤٨).

(٤) المفعول المطلق

يعرّفه ابن عصفور بأنه المصدر[١] ، وقال ابن يعيش : "المصدر هو المفعول الحقيقي ؛ لأن الفاعل يحدثه ، ويخرجه من العدم إلى الوجود ، وصيغة الفعل تدل عليه ، والأفعال كلها متعدية إليه سواء كان يتعدى الفاعل أو لم يتعده ، نحو (ضربت زيدًا ضربًا) و(قام زيد قيامًا) . وليس كذلك غيره من المفعولين" [٢] .

ومن بديع استعماله في القرآن ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (النمل : ٨٨) ، فجاء الأسلوب القرآني بلفظ (صُنْعَ) منصوبًا على المفعول المطلق ،

---

[١] شرح الجمل ٢ / ٤٤٩ .

[٢] شرح المفصل ١ / ١١٠ .

ولم يأتِ به مرفوعًا على الخبر ، وهو ــ على حد قول الزمخشري ــ من المصادر المؤكدة [1] ، وذلك لأن الغرض في هذا السياق ليس مجرد الإخبار أن مرور الجبال وعدم ثباتها وحركتها الدائبة من صنع الله ، إذ هو أمر ثابت له لا ريب فيه ، ولكن المراد تأكيد هذه الحركة الدائبة المستمرة . قال الألوسي : "الظاهر أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، وهي جملة الحال والعامل فيه ما دلت عليه من كون ذلك من صنعه تعالى ، فكأنه قيل : صنع الله تعالى ذلك صنعا"[2] . فالتأكيد هنا ــ كما يذكر ــ لمضمون جملة الحال ، وهو المرور مر السحاب أو الحركة الدائبة التي لا يشعر بها أحد ، حتى ينتفي الشك عند الرائي أنها ثابتة أو جامدة لا تتحرك . ولعل هذا المعنى ما يشير إليه التنوخي بقوله : "لما كانت الجبال ترى جامدة وهي تمرّ مرَّ السحاب لسرعة حركتها وهي لا ترى ، كان ذلك أمرًا عظيمًا تحار فيه العقول ، وُكِّد بقوله تعالى (صنع الله)" [3] . ولو جيىء باللفظ مرفوعًا على الخبر لما أدى هذا المعنى ، ولكان المعنى عندئذ الإخبار أن هذا المرور من صنع الله فحسب ، فأتى باللفظ منصوبًا ؛ لتأكيد مضمون الجملة لا الإخبار بهذا المضمون حتى يتفق مع ما يدل عليه السياق .

ومن حسن استعمال المفعول المطلق كذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم : ٣٠) ، فآثر التعبير القرآني أن يأتي بلفظ (فطرة) منصوبًا على المفعول المطلق لا مرفوعًا على الخبر تأكيدًا لمضمون الجملة قبله . قال الطبري: "ونصبت فطرة على المصدر من معنى قوله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ ﴾ ،

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٨٧ .

(٢) روح المعاني ٢٠ / ٥٣ .

(٣) الأقصى القريب في علم البيان ص ٨٠ .

وذلك أن معنى ذلك فطر الله الناس على ذلك فطرة ,, [1] . وذلك لأن الآية لم تسق للإخبار بأن الحنيفية ملة إبراهيم التي شرعها الله لرسوله لتكون دينًا له ولأمته هي فطرته التي فطر الناس عليها ، وإنما سيقت لتأكيد هذا المعنى، إذ السياق في هذا الموضع يدور حول المشركين الذين اتبعوا أهواءهم عن جهل منهم ، فضلوا عن الحق ، قال تعالى : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (الروم : ٢٩) .

فإنما كان ضلالهم هذا ؛ لأنهم لم يعلموا الحق ، وجهلوا فطرة الله السليمة التي خلق الناس عليها ، وهو ما يؤكده قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فهؤلاء ممن اعتقدوا اعتقادًا ابتعدوا به عن الدين الحق لا يكفيهم أن يخبروا أن فطرة الله ودينه القيم ما جاء به نبيه من ملة إبراهيم ، وإنما يحتاجون إلى تأكيد ذلك حتى يقع لديهم موقعًا مؤثرًا يتغلغل في أنفسهم ؛ كي يتبعوا هذه الفطرة من معرفة الله وتوحيده ، فناسب ذلك أن يأتي بهذا اللفظ في موقع المفعول المطلق لا في موقع الخبر حتى يؤكد ما جاءت به هذه الآية للتنبيه عليه .

(٥) المنادى

قال ابن عصفور : "النداء دعاء المخاطب ليصغى إليك,, [2] ، فالمنادى مخاطب يدعى للإصغاء إلى حديث معين ، ويكون ذلك بحرف من حروف النداء .

ومن بديع استعمال المنادى في القرآن الكريم ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة : ٢٠) ، فجاء الأسلوب القرآني بلفظ (قوم) منادى في هذا

---

[1] جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) ٢١ / ٢٦ .

[2] شرح الجمل ٢ / ٨٢ .

المقام على لسان موسى ، وعدل عن ذلك في آية إبراهيم ، فلم يأتِ به في هذا الموضع ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ (إبراهيم : ٦) .

ويكشف ابن الزبير عن سر ذلك قائلاً : "لما اعتمد في آية المائدة تذكيرهم بضروب من الآلاء والنعم الجسام من جعل الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكًا وإعطائهم ما لم يعط غيرهم ، كان ذلك تعريفًا باعتنائه سبحانه بهم وتفضيلهم على من عاصرهم وتقدمهم من أمم الأنبياء قبلهم ، فناسب ذلك نداء موسى ـ عليه السلام ـ إياهم بقوله : (يا قوم) بالإضافة إلى ضميره إنباءً بالقرب والمزية، وناسب هذا النداء المنبئ بالاعتناء ما تقدم من تخصيصهم بما عقب به النداء من التشريف بما منحهم من الآلاء والنعم الجسام ، ولما قصد في آية سورة إبراهيم تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون وما كان يسومهم به من ذبح ذكور أبنائهم واستحياء نسائهم للمهنة ، ولم يذكر هنا شئ مما في آية المائدة لما اقتصر عليه هنا من التذكير بمجرد الإنجاء ، فناسب ذلك الاقتصار على خطابهم دون النداء رعيًا للمناسبة "[١] .

(٦) الحال

وهي ـ كما يعرفها ابن يعيش ـ "وصف هيئة الفاعل أو المفعول ، وذلك نحو جاء زيد ضاحكًا ، وأقبل محمد مسرعًا ، وضربت عبد الله باكيًا ، ولقيت الأمير عادلاً ، والمعنى : جاء عبد الله في هذه الحال ، ولقيت الأمير في هذه الحال "[٢] . ويشترط فيها أن تكون منتقلة أو في حكمها [٣] ، فهي "لا تبقى بل تنتقل إلى حال أخرى ،

---

[١] ملاك التأويل ١ / ٣٨٥ .

[٢] شرح المفصل ٢ / ٥٥ .

[٣] ابن عصفور : شرح الجمل ١ / ٣٣٦ .

كما أن الزمان منقضٍ لا يبقى ، ويخلفه غيره,, [١]. فهي على هذا متغيرة منتقلة بطبيعتها ، تصور ما ينتقل ، وتتغير حاله .

ومن بديع استعمال الحال في القرآن ما نراه في قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ (غافر : ١٨) ، فآثر الأسلوب القرآني أن يأتي بلفظ (كَاظِمِينَ) منصوبًا على الحال ، على الرغم من إمكانية رفعه على الخبر ، وهو ما أجازه الفراء ، والتقدير عنده : إذ هم كاظمون[٢] ، وذلك لأن المقام الذي سيقت فيه الآية مقام تهويل لما يحدث يوم القيامة من أحداث جسيمة شديدة على الناس تصعد لهولها القلوب إلى الحناجر . قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى : ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ : "معناه : عند الحناجر ، أي قد صعدت من شدة الهول والجزع ، وهذا أمر يحتمل أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم ، وتبقى حياتهم ، بخلاف الدنيا التي لا تبقى فيها لأحد مع تنقل قلبه حياة ، ويحتمل أن يكون تجوزًا عبر ما يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب ، وهذا كما تقول العرب : كادت نفسي أن تخرج ، وهذا المعنى يجده المفرط الجزع كالذي يقرب للقتل ونحوه,, [٣] .

فالغرض هنا تصوير تلك الحال التي عليها الناس من بلوغ القلوب إلى الحناجر ، وهي حالة ثابتة لا تتغير طالما كان هذا اليوم قائمًا ؛ لذلك كان الأنسب الإخبار عن القلوب

---

[١] ابن يعيش : شرح المفصل ٢ / ٥٥ .

[٢] معاني القرآن ٣ / ٦ .

[٣] المحرر الوجيز ٤ / ٥٥٢ .

بالكون العام الذي تعلق به الظرف ؛ للدلالة على الاستمرار ، ومن ثم جاء لفظ (كَٰظِمِينَ) منصوبًا على الحال التي تدل على التقلب والتغير ، إذ (الكاظم) ـ كما يفسره ابن عطية ـ "الذي يرد غيظه وجزعه في صدره ، فمعنى الآية أنهم يطمعون برد ما يجدونه في الحناجر ، والحال تغالبهم "[1] ، وهذه الحال التي يكون عليها الناس من إرادة الكظم تختلف من إنسان إلى آخر بحسب جزعه وفزعه من شدة هذا اليوم ، فليس كل إنسان يلقى ما يلقاه غيره ، إذ كل واحد يرى من الشدة والجزع بحسب ما عمل ، وهو ما يدل عليه ما تقدم هذه الآية من قوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (غافر : ١٧) .

فكل نفس تحاسب ، وتلقى من الجزاء والشدة بحسب عملها ، فإن كان عملها شرًا فإن حسابها عسير ، وإن كان خيرًا فحسابها يسير ، ولا ترى من الفزع ما تراه الأخرى ، يقول تعالى : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ (الأنبياء : ١٠٣) ، ويقول أيضًا : ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ (النمل : ٨٧) ، فالفزع مختلف من شخص إلى آخر ، ومن ثم فإن الكظم يختلف ، إذ يترتب على الفزع والجزع من أهوال هذا اليوم ، فكان من الأنسب نصب لفظ (كاظمين) على الحال ؛ ليدل على اختلاف جزع الناس وفزعهم ، ولو رفع لدل على أن جزعهم واحد ، وهو خلاف ما يدل عليه السياق من اختلاف جزاء الناس بحسب ما كسبوا .

(٧) المضاف إليه

يعرّف ابن يعيش الإضافة قائلاً : "اعلم أن إضافة الاسم إلى الاسم إيصاله إليه من غير فصل وجعل الثاني من تمام الأول يتنزل منه منزلة التنوين ، وهذه الإضافة

---

[1] السابق ٤ / ٥٥٢ .

على ضربين : إضافة لفظ ومعنى وإضافة لفظ فقط,, [١] ، ثم يقول في تعريف الضرب الأول : "وهذه الإضافة هي التي تفيد التعريف والتخصيص ، وتسمى المحضة ، أي الخالصة بكون المعنى فيها موافقًا للفظ ، وإذا أضفته إلى معرفة تُعرِّف ، وذلك نحو قولك : غلام زيد ، فغلام نكرة ولما أضفته إلى زيد اكتسب منه تعريفًا وصار معرفة بالإضافة ، وإذا أضفته إلى نكرة اكتسب تخصيصًا وخرج بالإضافة عن إطلاقه ، لأن غلامًا يكون أعم من غلام رجل ، ألا ترى أن كل غلام رجل غلام وليس كل غلام غلام رجل,, [٢] .

ومن حسن تقييد الاسم بالمضاف إليه والعدول عن إطلاقه ما ورد في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (البقرة : ١٥) ، فقيد الأسلوب القرآني لفظ طغيان بالضمير (هم) الذي وقع في موقع المضاف إليه من هذا اللفظ ، وهذا بخلاف ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ﴾ (الأعراف : ٢٠٢) ، إذ ورد لفظ (ٱلْغَيِّ) غير مقيد بالإضافة ، قال الزمخشري معللاً ذلك : "فإن قلت : أي نكتة في إضافته إليهم ؟ قلت : فيها أن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم ، وأن الله برئ منه ردًا لاعتقاد الكفرة القائلين : لو شاء الله ما أشركنا ، ونفيًا لوهم من عسى يتوهم عند إسناد المد إلى ذاته لو لم يضف الطغيان إليهم ليميط الشبه ويقلعها ويدفع في صدر من يلحد في صفاته . ومصداق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين ، أطلق الغيّ ولم يقيده بالإضافة في قوله : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ﴾,, [٣].

---

(١) شرح المفصل ٢ / ١١٨ .

(٢) السابق ٢ / ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) الكشاف ١ / ٦٨ ، ٦٩ .

(٨) البدل

يعرّفه ابن يعيش بقوله : ''البدل ثانٍ يقدر في موضع الأول نحو قولك : مررت بأخيك زيد فزيد ثانٍ من حيث كان تابعًا للأول في إعرابه واعتباره بأن يقدر في موضـــع الأول حتى كأنك قلت مررت بزيد ، فيعمل فيه العامل كأنه خالٍ من الأول والغرض من ذلـــك البيان,, [١] فهو يأتي ــ كما يذكر صاحب شرح المفصل ــ لبيان المبدل منه موضحًا مـــا فيه من إبهام .

ومن حسن استعماله في القرآن ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة : ١٢٦) ، فقال إبراهيم عليه السلام :﴿ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ مُبدِلاً الاسم الموصول من لفظ (أَهْلَهُ) ، وفائدة ذلك البدل ــ على حد قول أبي حيان ــ : ''أنه يصير مذكورًا مرتين إحداهما : بالعموم السابق في لفظ المبدل منه ، والثانية بالتنصيص عليه وتتبين أن المبدل منه إنما عني به وأريد البدل فصار مجازٌ إذا أريد بالعام الخاص هذه فائدة هذين البدلين فصار في ذلك تأكيد وتثبيت للمتعلق به الحكم وهو البدل إذا ذُكر مرتين,, [٢] .

فكان ذلك حسن احتراز منه ، إذ سبق أن دعى ربه أن يجعل من ذريته أئمة للناس دون أن يخص المؤمنين منهم بذلك الدعاء ، فرد عليه سبحانه وتعالى بأنه لا يعطي هذا العهد من نبوة وإمامة للظالمين ، فكان من المناسب أن يحترز إبراهيم بعد هذا الرد عندما يدعوه أن يرزق أهل بيته المحرم من الثمرات ، فيخص المؤمنين بدعائه دون

---

[١] شرح المفصل ٣ / ٦٣ .

[٢] البحر المحيط ١ / ٥٥٥ .

الكافرين مبدلاً إياهم من لفظ (أهل) الدال على العموم تبعًا لرد الله عليه في الموضع الأول ، ولكن الأمر كان مختلفًا في الموضعين . فالقضية الأولى قضية نبوة وإمامة وهذان أمران لا ينالهما إلا من اصطفى الله من عباده المؤمنين ، فوجب التخصيص ، والقضية الثانية تتعلق بالرزق ، وهو أمر كفله الله لجميع عباده ، إذ لم يكن لهم دخل في مجيئهم إلى هذه الحياة ، فكان من المناسب في هذا الموضع أن ينبه الله ، عز وجل ، نبيه إبراهيم أنه لا يرزق المؤمنين فحسب ، بل يرزق الكافرين أيضًا ؛ لذلك قال : (وَمَن كَفَرَ) .

ومن حسن استعمال البدل كذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ (غافر : ٣٦ ــ ٣٧) .

وبلوغ السماوات أمر عظيم عجيب ؛ لأن أحدًا لا يستطيعه ، فكان من المناسب معه إبهام لفظ (ٱلْأَسْبَٰبَ) ثم إيضاحه بالبدل ؛ بما في ذلك من إيحاء بتفخيم هذا الأمر والتعجب منه . قال الزمخشري موضحًا ذلك : "فإن قلت ما فائدة هذا التكرير ؟ ولو قيل : لعلي أبلغ أسباب السماوات لأجزأ ؟ قلت : إذا أبهم الشي ثم أوضح كان تفخيمًا لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها ، ولأنه لما كان بلوغها أمرًا عجيبًا أراد أن يورده على نفس متشوقة إليه ، ليعطيه السامع حقه من التعجب ، فأبهمه ليشوق إليه نفس هامان ثم أوضحه" [1] .

---

[1] الكشاف ٤ / ١٦٧ .

(٩) الصفة

يعرّف ابن يعيش الصفة بأنها "لفظ يتبع الموصوف في إعرابه تحلية وتخصيصًا له بذكر معنى في الموصوف أو في شيء من سببه ، وذلك المعنى عرض للذات لازم له" [١] ، كذلك فإن الصفة أو النعت يأتي – على حد قول ابن عصفور – "لإزالة اشتراك عارض في معرفة أو مدح أو ذم أو ترحم أو تأكيد ، مما يدل على حليته أو نسبه أو فعله أو خاصة من خواصه" [٢] .

ومن بديع استعمالها في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (النحل : ٥١) ، فجاء الأسلوب القرآني بلفظ(وَٰحِدٞ) صفة لـ (إله)؛ لأن السياق الذي وردت فيه هذه الآية ينم عن وحدانية الله ، فكل ما في السماوات الأرض يسجد له ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (النحل : ٤٩) ، فاختص وحده بالسجود له من جميع مخلوقاته دون غيره ، وهو ما يؤكد وحدانيته ، كذلك فإن كل ما في السماوات والأرض ملك خالص له ، ليس هذا فحسب بل إن الدين لا يكون إلا له ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ (النحل : ٥٢) ، فدل ذلك كله على أن المقام مقام وحدانية لله ، وهو ما يؤكده هذا الاستفهام الإنكاري في قوله : ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ فاستنكر عز وجل أن يكون هناك من يتقي غيره ، ومن هنا كان مجيء لفظ (وَٰحِد) صفة لإله ، ولو لم

---

[١] شرح المفصل ٣ / ٤٧ .

[٢] شرح الجمل ١ / ١٩٣ .

يأت بهذه الصفة لأوحى ذلك بتوكيد الألوهية له ، وليس هذا هو المراد من السياق ، وإنما أريد تأكيد وحدانيته .

ومن حسن استخدام الصفة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (النجم : ١٩-٢٠) . قال ابن الأثير في علة مجيء لفظ (ٱلثَّالِثَةَ) الواقع صفة هنا ''إن قوله تعالى : ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ إنما جيء به لتوازن الفقر التي نظمت السورة كلها عليها ، وهي ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (النجم : ١) ولو قيل ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ﴾ ولم يقل الثالثة الأخرى لكان الكلام عاريًا عن الطلاوة والحسن ، وكذلك لو قيل : ومناة الأخرى ، من غير أن يقال الثالثة لأنه نقص في الفقرة الثانية عن الأولى ، وذاك قبيح,, [1] .

وهذا الذي ذهب إليه متعلق كما نرى بنسق السياق ، ولعل الأمر لا يرجع إلى هذا السبب وحده ، وإنما لدلالة السياق دور بارز في ذكر هذا اللفظ هنا ، فالمقام في هذا الموضع مقام استنكار وتهكم من هؤلاء القوم الذين اتخذوا أكثر من إله ، وهو ما يوحي به الاستفهام في قوله (أَفَرَءَيْتُمُ) ، وإننا لنجد في وصف مناة بالثالثة ''زيادة عما فيه من الحفاظ على الاتّساق القرآني ، والموسيقى المتناسبة إشارة إلى ما مُني به هؤلاء القوم من ضعف في العقول ، وفساد في التفكير ، حتى إنهم لم يقفوا بإشراكهم عند حدِّ إلهين ، بل زادوا عليهما ثالثًا,, [2] .

---

[1] المثل السائر ٢ / ١٢٣ .

[2] د . أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ص ١٠٣ .

(١٠) التوكيد

وهو ــ كما يعرّفه ابن عصفور ــ ''لفظ يراد به تثبيت المعنى في النفس وإزالة اللبس عن الحديث أو المحدث عنه,, (١) ، قال ابن يعيش موضحًا : ''فائدة التأكيد تمكين المعنى في نفس المخاطب وإزالة الغلط في التأويل ، وذلك من قبل أن المجاز في كلامهم كثير شائع يعبرون بأكثر الشيء عن جميعه ، وبالمسبب عن السبب ، ويقولون قام زيد : وجاز أن يكون الفاعل غلامه أو ولده ، وقام القوم ، ويكون القائم أكثرهم ، ونحوهم ممن ينطلق عليه اسم القوم ، وإذا كان كذلك ، وقلت : جاء زيد ، ربما تتوهم من السامع غفلة عن اسم المخبر عنه أو ذهابًا عن مراده ، فيحمله على المجاز ، فيزال*ذلك الوهم بتكرير الاسم ، فيقال جاءني زيد ، وكذلك النفس والعين ، إذا قلت جاءني زيد نفسه أو عينه فيزيل التأكيد ظن المخاطب من إرادة المجاز ، ويؤمن غفلة المخاطب,, (٢) .

ومن بديع استعماله في القرآن الكريم ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٢٨-٣١) ، فجاء الأسلوب القرآني مؤكدًا لفظ (ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) بالتوكيد المعنوي (كُلُّهُمْ) ، ثم زاد على ذلك تأكيدًا آخر وهو(أَجْمَعُونَ) . قال ابن هشام : ''ويجوز ، إذا أريد تقوية التوكيد ، أن تتبع كله بأجمع,, (٣) .

---

(١) شرح الجمل ١ / ٢٦٢ .

(٢) شرح المفصل ٣ / ٤٠ ، ٤١ .

(٣) أوضح المسالك ٣ / ٣٣١ .

وإنما يرجع ذلك إلى أن الأمر بالسجود موجه للملائكة ، وهم خلق مطيعون لله لا يعصونه في أي أمر ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم : ٦) ، فلما استثنى عز وجل إبليس من الساجدين ناسب أن يؤكد الملائكة بالتوكيد الأول ، ثم يقويه بالثاني ، وهما توكيدان يأتيان ــ على حد قول ابن يعيش على ــ "الإحاطة والعموم فلا يؤكد بهما إلا ما يتبعض ويتجزأ " [1] ؛ ليدل على أنهم أطاعوا الله جميعًا لم يتخلف منهم أحد ، وأن إبليس ليس مستثنى من جنسهم ، وإنما مستثنى من جمعهم ، إذ كان معهم عندما أمروا بالسجود ، ويدل على ذلك استعمال التعبير القرآني الظرف الدال على المصاحبة(مَعَ) ، فقال : (مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ) ؛ ليوحي أنه كان مجرد مصاحب لهم في جمعهم ، ولو أراد أنه من جنسهم لقال (من الساجدين) ، فدل ذلك الظرف على أنه مختلف عنهم ، وهو ما يصرح به القرآن نفسه في موضع آخر ، إذ يقول سبحانه : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف : ٥٠) ، ومن هنا جاء التأكيد ، ولو عدل التعبير القرآني عنه ، فلم يأت به لأوهم ذلك أن إبليس مستثنى من جنس الملائكة ، وليس الأمر كذلك .

ومن حسن استعماله كذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (النحل : ٥١) ، فأكد الأسلوب القرآني (إِلَٰهَيْنِ) بلفظ (ٱثْنَيْنِ) على الرغم من انه يدل على التثنية في ذاته ، وذلك لأن المقام الذي سيقت فيه هذه الآية مقام إثبات لوحدانية الله لا إثبات لألوهيته ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل : ٤٩) ، وإنما

---

[1] شرح المفصل ٣ / ٤٠ .

السجود يكون لله وحده ، ومن هنا ناسب أن يأتي الأسلوب القرآني بلفظ (ٱثۡنَيۡنِ) تأكيدًا لـ (إِلَٰهَيۡنِ) ولو لم يأت به لدل ذلك على إثبات الألوهية ، والغرض إثبات الوحدانية ونفي التعدد .

قال الطيبي : "ولفظة (إِلَٰهَيۡنِ) في قوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ﴾تدل على الإلهية والعدد فلو اكتفى بها لتوهم النهي كليهما معًا ، فبين بقوله اثنين أن النهي عن إثبات التعدد لا الإلهية" [1] .

فإذا ما كان الغرض إثبات الألوهية لا الوحدانية عدل الأسلوب القرآني عن التوكيد ، فلا يأتي به ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ (المائدة : ١١٦) ، فالغرض هنا إنكار أن يكون المسيح وأمه قد قالا للناس أن يتخذوهما إلهين ، لأن ذلك لا يكون إلا لله لا لغيره .

---

[1] التبيان في البيان ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

المبحث الثاني
المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي

إذا كانت علاقة المناسبة بين الأسماء وسياقها اللغوي متحققة من جهتين ، إما من جهة بنية الأسماء ، وإما من جهة مواقعها الوظيفية ، فإن الأمر في الأفعال يختلف بعض الاختلاف ، إذ تتعلق فيها المناسبة بمبانيها أو صيغها فحسب ؛ لأن الأفعال ليس لها مواقع وظيفية .

وتنقسم هذه الصيغ الخاصة بالأفعال إلى قسمين : أحدهما يتعلق بصيغة الفعل من حيث دلالتها على الزمن ، والثاني يتعلق بصيغته من حيث الوزن . وفيما يلي بيان ذلك .

أولاً : صيغ الأفعال من حيث دلالتها على الزمن

يعرّف ابن يعيش الفعل بأنه : "كل كلمة تدل على معنى في نفسها مقترنة بزمان" [1] ، ويقسمه النحاة من حيث دلالته على الزمن إلى أقسام ثلاثة . قال سيبويه : "وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع . فأما بناء ما مضى فَذَهَبَ وسَمِعَ ومكُث وحُمِد . وأما بناء ما لم يقع فإنه قولك آمرًا : اذهب واقتلْ واضرِبْ ، ومخبرًا : (يقتل) ويذهَبُ ويَضرِب ويقتُلُ ويُضربُ . وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن إذا أخبرت . فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، ولها أبنية كثيرة" [2] ، وقال ابن عصفور في تقسيمها : "تنقسم بانقسام الزمان إلى ماضٍ ومستقبل وحال" [3] .

---

[1] شرح المفصل ٧ / ٢ .

[2] الكتاب لسيبويه ١ / ١٢ .

[3] شرح الجمل ١ / ١٢٧ .

فالأفعال تنقسم من حيث دلالتها على الزمن إلى أفعال تدل على المضي وأفعال تدل على المستقبل وأفعال تدل على الحال .

وهذه النظرة لمعنى الزمن في الأفعال تتعلق بصيغها المفردة قبل دخولها في سياق ما ، وهناك نظرة أخرى تتعلق بهذه الأفعال إذا ما دخلت في مجرى سياقي معين ، فأما النظرة الأولى فهي نظرة صرفية يأتي الزمن فيها من شكل الصيغة ، وأما الثانية فهي نظرة نحوية يأتي الزمن فيها من القرائن السياقية "ومعنى إتيان الزمن على المستوى الصرفي من شكل الصيغة أن الزمن هنا وظيفة الصيغة المفردة ، ومعنى أن الزمن يأتي على المستوى النحوي من مجرى السياق أن الزمن في النحو وظيفة السياق وليس وظيفة صيغة الفعل ، لأن الفعل الذي على صيغة فعل قد يدل في السياق على لمستقبل ، والذي على صيغة المضارع قد يدل فيه على الماضي . فقول النحاة : (والزمن جزء منه) قول مقبول على مستوى الصرف فقط" [١] .

وهذه الأقسام الثلاثة للأفعال تختلف من حيث الشكل أو المبنى ــ كما رأينا في نص سيبويه ــ كما تختلف من حيث معناه الزمني الصرفي "فأما من حيث المبنى فلكل منها صيغته الخاصة ما بين مجردة أو مزيدة من الثلاثي أو الرباعي ، كما أن كل واحد منها يمتاز عن صاحبيه بسمات خاصة . فالماضي يستبين بقبول تاء الفاعل وتاء التأنيث والمضارع يبدأ بأحد حروف المضارعة ، ويقبل لام الأمر ونوني التوكيد والإناث ، ويضام السين وسوف ولم ولن . والأمر يضام النونين دون غيرهما من هذه القرائن . وأما من حيث المعنى فإن هذه الأفعال الثلاثة تختلف في دلالتها بصيغها على الزمن" [٢] كما سبق أن ذكرنا .

---

[١] د . تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٠٤ .

[٢] السابق ص ١٠٥ .

وهذه الأفعال تدل من خلال معناها الزمني على دلالات معينة ، فالفعل الماضي ـ على حد قول ابن القيم ـ "يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد وصار من الأمور المقطوعة بكونها وحدوثها" [1] ، أما المضارع فهو ـ كما يذكر صاحب مواهب الفتاح ـ " يدل على الحال المشاهد ، فقد يستعمل للإشعار بالحضور الذي هو الأصل ، وللتنبيه بالعبارة على الشهود ، فكأنه يقال عند التعبير به : اشهدوا هذا الأمر الذي نحضره ، بالتعبير بما يدل على الحضور وإنما يفعل ذلك في الأمر الغريب أو الفظيع أو نحو ذلك كاللطيف والعجيب " [2] .

ويرتبط بدلالة الفعل على الزمن دلالة أخرى ألحقها البلاغيون بالأفعال ، وهى دلالة التجدد ، ويوضح عبد القاهر هذه الدلالة في تفريقه بين الاسم والفعل ، إذ يقول : "موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شئ ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شئ . فإذا قلت : (زيد منطلق) ، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئًا فشيئًا ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : (زيد طويل) ، و(عمرو قصير) : فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث ، بل توجبهما وتثبتهما فقط ، وتقضى بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك : (زيد منطلق) لأكثر من إثباته لزيد . وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك . فإذا قلت : (زيد ها هو ذا ينطلق) ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءًا فجزءًا ، وجعلته يزاوله ويزجيه" [3] .

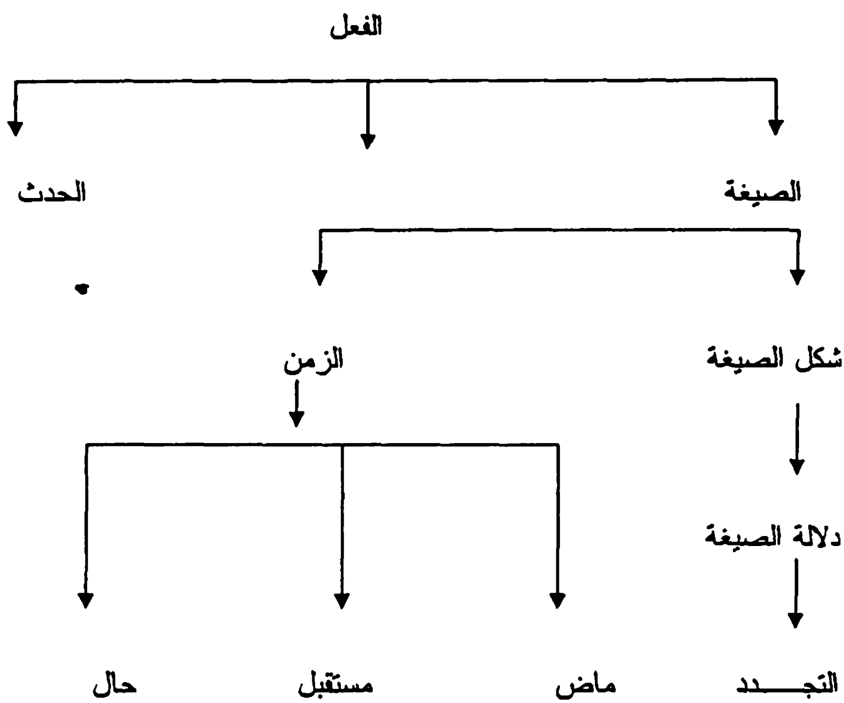
---

[1] الفوائد المشوق ص ٤٥ .

[2] ابن يعقوب المغربي ، مواهب الفتاح ٢ / ٨٨ ، ٨٩ .

[3] دلائل الإعجاز ص ١٧٤ .

وهذا الملحظ الدلالي للفعل يضيف إلى سماته عنصرًا جديدًا على النحو الآتي :



وفقًا لهذا المفهوم يمكن أن ننظر إلى السمات الصرفية لكل من الفعل والاسم في اللغة العربية على النحو الآتي :

الفعل = حدث + زمن + تجدد

الاسم = مسمى + حدث + زمن + تجدد

وبمقتضى هذه الدلالة التي تنشأ عن صيغة الفعل وما يدل عليه من مضى أو استقبال أو حال يمكننا أن نستبين علاقة المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي الذي ترد فيه

ومن ذلك نرى استعمال صيغة المضارع في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (البقرة : ٢٨) ، فجاء التعبير القرآني بلفظ (تَكْفُرُونَ) على صيغة المضارع دون الماضي ، فلم يقل : (كيف كفرتم) ليتفق مع سائر الأفعال في الآية .

ولعل ذلك يرجع إلى أن المقام الذي سيقت فيه هذه الآية يدور حول هؤلاء الذين كفروا ، وينقضون عهد الله ، ويقطعون ما أمر بوصله ، ويعيثون في الأرض فسادًا ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (البقرة : ٢٦ ــ ٢٧) ، فاقتضى هذا الحديث عن الذين كفروا أن يأتي الأسلوب القرآني بصيغة المضارع التي تدل على تجدد كفرهم : ﴿ وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ (البقرة : ٢٦) . ولو جاء بصيغة الماضي (كفرتم) لدخل هؤلاء المؤمنون في من يعرض بهم ، إذ كانوا على الكفر قبل الإيمان ، فجاء المضارع ليرفع هذا التوهم . قال أبو حيان : "وأتى بصيغة (تكفرون) مضارعًا ولم يأتِ به ماضيًا ، وإن كان الكفر قد وقع منهم ؛ لأن الذي أنكر أو تعجب منه الدوام على ذلك والمضارع هو المشعر به ، ولئلا يكون ذلك توبيخًا لمن وقع منه الكفر ثم آمن إذ لو جاء كيف كفرتم بالله لا ندرج في ذلك من كفر ثم آمن كأكثر الصحابة رضي الله عنهم" [1] .

---

[1] البحر المحيط ١ / ٢٧٥ .

وقد يؤثر التعبير القرآني استعمال صيغة المضارع في موضع واستعمال الماضي في موضع آخر شبيه بالأول ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام : ١١٧) ، فأتى بالمضارع في هذا الموضع ، ثم عدل عنه إلى الماضي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (النجم : ٣٠) ، وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (القلم : ٧) .

ولعل هذه المغايرة ترجع إلى أن السياق في الآية الأولى يدل على زمن الاستقبال في بعض جوانبه ، وهو ما نراه في أسلوب الشرط في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، ثم يدل في جانب آخر على زمن الحال ، وهو ما يكشف عنه قوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام : ١١٦) ، فناسب هنا أن يأتي الأسلوب القرآني بصيغة المضارع الدالة على الحال أو الاستقبال . قال ابن جماعة : "ولما تقدم هنا ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، وتأخر ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام : ١١٩) ناسب من يضل عن سبيله"[1].

ولعله يقصد هنا أن ما تقدم على هذا الفعل وما تأخر عنه يدل زمنه على المستقبل أو الحال . وقد ذهب الكرماني إلى تعليل آخر اعتمد فيه على ما يحدث من لبس

---

(١) كشف المعاني ص ١٦٦ .

إذا ما جئ بالماضي في هذا الموضع مع حذف الباء ، قال : "وعدل هنا إلى لفظ المستقبل ، لأن الباء لما حذفت التبس اللفظ بالإضافة ، تعالى الله عن ذلك ، فنبه بلفظ المستقبل على قطع الإضافة ، لأن أكثر ما يستعمل لفظ أفعل من يستعمله مع الماضي ، نحو (أعلم من دب ودرج) ، و(أحسن من قام وقعد) ، و(أفضل من حج واعتمر) ، فتنبه فإنه من أسرار القرآن ، لأنه لو قال أعلم من ضل بدون الباء مع الماضي لكان المعنى : أعلم الضالين" [1] .

وأما الآيتان الأخريان فقد أوضح ابن الزبير وجه المناسبة فيهما ، قائلاً : "أما آية النجم فمبنية على مطلع السورة في قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾ (النجم : ١ ــ ٢) ، فقال تعالى مشيرًا إلى حالهم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (النجم : ٣٠) ، فبرأ نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ مما نسبوا إليه ، وأثبت ذلك لهم بكناية وتعريض أوقع في نفوسهم من الإفصاح بتعيينهم .

وأما آية القلم فإنه لما تقدم فيها قوله تعالى : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ ۝٢ ﴾ (القلم : ٢) ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ ﴾ (القلم : ٥ ــ ٦) تهديدًا لهم وتعريفًا بكذبهم في قولهم حين نسبوه إلى الجنون أعقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (القلم : ٧) ، فسجلت هذه الكناية بضلالهم وكذبهم ، وتناسب هذا كله أوضح تناسب" [2] .

---

[1] أسرار التكرار في القرآن ص ١١٣ .

[2] ملاك التأويل ١ / ٤٧١ ، ٤٧٢ .

وعلى هذا النحو من المغايرة بين صيغتي المضارع والماضي ما نراه في لفظي (يرسل) و (أرسل) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ (الأعراف : ٥٧) ، فجاء التعبير القرآني في هذه الآية بصيغة المضارع دون الماضي ، ومثلها قوله عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الروم : ٤٨) ، ثم نرى الأسلوب القرآني يعدل عن هذه الصيغة إلى صيغة الماضي في آيتين أخريين ، وهما قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان : ٤٨ ــ ٤٩) ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ (فاطر : ٩) .

ويعلل الخطيب الإسكافي هذه المغايرة بين صيغة المضارع في الآيتين الأوليين وصيغة الماضي في الآيتين الأخيرتين قائلاً في تعليقه على آية الأعراف : "الآية التي في هذه السورة جاء فيها (يرسل) بلفظ المستقبل ؛ لأن قبلها ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأعراف : ٥٥ ــ ٥٦) ، فكان في ذلك بعث على الدعاء

والتضرع وتعليق الخوف والطمع بما يكون منه من الرحمة وصنوف ما رزق الله الخلق من النعمة ، فكان لفظ المستقبل ؛ أشبه بموضع الخوف والطمع للداعين وأدعى لهم إلى الدعاء .

وأما في سورة الفرقان ومجيء هذا اللفظ فيها بلفظ الماضي فلأن قبل الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ (الفرقان : ٤٥ ــ ٤٨) ، فلما عدد أنواع ما أنعم به وكان إرسال الرياح في حملته عدّه بعد ما تقدمه وأخبر منه ، عما فعله وأوجده . وأما في سورة الروم فلأن قبل الآية ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (الروم : ٤٦) ، فبنى قوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ على البناء الذي جعل عليه ما هو من آياته ، فحث على الاعتبار بما يعتاد من فعله تبارك الله سبحانه ... .

وأما في سورة الملائكة ، واختيار اللفظ الماضي فيها على المستقبل فلأن أولها ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ (فاطر : ١) بمعنى فطر وجعل ، وخاتمة هذه العشر من مبتدأ السورة ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ فلما افتتح العشر من أول السورة بالتمدح بما صنع أتبعه ما كان من جنسه مما فعل ، فكان الاختيار لفظ الماضي ها هنا كذلك" [١] .

---

[١] درة التنزيل ص ٨١ .

وقد يأتي التعبير القرآني بصيغة المضارع في مقابلة اسم الفاعل ، كما نرى في قوله تعالى على لسان نوح : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٦٢) ، فجاء هنا بصيغة المضارع (أَنصَحُ) ، وهو ما عدل عنه بعد ذلك إلى اسم الفاعل (نَاصِحٌ) في قوله تعالى : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (الأعراف : ٦٨) .

وقد ذهب الخطيب الإسكافي في تعليل هذه المغايرة مذهبًا نظر فيه إلى السياق اللغوي الذي ورد فيه كلا اللفظين رابطًا بين ما تؤديه صيغة الفعل من تجدد وصيغة اسم الفاعل من ثبات والمعنى المعجمي لكل من الضلال والسفاهة ، قال : "إن قول نوح عليه السلام جواب من ضلّل لأنه قيل له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأعراف : ٦٠) وهود عليه السلام قيل له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ (الأعراف : ٦٦) ، والضلال من صفات الفعل ، تقول ضل فهو ضال ، والسفاهة من صفات النفس ، وهى ضد الحلم ، وهو معنى ثابت يولد الخفة والعجلة المذمومتين ، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة ، فكان جواب من عيب بفعل مذموم نفيه بفعل محمود ، لا بل بأفعال تنفى ما أدعوه عليه ، وهى أن قال : لست ضالاً ولكنى رسول من رب العالمين أؤدي إليكم ما تحملت من أوامره ، وأدعوكم بإخلاص إلى صلاح أمركم ، وأعلم من سوء عاقبة ما أنتم عليه ما لا تعلمون ، فنفى الضلال بهذه الأفعال . وهود عليه السلام لما رمى بالسفاهة وهى من الخصال المذمومة البطيئة ، وليست من الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في الزمن القصير مرارًا كثيرة ، فكان نفيها بصفات ثابتة تبطلها أولى كما كان في الفعل المذموم بالفعل المحمود أولى ... فقوله ناصح أي أنا ثابت لكم على النصح صفة في النفس لا

تنتقل لكم عن النصح إلى الغش ولا تتبدل خيانة بالأمانة ، وكان جواب كل من الكلامين ما لاق به واقتضاه,, [1] .

وذهب الفخر الرازي في تعليل هذه المغايرة مذهبًا آخر ، لم ينظر فيه ــ كما فعل الإسكافي ــ إلى السياق اللغوي ، بل توجهت نظرته إلى سياق الحال معتمدًا فيها ــ ولاسيما في الموضع الأول ــ على ما حكاه النص القرآني عن نوح في موضع آخر ، قال : "إن القوم كانوا يبالغون في السفاهة على نوح عليه السلام ، ثم إنه في اليوم الثاني كان يعود إليهم ويدعوهم إلى الله ، وقد ذكر الله تعالى عنه ذلك فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ ﴾ (نوح : ٥) فلما كان من عادة نوح عليه السلام العود إلى تجديد تلك الدعوة في كل يوم وفى كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل ، فقال : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ ، وأما هود عليه السلام فقوله : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ (يدل على كونه مثبتًا في تلك النصيحة مستقرًا فيها ، وأنه ليس فيها إعلام بأنه سيعود إلى ذكرها حالاً فحالاً ويومًا فيومًا,, [2] .

وكلا الرأيين ــ لا ريب ــ له قيمته في تعليل تلك المغايرة ، إذ يكمل كل منهما الآخر ، فتحليل النصوص كي يكون تحليلاً متكاملاً ينبغي أن يستعين بالسياقين اللغوي والحالي ، وهو ما نصل إليه في ذلك الموضع إذا ما أخذنا برأيي الإسكافي والرازي معًا .

---

[1] درة التنـــزيل ص ٨٤ .

[2] مفاتيح الغيب ١٤ / ١٢٧ .

ثانيًا : صيغ الأفعال من حيث التجرد والزيادة

يختلف ورود الأفعال في القرآن الكريم باختلاف صيغها من حيث التجرد والزيادة تبعًا لمقتضيات السياق . والمعروف أن كل لفظ يختلف معناه باختلاف ما يطرأ عليه من زيادة ، فزيادة المبنى لابد أن يصحبها زيادة في المعنى ، فصيغة (فَعَلَ) لها دلالة تختلف عن (أفْعَلَ) أو (فَعَّلَ) أو (فَاعَلَ) إلى آخر ذلك .

كما أن المعنى نفسه يختلف باختلاف الحرف الزائد ، إذ كل حرف له دلالته الخاصة به ، وإن اتفقت الصيغ في الأصل فـ (افتعل) يختلف في دلالته عن (انفعل) ، وهما يختلفان عن (تفاعل) إلى غير ذلك . فكل صيغة تختلف معناها بقدر ما يضاف إلى البنية من زيادة أو ما يطرأ عليها من تغير .

ومن تلك الأوزان المزيدة التي يكثر دورانها في القرآن وزنا (فعّل) و(افعل) ، إذ يأتي عليهما في مواضع متشابهة بعض الأفعال ذات الأصل الواحد أو المعنى المشترك ، فيأتي أحدهما في موضع والثاني في موضع آخر ، بحسب ما يقتضيه السياق ، ومن ذلك ورود الأول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (البقرة : ٤٩) ، فقال هنا (نَجَّيْنَٰكُم) ، ثم عدل الأسلوب القرآني عنه إلى الثاني عند الحديث عن الموقف نفسه في موضع آخر ، فقال عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ (إبراهيم : ٦) .

وإنما يرجع ذلك إلى أن التضعيف في صيغة (فعّل) يدل في الغالب على الكثرة . قال الرضي : ''الأغلب في فعّل أن يكون لتكثير فاعله أصل الفعل ، كما أن الأكثر في أفعل النقل ، تقول : ذَبَحتُ الشاة ، ولا تقول ذبّحتها ، وأغلقت الباب مرة ، ولا تقول : غَلّقت ، لعدم تصور معنى التكثير في مثله . بل تقول : ذبّحت الغنم ، وغلّقت الأبواب ، وقولك : جرّحته : أي أكثرت جراحاته,, [1] .

وهذه الكثرة التي توحي بها الصيغة تتفق وما يدل عليه سياق الآية الأولى من كثرة النعم التي أسبغها الله على عباده من بني إسرائيل . قال ابن الزبير : ''فذكر نجاتهم من آل فرعون وفرق البحر بهم ونجاتهم وهلاك عدوهم بالغرق ، ثم ذكر عفوه عنهم في عبادة العجل وتوبته عليهم ، وبعثهم من موتهم عند طلبهم الرؤية ، وتظليلهم بالغمام ، إلى ما ذكر تعالى بعد هذا . فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء ذكروا بها ليزدجروا عن المخالفة والعناد ناسبه التضعيف لإثباته بالكثرة ، ولو قيل هنا وإذ أنجيناكم لما أنبأ بذلك ولا ناسب المقصود مما ذكر,, [2] .

يضاف إلى هذا أن الخطاب هنا موجه إلى بني إسرائيل من الله مباشرة لا من موسى عليه السلام ، وعندما يعدد الله نعمه بنفسه فإنها تتصف بالكثرة ؛ لأنه هو العالم بها ، إذ قد يخفى بعضها على غيره أو ينساه .

أما السياق في الآية الثانية فلم يكن الخطاب فيه من الله، بل كان من موسى ، وتعداده لنعم الله ليس كتعداد الله نفسه ، إذ قد يخفى عليه بعضها . كذلك فإن السياق هنا لم يكن فيه من النعم ما عدده الله في سورة البقرة ، بل كان فيه ذكر للنقم بجانب النعم ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى في أمره لموسى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ (إبراهيم : ٥) ، وأيامه هنا ــ كما

---

[1] شرح شافية ابن الحاجب ١ / ٩٢ .

[2] ملاك التأويل ١ / ١٩٩ .

يفسرها أبو حيان نقلاً عن ابن عباس ــ نعمة ونقمة[1] ؛ لذلك كان من المناسب أن يأتي الأسلوب القرآني في هذا الموضع بالصيغة التي تخلو من التضعيف حتى تتفق مع خلو السياق من كثرة النعم ، فكان العدول إلى (أنجاكم) الذي زيدت فيه الهمزة للدلالــة على مجــرد النقل والتعدية ، وهما من المعاني التي تزاد للدلالة عليهما ، كما يذكر المالقي[2] .

وقد يستعمل التعبير القرآني بعض الأفعال ذات الأصل المشترك مترددة بين التجرد والزيادة ، ومن ذلك استعماله للفعل المزيد بالهمزة والتاء (اتقوا) في قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ (البقرة : ٢٤) ، ثم عدل عنه إلى أصله المجرد (قوا) في موضع آخر في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ (التحريم : ٦) .

ولعل هذه المغايرة بين الزيادة في الموضع الأول والتجرد في الثاني ترجع إلى أن السياق في الآية الأولى موجه إلى الناس عامةً ممن كفر بالله وأشرك به وارتاب فيما نزله على رسوله . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة : ٢٢ ــ ٢٣) ، وهؤلاء الذين يرتابون في القرآن ينبغي لهم لكي ينجو من تلك النار التي توعدهم الله بها أن يذروا تلك الريبة ، ويؤمنوا به ، وهو أمر ــ لا ريب ــ ليس باليسير عليهم ، إذ يحتاج إلى اجتهاد كبير منهم كي يصلوا إليه ؛ لذلك آثر الأسلوب القرآني أن يأتي بالفعل (اتقوا) في هذا الموضع ؛ لأن هذه الصيغة التي جاء عليها تدل في بعض معانيها ــ كما يذكر الرضي ــ على ''الاجتهاد والاضطراب في تحصيل أصل الفعل

---

[1] البحر المحيط ٥ / ٣٩٥ .

[2] رصف المباني ص ٥٠ .

، فمعنى (كَسَبَ) أصاب ، ومعنى (اكتسب) اجتهد في تحصيل الإصابة بأن زاول أسبابها ؛ فلهذا قال الله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، أي : اجتهدت في الخير أو لا فإنه لا يضيع ﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) . أي : لا تؤاخذ إلا بما اجتهدت في تحصيله وبالغت فيه من المعاصي„[1] .

وأما السياق في الموضع الثاني فلم يحتج إلى ذلك الاجتهاد ؛ إذ هو موجه إلى المؤمنين ، وهؤلاء لا ريبة لديهم ، فلا حاجة إلى ذلك الجهد الذي يتطلبه الفريق الأول ؛ لترك الريبة والانتقال من معتقد إلى آخر ، إذ هم مؤمنون بالفعل ، فناسب أن يأتي التعبير القرآني بالفعل المجرد ؛ ليتفق في دلالته على عدم التكلف مع عدم احتياج هؤلاء المؤمنين لهذا الجهد الكبير للنجاة من النار .

وعلى هذا النحو من التجرد والزيادة يأتي استعمال القرآن لبعض الأفعال الأخرى ، نحو (تبع) و(اتبع) ، إذ ورد الأول منهما في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (البقرة : ٣٨) ، ثم عدل عنه الأسلوب القرآني إلى صيغة المزيد في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (طه : ١٢٣) ، قال ابن جماعة معللاً تلك المغايرة : "يحتمل والله أعلم أن : فَعِل (التي جاء على وزنها : تَبِعَ) لا يلزم منه مخالفة الفعل قبله . وافتعل (التي جاء على وزنها : اتَّبَعَ) يشعر بتجديد الفعل . وبيان قصة آدم هنا لفعله ، فجيء بـ (من تبع

[1] شرح شافية ابن الحاجب ١ / ١١٠ .

هداي) ، وفي طه جاء بعد قوله : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه : ١١٥) ، و﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (طه : ١٢١) ، فناسب من اتبع ، أي : جدد قصد الاتباع,, [١] .

وما ذهب إليه هنا صاحب كشف المعاني من تعليل يبدو غير دقيق ، إذ لا علاقة بين صيغة (فَعِل) ومخالفتها أو اتفاقها لما قبلها ، كذلك فإن صيغة (افتعل) ليس من معانيها الدلالة على تجدد الفعل ــ كما يرى ــ ولو نظرنا إلى ما تدل عليه هذه الصيغة من تكلف ومعالجة واجتهاد وخلو صيغة المجرد من ذلك لكان أقرب إلى إبراز وجه المناسبة بين كلتا الصيغتين وسياقهم اللغوي . فالسياق في الموضع الأول لم تذكر فيه المعصية صراحة ، بل أشير إليها في قوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (البقرة : ٣٦) ، وفي هذا إشارة إلى قرب آدم وزوجه من الله يؤكد ذلك إسناد فعل القول إلى ضمير المتكلم الدال على التعظيم والحضور ، وهو ما يوحي باستحضارهما العظمة لله ، وفي ذلك القرب عون كبير لهما على مجاهدة وساوس الشيطان وإغوائه . فالانقياد إلى هدى الله في هذه الحالة أمر يسير لا يحتاج إلى كبير جهد لتحقيقه ، ومن هنا كان التعبير بصيغة المجرد في هذا الموضع أنسب للسياق .

وأما السياق في الموضع الثاني فقد أشار إلى نسيان آدم وانتفاء عزمه وغوايته ومعصيته ، وهذه أمور لا تحدث مع استحضار عظمة الله ؛ لذلك كان إسناد فعل القول في هذا المقام إلى الضمير الدال على الغيبة ، ومن هنا كان اتباع هدى الله مع تلك المعصية المصرح بها في هذا الموضع يحتاج إلى جهد كبير يستطيع به الإنسان أن يتغلب على وسوسة الشيطان ، فكان من المناسب في هذا الموضع أن يأتي التعبير القرآني بصيغة المزيد الدالة على المعالجة والاجتهاد ؛ لتتفق وهذا المعنى .

---

[١] كشف المعاني ص ٩٣ .

المبحث الثالث

المناسبة بين حروف المعاني والسياق اللغوي

تعد المعاني التي تؤديها تلك الحروف في الكلام معاني وظيفية . ولعل هذا المعنى هو ما يقصده النحاة عند تعريفهم للحرف ، بأنه لا يدل على معنى مفرد ، وإنما يدل على معنى في غيره [1] . فالمعنى الذي تؤديه لا يستفاد من مادتها ، كمعظم الألفاظ ، وإنما يؤخذ من بنيتها ، كالمعنى المستفاد من الضمائر والموصولات وأسماء الإشارة والصيغ ... وغير ذلك .

ونظرًا لأهمية هذه الحروف داخل التركيب ، إذ قد يتحدد بها معناه ، أو يتحدد من خلالها المواقع الإعرابية لبعض الألفاظ داخل هذا التركيب ، فقد اهتم النحاة بإبراز معانيها وتحديدها ، إذ قد يكون للحرف الواحد أكثر من معنى لا يتحدد إلا بوضعه في سياق معين ، وأفردوا لها أبوابًا خاصة في كتبهم ، كابن هشام الذي أفرد لها ما يزيد على نصف كتابه (مغني اللبيب) ، بل أفرد لها بعضهم كتبًا خاصة بها هي وما شاكلها من الأسماء والأفعال ، كالهروي في الأزهية والمالقي في رصف المباني ، والمرادي في الجنى الداني . وفيما يلي صور لبعض تلك الحروف ومناسبتها لسياقها اللغوي في القرآن .

(١) حروف العطف

تتعدد المعاني التي تؤديها هذه الحروف في السياق ، بالإضافة إلى معناها الأصلي وهو الدلالة على العطف أو ربط أجزاء الكلام بعضها ببعض . ونرى التعبير القرآني يتناول تلك المعاني بدقة بالغة ، فلا يأتي بالحرف إلا في موضعه اللائق به ، وإن بدا في بعض الأحيان أنه يمكن استبدال غيره به في الظاهر ، غير أننا إذا تدبرنا المعنى نجد أن هذا غير ممكن .

---

[1] ابن عصفور : شرح الجمل ١ / ٩٠ .

ومن بديع استعمال القرآن لتلك الحروف ما نراه من التردد بين الواو والفاء في قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص : ٤ ــ ٥) فجاء الأسلوب القرآني هنا بالواو التي تدل على الاشتراك في الحكم ومطلق الجمع [١] ثم غاير في الآية الثانية ، فجاء بالفاء التي تدل على الترتيب بلا مهلة [٢] في قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ (ق : ٢ ــ ٣) . قال الكرماني معللاً تلك المغايرة في تعليقه على آية ص : ''لأن اتصاله بما قبله في هذه السورة معنوي ، وهو أنهم عجبوا من مجيء المنذر وقالوا : هذا المنذر ساحر كذاب ، واتصاله في (ق) معنوي ولفظي ، وهو أنهم عجبوا فقالوا : ﴿ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فراعى المطابقة والعجز والصدر ، وختم بما بدأ به,, [٣] .

وهو تعليل لم ينظر إلى مدلول السياق في كلتا الآيتين ، والمتأمل فيه يرى أنه في الموضع الأول سياق إنكار وتعجب من جعل الآلهة إلـــهًا واحدًا ، وهو أمر غير متصور حدوثه لديهم ، وكان حرصهم على نفيه حرصًا كبيرًا ، إلى الدرجة التي جعلتهم ينطلقون داعين قومهم أن يثبتوا على عبادة تلك الآلهة ، قال تعالى : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ

---

[١] المرادي : الجنى الداني ص ١٥٨ .

[٢] الرماني : معاني الحروف ص ٤٣ .

[٣] أسرار التكرار في القرآن ص ٢١٦ .

﴿٧﴾ (ص : ٦ ــ ٧) . وسعيهم هذا ودعوتهم لقومهم يدلان على حرصهم البالغ على أن يظلوا مجتمعين متمسكين بتلك العبادة دون تغيير ، أو يشذ أحد منهم عنها ، فكان الموضع للواو التي تدل على مطلق الجمع والاشتراك في الحكم دون الفاء .

أما السياق في الموضع الثاني فكان سياق إنكار وتعجب من البعث بعد الموت ، فلم يصدقوا حدوث ذلك ، بل سارعوا إلى تكذيبه واستبعاده ، حتى إنهم في إنكارهم وتعجبهم لم يذكروا البعث ، بل سارعوا إلى استبعاده مباشرة ، فقالوا : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾ ، وكان من المفترض أن يقولوا : (أء ذا متنا وكنا ترابًا نبعث من جديد) ، وفي هذا العدول عن ذكره إلى الإشارة إليه واستبعاده أبلغ دليل على مسارعتهم بتكذيبه واستبعاد حدوثه ، فكان الموضع للفاء التي تدل على التعقيب دون مهلة زمنية من دون الواو .

ومن حسن استعمال التعبير القرآني لتلك الحروف كذلك ما ورد من استعمال الفاء في قوله تعالى : ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (الكهف : ٥٦ ــ ٥٧) ، فقال عز وجل (فَأَعْرَضَ) ، ثم عدل عن ذلك إلى (ثُمَّ) وهو حرف يدل ــ كما يذكر ابن هشام ــ على التشريك والترتيب والمهلة [1]، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ (السجدة : ٢٢) .

---

[1] مغني اللبيب : ١ / ١٣٥ .

ولعل هذه المغايرة ترجع إلى أن السياق في الآية الأولى يدور حول الكافرين الذين يجادلون في آيات الله بغير حق ، ولا هم لهم إلا أن يدحضوا تلك الآيات ، فالاستعداد للإعراض عنها قائم لديهم ، يسارعون إليه بمجرد سماعها ، فكان الموضع فيها للفاء دون الواو التي توحي بسرعة إعراضهم ، وهو ما يشير إليه ابن جماعة بقوله : ''فلما تقدم في الكهف ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ ناسب ذلك (الفاء) المؤذنة بالتعقيب بالإعراض منهم عند مجادلتهم ودحضهم الحق,,[1] .

وأما السياق في الموضع الثاني فكان يدور حول هؤلاء الذين فسقوا وما آل إليه حالهم في الآخرة من دخولهم النار وذوقهم العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا . يقول تعالى :﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝ ﴾ (السجدة : ٢٠) ، وهذا العذاب قد أعد لهم في الآخرة نتيجة إعراضهم وتكذيبهم في الدنيا ، وبين هذا وذاك مهلة زمنية وتراخٍ ؛ لذلك كان من المناسب أن يأتي التعبير القرآني في هذا الموضع بالحرف الدال على المهلة والتراخي .

وقد أحسن الكرماني تعليل هذه المغايرة ، إذ يقول في تعليقه على آية الكهف : ''وما في هذه السورة في الأحياء من الكفار ، إذ ذُكّروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ، ونسوا ذنوبهم وهم بعدُ متوقع منهم أن يؤمنوا ، وما في السجدة في الأموات من الكفار ، بدليل قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (السجدة : ١٢) ،

---

[1] كشف المعاني : ص ٢٤١ .

أي : ذكروا مرة بعد أخرى ، وزمانًا بعد زمان ، ثم أعرضوا عنها بالموت ، فلم يؤمنوا ، وانقطع رجاء إيمانهم" [١] .

(٢) حروف الجر

تتعدد معاني هذه الحروف في اللغة العربية ، ولكل واحد منها معنى أساسي . وقد يكون للحرف الواحد أكثر من معنى لا يتحدد إلا من خلال وضعه في سياق معين ، واختيار التعبير القرآني لأحدها ليأتي به في موضع معين لا يكون إلا بدقة بالغة ، بحيث لا يمكن أن يستبدل به غيره ، وإن تُوهِّم ذلك في بعض المواضع .

ومن حسن استعمال هذه الحروف ما ورد في قوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ (البقرة :١٣٦) ، فجاء الأسلوب القرآني في هذا الموضع بـ (إِلَى) الذي يدل على انتهاء الغاية [٢] ، ثم غاير في موضع آخر ، فجاء بـ (عَلَى) الذي يدل على الاستعلاء [٣] في قوله تعالى : ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ ﴾ (آل عمران : ٨٤) .

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) الرماني : معاني الحروف ص ١١٥ .

(٣) ابن هشام : مغني اللبيب ١ / ١٦٣ .

وفي تعليل تلك المغايرة يقول الكرماني في تعليقه على آية البقرة : "(إِلَى) للانتهاء إلى الشيء من أي جهة كانت ، والكتب منتهية إلى الأنبياء والى أممهم جميعًا . والخطاب في هذه السورة لهذه الأمة ، لقوله تعالى : (قُولُوا) فلم يصح إلا (إِلَى) و(عَلَى) مختص بجانب الفوق ، وهو مختص بالأنبياء ؛ لأن الكتب منزلة عليهم ، لا شركة للأمة فيها . وفي آل عمران (قُل) وهو مختص بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون أمته ، فكان الذي يليق به (عَلَى)" [1] .

وذهب الزمخشري إلى أن تلك المغايرة إنما تكون "لوجود المعنيين جميعًا ، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر" [2] . أما الرأي السابق فقد اعترض عليه واصفًا إياه بالتعسف ، يقول : "ومن قال إنما قيل (علينا) لقوله (قل) و(إلينا) لقوله (قولوا) تفرقة بين الرسل والمؤمنين ؛ لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهاء ، فقد تعسف ، ألا ترى إلى قوله ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (النساء : ٦٠) و﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (الزمر:٢)، وإلى قوله : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (آل عمران : ٧٢)" [3].

غير أن ابن الزبير كان له رأي أكثر دقة مما ذهب إليه الزمخشري ، يتضمن الرد على ما ذهب إليه ، ويتفق فيه مع الرأي الأول ، إذ يقول : "وإذا كان الأمر للجميع وجرى على حقيقته فإنما أنزل إليهم ؛ لأن المنــزل عليه حقيقة هو الرسول لا المؤمنون ،

---

(1) أسرار التكرار في القرآن ص ٧٩ .

(2) الكشاف ١ / ٣٨١ .

(3) السابق ١ / ٣٨١ .

وإذا قلنا أنزل على المؤمنين فمجاز ، كما أنا إذا قلنا : أنزل إلى الرسول لم يقع موقع : أنزل عليه وإن كان كل منهما جائزًا ، إلا أنَّا إذا أخذنا الكلام على أن لا تضمين ، ولا تقدير فإنما نقول : أنزل على الرسول ، وأنزل إلى المؤمنين مع فصاحة أنزل إلى الرسول وروده في القرآن .فلما قال في سورة البقرة : (قُولُوا) وأمر الجميع (ناسبه إلينا) ، كما ورد في قوله تعالى :﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾ (العنكبوت : ٤٦) حين خوطب الجميع ، ولما قال في آل عمران : (قُلۡ) وكان الخطاب للرسول ناسبه : (عَلَيۡنَا) لأنه أنزل عليه ، فجاء كلٌّ على ما يجب"[1] .

وعلى هذا النحو من بديع استعمال تلك الحروف ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝ ﴾ (الفرقان : ٦٣ ـ ٦٤) ، فجاء الأسلوب القرآني في هذا الموضع بالحرف الدال على الاستعلاء (عَلَى) معديًا به الفعل ، ثم غاير في موضع آخر ، فعد الفعل بـ (فِي) ، وهو حرف يدل في أصل معناه على الظرفية[2] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝ ﴾ (لقمان : ١٨) .

---

(١) ملاك التأويل ١ / ٢٣٩ .

(٢) المرادي : الجنى الداني ص ٢٥٠ .

وإنما يرجع ذلك إلى أن السياق في الموضع الأول يتحدث عن عباد الله الذين لا يأتون من الأعمال إلا الصالحات ، فبالإضافة إلى ما ذكرته هاتان الآيتان من صفاتهم ، فإن الآيات بعد ذلك تعدد صفات أخرى لهم تتصف جميعها بالصلاح والتقوى ، فهم لا يزنون ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كرامًا ، إلى غير ذلك من صفات الخير التي يتمتعون بها ، وهم بتلك الصفات لا يركنون إلى الدنيا ، ويطمئنون إليها ، ويجعلونها أكبر همهم ، بل الآخرة عندهم الهدف المنشود . ومن هنا كان التعبير القرآني بالحرف (عَلَى) الذي يدل على استعلائهم على الدنيا وعدم ركونهم إليها واستقرارهم فيها ، مما يتفق مع صفاتهم التي أبرزتها الآيات ، ولو جاء بالحرف الدال على الظرفية لدل ، بما يوحي به من استقرار وتمكن عكس ذلك .

أما السياق في الموضع الثاني فهو سياق نصح من لقمان لابنه ، فكان نهيه له عن المشي في الأرض مختالاً مرحًا مطمئنًا إلى الدنيا ومستقرًا فيها ، ذلك الاستقرار الذي يوحي به الحرف الدال على الظرفية ، ولو جاء هنا الأسلوب القرآني بالحرف الدال على الاستعلاء لما كان له فائدة ، إذ يدل بطبيعته على الاستعلاء على الدنيا وعدم الركون إليها والاطمئنان لها ، ومن يتصف بهذا لا يحتاج إلى نصح ، ومن ثم ناسب أن يأتي بـ (فِي) دون (عَلَى) . قال الزركشي في إشارة منه إلى هذا المعنى : "وذلك لما وصف العباد بيّن أنهم لم يوطنوا أنفسهم في الدنيا ؛ وإنما هم عليها مستقرون . ولما أرشده ونهاه عن فعل التبختر ، قال: ولا تمش فيها مرحًا ، بل امشِ عليها هونًا"[1] .

---

[1] البرهان في علوم القرآن ٤ / ٢٠٠ ، ٢٠١ .

وعلى هذا النحو من الحسن ما نراه من استعمال الباء ، وهو حرف دال على الإلصاق[1] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٣٤) ، ثم نرى التعبير القرآني يعدل عن هذا الحرف إلى (مِن) الدال في أحد معانيه على البعضية [2] ، وذلك في قوله تعلى : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٤٠) .

وفي تعليل تلك المغايرة يقول الخطيب الإسكافي : ''إن الأول تعلق بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة : ٢٣٤) ، أي لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله ، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة ، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور ، وهو فعله وشرعه الذي شرعه وبعث عليه عباده ، والثاني المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود ، فالمعروف ههنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه ، ولهذا المعنى خص بلفظة (مِن) ونكر ، فجاء المعروف في الأول معرف اللفظ لما أشرت إليه ، وهو أن يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك ، وهو الوجه الذي دل الله عليه وأبانه ، فعرف إذ كان معرفة

---

[1] ابن هشام : مغني اللبيب ١ / ١١٨ .

[2] المرادي : الجنى الداني ص ٣٠٩ .

مقصودًا نحوه ، وكذلك خص بالباء وهي للإلصاق ، والثاني كان وجهًا من الوجوه التي لهن أن يأتينه ، فأخرج مخرج النكرة لذلك,,[1] .

فالمعروف على هذا لما كان محددًا واضحًا جاء الأسلوب القرآني معه بحرف الإلصاق الذي يدل على القرب من الشيء إلى حد الإلصاق به ، نحو : مررت بزيدٍ ، وقدته بعصاه ، وجذبته بشعره . قال المالقي : ''معنى ذلك كله أنك ألصقت المرور بزيدٍ والقود بالعصا والجذب بالشعر ، ومنه : وصلت هذا بهذا ، أي ألصقته به,,[2] . وهذه الدلالة هي الأقرب في المعنى لما هو واضح ومحدد ؛ لأنه لا يكون كذلك إلا بالقرب منه والالتصاق به . وأما المعروف في الآية الثانية فيدل على وجه من وجوه متعددة ؛ لذا ناسب أن يأتي معه الحرف الدال على التبعيض .

(٣) حروف النفي

للنفي في اللغة العربية حروف عديدة ، تختلف في دلالتها باختلاف بنيتها ، فمنها ما يدل على نفي الماضي ، ومنها ما يدل على نفي الحاضر ، ومنها ما يدل على نفي المستقبل ، وهناك ما هو مشترك يمكن أن يأتي لنفي أي زمن من هذه الأزمنة .

ومما حسُنَ فيه استعمال تلك الحروف في القرآن الكريم ما ورد في قوله تعالى :
﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (البقرة : ٩٤ ــ ٩٥) ، فجاءَ التعبير القرآني هنا بــ (لَن) الذي ينفي الفعل المضارع ، ويخلصه

---

(١) درة التنــزيل ص ٢٩ .

(٢) رصف المباني ص ١٤٣ .

للمستقبل [١] ، ثم عدل عنه إلى (لا) الذي قد يكون لنفي الحال ، كما يذهب الأخفش والمبرد [٢] أو لنفي المستقبل ، كما يرى الزمخشري [٣] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الجمعة : ٦ ــ ٧) .

ويرجع الإسكافي سر تلك المغايرة إلى أن الآية الأولى ''لما كانت مفتتحة بشرط علقت صحته بتمني الموت ، ووقع هذا الشرط غاية ما يطلبه المطيع ولا مطلوب وراءه على ما ادعوه لأنفسهم ، وهو أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون غيرهم ، ووجب أن يكون ما يبطل تمني الموت المؤدي إلى بطلان شرطهم أقوى ما يستعمل في بابه وأبلغه في معنى ما ينتفي شرطهم به ، وكان ذلك بلفظة (لن) التي هي للقطع والبتات ، ثم أكد بقوله (أبدًا) ليبطل تمني الموت الذي يبطل دعواهم بغاية ما يبطل به مثله . ألا ترى أنه ليس بعد حصول الدار الآخرة خالصة لأمة من الأمم مقترح لمقترح ولا مطلب لمطلب . وليس كذلك الشرط الذي علق به تمني الموت في سورة الجمعة لأنه قال : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ ﴾ (الجمعة : ٦) ؛ وليس زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس المطلوب الذي لا مطلوب وراءه . لأنهم يطلبون بعد ذلك إذا صح لهم هذا الوصف دار الثواب ، فلما كان الشرط في هذا المكان قاصرًا عن الشرط في المكان الأول ولم تكن الدعوى دعوى غاية المطلوب ، لم يحتج في نفيه وإبطاله إلى ما هو غاية في بابه ، فوقع الاقتصار على ما لا يتمنونه وليس في لفظه معنى

---

[١] المرادي : الجنى الداني ص ٢٧٠ .

[٢] المرادي : الجنى الداني ص ٢٩٦ .

[٣] ابن يعيش : شرح المفصل ٨ / ١٠٨ .

التأبيد ، وإنما حصل ذلك فيه بما قارنه من قوله أبدًا ، فكان الأول أوكد وأبلغ ؛ لأن لفظ الاسم والفعل للتأبيد فافترق الموضعان،، [١] .

والإسكافي بهذا التعليل ينظر إلى مدلول السياق في كلتا الآيتين موضحًا ما في الأول من مبالغة تقتضي في نفيها الحرف الدال على ذلك وخلو الثاني من تلك المبالغة ، لذا ناسبه عند نفيه الحرف الذي يخلو منها . وإذا كان صاحب الدرة يرى أن المبالغة تتحقق في ادعاء هؤلاء الكافرين أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وحصول ذلك لأمة من الأمم ليس بعده مطلب ، فإن صاحب كشف المعاني يضيف وجهًا آخر تتحقق به المبالغة ؛ وهو ''أن آية البقرة وردت بعد ما تقدم منهم من الكفر والعصيان وقتل الأنبياء : فناسب حرف المبالغة في النفي لتمنيهم الموت لما يعلمون ما لهم بعده من العذاب،، [٢] . ثم يأتي صاحب الطراز ليضيف وجهًا ثالثًا من أوجه تلك المبالغة اعتمد فيه على العناصر اللغوية التي استعملها التعبير القرآني في ذلك الموضع ، إذ ''أكده ، بـــ (لكم) ، على جهة الملك والاختصاص من بين سائر الناس ، ووصف الدار بكونها آخرة مبالغة في أمرها وإيضاحًا لشأنها ، وقرره بقوله (عِندَ ٱللَّهِ) إيضاحًا للأمر أيضًا ، ثم قال (خَالِصَة) يعني مختصين بها دون غيركم ، وهكذا قوله (مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ) فيه نهاية الاختصاص ، فلما حصل تأكيد هذا الخطاب بهذه الأنواع من التوكيد ، أتى بالنفي بـــ (لن) لما بالغ في إتيانه بالغ في نفيه بـــ (لن) وهذا كله دال على كونها موضوعة للمبالغة،، [٣] .

وهذه التعليلات جميعًا لها قيمتها ، إذ تبرز إبرازًا دقيقًا وجه المناسبة بين كلا الحرفين وسياقهما اللغوي ، ولكننا نجد ابن الزبير ينظر إلى الأمر نظرة مختلفة بعض

---

[١] درة التنـــزيل ص ١٣ .

[٢] ابن جماعة : كشف المعاني ص ١٠٤ .

[٣] العلوي : الطراز ص ٣٠٢ .

الشيء لا تقل في قيمتها عن النظرة السابقة يعتمد فيها على دلالة (لن) على نفي المستقبل ودلالة (لا) على نفي الحال واتفاق ذلك مع السياق في كلا الموضعين ، فيرى ''أن آية البقرة لما كان الوارد فيها جوابًا لحكم أخراوي يستقبل وليس في الحال منه إلا زعم مجرد واعتقاد أن الأمر يكون كذلك ناسبه النفي بما وضعه من الحروف لنفي المستقبل ؛ لأن لن يفعل جواب سيفعل ، ولما كان الوارد في سورة الجمعة جوابًا لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، وذلك حكم دنياوي ووصف حالي لا استقبال فيه ناسبه النفي بـ (لا) التي لنفي ما يأتي من غير تخصيص إلا بغير الماضي ، وقد تتعاقب مع (مَا) التي لنفي الحال,,[1] .

وعلى هذا النحو من بديع استعمال تلك الحروف ما ورد في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ ﴾ (مريم : ٢٠) ، فأتى الأسلوب القرآني في هذا الموضع بـ (لَم) الذي يأتي لنفي المضارع ويقلبه ماضيًا [2] ، ثم عدل عنه إلى (مَا) التي تأتي للنفي ، فإذا دخلت على الماضي بقي على مضيه ، وإذا دخلت على المضارع خلصته للحال عند الأكثرين [3] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ ﴾ (مريم : ٢٨) .

ويفرق الزركشي بين هذين الموضعين على أساس ''أن النفي بـ (مَا) كقولك (ما قام زيد) معناه أن وقت الإخبار هذا الوقت ؛ وهو إلى الآن ما فعل ، فيكون النفي في

---

[1] ملاك التأويل ١ / ٢٢٧ .

[2] ابن هشام : مغني اللبيب ١ / ٣٠٥ .

[3] المرادي : الجنى الداني ٣٢٩ .

الماضي ، وأن النفي بـــ (لَم) كقولك : (لم يقم) تجعل المخبر نفسه بالعرض متكلمًا في الأزمنة الماضية ، ولأنه يقول في كل زمان في تلك الأزمنة : أنا أخبرك بأنه لم يقم,,[1] .قال معللاً تلك المغايرة على أساس هذا الفرق : ''فإن مريم كأنها قالت : إني تفكرت في أزمنة وجودي ومثلتها في عيني : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ فهو أبلغ في التنـــزيه ؛ فلا يظن ظان أنها تنفي نفيًا كليًا ؛ مع أنها نسيت بعض أزمنة وجودها ؛ وأما هم لما قالوا : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ما كان يمكنهم أن يقولوا : نحن تصورنا كل زمانٍ من أزمنة وجود أمك ، وننفي عن كلِ واحد منها كونها بغيًا ؛ لأن أحدًا لا يلازم غيره ، فيعلم كل زمان من أزمنة وجوده ، وإنما قالوا لها : إن أمك اشتهرت عند الكل ، حتى حكموا عليها حكمًا واحدًا عامًا أنها ما بغت في شيء من أزمنة وجودها,,[2] .

وهذا الفرق الذي يشير إليه هنا بين الحرفين في مدلولهما على زمن النفي لا يبدوا دقيقًا ، فتعريف النحاة لهما لا يتعدى ما تقدم ذكره . ولعلنا إذا نظرنا إليهما من خلال بنيتهما وما لها من دلالة لاتجهنا اتجاهًا مختلفًا في الكشف عن العلاقة بينهما وبين سياقهما اللغوي ، فالأول منهما مقطع صوتي مغلق مكون من ساكنين يتوسطهما حركة قصيرة ، يتميز بانحباس الصوت وتوقفه عند الانتهاء من نطقه ، فلا تنتقل أعضاء النطق منه إلى غيره إلا بعد التوقف وقفة خفيفة . وأما الثاني فهو مقطع صوتي مفتوح مكون من ساكن + حركة طويلة[3] ، يتميز بانفراج الشفتين عند الانتهاء من نطقه .

---

(1) البرهان في علوم القرآن ٢ / ٣٩٤ .

(2) السابق ٢ / ٣٩٥ .

(3) تنظر في تصنيف تلك المقاطع : أصوات اللغة . د . عبد الرحمن أيوب ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

وهذا الإغلاق الذي يتميز به المقطع الأول والوقوف عليه وقفة خفيفة كلاهما فيه إيحاء بالقطع والحسم . والكلام في الآية الأولى يأتي على لسان مريم ، إذ تنفي نفيًا قاطعًا مصحوبًا بالتعجب ثقة منها في نفسها أنه قد مسها بشر أو كانت بغيًا ، حتى يكون لها ذلك الغلام ، فكان التعبير بالحرف الذي فيه دلالة على القطع هو الأنسب في هذا الموضع .

وأما السياق في الموضع الثاني فكان النفي فيه على لسان قومها ، ولم يكن نفيهم نفيًا قاطعًا أن تكون مريم قد اقترفت هذا الإثم ، بل كان نفيهم تعجبًا واندهاشًا من أن تكون قد فعلت هذه الفعلة مع انتمائها لهذا البيت العريق الذي لم يعرف عن أهله إلا الصلاح والتقوى ، فجاء الأسلوب القرآني هنا بحرف النفي (مَا) الذي يتفق مع تلك الحالة ، من خلال ما يتصف به من انفراج الشفتين عند نطق الصائت الطويل الذي ينتهي به ، وهو انفراج نراه مصاحبًا للإنسان إذا ما كان في حالة ذهول واندهاش .

(٤) حروف متفرقة

من تلك الحروف ما نراه من استعمال التعبير القرآني لـــ (مَا) الدالة على النفي أو (إِنْ) المكسورة المخففة التي تدل على المعنى نفسه مقترنة بالحرف الدال على الاستثناء (إِلا) ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ (إبراهيم : ١٠) ، فلم يقل عز وجل : (إنما أنتم بشر مثلنا) مؤكدًا للتركيب بـــ (إِنَّمَا) ، وهو حرف يعطي من الدلالة على التوكيد ما يعطيه الحرفان المذكوران في الآية ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الكهف : ١١٠).

وإنما كان ذلك ــ على حد قول عبد القاهر ــ ''لأنهم جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشرًا مثلهم ، وادعوا أمرًا لا يجوز لمن هو بشر . ولما كان الأمر كذلك ، أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعي خلافه ، ثم جاء الجواب من الرسل الذي هو قوله تعالى :﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (إبراهيم : ١١) ، كذلك بـ (إن) و(إلا) دون (إنَّما) ؛ لأن من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه ، أن يعيد كلام الخصم على وجهه ، ويجيء به على هيئته ويحكيه كما هو . فإذا قلت للرجل: (أنت من شأنك كيت وكيت) ، قال : (نعم ، أنا من شأني كيت وكيت ، ولكن لا ضير علي ، ولا يلزمني من أجل ذلك ما ظننت أنه يلزم) ، فالرسل صلوات الله عليهم كأنهم قالوا : (ما قلتم من أنا بشر مثلكم كما قلتم ، لسنا ننكر ذلك ولا نجهله ، ولكن ذلك لا يمنعنا من أن يكون الله تعالى قد من علينا وأكرمنا بالرسالة . وأما قوله تعالى :﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الكهف : ١١٠) ، (فصلت : ٦) ، فجاء بـ (إنَّما) ؛ لأنه ابتداء كلام قد أمر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأن يبلغه إياهم ويقوله معهم ، وليس هو جوابًا لكلام سابق قد قيل فيه : (إن أنت إلا بشر مثلنا) ، فيجب أن يؤتى به على وفق ذلك الكلام ، ويراعى فيه حذوه ، كما كان ذلك في الآية الأولى,,[1] .

ومن تلك الحروف كذلك (السين) و(سوف) ، وهما حرفان يخلصان الفعل للاستقبال ، فالسين ــ على حد قول صاحب رصف المباني ــ ''هي الداخلة على المضارع تخلصه للاستقبال ، وتسمى حرف تنفيس ؛ لأنها تنفس في الزمان ، فيصير الفعل المضارع مستقبلاً بعد احتماله للحال والاستقبال,,[2] . ويرى ابن هشام أن مدة

---

[1] دلائل الإعجاز ص ٣٣٣ .

[2] المالقي : رصف المباني ص ٣٩٦ .

الاستقبال فيها ليست أضيق منها مع سوف خلافًا للبصريين ، ومعنى قول المعربين فيها (حرف تنفيس) حرف توسيع ، وذلك أنها نقلت المضارع من الزمن الضيق وهو الحال إلى الزمن الواسع ، وهو للاستقبال [1] . كما يرى ''أنها تفيد الوعد بحصول الفعل ، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه,, [2] .

وأما (سوف) فهو ــ كما يرى صاحب رصف المباني ــ ''حرف يختص بالفعل المضارع أيضًا ، فيخلصه للاستقبال مثل السين ، ومعناها التنفيس في الزمان ، إلا أنها أبلغ في التنفيس من السين ,, [3] .

ومن بديع استعمال هذين الحرفين ما ورد في قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (الأنعام:٥) ، فجاء الأسلوب القرآني هنا بـــ (سوف) ، ثم عدل عنها إلى السين في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الشعراء : ٦) .

وفي تعليل تلك المغايرة يقول ابن الزبير :''آية الأنعام لما ترتبت على إطناب وبسط آيات من حمده سبحانه وانفراده بالخلق والاختراع ، فقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ (الأنعام : ١) ، فذكر سبحانه خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور ، فالظلمات

---

[1] مغني اللبيب : ١ / ١٥٨ .

[2] السابق ١ / ١٥٩ .

[3] المالقي : رصف المباني ص ٣٩٨ .

عن أجرام هذه المخلوقات والأنوار عن أجرام ما جعل في السماوات وزينها بها من شمس وقمر وكواكب للاقتداء والضياء . ثم ذكر خلقهم من طين ، وقد تردد في الكتاب العزيز تنبيه المكلفين بما صدرت به سورة الأنعام ، فقال تعالى :﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الجاثية : ٣) ، وقال تعالى :﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ (الفرقان : ٦١) ، ثم قال بعد آية الأنعام : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (الأنعام : ٤) ، فلما تقدم هذا الإطناب ناسبه ما أتبع به من قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ، فناسب الإطناب الإطناب .

وقال تعالى قبل آية الشعراء : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ (الشعراء : ٢) ، ثم اعترض بتسلية نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الشعراء : ٣) ، وليس هذا المعترض به مما ذكروا به ، ثم قال بعد : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (الشعراء : ٤) ، وهذا راجع إلى تسليته عليه السلام ، فلم يبق مجردًا لتذكيرهم سوى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ ، وما بعد من وعيدهم وتهديدهم بقوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾

(الشعراء : ٥) ، وهذا إيجاز، فناسبه ما نيط به من قولهم : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ إيجازًا لإيجاز وإطنابًا لإطناب,,[1] .

وابن الزبير في تعليله هذا يعتمد على بنية كلا الحرفين واتفاقها مع الإطناب في الموضع الأول والإيجاز في الموضع الثاني ، وهو تعليل لا بأس به ، ولكننا يمكن أن نتجه بالتعليل وجهة أخرى إذا نظرنا إلى ما ذكره ابن هشام من دلالة تتميز بها السين من (سوف) ، وهي توكيد الفعل وتثبيت معناه واقتضاء حصوله إذا دخلت على ما يفيد الوعد أو الوعيد . فالسياق في الموضع الثاني يبرز لنا فيه ما يفيد الوعيد ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (الشعراء : ٤) . قال ابن كثير :''أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرًا ، ولكن لا نفعل ذلك ؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري,,[2] . ففي هذا وعيد واضح لمن كذب بالحق وأعرض عنه ، فناسبه ذكر السين التي تدل على توكيد الفعل واقتضاء حدوثه . ولما خلا السياق في الموضع الأول مما يدل على الوعيد آثر التعبير القرآني أن يأتي بـ (سوف) دون السين لعدم وجود ما يقتضي التوكيد وتثبيت المعنى .

ومن تلك الحروف ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة : ٣٢) ، فأتى الأسلوب القرآني في هذا الموضع بـ (أن) المصدرية في قوله : (أَن يُطْفِـُٔواْ) ، ثم غاير

---

[1] ملاك التأويل ١ / ٤١٢ ، ٤١٣ .

[2] تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٣١ .

في موضع آخر ، فجاء بلام التعليل دون (أن) في قوله تعالى :﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف : ٨) .

ولعل استعمال (أن) دون اللام في الموضع الأول يرجع ـ على حد قول الإسكافي ـ إلى أن ''الإرادة في الآية الأولى تعلقت بإطفاء نور الله بأفواههم ، وإطفاء نور الله إنما هو بما حاولوه من دفع الحق بالباطل ، والحق يسمى نوّر الله ؛ لأن حججه وبراهينه تضيء لطالبه فيهتدي بها إليه ، والباطل هو قولهم بأفواههم ، وهو ما أخبر الله تعالى به قبل عن اليهود والنصارى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ (التوبة : ٣٠) ، أي هو قول لا حقيقة له ولا محصول ، وبمثله لا يدفع الحق وبالأفواه لا يطفأ هذا النور كما يطفأ السراج ، لأن هذا النور وإن أشبهه في أنه يهدي ويبين الحق من الباطل ، فهو بخلافه في الامتناع من الإطفاء كما يتهيأ ذلك في السراج ، والنور يجوز أن تكون الآية المنيرة والحجة الساطعة ويجوز أن يكون المراد به القرآن ويجوز أن يكون المراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كما قال :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ ﴾ (الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦) ، فالسراج المنير يسمى نورا ، وكل واحد من الثلاثة إذا دفعوه جاز أن يقال حاولوا إطفاءه ، والخبر عن اليهود والنصارى الذين قال تعالى فيهم : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ (التوبة : ٣٠) أن يشاكلوا بإثباتهم لله ابنًا وشريكًا قول من أثبت مع الله آلهة ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟

إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾(التوبة : ٣١) ، وهذا واضح، وتعدي الإرادة إلى هذا المراد الظاهر ، وهو وجه الكلام والأصل,,[1] .

فالإرادة هنا ــ كما يوضح الإسكافي ــ إطفاء نور الله ، ولا شيء غير ذلك ، فاستوجب ذلك المعنى أن يأتي الأسلوب القرآني بــ (أن) دون اللام في هذا الموضع لتكون مع الفعل مصدرًا مؤولاً لا يتعدى إليه فعل الإرادة مباشرة ، فيقع على الإطفاء المراد في هذا الموضع . ولو جاء باللام لتعدى فعل الإرادة هنا إلى شيء آخر لا يقتضيه السياق .

أما الموضع الثاني فقد آثر فيه الأسلوب القرآني أن يأتي باللام دون (أن) وذلك ــ كما يرى الإسكافي ــ لأن ''المراد يريدون أن يكذبوا ليطفئوا نور الله بأفواههم لأن قبلها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ (الصف : ٧) ، فقوله يريدون لم يذكر مفعول ما يريدونه اعتمادًا على ما نبه عليه بقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ ، فكأنه قيل : يريدون افتراء الكذب ليطفئوا نور الله,,[2] .

ففعل الإرادة هنا لم يرد منه التعدي إلى إطفاء نور الله ، ولكن إلى افتراء الكذب الذي هو علة لهذا الإطفاء ، ومن هنا جيء بلام التعليل ؛ لأنها إذا دخلت على الفعل المنصوب تكون مبنية على العلة التي لها أنشئ الفعل ، فتصرف الفعل قبلها عن التعدي

---

(1) درة التنــزيل ص ١٠٦ .

(2) درة التنزيل ص ١٠٧ .

إلى ما دخلت عليه ، فيقدر مفعول محذوف يفهم من الكلام يتعدى إليه فعل الإرادة ، وهو ما يراد في هذا السياق .

ولم ير الزمخشري مثل هذا الرأي بل ذهب إلى أن اللام هنا زائدة لتأكيد فعل الإرادة ، وعبارته في ذلك ''وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدًا له ، لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لإكرامك ، كما زيدت اللام في : لاأبالك ، تأكيدًا لمعنى الإضافة في : لا أباك,,[١] . وهو بذلك لا يرى فرقًا بين دخول اللام في هذا الموضع وعدم دخولها في مثل آية التوبة ، إلا مجرد الدلالة على التوكيد . ولو نظر إلى الأمر ، كما نظر إليه صاحب الدرة ، وأبقى اللام على أصلها رابطًا بين دلالتها على التعليل ومناسبة ذلك للسياق الذي وردت فيه ، لكان أولى .

وهكذا نرى أن النظم الحكيم لا يراعي فقط معنى اللفظ المعجمي وصلته بالسياق اللغوي ، وإنما يراعي معناه الوظيفي كذلك ، مسخّرًا ما لبنيته أو موقعه من طاقات إيحائية ؛ لخدمة المعنى العام للسياق وللوصول به إلى أعلى مراتب الفصاحة .

---

[١] الكشاف ٤ / ٥٢٥ .

الفصل الرابع

المناسبة بين عدول اللفظ عن الأصل التركيبي والسياق اللغوي

للجملة في اللغة العربية ــ كما يرى النحاة ــ أصل تتحقق به الإفادة ، وهذا الأصل في الجملة الاسمية مبتدأ أو خبر ، وفي الفعلية فعل متقدم يتلوه فاعل أو نائب فاعل ، فإن لم يراعَ هذا النمط أو الأصل الذي تأتي عليه الجمل ، كوضع الألفاظ في وضع معين والذكر والربط والتضام ووضع اللفظ في موضعه إلى آخر ذلك من الأصول ارتبك الكلام ، وصار دون فائدة أو معنى . ويمكن للعدول عن أصل وضع الجملة أن يكون بالعدول عن أي واحد من هذه الأصول ، عن طريق الحذف أو التقديم والتأخير أو زيادة ألفاظ على النمط الأصلي للجملة أو وضع لفظ موضع آخر أو نقله من وظيفته الأصلية إلى وظيفة أخرى ... إلى آخره .

فإذا حدث شيء من هذا العدول يرده النحاة إلى النمط الأصلي الذي كان عليه التركيب ، نحو قول القائل : سَقيًا ــ رَعيًا ــ خيبةً ــ كفرًا ــ جدْعًا وغير ذلك من المصادر المنصوبة . قال سيبويه في تقدير أصل هذا الكلام : ''إنما ينتصب هذا وما أشبهه إذا ذُكر مذكور فدعوت له أو عليه ، على إضمار الفعل ، كأنك قلت : سَقاك اللهُ سقْيًا ، ورَعاك اللهُ رَعْيًا ، وخَيَّبك اللهُ خَيْبةً . فكل هذا وأشباهه على هذا ينتصب . وإنما اختزل الفعلُ ههنا ؛ لأنهم جعلوه بدلاً من اللفظ بالفعل ، كما جُعل الحَذَرَ بدلاً من احذرْ . وكذلك هذا كأنه بدل من سَقاك اللهُ ورَعاك اللهُ ، ومن خَيَّبك اللهُ''[1] . ونحو ذلك ما نراه من تقدير للأصل في مثل : ملأ الإناء زيتًا ، ونعم رجلاً زيد . قال ابن عصفور : ''فكأنك قلت : ملأ الإناء الزيت ، ثم صار الزيت تمييزًا بعد أن كان فاعلاً لملأ . وأما : نعم رجلاً زيدُ ،

---

[1] الكتاب ١ / ٣١٢ .

فكأن الأصل : نعم الرجلُ ، ثم أضمرت الرجل وصار تمييزًا بعد أن كان فاعلاً ، فكأنه نقل،،[1] .

وهذا العدول إما أن يكون مطردًا أو غير مطرد . فإذا كان غير مطرد فالنحاة يسمونه شاذًّا أو ضرورة أو قليلاً أو نادرًا أو خطأ[2] .

أما إذا كان هذا العدول مطردًا فإنه يخضع لما يأتي[3] :

(١) الفائدة أو أمن اللبس ، فلابد أن تتحقق الفائدة على رغم العدول ، ويتضح خضوع العدول لأمن اللبس في وجوب أن يكون هناك دليل على المحذوف وضرورة التفسير عند الإضمار وما يفرض من شروط على الفصل بين المتلازمين وعلى التقديم والتأخير ... الخ .

(٢) الخضوع لقواعد معينة يتم هذا العدول في ضوئها ويطرد في ضوئها ، نحو القواعد التي تحكم تقديم الخبر وجوبًا أو جوازًا وكذلك قواعد تقديم المفعول به أو الحال أو الشروط التي يجب أن تتوافر لحذف أحد عناصر الجملة ... الخ .

(٣) الإطار العام لصناعة النحو ، كما يتضح من الأصول والقواعد التي وضعها النحاة . وهذه القواعد هي التي تشكل الإطار العام للصناعة النحوية المختلفة سواء ما كان منها أصليًا أو فرعيًا .

وقد يعمد الأسلوب القرآني إلى ذلك العدول ، فيقدم اللفظ ، أو يؤخره ، أو يحذف ما يمكن ذكره ، أو يضع أحد الألفاظ موضع غيره ، أو يزيد على النمط الأصلي للتركيب ما يمكن تركه ، أو ينقل اللفظ من وظيفته الأساسية إلى وظيفة أخرى ، وذلك لتحقيق دلالة ما يقتضيها السياق أو نسق معين يحقق للسياق شكلاً جماليًا أو إيقاعًا لا يتحقق دونه ، فهو بذلك يستخدم طرقًا فنية للربط بين المفردات وبين الجمل والعبارات ، وخلق دلالات متنوعة تتوافق مع أغراضه وأهدافه . وفيما يلي صور للأنماط التي يتحقق فيها العدول في القرآن الكريم ومناسبة هذا العدول للسياق اللغوي .

---

[1] شرح الجمل ٢ / ٢٨٢ .

[2] د . تمام حسان : الأصول دراسة ابيستمولوجية ص ١٤٨ .

[3] السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

المبحث الأول

المناسبة بين التقديم والتأخير والسياق اللغوي

تخضع الجملة في العربية لنظام معين في ترتيب مفرداتها ، ويقسمها النحاة ـ كما هو معروف ـ إلى مسند ومسند إليه ومتعلقات الإسناد .

وإذا كان للجملة في اللغة العربية نظام مثالي في ترتيبها ، فإن هذا النظام ليس جامدًا لا يمكن تغييره ، بل هناك تغيرات تطرأ على طريقة الترتيب ، بحيث يُقدم عنصر أو يؤخر آخر ، والتقديم والتأخير في الجملة العربية من المباحث المهمة التي أولاها النحاة والبلاغيون عناية كبيرة ، وقد غلب الذوق الجمالي القائم على التحليل اللغوي على تحليلات البلاغيين لها .

ولا يكون التقديم والتأخير في اللغة العربية دون نظام يحكمه ، بل يخضع لضوابط وقيود . فقد يكون تقديم اللفظ أو تأخيره إجباريًا لعلة نحوية ، فلا يجوز العدول عنه ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ (البقرة : ١٢٤) ، فقدم المفعول تقديمًا إجباريًا لاتصال ضمير بالفاعل يعود عليه .

وقد يكون اختياريًا ، فيخضع ـ ولاسيما في الكلام البليغ ـ لدواعٍ دلالية أو بلاغية . ولعل هذا ما يشير إليه صاحب الصناعتين بقوله : ''ينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيبًا صحيحًا ، فنقدم منها ما كان يحسن تقديمه ، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره . ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تؤخر منها ما يكون التقديم به أليق،،(١) . ويوضح التنوخي الأمر قائلاً :''ومن البيان تقديم ما من شأنه أن يؤخر ، وتأخير ما من شأنه أن يقدم ، ومعظم هذا من أبواب النحو ، ومن ذلك ما يلزم وما يجوز ، فأما ما يلزم فلا

---

(١) أبو هلال العسكري : الصناعتين ص ١٦٩ .

مدخل له في البيان ، إذ لا يمكن غيره ، وما يجوز فلا يقدم عليه دون غيره إلا لغرض من أغراض البيان ، وإن جاء شيء منه لغير غرض جاء قبيحًا ، ولا يقع إلا شاذًا،،[1] .

وقد يخضع هذا التقديم الاختياري لمراعاة النظم وحسن النسق ، وربما يكون هذا هو ما قصده صاحب الصناعتين إضافة إلى ما سبق ، ويوضحه ابن الأثير في نحو قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (يس : ٣٧ ــ ٣٩) ، إذ يقول :''فقوله : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص ، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام ؛ فإنه قال : ﴿ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى ﴾ فاقتضى حسن النظم أن يقول : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾ ليكون الجميع على نسق واحد في النظم ، ولو قال : وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة في الحسن،،[2] . ويرجع سيبويه سبب التقديم في الكلام إلى الاهتمام بهذا المقدم ، وعبارته في ذلك : ''كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم،، [3] . وهو ــ لا شك ــ يقصد هنا ما يكون تقديمه اختياريًا لا إجباريًا . أما الزمخشري فيرجع هذا السبب إلى الاختصاص وهو ما يذكره في الكثير من المواضع ، نحو تقديم المفعول على الفعل في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ

---

(1) الأقصى القريب في علم البيان ص ٥٣ .

(2) المثل السائر ٢ / ٣٧ ، ٣٨ .

(3) الكتاب ١ / ٣٤ .

نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ (الفاتحة : ٥)[١] ، وتقديم المجرور على الخبر في قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (البقرة : ١٤٣)[٢] .

وهناك أسباب أخرى غير ما ذكره سيبويه والزمخشري ، لعل من أهمها ما يذكره الرازي فيما ينقله عن علي بن عيسى الرماني ، وذلك : ''أن يكون التأخير أليق بما اتصل من الكلام . كقوله تعالى : ﴿ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (إبراهيم : ٥٠) ، فهذا أليق بما بعده . وهو قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ (إبراهيم : ٥١) . وهو أشكل بما قبله أيضًا ؛ لأن قبله : ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ (إبراهيم : ٤٩)''[٣] .

وقد ذكر السيوطي هذه الأسباب مجتمعة نقلاً عن ابن الصائغ الذي ألف كتابًا أسماه (المُقدِّمة في سر الألفاظ المُقدَّمة) ، وقد بلغ مجموعها عشرة منها المناسبة ، بالإضافة إلى الاهتمام الذي عده سببًا مجملاً ، ثم زاد السيوطي عليها ثلاثة أخرى وهي كون المقدم أدل على القدرة وأعجب ، ورعاية الفواصل ، وإفادة الحصر للاختصاص[٤] .

وما يعنينا هنا السبب المتعلق بالمناسبة ؛ لأنه مناط هذا البحث ، ولعل معظم الأسباب الأخرى يمكن بالنظر والتدبر أن ترد إليه على ما سيتضح ولهذا التقديم أشكال مختلفة في القرآن ، منها ما يلي :

---

[١] الكشاف ١ / ٣ .

[٢] السابق ١ / ٢٠٠ .

[٣] نهاية الإيجاز ص ٢٢٣ .

[٤] انظر تفصيل هذه الأسباب : الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٣٥ ـ ٤١ .

(١) تقديم المفعول به

قد يقدم المفعول به على الفاعل ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر : ٢٨) . يقول عبد القاهر في علة ذلك : ''تقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشون من هم ، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم . ولو أخر ذكر اسم الله وقدم (العلماء) فقيل (إنما يخشى العلماء الله) لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن ، ولصار الغرض بيان المَخشيّ من هو ، والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره ، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء ، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية ، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضًا ، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره ، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى . وهذا المعنى وإن كان قد جاء في التنـزيل في غير هذه الآية ، كقوله تعالى :﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب : ٣٩) ، فليس هو الغرض في الآية ، ولا اللفظ بمحتمل له البتة . ومن أجاز حملها عليه ، كان قد أبطل فائدة التقديم ، وسوى بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، وبين أن يقال : (إنما يخشى العلماء الله) ، وإذا سوى بينهما ، لزمه أن يسوي بين قولنا : (ما ضرب زيدًا إلا عمرو) وبين : (ما ضرب عمرو إلا زيدًا) ، وذلك ما لا شبهة في امتناعه،، [١].

وهذا الذي ذكره الإمام عبد القاهر لا يعدو أن يكون مجرد تبيين للدلالة المحصلة من تقديم المفعول على الفاعل ، وهي قصر الخشية على العلماء خاصة ، دون أن يبرز علاقة تلك الدلالة بالسياق . ولعلنا إذا تأملنا هذا السياق تجلت لنا العلاقة بينهما ، إذ يخبر عن قدرة الله عز وجل على إبداع الخلق ، فهو الذي ينـزل الماء من السماء ، فيخرج به من الأرض ثمرات مختلفة الأشكال والألوان على الرغم من أنها تروى بماء واحد ،

---

[١] دلائل الإعجاز ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

وتخرج من أرض واحدة ، كذلك فإنه بقدرته نوّع في أشكال الجبال وألوانها ، فمنها البيض ومنها الحمر ومنها الشديد السواد ، ليس هذا فحسب ، بل إنه عز وجل لم يخلق الناس والدواب والأنعام على شكل واحد أو لون معين ، وإنما جعل لكل فرد من هذه الأجناس ما يميزه من غيره ، بحيث لا نجد منها ما هو متشابه تشابهًا تامًا . قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ (فاطر : ٢٧ ـ ٢٨) .

وهذه الأمور لا يدرك حقيقتها إدراكًا واعيًا إلا من تعمقوا في دراستها ، وعرفوا طبيعتها ، واطلعوا على أسرارها ، فتجلت لهم قدرة الله في خلقه ، فحق عليهم أن يخشوه وأن يكونوا أولى الناس بتلك الخشية ، ومن هنا يأتي وجه تقديم المفعول على الفاعل في الآية . وقد أدرك الزمخشري وجه هذه العلاقة إذ يقول :"فإن قلت : ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله ؟ قلت : لما قال ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء ، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته ، أتبع ذلك ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ كأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك : ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه"[1] . ويوضح أبو حيان المقصود بالعلماء في الآية بأنهم "هم الذين علموه بصفاته ، وتوحيده ، وما يجوز عليه وما يجب له ، وما يستحيل عليه ، فعظموه ، وقدروه حق قدره ، وخشوه حق خشيته ، ومن ازداد به علمًا ازداد منه خوفًا ، ومن كان علمه به أقل كان آمنًا"[2] .

---

[1] الكشاف ٣ / ٦١١ .

[2] البحر المحيط ٧ / ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

وقد يقدم المفعول على الفعل والفاعل معًا ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٦٤) ، فتقدم المفعول هنا لتتسلط عليه دلالة الإنكار والتوبيخ اللذين خلّصت لهما الهمزة من الاستفهام الحقيقي[١] ، وذلك لأن الآية سيقت في إطار أمر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالرد على الكافرين موبخًا إياهم ومنكرًا عليهم أن يدعوه إلى عبادة غير الله بعد أن هداه الله إلى صراطه المستقيم ، وجعل عبادته كلها خالصة له دون غيره ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ (الأنعام : ١٦١ ــ ١٦٣) .

فجاء رده توبيخًا لهم وإنكارًا عليهم أن يبغي ربًا غير الله ، وهو رب كل شيء . قال أبو حيان : "وهو رد عليهم إذ دعوه إلى آلهتهم . والمعنى : أنه كيف يجتمع لي دعوة غير الله ربًا وغيره مربوب له"[٢] ، فكان من المناسب أن يتقدم المفعول ليضام الهمزة فتقع عليه دلالاتها التي خلّصت لها ، إذ ما يدل عليه هو مناط الإنكار والتوبيخ في هذا السياق .

وقد يقدم المفعول على الضمير المؤكد لما قبله ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ﴾ (النمل : ٦٧ ــ ٦٨) ، وهذا بخلاف ما

---

[١] السابق ٤ / ٢٦٣ .

[٢] البحر المحيط ٤ / ٢٦٣ .

ورد في قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (المؤمنون ٨١ ـ ٨٣) .

وإنما يرجع العدول في الآية الأولى وورود الكلام على أصله في الثانية ـ على حد قول ابن الزبير ـ إلى "أنه لما تقدم قبل آية المؤمنين قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (المؤمنون : ٦٨) ، فتقدم التعريف في هذه الآية أن آباءهم قد جاءتهم الرسل ، وأنذروا كما أنذر هؤلاء ؛ لهذا قالوا : ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ، ولما لم يتقدم في آية النمل ذكر إنذار آبائهم كان أهم شيء ذكر الموعود به الذي هو هذا ، فقالوا : ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا ﴾ "[1] .

وقد يأتي تقديم المفعول في صورة تقديم المفعول الثاني على الأول ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ ﴾ (الأنعام : ١٠٠) ، وفي تعليل ذلك يقول عبد القاهر : "والسبب في أن كان ذلك كذلك ، هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير ، بيانه أنا ، وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فإن تقديم (الشركاء) يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله

---

[1] ملاك التأويل ٢ / ٨٨٠ .

شريك ، لا من الجن ولا غير الجن . وإذا أُخِّر فقيل : (جعلوا الجن شركاء لله) ، لم يفد ذلك ، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره ، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن ، فلا يكون في اللفظ مع تأخير (الشركاء) دليل عليه»[1] .

وهذا الناتج الدلالي الذي يشير إليه عبد القاهر والذي هو محصلة تقديم الألفاظ عن مواقعها الأصلية هو ما يقتضيه السياق ويتفق مع مدلوله ، إذ يدور حول إبراز قدرة الله عز وجل على الخلق والإبداع ، فهو سبحانه الذي يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي وخالق الليل والنهار ومسير الشمس والقمر كل في فلكه بحساب دقيق ، وهو الذي جعل النجوم منيرة في السماء ؛ ليهتدي بها الناس في الظلمات ، كما أنه جلت قدرته هو الذي أنشأ الناس من نفس واحدة ، ثم جعلهم يأتون من أرحام أمهاتهم ، وهو الذي أنزل الماء من السماء ؛ ليخرج به من النبات ما اختلف أشكاله وألوانه وطعومه . يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا

[1] دلائل الإعجاز ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الأنعام : ٩٥ ــ ٩٩) .

ومن يقدر على فعل ذلك كله مما لا يستطيع فعله سواه إنما هو المستحق للعبادة وحده دون غيره من الجن أو غيرهم من الأجناس التي خلقها الله ، ومن ثم ناسب أن يتقدم المفعول الثاني على الأول ؛ ليدل على أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن ؛ إذ هو المستحق للعبادة وحده . قال النيسابوري : ''وفائدة تقديم المفعول الثاني على هذا القول استعظام أن يُتَخذ لله شريك كائنًا من كان ، ملكًا أو جنيًا أو إنسيًا ؛ ولذلك قدم اسم الله على الشركاء،،[١] .

(٢) تقديم المجرور

يعد اللفظ المجرور بأحد حروف الجر من أكثر العناصر التي لها حرية التقديم والتأخير ، ولذلك صور عديدة ، فقد يقدم على الفاعل ، فيحسن هذا التقديم ، نحو ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (يس : ٢٠) . فإذا ما اقتضى السياق أن يأتي بالفاعل على أصله من التقديم جاء الأسلوب القرآني على الأصل دون عدول ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (القصص : ٢٠) .

---

[١] غرائب القرآن ٧ / ١٧٣ .

ولعل تلك المغايرة بين المجيء بالأصل في الآية الثانية والعدول عنه في الأولى ترجع إلى أن الرجل في آية القصص ـــ على حد قول ابن جماعة ـــ :''قصد نصح موسى عليه السلام وحده لما وجده والرجل في يس : قصد من أقصى القرية نصح الرسل ونصح قومه ، فكان أشد وأسرع داعية ، فلذلك قدم قاصدًا ﴿ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ لأنه ظاهر صريح في قصده ذلك من أقصى المدينة،،[1] . ويزيد الأمر توضيحًا بأن الرجل في آية يس ''جاء ناصحًا لهم في مخالفة دينهم ، فمجيئه من البعد أنسب لدفع التهمة والتواطى عنه ، فقدم ذكر البعد لذلك . وفي القصص : لم يكن نصحه لترك أمر يشق تركه كالدين بل لمجرد نصيحة ، فجاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفضلة،،[2] .

وقد يأتي المجرور مقدمًا على المفعول ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ﴾ (الروم : ٤٧) . فإذا ما اقتضى السياق أن يأتي الكلام على أصله قدم المفعول ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلاً مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد : ٣٨) .

ويعلل ابن الزبير تلك المغايرة قائلاً : ''إنما قدم المجرور في قوله : ﴿ مِن قَبۡلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ ﴾ في سورة الروم لمكان ضميره صلى الله عليه وسلم . أما آية الرعد فموازن لها ومناسب ما تقدمها من قوله تعالى :﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبۡلِكَ﴾ (الرعد :

(1) كشف المعاني ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(2) السابق ص ٣٠٤ .

٣٢) فتأخر الضمير في الآيتين للموازنة والتقابل ، والثانية منهما محمولة على الأولى في رعي ما ذكر،،[١] .

وهو في تعليله هذا ينظر إلى موقع الضمير العائد على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو نظرنا إلى الأمر من جهة الظرف ــ ولاسيما في الآية الأولى ــ لكان أولى ، فالدلالة فيها مسلطة على القبلية لا على الرسل مواساة للرسول على ما يلقاه من تكذيب قومه له وأنه سبحانه منتقم منهم بشركهم كما انتقم من الذين من قبلهم ، وهو ما يبينه قوله عز وجل في بداية هذه السورة : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الروم : ١٠) ، ثم يؤكده عز وجل بعد ذلك بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ (الروم : ٤٢) . فالاهتمام كله في هذا السياق منصب على الاعتبار بما حدث للأمم السابقة التي قد خلت من قبل ، إذ كذبوا بآيات الله وبما جاء به رسلهم ، فانتقم منهم ؛ لذلك كان من المناسب أن يتقدم في هذا الموضع الظرف الدال على القبلية ؛ ليدل على الاهتمام بالنظر إلى عاقبة الذين كذبوا .

أما الآية الثانية فلم تسلط فيها الدلالة على مثل ما سبق ، وإنما سلطت على الرسل وما حدث لهم من سخرية قومهم بهم واستهزائهم بما جاءوا به ، وهو ما يكشف عنه قوله تعالى قبل هذه الآية :﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (الرعد : ٣٢) ، فكانت التسرية للرسول صلى الله عليه وسلم هنا من جهة ما حدث للرسل الذين سبقوه من تكذيب قومهم بهم وإيذائهم لهم لا من جهة

---

[١] ملاك التأويل ٢ / ٧١٠ ، ٧١١ .

ما حدث لقومهم ، فناسب هنا أن يأتي الكلام على أصله ، فيقدم المفعول على الظرف المجرور .

وقد يقدم المجرور على جميع عناصر الجملة الفعلية ، فيأتي في صدر الكلام ، نحو تقديم (وَبِٱلۡأَخِرَةِ) في قوله تعالى :﴿ وَبِٱلۡأَخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة : ٤) . قال أبو حيان في علة تقديم المجرور هنا :''وقدم المجرور اعتناءً به ولتطابق الأواخر''[١] .

ولعل السبب الحقيقي وراء هذا التقديم لا يرجع إلى مجرد العناية ومراعاة الفواصل فحسب ــ كما يذكر صاحب البحر المحيط ــ وإنما يرجع إلى أن السياق يتحدث عن هؤلاء المؤمنين المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون أموالهم في سبيل الله ، ويؤمنون بما أنزل على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من قرآن ووحي ، ويؤمنون بما أنزل على الرسل الذين جاءوا من قبله . يقول تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ (البقرة : ٣ ــ ٤) .

ومن يتصفون بهذا القدر من الإيمان هم أكثر الناس يقيناً بالآخرة وأولاهم إيماناً بها . قال السيوطي :'' والمقصود بالذات قوة إيقانهم بالآخرة حتى صار غيرها عندهم كالدحوض فهو حصر مجازي ، وهو دون قولنا (يوقنون بالآخرة لا بغيرها)''[٢] . ومن هنا كان تقديم المجرور على سائر عناصر الجملة كلها لتأكيد إيمانهم بها ويقينهم بوقوعها واختصاصهم بهذا اليقين ، ولإبراز هذا المعنى نرى الأسلوب القرآني لا يكتفي بتقديم

---

[١] البحر المحيط ١ / ١٦٨ .

[٢] الإتقان في علوم القرآن ٣ / ١٥٩ .

الآخرة ، بل جاء بالجملة الاسمية . قال أبو حيان : ''إيراد هذه الجملة الاسمية وإن كانت الجملة معطوفة على جملة فعلية آكد في الإخبار عن هؤلاء بالإيقان ، لأن قولك (زيد فعل) آكد من (فعل زيد) لتكرار الاسم في الكلام ، بكونه مضمرًا ، وتصديره مبتدأ يشعر بالاهتمام بالمحكوم عليه ، كما أن التقديم للفعل مشعر بالاهتمام بالمحكوم به،، [1] .

وقد يرد المجرور متقدمًا على الصفة ، فيفصل بينها وبين موصوفها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (المؤمنون : ٣٣) ، وهذا بخلاف ما ورد من ترتيب الكلام علي أصله قبل هذه الآية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ (المؤمنون : ٢٤) .

ويعلل ابن الزبير هذا الاختلاف بين الآيتين معلقًا على الآية الثانية التي ورد الكلام فيها على أصل ترتيبه بأنه ''لم يرد هناك غير صفة واحدة جعلت مع موصوفها كشيء واحد وإن كان الوصف بموصول ، والموصول يطول بصلته ، إلا أن طوله بصلته لا يزيله عن تقديره باسم واحد ، فمن حيث جعلت الصفة مع موصوفها كشيء واحد للحاجة إليها ، وكونها مفردة ، قرنت بموصوفها وتأخر المجرور ، فقال تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ ، وحيث لم يقع الاكتفاء بصفة واحدة وزيد عليها ، ولا يمكن جعل صفتين فما زاد مع موصوفها كشيء واحد ، قدم لمجرور ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، فوقع

---

[1] البحر المحيط ١ / ١٦٨ .

المجرور في كل من الآيتين على ما يجب ، وعطفت الصفات بعضها على بعض لورودها غير صفة،، [١] .

وهذا الذي ذكره تعليل نحوي يعتمد على طول صلة الاسم الموصول الواقع صفة في الآية الأولى ، وهو ما سوغ الفصل بينه وبين موصوفه ، إذ لا يعدان في هذه الحالة كالشيء الواحد ، وهو ما اختلف في الآية الثانية ، إذ لم تطل الصلة فجعلت الصفة مع موصوفها كالشيء الواحد ، وهو ما أدى إلى عدم جواز الفصل بينهما بالمجرور .

ولم ينظر صاحب عروس الأفراح إلى الأمر من هذه الجهة ، بل نظر إليه نظرة دلالية أقرب إلى إبراز الصلة بين السياق اللغوي وتقديم المجرور في الآية الأولى وتأخيره في الثانية ، أي إن الكلام سيق على هذا النحو في الموضع الأول ''لأنه لو أخر لأخر عن الصلة وما عطف عليها ، فقيل ﴿ مِن قَوْمِهِ ﴾ بعد ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فلا يدري حينئذ أنهم من قومه أو لا ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِ ﴾ جاء على الأصل لعدم المانع ،، [٢] .

وقد يكون التقديم للمجرور على الخبر ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (المجادلة : ١١) ، فتقدم هنا معمول الخبر المجرور عليه ، وهذا بخلاف قوله تعالى :

---

[١] ملاك التأويل ٢ / ٨٧٦ ، ٨٧٧ .

[٢] بهاء الدين السبكي : عروس الأفراح ٢ / ١٦٣ .

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المجادلة : ١٣) .

ولعل هذه المغايرة ترجع إلى أن الآية الأولى تتحدث عن أمور ظاهرة لا خفاء فيها ، وهي التوسع في المجلس ، والمراد مجلس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . والمعنى ـ كما يذكر الزمخشري ـ توسعوا في جلوسكم ، ولا تتضايقوا فيه ، وقيل : هو المجلس من مجالس القتال [١] . ثم يأمرهم عز وجل أن ينهضوا للتوسعة على المقبلين ، أو ينهضوا عن مجلس رسول الله إذا أمروا بالنهوض عنه [٢] . وهذه الأمور التي أمر بها المسلمون ليست بالأمور الخفية التي لا يعلمها أحد ، بل هي ظاهرة للجميع . فكان تسليط الدلالة هنا أولى على ما يعملون من تلك الأعمال الظاهرة ؛ لذلك قدم المعمول على الخبر .

وأما الآية الثانية فكان الأمر فيها بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله ، وهذه أشياء منها ما يكون متعلقًا بالقلب والنية من إخلاص في العبادة والطاعة ، وهذا الإخلاص وما يتعلق به من أمور القلب لا يعلمه إلا خبير ببواطن الأمور مطلع عليها لا تخفى عليه خافية ؛ لذلك كان تسليط الدلالة في هذه الآية على لفظ (خَبِير) الذي يدل ـ كما يذكر الراغب الأصفهاني ـ على المعرفة ببواطن الأمور[٣] ، ومن هنا جاء الكلام على أصله ، فجاء الخبر في موضعه مقدمًا على معموله لتقع عليه الدلالة المرادة في هذه الآية .

---

[١] الكشاف ٤ / ٤٩٢ .
[٢] السابق ٤ / ٤٩٢ .
[٣] مفردات ألفاظ القرآن (خبر) .

وقد يكون تقديم المجرور على المبتدأ ، نحو قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝ ﴾ (الصافات : ٤٥ ـ ٤٧) . فجاء المجرور في (فِيهَا) مقدمًا على المبتدأ (غَوْلٌ) ، وهو بخلاف ما جاء في قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ (البقرة : ٢) .

ولعل السر وراء تلك المغايرة يرجع ـ على حد قول الزمخشري ـ إلى أن ''القصد في إيلاء الريب حرف النفي ، نفي الريب عنه ، وإثبات انه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعونه ، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد ، وهو أن كتابًا آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد في قوله : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي ، كأنه قيل : ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة،، [١] .

ويزيد ابن الأثير الأمر توضيحًا بأن تأخير الظرف أو المجرور ''يقتضي النفي أصلاً من غير تفضيل ، وتقديمه يقتضي تفضيل المنفي عنه ، وهو خمر الجنة ، على غيرها من خمور الدنيا : أي ليس فيها ما في غيرها من الغول ، وهذا مثل قولنا : لا عيب في الدار ، وقولنا : لا فيها عيب ، فالأول نفي للعيب عن الدار فقط ، والثاني تفضيل لها عن غيرها : أي ليس فيها ما في غيرها من العيب،، [٢] .

ومن هنا ناسب أن يتقدم المجرور في آية الصافات ، إذ المقام مقام تفضيل خمر الآخرة على خمر الدنيا ، وهو ما يتضح من ذكر أوصافها التي تفتقدها الخمر الثانية من

---

(١) الكشاف ١ / ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) المثل السائر ٢ / ٤٠ .

كونها لذة للشاربين وغير مذهبة للعقول ، كما ناسب أن يأتي الكلام على أصله في آية البقرة ، إذ المقام مقام تعظيم لكتاب الله الذي أنزله الله عز وجل على رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق خاليًا من أي شبهة أو ريب أو شك ، فهو الكتاب الحق الكامل في صفاته الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . قال الزمخشري في تفسير ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ : "ومعناه : أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص ، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتابًا ، كما تقول : هو الرجل ، أي الكامل في الرجولية ، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال"[1] . فاستوجب هذا المعنى أن يتسلط النفي على الريب مباشرة ؛ لينفي عنه هذا الأمر نفيًا كليًا بما يتفق مع تعظيمه ووصفه بالكمال والحق .

(٣) تقديم الظرف

قد يتقدم الظرف في موضع ويؤخر في آخر ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ٣٥) . فجاء الظرف هنا مؤخرًا ، وتقدم عليه صفة المصدر المحذوف (رَغَدًا) على أصل الترتيب ، ثم نراه يأتي مقدمًا على تلك الصفة في موضع آخر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة : ٥٨) . يقول أبو حيان معللاً تلك المغايرة في تعليقه على الآية الثانية : "وأما تقديم الرغد هناك فظاهر ، فإنه من صفات الأكل أو الآكل ، فناسب أن يكون قريبًا من العامل فيه ولا يؤخر عنه ، ويفصل بينهما بظرف ، وإن لم يكن فاصلاً مؤثرًا المنع لاجتماعهما في المعمولية

---

[1] الكشاف ١ / ٣٣ .

لعامل واحد ، وأما هنا فإنه آخر لمناسبة الفاصلة بعده ألا ترى أن قوله : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ وقوله : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ، فهما سجعتان متناسبتان ، فلهذا والله أعلم كان هذان التركيبان على هذين الوضعين،،[1] .

وهذا الذي ذهب إليه أبو حيان لا يعدو أن يكون تعليلاً شكليًا ، لم ينظر فيه إلى مدلول السياق في كلتا الآيتين وما يقتضيه من تأخير الظرف في الأولى وتقديمه في الثانية . والناظر في هذا السياق يرى أن تأخير هذا اللفظ في الآية الأولى وتقديم (رَغَدًا) عليه يرجع إلى أن الاهتمام مسلط على ما أبيح لآدم وزوجه من الأكل الرغد وأن في ذلك المباح ما يغنيهما عن القرب مما نهاهما الله عنه ، فتقدم (رَغَدًا) لتقع تلك الدلالة عليه ، وتأخر الظرف ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ليدل على أن تلك المشيئة لم تكن مطلقة ، بل مقيدة بما نهاهما الله عنه ، فتقدم ، ولو تقدم لتسلطت الدلالة عليه ، فيدل الكلام حينئذ على أن الاهتمام بحريتهما في التصرف وإطلاق مشيئتهما، وليس هذا هو المراد .

أما الآية الثانية فتقدم فيها الظرف ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ لتتسلط الدلالة عليه ، إذ هو مناط الأمر هنا ؛ لأن السياق فيها يتحدث عن بني إسرائيل الذين ذاقوا من فرعون وجنوده ألوانًا شتى من العذاب ، وعرفوا الذل على يديه . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (البقرة : ٤٩) . فالحرية عندهم وامتلاك مشيئتهم وأمرهم بعد ما رأوه

---

[1] البحر المحيط ١ / ٣٨٣ .

من ذل وعذاب هو الأهم لديهم مما سواه ، وقد سبق لهم أن أنزل الله عليهم شيئًا من ذلك الطعام الرغد ، وهو ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ٥٧) ، فلم يقتنعوا وأرادوا استبدال ما هو أدنى منه به ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ (البقرة : ٦١) ، فرضوا بما هو أدنى بعد أن وهبهم الله ما هو خير منه ، وهو يدل على أن امتلاك إرادتهم وما منحوه من حرية أهم عندهم مما وهبهم الله من الطعام ، ومن هنا تقدم الظرف على النعت لتقع الدلالة عليه ، وهو ما يتفق مع مدلول السياق .

وقد يأتي تقديم الظرف أو تأخيره ، على اللفظ الواقع تمييزًا أو حالاً ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء : ٩٦) ، فجاء الظرف هنا مؤخرًا عن لفظ (شَهِيدًا) الذي يمكن أن يحمل ــ كما يذكر الزجاج[1] والزمخشري[2] ــ على التمييز أو الحال ، ثم نراه يأتي مقدمًا على اللفظ نفسه في قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (العنكبوت : ٥٢) .

---

[1] معاني القرآن وإعرابه ٣ / ٢٦١ .

[2] الكشاف ٢ / ٦٩٥ .

ولعل هذا الاختلاف بين الآيتين من مجيء الكلام على أصله في الآية الأولى والعدول عنه في الثانية يرجع – على حد قول ابن جماعة – إلى أنه ''لما وصف (شَهِيدًا) بقوله تعالى : (يَعْلَم) ناسب تأخيره لتتبع الصفة موصوفها ولا يحول بينهما حائل . وليس هنا ولا في أمثالها صفة لشهيد ، فجاء على القياس في غير ﴿ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (الأحزاب : ٤٨)،،[1] .

(٤) تقديم الخبر على المبتدأ

قد يقدم الخبر على المبتدأ في القرآن تحقيقًا لدلالة معينة ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ (مريم : ٤٦) . فآثر الأسلوب القرآني في هذا الموضع أن يأتي الكلام هنا على هذا النحو من التقديم والتأخير ؛ لأن السياق في هذا الموضع يدل على أن الإنكار والتعجب اللذين تدل عليهما الهمزة ينصبان على رغبة إبراهيم في ترك عبادة تلك الآلهة لا على شخصه . قال الزمخشري :''وقدم الخبر على المبتدأ في قوله :﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ لأنه كان أهم عنده وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد،،[2] .

ولعل هذا الإنكار الذي لقيه إبراهيم من أبيه على ما يدعو إليه يرجع إلى أن من يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئا إنما طُمس على عقله ، ومده الشيطان في الغيّ ، واختل الصواب عنده ، وعُكس المنطق لديه ، وصار في منظوره الحق باطلاً والباطل

---

[1] كشف المعاني ص ٢٣٦ .

[2] الكشاف ٣ / ٢٠ .

حقًا ، ومن كان كذلك لا يقبل أن يأتيه أحد بالصواب ، فهو لابد أن ينكر على أي شخص أن يدعوه إلى خلاف ما يعتقد ، إذ صار ما يعتقده هو الحق ، وما يعتقده غيره الباطل . قال العلوي : ''فلما سمع كلامه هذا وتفطن لما دعاه إليه ، أقبل عليه بفظاظة الكفر ، وجلافة الجهل ، وغلظ العناد ، فناداه باسمه ولم يقل يا بني كما قال إبراهيم ، يا أبتِ ، إعراضًا عن مقالته وإصرارًا على ما هو فيه ، ثم إنه قدم خبر المبتدأ بقوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أنتَ ﴾ اهتماما بالإنكار وتماديًا في المبالغة في التعجب عن أن يكون من إبراهيم مثل هذا ،، [1] . ومن هنا كان تقديم الخبر على المبتدأ ؛ لتقع دلالة الإنكار والتعجب عليه ، وهو ما يقتضيه مدلول السياق ويتطلبه .

هذه صورة لتقديم اللفظ أو تأخيره عن موضعه الأصلي في التركيب وما يترتب على ذلك من التغيير من دلالات يقتضيها السياق ، ويفضي إليها ، ولا تتحقق إلا بهذا الشكل من أشكال العدول ''فالنظر إلى ما ترتب على التقديم والتأخير ينبه إلى عظم شأن النظم ، وكيف يؤثر ذلك في المعنى تأثيرًا بالغًا ، بحيث يمكن أن نستخلص مما سبق أن أي تغيير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغير الدلالة وانتقالها من مستوى إلى مستوى آخر،، [2] .

---

[1] الطراز ص ٣٣٩ .

[2] د . محمد عبد المطلب : البلاغة و الأسلوبية ص ٣٣١ .

المبحث الثاني

المناسبة بين حذف اللفظ والسياق اللغوي

تجعل اللغة العربية للجملة أنماطًا تركيبية معينة ، فللجملة عناصرها الأساسية أو ما يُطلق عليه النُحاة عُمد الكلام ، وعناصرها الفرعية غير الأساسية أو ما يطلقون عليه الفضلات أو المكملات ، وفي تلك العناصر ما يفتقر إلى غيره ، وما لا يستغنى المعنى عن تقديره ، فإذا لم تشتمل الجملة على أحد أركانها أو ما يقتضيه التركيب من عناصرها المختلفة ، ثم اتضح المعنى دون ذكر هذه العناصر لوجود الدليل على المحذوف عُد ذلك حذفًا حدث لسبب من الأسباب المختلفة ، ويوضح ابن وهب الكاتب بعض هذه الأسباب بقوله : ''وأما الحذف : فإن العرب تستعمله للإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول ، إذا كان المخاطب عالمًا بمرادها فيه،، [1] . ويزيد السيوطي الأمر تفصيلاً ، فيذكر عشرة أسباب للحذف [2] ، متضمنة ما ذكره ابن وهب ، ومنها : التفخيم والإعظام وشهرة المحذوف وصيانته عن الذكر لتشريفه وغير ذلك .

والحذف إما إجباري تقتضيه الصنعة النحوية ، وإما اختياري يحتمل معه ذكر اللفظ وحذفه ، ويعد ــ هذا النوع الثاني ولاسيما إذا كان يرجع إلى سبب دلالي ــ أبلغ ، بل إن الذكر إذا ما احتمل الكلام الحذف وتطلبه السياق يعد عيبًا في الكلام . قال الرماني في إحدى فوائد الحذف :''والحذف أبلغ من الذكر ؛ لأن الذكر يقتصر على وجه ، والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما تضمنه من التفخيم،،[3] . ويقول عبد القاهر مبرزًا فائدته العامة : ''فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ،

---

(1) البرهان في وجوه البيان ص ١٢١.

(2) انظر في تفصيل هذه الأسباب : الإتقان في علوم القرآن ٣ / ١٧٠ وما بعدها .

(3) النكت في إعجاز القرآن ص ١٠٦ .

والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تُبن،، [١] .

ولا يكون الحذف في الكلام دون قيد أو شرط ، بل له شروط عديدة ، يجب أن يتحقق واحد منها على الأقل كي يحذف أحد عناصر التركيب ، سواء أكانت تلك العناصر أساسية أم غير ذلك ، ويحدد السيوطي هذه الشروط في ثمانية [٢] ، منها وجود دليل على المحذوف وألا يكون المحذوف كالجزء وألا يكون مؤكدًا لغيره .... إلى آخره .

وإذا تأملنا القرآن الكريم نجد أن المواضع التي جاء فيها الحذف والتي كانت تحتمل ذكر اللفظ لم يأت فيها ذلك الحذف إلا لدواعٍ دلالية أو نظمية يقتضيها السياق ، وتتعدد أشكال هذا الحذف في القرآن ، فقد يكون لأحد عناصر الجملة الفعلية ، أو الاسمية ، أو يكون لعنصر من العناصر المشتركة المترددة بين الجملتين . وفيما يلي صور لحذف الألفاظ في القرآن وعلاقة هذا الحذف بالسياق اللغوي .

(١) الحذف في الجملة الفعلية

قد يحذف أحد عناصر الجملة الفعلية لتحقيق فائدة معينة يتطلبها السياق ، فإذا كانت العناية بأحد العناصر دون غيره حذفت العناصر الأخرى أو بعضها ، لتسليط الدلالة على المذكور منها أو لتحقيق فائدة معينة تنشأ عن ذلك الحذف . قال الإمام العز : ''والعرب ينظرون إلى مقصود الإفادة في هذا الباب ونحوه ، فإن كان المقصود نسبة الفعل إلى الفاعل اقتصروا عليه ،فقالوا ، فلان يعطي ويمنع ، ويصل ويقطع ، والله يحي ويميت ؛ لأنه ليس الغرض ذكر المعطَى والممنوع والموصول والمقطوع والمحيا والممات ، ولكن الغرض وصف الفاعل بهذه الأفعال ، وإن كان الغرض ذكر المفعول لا

---

[١] دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

[٢] الإتقان في علوم القرآن ٣ / ١٧٤ وما بعدها .

غير لم يتعرضوا للفاعل ، كقوله :﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ (الذاريات : ١٠)، وقوله : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ (عبس :١٧) ، وقوله : ﴿ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (المجادلة : ٥) ، وقوله :﴿ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ (المائدة : ٦٤) ، وقوله :﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ (الأنعام : ٧٠) ، ليس الغرض ههنا ذكر الكابت ولا القاتل ولا اللاعن ولا المبسل ، وإنما الغرض في نسبة القتل واللعن والكبت والإبسال إلى المذكورين ، وإن تعلق الغرض بالفاعل والمفعول أتوا بهما ،كقوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (الفرقان : ٢) ، وقوله : ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (الجاثية : ٢٢) ، وقوله : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (البقرة : ٨٨) ، وقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ (المائدة : ١٣) »[1] .

(أ) حذف الفعل

ومن ذلك حذفه في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (الزخرف : ٨٧) . فقال عز وجل : ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، ولم يقل : (خلقهن الله) بإثبات الفعل، كما جاء في أول هذه السورة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف : ٩) .

وإنما جاء الكلام على هذا النحو من التردد بين الذكر والحذف ؛ لأن السياق في الموضع الثاني وجه فيه الخطاب إلى الكافرين مبرزًا قدرته عز وجل على الخلق

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ١٧ ، ١٨ .

والتسخير ، فهو بقدرته هذه مهد الأرض ، وجعل فيها طرقًا للناس والدواب والأنعام ، كي تسير عليها ، وأنزل الماء من السحاب ، فأخرج به الزرع من الأرض المجدبة ، كذلك فإنه خلق من كل شيء زوجين ، وسخر للناس من الفلك والأنعام ما يركبونه . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ ﴾ (الزخرف : ١٠ ــ ١٢) ، فذكر الفعل هنا بعد ذكره في السؤال تأكيدًا لقدرته هذه على الخلق ، ثم جاء بالوصفين (ٱلْعَزِيزُ) و(ٱلْعَلِيمُ) لتأكيد غلبته على الأشياء وقدرته على خلقها . قال البقاعي : "ولما كان السؤال عن المبتدأ كان الجواب المطابق ذكر الخبر ، فكان الجواب هنا : الله ــ كما في غيره من الآيات ــ لكنه عدل عنه إلى المطابقة المعنوية لافتًا القول عن مظهر العظمة إلى ما يفيد من الأوصاف القدرة على كل شيء ، وأنه تعالى يغلب كل شيء ، ولا يغلبه شيء مكررًا للفعل تأكيدًا لاعترافهم زيادة في توبيخهم وتنبيهًا على عظيم غلطهم ، فقال معبرًا بما هو لازم لاعترافهم له سبحانه بالتفرد والإيجاد لأنه أنسب الأشياء لمقصود السورة للإبانة التي هي مطلعها (خَلَقَهُنَّ) الذي هو موصوف (ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ) أي الذي يلزم المعترف بإسناد هذا الخلق إليه أن يعترف بأنه يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء وأن علمه محيط بكل شيء ، فيقدر على إيجاده على وجه من البداعة ثم على أكمل منه ثم أبهج منه وهلم جرا إلى ما لا نهاية له"[1] . ومن هنا كان ذكر الفعل مناسبًا لهذا المقام ؛ لتسليط الدلالة عليه ، تلك الدلالة التي تبرز قدرته عز وجل على الخلق والإبداع .

---

(١) نظم الدرر ٧ / ٨ ، ٩ .

أما السياق في الموضع الأول فكان الخطاب فيه موجهًا لمن ادعوا أنه سبحانه وتعالى اتخذ ولدًا وهم اليهود والنصارى ، فجاء الخطاب منكرًا عليهم ذلك الزعم ؛ لأنه سبحانه منـــزه عن هذا الأمر لا ينبغي أن يكون له ولد أو شريك في الملك ، فهو الإله الواحد في السماء والأرض له ملكهما وما بينهما . يقول تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۝ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ﴾ (الزخرف ٨١ ــ ٨٥) . فكان من المناسب بعد التأكيد أنه هو الإله دون شريك أو ولد أن تسلط الدلالة على تلك الصفة دون غيرها من القدرة على الخلق ، فجاء لفظ الجلالة منفردًا دون الفعل إشارة إلى انفراده واستحقاقه للألوهية وحده . قال البقاعي تعليقًا على جواب الكافرين عن سؤال من خلقهم : ''ولم يصدقوا في جواب مثله بقولهم : (إذا سألتهم) : ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ الذي له جميع صفات الكمال هو الذي خلق الكل ليس لمن يدعوه منه شيء ، ولذلك سبب عنه قوله : فأنى أي كيف ومن أي جهة بعد أن أثبتوا له الخلق والأمر يؤفكون أي يقلبون عن وجوه الأمور إلى أقفائها من قالب ما كائنًا من كان ، فيدعون أن له شريكًا تارة بالولدية ، وتارة بغيرها ، مع ما ركز في فطرهم مما ثبت به أنه لا شريك له لأن له الخلق والأمر كله،،(1) .

---

(1) نظم الدرر ٧ / ٥٩ .

(ب) حذف الفاعل

فإذا انحصرت الدلالة على الفاعل حذف وبني الفعل لغيره ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾ (الإنسان : ١٥) . فاستغنى الأسلوب القرآني عن الفاعل في هذا الموضع ، ثم أثبته في السياق نفسه بعد هذه الآية لتعلق الدلالة به ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ (الإنسان : ١٩) ، وذلك لأن السياق في الموضع الأول يدور حول النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة ، ذلك النعيم الذي يحيط بهم من كل جانب ، وهو ما تصوره الآيات التي جاءت في إثرها تلك الآية . يقول تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ (الإنسان : ١١ ــ ١٤) .

فالاهتمام هنا منصب على ما يحدث لهؤلاء من النعيم الذي من مظاهره ما يطاف عليهم به من تلك الآنية ، فناسب أن يأتي الأسلوب القرآني بالفعل دون الفاعل . قال الخطيب الإسكافي : ''إن القصد في الأولى إلى وصف ما يطاف به من الأواني دون وصف الطائفين ، فلما كان المعتمد بالإفادة ذاك ، بني الفعل مقصودًا به ذكر المفعول لا الفاعل ، فقال الله تعالى : ﴿ بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ ﴾ (الإنسان : ١٥ ــ ١٦) ، أي آلات من الفضة صفاؤها كصفاء القوارير لا تمنع أن يرى ما وراءها ، وقد قدرت على صفة فجاءت على ما قدرت وفقًا لمنية المتمني ... وقيل قدرت تقدير ما يسع الري ... ، وقيل قدرت على ما يريد الشارب أن يكون عليه لا زيادة

ولا نقصان ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا ﴾ (الإنسان : ١٧) فوصف بعد الإناء الذي تسبق العين إليه ما يحويه من مشروب وطيبه ، فلذلك لم يسم فاعله ويطاف ولأنه جاء بعد قوله : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ ،، [١] .

أما السياق في الموضع الثاني فقد انصب الاهتمام فيه على الفاعل أو الطائفين على أهل الجنة بالآنية ؛ لذلك أظهر الأسلوب القرآني صفاتهم من كونهم كاللؤلؤ المنثور . قال الإسكافي : ''أما الموضع الثاني الذي سمي فيه الفاعل وهو قوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ فإن القصد فيه إلى وصف الفاعلين الذين يطوفون بهذه الآنية ، فوجب ذكرهم لتعلق الصفة بهم ، فقال تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ ،، [٢] . ومن هنا ناسب أن يذكر الفاعل في هذا الموضع لتسلط الدلالة عليه ، كما ناسب أن يحذف في الموضع الأول لانحصارها عنه وتسلطها على الفعل .

وقد يعمد القرآن الكريم إلى حذف الفاعل وبناء الفعل لغيره مع تعلق الغرض بالفاعل المحذوف ، وذلك في مقام التذكير والحث على التفكر . قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ ﴾ (الغاشية : ١٧ ــ ٢٠) ، ''فلو أن التعبير القرآني صرح بالفاعل في هذه الأفعال المبنية للمجهول لفات الغرض الذي هدف إليه القرآن بذكر دلائل خلق الله . وهذا الهدف هو أن يتوصلوا بالتفكير في هذه الدلائل إلى

---

[١] درة التنــزيل ص ٢٩٢ .

[٢] السابق ص ٢٩٢ .

معرفة الله الخالق الفاعل ، فحذف الفاعل مقصود ، وذكره في هذا المقام كأنه مصادرة على المطلوب،،[١] .

(ج) **حذف المفعول**

وقد يعمد الأسلوب القرآني إلى حذف المفعول إذا لم يتعلق غرض الكلام به ، أو كان ذكره يصرف الدلالة إلى غرض آخر لا يهدف إليه السياق . قال الرازي : ''والضابط : أنه متى كانت العناية متوفرة على مجرد إثبات الفعل لا على أن يعلم المفعول . فالأولى أن يحذف المفعول،، [٢] .

ومن هذا الحذف ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ (القصص : ٢٣ ـ ٢٤) . فحذف الأسلوب القرآني المفعول في أربعة مواضع من الآيتين السابقتين ، والمعنى : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أغنامهم أو مواشيهم ، ﴿ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ غنمهما ، ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى ﴾ غنمنا ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ غنمهما . يقول الإمام عبد القاهر مبرزًا العلاقة بين ترك المفعول في هذا الموضع والسياق الوارد فيه : ''ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقًا ، وما ذاك إلا الغرض في أن يُعلَم من الناس أنه كان في تلك الحال سقيٌ ، ومن المرأتين ذودٌ ، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقيٌ حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام من

---

(١) د . محمود نحلة : لغة القرآن الكريم في جزء عم ص ٣٩٢ .

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٢٤٠ .

بعد ذلك سقيٌ . فأما ما كان المسقيُّ ؟ أغنمًا أم إبلاً أم غير ذلك ، فخارج عن الغرض ، وموهم خلافه . وذاك أنه لو قيل : (وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما) ، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود ، بل من حيث هو ذود غنم ، حتّى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود ، كما أنك إذا قلت : (مالك تمنع أخاك ؟) كنت منكرًا المنع ، لا من حيث هو منع بل من حيث هو منع أخ ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت ، إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدةً جليلةً ، وان الغرض لا يصحُّ إلا على تركه،،[1] .

فالمفعول هنا قد حذف ــ كما يتضح مما قاله عبد القاهر ــ ؛ لأن الفعل قد عظم وتضخم حتّى غطى وطغى عليه . فالسياق القرآني يصور لنا ذلك الحشد المتزاحم على السقي ، وكل منهم قد جمع دوابه وأنعامه ، وأخذ يدفع غيره بكل وسيلة ، فكلهم يريد أن يسقي دون أن يفوته شيء من ذلك السقي ، فكان الصراع والتكالب حتّى يفوز كل واحد بهدفه ، ويتجه السياق في إطار هذا المنظر العام إلى تصوير حال تلك المرأتين ، فهما تحرسان غنمهما أو إبلهما ، وتدفعان بهما إلى الماء ، ولكنهما لا تسقيان ، فالدافع هنا أقوى من قوتيهما ، ففشلتا في تحقيقه ، وما عسى أن يفعل مثلهما مع هذا الحشد المتدافع من الرعاء والأغنام وما يحدثون من ضجيج وشجار وصراع ؟ إنهما ولا شك لا تقويان على فعل شيء وسط هذا الصراع ، فكان تعلق الدلالة في هذا الموضع ــ كما نرى ــ بالحدث أو الفعل .

ومما حسن فيه حذف المفعول كذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ (الضحى : ١ ــ٣) . فآثر التعبير القرآني

---

[1] دلائل الإعجاز ص ١٦١ ، ١٦٢ .

حذف ضمير الخطاب من(قَلَى) ، والأصل (قلاك) . واختلف العلماء في علة هذا الحذف ، فذهب الفراء إلى أنه جاء اكتفاءً بالكاف الأولى محافظة على رؤوس الآيات[1] ، وذهب ابن الأنباري إلى أنه للتخفيف[2] . ويرجع عند الزمخشري إلى أنه اختصار لفظي لظهور المحذوف[3] ، وكذلك أرجعه أبو حيان إلى الاختصار إذ يعلم أنه ضمير المخاطب وهو الرسول صلى الله عليه وسلم[4] .

ورعاية الفاصلة والتخفيف والاختصار جميعها تعليلات شكلية قد يكون لها وجه من أوجه الصحة ، ولكنها لا تنهض أن تكون مقصدًا في ذاتها للبيان القرآني ؛ إذ ليس من المعقول أن يقوم على أساس لفظي محض ''وإنما الحذف لمقتضى معنوي بلاغي ، يقويه الأداء اللفظي ، دون أن يكون الملحظ الشكلي هو الأصل . ولو كان البيان القرآني يتعلق بمثل هذا ، لما عدل من رعاية الفاصلة في آخر سورة الضحى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ (الضحى : ٩ ــ ١١) ، وليس في السورة كلها ثاء فاصلة ، بل ليس فيها حرف الثاء على الإطلاق ، ولم يقل تعالى : فخبِّرْ لتتفق الفواصل على مذهب أصحاب الصنعة ومن يتعلقون بها . ويبقى القول بأن الحذف لدلالة ما قبله على المحذوف ، وتقتضيه حساسية معنوية مرهفة ، بالغة الدقة في اللطف والإيناس ، هي تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس : ما قلاك . لما في القلي من الطرد والإبعاد وشدة البغض . أما التوديع فلا شيء فيه من

---

(1) معاني القرآن ٣ / ٢٧٤ .

(2) البيان في غريب إعراب القرآن ٢ / ٥٢٠ .

(3) الكشاف ٤ / ٧٦٦ .

(4) البحر المحيط ٨ / ٤٨١ .

ذلك . بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق على كره ، مع رجاء العودة واللقاء،،[1] .
فلم يكن ليناسب في هذا المقام ذكر الضمير العائد على الرسول وإلحاقه باللفظ الدال على شدة البغض ، كما لم يكن ليناسب ذكره وقد دل الكلام عليه ، ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنيًا عنه فإن ذكره يكون من الفضول والحشو المنــزه عنهما أعلى بيان .

(٢) الحذف في الجملة الاسمية

(أ) حذف المبتدأ

قد يعمد الأسلوب القرآني إلى حذف المسند إليه أو المبتدأ من الجملة الاسمية تحقيقًا لدلالة معينة يتطلبها السياق ومن ذلك ما نراه من الحذف في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾(الكهف : ٢٢) ؛ فحذف الأسلوب القرآني المبتدأ في ثلاثة مواضع من هذه الآية ، والأصل هم ثلاثة ، هم خمسة ، هم سبعة ، وذلك لأن السياق في هذا الموضع يخبر عن هؤلاء الفتية من أهل الكهف الذين اختلف فيهم ـ كما يذكر البقاعي ـ أهل الكتاب ومن وافقهم[2] ، فلم يعرف حقيقتهم أو صفاتهم أحد منهم بدليل قوله تعالى : ﴿ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، وعلى الرغم من ذلك يمارون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم بعد أن أخبرهم بقصتهم ، وليس من شيء أدل من اختلافهم فيهم وعدم معرفتهم بهم معرفة يقينية مِّن ذلك الخلاف في عددهم الذي توضحه الآية ، فهم قوم مجهولون لهم ، حقيقتهم غائبة عن إدراكهم ، فحسُن مع غياب هذه الحقيقة عن إدراك ما يمارون

---

[1] د . عائشة عبد الرحمن : التفسير البياني للقرآن الكريم ١ / ٣٥ والمعنيان المذكوران لكل من (قلى) و(ودع) هما من المعاني التي تكشف عنها المعاجم لهذين اللفظين ، ويمكن الرجوع إلى مفردات ألفاظ القرآن للراغب (قلى) ولسان العرب لابن منظور (ودع) .

[2] نظم الدرر ٤ / ٤٥٩ .

فيه الرسول أن يغيب الضمير الدال عليهم عن الكلام ؛ ليتفق ذلك مع جهل القوم بهم ، ولو ذكر ذلك الضمير لأعطى إيحاءً بمعرفة حقيقة عددهم ، وهو ما لا يتفق مع الظاهر من مدلول السياق .

وفضلاً عما سبق فإن ذكر الضمير في هذه المواضع الثلاثة يحدث ـ ولا ريب ـ تنافرًا في تناسق الآية واضطرابًا في الترابط بين أجزائها ، ولو قرأناها بذكر هذه الضمائر هكذا : (سيقولون هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون هم خمسة سادسهم كلبهم ، رجمًا بالغيب ، ويقولون هم سبعة وثامنهم كلبهم) ، ووازنا بينها وبين الآية الصحيحة لرأينا أنها نابية في الذوق يأباها الحس اللغوي السليم .

والملاحظ أن حذف المبتدأ في القرآن يكثر في جواب الاستفهام ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾ (القارعة : ٩ ـ ١١) ، فحذف المبتدأ في مثل هذا الموضع وترك موضعه ، دون عنصر آخر يشغله يخلف من ورائه فراغًا يوحي بتلك الهوة التي يسقط فيها الكافرون في قاع جهنم . ولعل اختيار التعبير القرآني للفظ (هَاوِيَة) اسمًا للنار في هذا الموضع دون غيره من الأسماء يدل على تلك الهوة التي يتردى فيها هؤلاء الكافرون . يقول الزمخشري : "وقيل (هَاوِيَة) من أسماء النار ، وكأنها النار العميقة لهوي أهل النار فيها مهوى بعيدًا ، كما روى (يهوى فيها سبعين خريفًا) أي فمأواه النار . وقيل للمأوى : أمٌّ ، على التشبيه ؛ لأن الأم مأوى الولد ومفزعه . وعن قتادة : ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ ، أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم ، لأنه يطرح فيها منكوسًا"[1] ، فناسب أن يحذف المبتدأ من هذا الموضع ؛ ليشعر الفراغ الناشئ عن ذلك الحذف بتلك الهوة التي يقع فيها من أراد الله به ذلك .

---

[1] الكشاف ٤ / ٧٩٠ .

(ب) حذف الخبر

وقد يعمد الأسلوب القرآني إلى حذف الخبر والإبقاء على المبتدأ ومن ذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ ﴾ (فصلت :٤١) ، وتقديره ــ كما يذكر أبو حيان في بعض الآراء ــ معاندون أو هالكون أو يخلدون في النار[1] . وإنما يرجع هذا الحسن إلى أن السياق الذي وردت من خلاله هذه الآية سياق يحث على الإحسان في القول عند دعوة الناس إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ (فصلت : ٣٣) ، وذلك لأن حسن القول في دعوة الغير إلى أمر معين يلين قلوبهم ، ويجعلهم على استعداد أن يستجيبوا لهذه الدعوة ، فإن من كانت لديه عداوة يصير بهذا اللين في القول كالصديق الحميم ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ ﴾ (فصلت : ٣٤) .

وفي إطار هذه الدعوة من الله إلى عباده بالرفق في القول والمعاملة واللين مع من أساء حتى يرق قلبه نجد أنه عز وجل لا يصرح في توعده لمن عصوه بالعذاب والإلقاء في النار ، وإنما يصرف الخطاب مصرفًا آخر قد يخلو من الوعيد تمامًا ، كما نرى في قوله : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۝ ﴾ (فصلت :٣٨) ، فكان من المتوقع عندما يخبر عن هؤلاء المستكبرين أن

---

(1) البحر المحيط ٧ / ٤٧٨ .

يتوعدهم بالعذاب إن استكبروا ، ولكننا نُفاجأ بهذا الجواب ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ ﴾ .

وقد يكون هذا الوعيد غير مباشر كما نرى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فصلت : ٤٠) . فلم يخبر عز وجل عن هؤلاء الذين يكفرون بآياته أنه معذبهم أو ملقيهم في النار ، ولكنه أخبر أنهم لا يخفون عليه ، وكأنه يقول لهم إن ما تقومون به من أعمال يقع تحت علمي غير خافٍ علي ، فاحذروا من عقابي ، واجتنبوا عذابي .

ثم يأتي سبحانه وتعالى بهذا العذاب الذي يتوعدهم به في صورة مقارنة بين هؤلاء الذين كفروا عند إلقائهم في النار وهؤلاء الذين آمنوا ، إذ يأتون آمنين من عذابه يوم القيامة ، وكأنه يريد منهم أن يتصوروا موقفهم يومئذ مقارنين بينه وبين موقف المؤمنين والفرق الكبير الشاسع بين الموقفين لعلهم يعقلون ذلك ، ويرجعون إلى رشدهم .

واستمرارًا لهذا الخطاب الذي انصرف فيه الأسلوب القرآني عن التصريح بالعذاب يأتي الخطاب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ ﴾ ، إذ يعدل عز وجل عن التصريح إلى حذف الخبر الذي يمكن أن يتضمن ما يتوعدهم به تاركًا هؤلاء الكافرين يتخيلون بأنفسهم ما يمكن أن يصيبهم من ذلك العذاب الذي أعده الله لمن كفر بآياته دون أن يكون في ذلك تصريح منه ، وهو ما يتفق وما يسير عليه السياق .

(ج) تردد الحذف بين المبتدأ والخبر

وقد يكون الحذف في الجملة الاسمية محتملاً لركنيها غير محدد في أحدهما ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ (يوسف : ١٨) . قال ابن عطية : "فصبر جميل رفع إما على حذف الابتداء وإما على حذف الخبر : إما على تقدير : فشأني صبر جميل ، وإما على تقدير فصبر جميل أمثل"[١] . فالحذف هنا ــ كما يوضح صاحب مواهب الفتاح ــ يحتمل أن يكون من باب حذف المسند أو الخبر ، والتقدير (فصبر جميل أمثل أو أجمل لي من الصبر غير الجميل)، وهو الذي تكون معه الشكاية إلى الخلق ، فأحرى كونه أجمل من الجزع ، ويحتمل أن يكون من حذف المسند إليه أو المبتدأ ، والتقدير (فأمري وشأني صبر جميل) ، ويحتمل أن يكون من حذفهما معًا والتقدير (فلي صبر وهو جميل)[٢] .

وهذا التعدد في احتمالات الحذف يثري الكلام إثراءً دلاليًا ؛ لأن العقل يذهب في تقدير المحذوف مذاهب شتى . يقول صاحب مواهب الفتاح :"ولما كان في الحذف احتمالات كل منها يناسب المقام والقرينة يتجه معها كل منها كان الحذف أوسع ، إذ فيه تكثير للفائدة الحاصلة بكل من المحتملين ، بخلاف الذكر ، فإنه معين لأحدهما لخصوصيته فيكون أضيق"[٣] .

ولما كان في المحذوف احتمالات متعددة تكثر معها الفائدة ، فما هي تلك الفائدة الراجعة إلى ذلك ؟ لعل الإجابة عن هذا السؤال تكمن في هذه الحالة من الحزن الشديد التي ألمت بيعقوب عليه السلام نتيجة فقده ابنه ، تلك الحالة التي جعلت الحزن يبلغ به كل

---

[١] المحرر الوجيز ٣ / ٢٢٧ .

[٢] ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح ٢ / ١٠ ــ ١٢ .

[٣] السابق ٢ / ١٢ .

مبلغ إلى الدرجة التي أدت به أن تبيض عيناه . قال تعالى :﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (يوسف ٨٤ ــ ٨٦) . واستخدام التعبير القرآني للفظ (بث) الدال على "أشد الحزن الذي لا يصبر عليه صاحبه حتى يبثه أي يشكوه "[١] . ثم تأكيده بعطف الحزن عليه يصور بوضوح تلك الحالة التي وصل إليها ، فالرجل في حزن شديد لفقد ابنه حزناً يكاد ينفد معه الصبر ، بل إن الصبر نفسه لا يتسع لما يشعر به من ذلك الحزن ؛ لأن مصابه في أبنائه كان أكبر من أن يتسع له صبره وحده ، ولذلك أردف بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ ؛ لأنه تعالى وحده القادر على إعانته وتصبيره على ما ألم به ، ومن هنا نجد بلاغة هذا الحذف التي تكمن في تأرجح المعنى بين وجود اللفظ وغيابه من جهة واستنفاد إحساس يعقوب ــ عليه السلام ــ بالصبر ، واستنفاد الصبر نفسه من جهة أخرى ، فلم يكن ليناسب أن يأتي الأسلوب القرآني بالمسند إليه إذا قلنا إن المذكور هو المسند ، إذ ليس في مقدور يعقوب أن يسند إليه أو إلى حاله هذا الصبر الذي يفوق طاقته ، كما لم يكن ليناسب أن يذكر المسند إذا قلنا إن المذكور هو المسند إليه ، إذ في ذلك تفضيل للصبر المذكور على غيره ، وهو ما يعني أن هناك ما يشبهه من الصبر ، وإن قل عنه في الدرجة ، والمراد أن الصبر الذي يحتاجه لا يشبهه أو يقارنه غيره .

(٣) حذف عناصر مشتركة

هناك عناصر لغوية تقع في وظائف معينة في الجملة ، يمكن حذفها من الكلام ، لا تختص بجملة معينة اسمية أو فعلية ، وإنما هي مشتركة بين الجملتين ، كالمضاف إليه

---

[١] السجستاني : تفسير غريب القرآن ص ٨٠ .

والنعت والمعطوف ، كما أن ثمة عناصر أخرى مشتركة في وظائفها تحذف أيضًا من الكلام ، ولا ينظر في حذفها إلى وظائفها الأساسية ، وإنما إلى وظائف أخرى فرعية تؤديها بجانب تلك الوظائف الأساسية ، كالمضاف والمنعوت . وفيما يلي صور لتلك العناصر ، سواء أكانت واقعة في وظائف أساسية أم فرعية ومناسبة حذفها للسياق .

(أ) حذف المعطوف

قد يقتضي السياق في ظاهره وجود معطوف على أحد الألفاظ المذكورة لإتمام الكلام ، ولكننا نرى الأسلوب القرآني في بعض الأحيان يعدل عن ذكر المعطوف إلى حذفه لغرض دلالي يتطلبه السياق ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران : ٢٦) ، فقال عز وجل : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ ولم يقل والشر .

واختلف العلماء في تعليل ذلك ، فذهب الزمخشري إلى أن حذف المعطوف في هذا الموضع جاء ''لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة ، فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك ، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة ، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه''[١]، وذهب ابن عطية إلى أن الأصل والشر ، فحذف لدلالة أحدهما على الآخر[٢] . وإلى مثل هذا السبب ذهب أبو حيان ، فرأى أن حذف المعطوف ''جائز لفهم المعنى ، إذ أحد الضدين يفهم منه الآخر ، وهو تعالى قد ذكر إيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال ،

---

(١) الكشاف ١ / ٣٥٠ .

(٢) المحرر الوجيز ١ / ٤١٧ .

وذلك خير لناس وشر لآخرين ، فلذلك كان التقدير (بيدك الخير والشر)،،[1]. وذكر القرطبي أنه عز وجل ذكر الخير دون الشر ؛ لأنه موضع دعاء ورغبة في فضله[2] .

وذهب البقاعي إلى أنه عز وجل ''لم يذكر الشر تعليمًا لعباده الأدب في خطابه ، وترغيبًا لهم في الإقبال عليه والإعراض عما سواه ، لأن العادة جارية بان الناس أسرع شيء إلى معطي النوال وباذل الأموال ، وتنبيهًا على أن الشر أهل للإعراض عن كل شيء من أمره حتى عن مجرد ذكره وإخطاره بالبال ، مع أن الاقتصار على الخير يملك الخير كله مستلزم لمثل ذلك في الشر ، لأنهما ضدان ، كل منهما مساوٍ لنقيضِ الآخر ، فإثبات أحدهما نفي للآخر ونفيه إثبات للآخر ، فلا يعطي الخير إلا وقد نفى الشر ، ولا ينــزع الخير إلا وقد وضع الشر،، [3] .

وكل هذه الآراء لها وجاهتها ، إذ تصور تصويرًا متكاملاً سبب حذف المعطوف في هذه الآية . ولعل ما ذكره القرطبي أقرب إلى إبراز علاقة هذا الحذف بالسياق الوارد فيه ومناسبته له ، فالمقام مقام دعاء ورغبة ، وهما لا يكونان إلا لما يتحقق به الخير ، فكان ذكره والاقتصار عليه دون الشر أنسب لمدلول السياق وأقرب إلى غرضه .

(ب) حذف المضاف

وهو كما يذكر السيوطي كثير جدًا في القرآن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ ﴾ (البقرة : ١٩٧) ، أي حج أشهر ، أو أشهر الحج ، وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ ﴾ (البقرة :

---

(1) البحر المحيط ٢ / ٤٣٨ .
(2) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٢ / ٦٤٣ .
(3) نظم الدرر ٢ / ٥٥ .

١٧٧) ، أي ذا البر أو بر من[١] ؛ ومن ذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ (يوسف : ٨٢) ، والتقدير ـ كما يذكر الزمخشري[٢] وابن عطية[٣] وأبو حيان[٤] وغيرهم من المفسرين : اسأل أهل القرية وأصحاب العير ، فحذف المضاف ، وحل المضاف إليه محله ، فوقع السؤال على ما يستحيل الرد منه ، فحسن في هذا الموضع ، لأن ما قاله أخوة يوسف لأبيهم هذه المرة هو ما رأوه بالفعل ، فلم يكذبوا عليه في شيء ، إذ رأوا بأعينهم أن صواع الملك قد استخرج من وعاء أخيهم ، فظنوا أنه قد سرقه بالفعل ، ولم يعلموا أنها حيلة قام بها يوسف أخوهم الذي كانوا يجهلون أمره ، وذلك ليستبقي أخاه معه ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (يوسف: ٧٦) ، فوقع في اعتقادهم لتيقنهم من صدقهم أنه لو سأل أي أحد أو شيء حتى مالا يعقل لأقروا جميعا بصدقهم . قال ابن جني : ''فكأنهم تضمنوا لأبيهم عليه السلام أنه إن سأل الجمادات والجبال أنبأته بصحة قولهم . وهذا تناهٍ في تصحيح الخبر . أي لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا ، فكيف لو سألت مَن مِن عادته الجواب،،[٥] .

هذا بخلاف المرة الأولى التي جاءوا فيها أباهم ، فزعموا أن الذئب قد أكل يوسف وهم يعلمون علم اليقين أنهم كاذبون ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣ / ١٨٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٤٩٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٣ / ٢٧١ .

(٤) البحر المحيط ٥ / ٣٣٢ .

(٥) الخصائص ٢ / ٤٤٧ .

ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (يوسف : ١٥ ــ ١٧) . فلعلمهم بكذبهم لم يطلبوا منه أن يسأل أحدًا أو شيئًا ؛ لأنه سيخبره أنهم كاذبون ، وإنما قالوا مقولة هي في ذاتها دليل على كذبهم ، إذ تعكس ما يشعرون به من عدم تصديق أبيهم لهم وأنهم يدّعون ما لم يحدث ، وهو ما يكشف عنه التأكيد بالباء الزائدة واستخدام الجملة الاسمية واسم الفاعل الدالين على الثبوت في نفيهم تصديقه لهم ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ ، ثم استخدام (لو) الدال على امتناع صدقهم ، ومن هنا حسن وقوع السؤال على ما لا يعقل في الموضع الأول وتركه في الموضع الثاني .

(ج) حذف المضاف إليه

يكثر هذا الحذف ــ كما يذكر السيوطي ــ في ياء المتكلم ، نحو ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ (الأعراف : ١٥١)، وفي الغايات ، نحو ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ (الروم : ٤) ، أي من قبل الغلب ومن بعده ، وفي كل ، وأي ، وبعض ، وجاء في غيرهن[1] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (النساء : ٤٧) . والأصل وجوهكم ، فحذف الضمير (كم) الواقع موقع المضاف إليه . قال أبو حيان كاشفًا عن العلاقة بين هذا الحذف والسياق

---

(1) الإتقان في علوم القرآن ٣ / ١٨٤ .

اللغوي : ''ثم ذكر هذا الوعيد البالغ ، فحذف المضاف إليه من قوله ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ والمعنى : وجوهكم ، ثم عطف عليه قوله ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ فأتى بضمير الغيبة ؛ لأن الخطاب حين كان الوعيد بطمس الوجوه باللعنة ليس لهم ليبقي التأنيس والهم ، والاستدعاء إلى الإيمان غير مشوب بمفاجأة الخطاب الذي يوحش السامع ويروع القلب ، ويصير أدعى إلى عدم القبول وهذا من جليل المخاطبة وبديع المجاورة ،،[1] .

(د) حذف الصفة

قد يعمد الأسلوب القرآني في بعض الأحيان إلى حذف اللفظ الواقع صفة ، نحو قوله تعلى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ (آل عمران : ١٣) ، والأصل فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، فحذفت الصفة لذكر لازمها وهو القتال في سبيل الله و لدلالة لفظ (كَافِرَة) عليها دلالة لزوم . يقول أبو حيان في تقدير المحذوف من هذه الآية وعلة حذفه : '' أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، فحذف من الأولى ما أثبت مقابله في الثانية ، ومن الثانية ما أثبت نظيره في الأولى ، فذكر في الأولى لازم الإيمان وهو القتال في سبيل الله ، وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان وهو الكفر،،[2]. فلما دل السياق دلالة لزوم على المحذوف من الألفاظ كان ذكره من قبيل الزيادة التي يستغني عنها ، فحسن الحذف . قال ابن الأثير :'' ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة

---

(1) البحر المحيط ٣ / ٢٧٩ .

(2) السابق ٢ / ٤١١ .

والحسن ،، [1] . ولا شك أن ذكر ما حذف من هذه الآية لا يعطيها ما هي عليه من الحسن بعد الحذف .

(هـ) حذف الموصوف

وكما يعمد الأسلوب القرآني إلى حذف الصفة أحيانًا فإنه في أحيان أخرى قد يحذف الموصوف مبقيًا على الصفة دالة عليه ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء : ٩) ، فقال عز وجل ﴿ لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ بذكر الصفة دون موصوفها .

وقد اختلف العلماء في تقدير هذا الموصوف ، فذهب الضحاك و الكلبي إلى أن المقصود شهادة التوحيد[2] ، وكذا ذهب الفراء[3] ، وذهب الزجاج كذلك إلى أن المقصود : للحالة التي أقوم ، وهي توحيد الله أي ، شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان برسله والعمل بطاعته[4] . وقال مقاتل : للأوامر والنواهي[5] ، وذهب الزمخشرى إلى أن التقدير : للحالة التي هي أقوم و أسدها أو للملة أو للطريقة[6] .

وهذا الاختلاف في التقدير يثري الدلالة ، ويوحي بأن المحذوف قد يشمل هذه المقدرات جميعًا ، ولو عين أحدها لانحصرت الدلالة فيه دون غيره ، وضاق المعنى عليه ،

---

(1) المثل السائر ٢ / ٧٧ .
(2) أبو حيان : البحر المحيط ٦ / ١١ .
(3) معاني القرآن ٢ / ١١٧ .
(4) معاني القرآن وإعرابه ٣ / ٢٢٩ .
(5) أبو حيان : البحر المحيط ٦ / ١١ .
(6) الكشاف ٢ / ٦٥١ .

فأدى الحذف إلى إطلاق الخيال للعقل أن يتصور من أمور الهداية مــا يتــصور ، فكلهــا يحتملها المعنى ، وهو ما يتفق ومدلول السياق الذي يتحدث عن القرآن ، والهداية لا تقتصر فيه على أمر بعينه ، بل إنه يهدي إلى أشياء عديدة ، كالتوحيد والدين القــويم وأوامــر الله ونواهيه وغير ذلك ، ومن هنا كان الحذف أولى وأقرب إلى ما يهدف إليه الــسياق . قــال الزمخشرى :''و أينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما فــي إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه،، [١] ، وقال البقــاعي : ''ولمــا كــان صاحب الذوق السليم يجد لحذف الموصوف هزة وروعة ، لما يجد من الفخامة بإبهامــه لا يجدها عند ذكره و إيضاحه ، قال : (للتي) أي للطرائق والأحوال والسنن التي (هي أقــوم) من كل طريقة وسنة وحال دعا إليها كتاب من الكتب السماوية،، [٢] .

---

(١) الكشاف ٢ / ٦٥١ .

(٢) نظم الدرر ٤ / ٣٦٤ .

المبحث الثالث

المناسبة بين زيادة اللفظ والسياق اللغوي

الزيادة أحد أشكال العدول عن الأصل في اللغة العربية ، فالجملة فيها لها عناصرها الأساسية وعناصرها الفرعية التي تأتي في صورة فضلات أو موسعات .

وقد تدخل على النمط التركيبي الأساسي أو الجملة عناصر لغوية غير أساسية أو فرعية يمكن أن يستغنى عنها التركيب ، ويظل صحيحا نحويًا ودلاليًا ، وهذه العناصر هي ما يسميها النحويون الألفاظ الزائدة ، وإنما تدخل على الكلام لتسلك به مسالك أسلوبية معينة لا تتحقق إلابها ، وغرضها الأساسي التوكيد قال ابن جني : " وأما زيادتها فلإرادة التوكيد بها . وذلك أنه قد سبق أن الغرض في استعمالها إنما هو الإيجاز والاختصار ، والاكتفاء من الأفعال وفاعليها ، فإذا زيد ما هذه سبيله فهو تناهٍ في التوكيد به"[1] . وقال الرضي مؤكدًا هذا المعنى وموضحًا الفائدة المحصلة من زيادتها : "فائدة الحرف الزائد في كلام العرب : إما معنوية ، وإما لفظية ، فالمعنوية : تأكيد المعنى ، كما تقدم في (مِن) الاستغراقية ، والباء في خبر (ما) و (ليس) ، فإن قيل : فيجب ألا تكون زائدة إذا أفادت فائدة معنوية ، قيل : إنما سميت زائدة ؛ لأنه لا يتغير بها أصل المعنى ، بل لا يزيد بسببها إلا تأكيد المعنى الثابت وتقويته ، فكأنها لم تفد شيئًا لما لم تغاير فائدتها العارضة : الفائدة الحاصلة قبلها"[2] . فإذا لم تكن للألفاظ الزائدة تلك الفائدة عدت حشوًا وعيبًا في الكلام .

وقد اختلف العلماء في ورود الزائد في القرآن الكريم على النحو الآتي : -

---

(1) الخصائص ٢ / ٢٨٤ .

(2) شرح الرضي على الكافية ٤/ ٤٣٢ .

(١) ذهب الأكثرون إلى جواز إطلاق الزائد في القرآن نظرًا إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم ، وهو كثير ، لأن الزيادة بازاء الحذف ، هذا للاختصار والتخفيف ، وهذا للتوكيد والتوطئة[1].

(٢) ومنهم من لا يرى الزيادة في شيء من الكلام ، ويقول : هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جاءت لفوائد ومعانٍ تخصها ، فلا يقضى عليها بالزيادة ، ونُقِل هذا الرأي عن بن درستويه [2].

(٣) ذهب ابن الخشاب ــ فيما يحكيه عنه السيوطي ــ أن التحقيق "إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل لأنه عبث ، فتعين أن إلينا به حاجة ؛ لكن الحاجة إلى الأشياء قد تختلف بحسب المقاصد ، فليست الحاجة إلى اللفظ الذي عده هؤلاء زيادة كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه"[3] .

(٤) ذهب السيوطي إلى أن الحاجة إلى الزائد كالحاجة إلى ما سواه ، سواء بالنظر إلى مقتضى الفصاحة والبلاغة وأنه لو ترك كان الكلام دونه مع إفادته أصل المعنى المقصود أبتر خاليًا عن الرونق البليغ ، لا شبهة في ذلك[4] .

والحق أن الزيادة ثابتة في القرآن ، و الحاجة إليها – كما يذهب السيوطي ـ في المواضع التي ورد فيها كالحاجة إلى غيرها ؛لتحقيق دلالة معينة لا تتحقق بتركها ، وحين نصف بعض الألفاظ بأنها زائدة فليست زيادتها هذه على نص القرآن ، وإنما تنسب زيادتها إلى النحو الذي لابد من رعايته في تحليل النص القرآني . فإن في زيادة المبني تأكيدًا للمعنى كما صرح بذلك ابن جنى والرضي في النصين السابق ذكرهما . وإذا كان النص القرآني فيه تأكيد للمعنى ، والزيادة إحدى وسائل التوكيد فلا حرج إذًا أن نقول

---

(١) الزركشي : البرهان في علوم للقرآن ١ / ٣٨١ .

(٢) السابق ١ / ٣٨١ .

(٣) الإتقان في علوم للقرآن ٢ / ٢٦٨ .

(٤) السابق ٢ / ٢٦٨ .

بوجود ألفاظ زائدة في القرآن . قال الزركشي : ''وليس المراد من الزيادة ـــ حيث ذكرها النحويون ـ إهمال اللفظ ، ولا كونه لغوًا فتحتاج إلى التنكب عن التعبير بها إلى غيرها،،[١] .

وحق الزيادة ـ كما يذكر الزركشي ـ أن تكون في الحروف وفي الأفعال ، وأما الأسماء فنص أكثر النحويين على أنها لا تزاد[٢] . قال ابن هشام : ''والقول بزيادة الحرف أولى من القول بزيادة الاسم ، بل زيادة الاسم لم تثبت،،[٣] .

وأما الأفعال فزيادتها قليلة ، ولم يذكر لهذه الزيادة سوى فعلين : (أصبح) وخُرِّج عليها قوله تعالى : ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة : ٥٣) ، و(كان) ،وخُرِّج عليها قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ (مريم : ٢٩)[٤] ، وكلا اللفظين في الآيتين يمكن حمله على عدم الزيادة ، فأما (أصبح) فقد أبرز ابن أبي الإصبع وجه احتياج السياق إليها وعدم زيادتها إذ يقول : ''لفظة (اصبحوا) يحتاج الكلام إليها ، ومعناه مبني عليها وذلك أنه لما كان مدة الموت والمقام في البرزخ كالليل ، والليل محل النوم لكون الموت كالنوم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ (الزمر : ٤٢) ، وكان آخر ليلة من ليالي البرزخ يتمخض عن يوم القيامة ، والصباح أول كل يوم ، وأول يوم القيامة هو وقت الحساب ، ووزن الأعمال ، ونشر الصحف ، والوقت الذي ينطق فيه الكتاب ، وهناك يتبين الربح من الخسران وذلك الوقت هو صباح يوم القيامة ، وباقي ذلك اليوم ظرف

---

[١] البرهان في علوم القرآن ٣ / ٨١ .
[٢] السابق ٣ / ٨٢ .
[٣] مغني اللبيب ١ / ٢٠٣ .
[٤] السيوطي : معترك الأقران ١ / ٢٥٦ .

للثواب والعقاب فمن قبلت أعماله أصبح فيه رابحًا ، ومن حبطت أعماله أصبح فيه خاسرًا ، ولما أخبر سبحانه عن هؤلاء الأشقياء بأنهم حبطت أعمالهم علم بالقطع أنهم أصبحوا خاسرين ، فلفظة (أصبحوا) لا يصلح غيرها في موضعها ولا يتم المعنى إلا بها،،[1] .

أما (كَان) في الآية الثانية فذهب ابن الأنبارى إلى أنها تكون زائدة أو تامة بمعنى وقع أو حدث ، واستبعد أن تكون ناقصة . والأولى أن تحمل على عدم الزيادة فتكون تامة كما يذكر ابن الأنبارى في أحد رأييه السابقين أو أن تكون ناقصة[2] ، وهو ما يذهب إليه الزمخشري ، ويعلل ذلك قائلاً : '' (كَان)لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مبهم يصلح لقريبه وبعيده ، وهو ههنا لقريبه خاصة ، والدال عليه مبنى الكلام ، وأنه مسوق للتعجب ووجه آخر : أن يكون (نكلم) حكاية حال ماضية ، أي : كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيًا في المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا ،،[3] .

وإلى مثل هذا الرأي ذهب أبو حيان ولكنه علل الأمر تعليلاً آخر قال : ''والظاهر : أنها ناقصة فتكون بمعنى (صار) ، أو تبقي على مدلولها من اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضي ، ولا يدل ذلك الانقطاع كما لم يدل في قوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء : ١٠٠) ، وفي قوله :﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾

---

[1] بديع القرآن ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

[2] البيان في غريب إعراب القرآن ٢ / ١٢٤ ، ١٢٥ .

[3] الكشاف ٣ / ١٥ .

(الإسراء : ٣٢) ، والمعنى كان وهو الآن على ما كان ، ولذلك عبر بعض أصحابنا عن (كَان) هذه بأنها ترادف لم يزل،،[١] .

وأما الحروف فهي أصل الزيادة وبابها ، كذا ذكر السيوطي[٢] ، وما يكثر زيادته منها في الكلام (إن) و(أن) و(لا) و(ما) و(من) و(الباء) و(اللام) ، يضاف إلى ذلك (الكاف) ، وتقل زيادتها [٣] ، وكذلك هاء السكت .

وفيما يلي صور لما يزاد من الحروف السابقة في القرآن ومناسبة زيادتها لسياقها اللغوي ، الذي وردت فيه :

(١) زيادة (مـــا)

ذهب المالقي[٤] والمرادي[٥] أن (ما) هذه تزاد لمجرد التوكيد ، ولم يذكرا لها غير هذا المعنى ، وذكر ابن الأثير معنى آخر تكتسبه في بعض المواضع ، وهو التفخيم[٦] . وقد ورد هذا الحرف زائدًا في القرآن في أكثر من موضع ، ولاسيما بين الجار ومجروره ، فزيد بعد الباء في ثلاثة مواضع ، قوله تعالى :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ، وقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ (النساء : ١٥٥) ، ومعهما آية المائدة ١٣ ، كما زيد بعد (عن) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ

---

[١] البحر المحيط ٦ / ١٧٧ .
[٢] معترك الأقران ١./ ٢٥٦ .
[٣] الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٨٥ .
[٤] رصف المباني ص ٣١٧ .
[٥] الجنى الداني ص ٣٣٢ .
[٦] المثل السائر ١ / ٣٥٨ .

نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (المؤمنون : ٤٠) ، وبعد (من) في قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ ﴾ (نوح : ٢٥) .

ولنحاول الآن تناول إحدى هذه الآيات ؛ لإبراز مناسبة زيادة (ما) فيها للسياق اللغوي ، ولتكن الآية الأولى ، إذ سيقت في إطار الحديث عن عصيان الرماة لأوامر الرسول في غزوة أحد ، وهو ما أدى إلى أن يقتل من المسلمين ناس كثير ثم هزيمتهم في نهاية الأمر[1] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ (آل عمران : ١٥٢) .

ثم يصور القرآن موقف تلك الطائفة من المنافقين الذين كانوا يبدون الإيمان ، إذ خرجوا مع المؤمنين للقتال وهم كارهون متأسفون على خروجهم ، يظنون أن أمر الرسول باطل وأنه لن يُنصر ، ويودون لو ظلوا في بيوتهم لا يقاتلون[2]﴿ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ ﴾ (آل عمران : ١٥٤) .

---

[1] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٣ / ١٥٤ .

[2] السابق ٣ / ١٦٢ .

ثم يتحدث بعد ذلك عن هؤلاء الذين خرجوا مع النبي ؛ ليقاتلوا عدوهم ، ولكنهم ما لبثوا أن تولوا عن المشركين يوم أحد ، وورد عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنهم من هربوا إلى المدينة عند الهزيمة دون من صعدوا الجبل[1]﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ (آل عمران : ١٥٥) .

وكل هذه مواقف تدعو إلى الغضب والغيظ وعدم اللين من الرسول صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء ، ولكنه لم يفعل شيئًا من ذلك ، بل كان لينًا معهم رحيمًا بهم ، وهذا هو ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾ . يقول ابن عطية في تفسيرها : ''ومعنى الآية : التقريع لجميع من أخل يوم أحد بمركزه ، أي كانوا يستحقون الملام منك ، وألاّ تلين لهم ، ولكن رحم الله جميعكم ، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم ، وبعثك لتتم محاسن الأخلاق ، وهم بأن لينك لهم وجعلت بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم وأنك ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾''[2] .

وهذه الرحمة منه مع جميع ما فعلوه ليست بالرحمة العادية ، ولكنها رحمة عظيمة وهبها الله إياه حتى تتسع لما فعلوه ، ولوصفها بتلك الصفة أكدها الأسلوب القرآني بـ (ما) التي توحي بالتفخيم والتعظيم ناسبًا إياها إلى الله لتأكيد هذه الصفة فيها . يقول الشريف الرضي موضحًا دلالة (ما) في هذه الآية : ''(ما) ههنا لها فائدة معلومة ، وذلك

---

(1) السابق ٣ / ١٦٤ .

(2) المحرر الوجيز ١ / ٥٣٣ .

أن معناها تفخيم قدر الرحمة التي لان بها لهم ، فكأنه قال تعالى : فبرحمة عظيمة من الله لنت لهم،،[١] .

يضاف إلى ما سبق أن حروف المد تكسب الألفاظ دلالات معينة ''فجاء هذا المد في (ما) وصفًا لفظيًا يؤكد معنى اللين ويفخمه ، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يُبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظة الرحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه ، وذلك كله طَبَعِيّ في بلاغة الآية،، [٢] . فأدى ذلك كله إلى تحقق المناسبة بين زيادة اللفظ في هذه الآية والسياق اللغوي .

وعلى هذا النحو من المناسبة يمكن حمل سائر الآيات التي زيدت فيها (ما) بعد حروف الجر . وقد تزاد (ما) بعد (إذا) و(إن) الشرطيتين ، وزيادتها بعدهما كثيرة[٣] .

ومما ورد من ذلك في القرآن قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (فصلت : ٢٠) ، وهو بخلاف ما ورد في آيات أخر ، إذ ترك الأسلوب القرآني هذه الزيادة ، نحو قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي ﴾(النمل : ٨٤) .

وفي تعليل تلك المغايرة يقول ابن جماعة مبرزًا وجه المناسبة بزيادة (ما) في الأولى وتركها في الثانية : ''إذا أريد تحقيق جزاء الشرط لبعده من معناه أكدّ بـــ (ما)

---

[١] حقائق التأويل في متشابه التنــزيل ٥ / ١٦٩ .

[٢] مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٩٧ .

[٣] المرادي : الجنى الداني ص ٣٣٢ .

على عادتهم عند قصد التأكيد بزيادة الحروف ، وإذا لم يكن الجزاء بعيدًا من معنى الشرط لم يحتج إلى تأكيد . ولفظ المجيء لا يعقل منه ، ولا يفهم شهادة السمع والبصر فاحتاج إلى تأكيد الشرط بـــ (ما) وسؤال الخلق عند مجيئهم في القيامة مفهوم منه لعلمهم أن الحشر لذلك ، فلم يحتج إلى توكيد،، [1] .

(٢) زيادة (مِن)

تأتي (من) الزائدة لنفي الجنس أو استغراق نفيه[2] ، نحو (ما جاء من رجل) ، والفرق بين المعنيين ــ على حد قول المالقي ــ ''أن التي لنفي الجنس يحتمل ما بعدها أن ينفي مفرده اللفظي أو جنسه المعنوي ، فيحتمل أن تريد جنس الرجال ، ويحتمل أن تريد الرجل الواحد ، والتي لاستغراقه لا تنفي إلا الجنس بكليته ولا تبقي منه شيئًا،، [3] . وهذا المعنى فيه تنصيص على لعموم ، وهو ما ذكره ابن هشام في مثل هذا الموضع[4] ، ويوضح الفرق في المعنى في نحو المثال المذكور سابقًا قبل دخولها وبعده قائلاً : ''فإنه قبل دخولها يحتمل نفي الجنس ونفي الوحدة ؛ ولهذا يصح أن يقال (بل رجلان) ويمتنع ذلك بعد دخول (من)،، [5] .

وبمقتضى هذا المعنى الذي تدل عليه (مِنْ) الزائدة يمكننا أن ندرك وجه المناسبة بينها وبين سياقها الذي وردت فيه في بعض آيات الذكر العزيز ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الأنعام :

---

(1) كشف المعاني ص ٣٢٨ .

(2) المالقي : رصف المباني ص ٣٢٤ .

(3) السابق : ٣٢٤ .

(4) مغني اللبيب ١ / ٣٥٣ .

(5) السابق ١ / ٣٥٣ .

٥٩) . فالمقام هنا مقام إبراز لقدرة الله ، فلا يعلم الغيب إلا هو ، وهو الذي يحيط علمًا بما في البر وما في البحر ، ولا توجد ورقة تسقط من مكانها ولا حبة في الأرض ولا نبات رطب أو يابس إلا ويقع في إطار علمه ، فهو العالم بكل شيء لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . وبمقتضى هذه الإحاطة الشاملة والعلم الواسع الذي لا يخرج عنه شيء حسن أن يأتي الأسلوب القرآني في هذا الموضع بالحرف الزائد (مِن) الذي يدل على استغراق الجنس والتنصيص على العموم ، ليستغرق الحكم بعلمه جميع أفراد الجنس الذي يقع عليه السقوط ، فيتفق في هذا المعنى مع ما يوحي به السياق من دلالة على العموم .

وعلى هذا النحو من بديع استعمال (مِنْ) الزائدة نرى قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (فاطر : ١١) .

فالسياق هنا كسابقه يبرز قدرة الله المطلقة وعلمه الشامل المحصي لكل شيء ، فهو عز وجل الذي خلق الناس من تراب ثم من نطفة ، وبهذه القدرة أحاط بكل ما خلق علمًا ، فما تحمل من أنثى ، ولا يزداد من عمر إنسان أو ينقص إلا ويندرج تحت علمه ، ومن هنا ناسب استعمال الأسلوب القرآني اللفظ الدال على استغراق الجنس ؛ ليتفق في هذا المعنى مع استغراق علمه عز وجل ما تحمله كل أنثى وما يزيد من العمر وينقص .

(٣) زيادة (أنْ)

تزاد (أنْ) ــ كما يذكر ابن هشام ــ في أربعة مواضع ، وذلك بعد (لمَّا) الظارفية ، وهو الأكثر ، وبين (لو) وفعل القسم ، وبين الكاف ومخفوضها ، وهو نادر ،

وبعد (إذا) [1] ، وهي تدل في ذلك كله ـ على حد قوله ـ على التوكيد[2] . وزعم الأخفش أنها تزاد في المواضع السابقة ، وجعل من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢٤٦) ، وذكر أنها تزاد في هذا المعنى كثيرًا ، والتقدير عنده : وما لنا لا نقاتل[3] . ولم يقبل ابن هشام هذا الرأي، وذهب إلى أنها مصدرية . قال : ''والصواب قول بعضهم : إن الأصل وما لنا في أن لا نفعل كذا ،،[4].

ولم تقع (أنْ) هذه زائدة في القرآن إلا بعد (لمّا) وذلك إذا أخذنا برأي ابن هشام بعدم زيادتها في المواضع التي ذكرها الأخفش وتخريجها على المصدرية ، وتنحصر تلك المواضع في آيات ثلاث : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (يوسف:٩٦)، وقوله تعالى :﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (القصص : ١٩) ، وقوله عز وجل :﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (العنكبوت : ٣٣) .

---

[1] مغني اللبيب ١ / ٤٢ .

[2] السابق ١ / ٤٣ .

[3] الأخفش : معاني القرآن ١ / ١٩٤ .

[4] مغني اللبيب ١/ ٤٣ .

والناظر إلى الآيات السابقة من خلال سياقها الذي وردت فيه يجد أن الحرف الزائد فيها قد اكتسب دلالة أخرى تضاف إلى دلالته على التوكيد التي أشار إليها ابن هشام ، وهي الدلالة على التراخي الزمني ، فوقوع (أنْ) فاصلة بين (لمّا) والفعل الداخلة عليه فيه إيحاء بطول الوقت ، وأن الأمر لم يحدث مباشرة . قال ابن الأثير :''إذا وردت (لمّا) وورد الفعل بعدها بإسقاط أن دل ذلك على الفور ، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور ، وإنما كان فيه تراخٍ وإبطاء،،[1].

وإذا رجعنا إلى الآيات السابقة وجدنا أن المناسبة في الأولى منها هي من قبيل المناسبة بين اللفظ وسياق الحال ، وهو ما نستدل عليه من رأي ابن الأثير في هذه الآية ، قال : ''فإنه إذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه في الجب وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم إبطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون في طول الوقت تلك المدة ، ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بـــ (أنْ) بعد (لمّا) وقبلِ الفعل ، بل كانت تكون الآية : فلما جاء البشير ألقاه على وجهه،،[2] . وفي هذا المعنى نفسه يقول ابن الزبير :''لما كان مجيء البشير إلى يعقوب ، عليه السلام ، بعد طول الحزن وتباعد المدة ناسب ذلك زيادة (أنْ) لما في مقتضى وصفها من التراخي،،[3] .

أما الآية الثانية فقد وردت في سياق الحديث عن إرادة موسى أن يبطش بعدوه ، وهي إرادة يشوبها الخوف والتردد وعدم الرغبة في الإقبال على مثل هذا الأمر ، إذ قد سبق أن عاهد ربه ألا يفعل مثل هذه الفعلة بعد ما تقدم منه من قتل نفس بغير حق ، ثم تاب وأناب . قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ

---

[1] المثل السائر ٢ / ١٥٢ .
[2] السابق ٢ / ١٥٣ .
[3] ملاك التأويل ٢ / ٦٦٥ .

يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (القصص: ١٥ ـ ١٧) .

وهذا التردد الذي كان فيه موسى ورغبته غير الصادقة في الإقدام على أن يفعل شيئًا عاهد ربه ألا يفعله جعله يبطيء في البطش بعدو من يستغيث به ، يدل على ذلك طول الحديث الذي تحدث به الرجل إلى موسى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (القصص : ١٩) . ولو كانت نيته صادقة في البطش به خالية من التردد لفعل ، كما حدث منه في المرة السابقة ، إذ ضرب الذي من عدوه ، وقضى عليه بمجرد أن استغاثه من هو من شيعته ، والدليل على ذلك تلك الفاء التي استعملها النص القرآني في الفعلين (وكز) و(قضى) والتي تدل على التعقيب والسرعة دون مهلة . قال ابن الأثير : ''فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ﴾ بتكرير (أنْ) مرتين دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول ، بل كان عنده إبطاء في بسط يده إليه ، فعبّر القرآن عن ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ﴾'' [1] . ومن هنا ناسب أن يأتي الأسلوب القرآني بـ (أنْ) الزائدة فاصلة بين (لمّا) والفعل ؛ لتدل على ذلك التراخي الزمني الذي حدث نتيجة تردد موسى .

---

[1] المثل السائر ٢ / ١٥٢ .

وأما الآية الثالثة فزيدت فيها (أنْ) على الرغم من ترك تلك الزيادة في آية أخرى مشابهة لها ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (هود : ٧٧) .

وقد ذهب الكرماني في تعليل تلك المغايرة عند حديثه في آية العنكبوت إلى أنه "(لمّا) يقتضي جوابًا ، وإذا اتصل به (أنْ) دل على أن الجواب وقع في الحال من غير تراخٍ كما في هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ومثله في يوسف : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ وفي هود اتصل به كلام بعد كلام إلى قوله :﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ (هود : ٨١) . فلما طال لم يحسن دخول (أنْ)"[١] .

وإلى مثل هذا الرأي ذهب الزمخشري ، فرأى أن "(أنْ) صلة أكدت وجود الفعلين مترتبًا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما ؛ كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث ، خيفة عليهم من قومه"[٢] .

والنظرة التي ينظر بها كل من الكرماني والزمخشري إلى ما تدل عليه (أنْ) في آية العنكبوت تعتمد على ما تدل عليه من ربط جواب (لمّا) بشرطها وسرعة حدوث ذلك الجواب ، ولم ينظرا إلى ما دل عليه ذلك الفصل الذي أحدثته بين (لمّا) والفعل ، وهو ما

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ١٩٩ .

(٢) الكشاف ٣ / ٤٥٣ .

ينظر إليه ابن الأثير ، كما اتضح لنا من كلامه السابق . ولو نظرنا إلى الأمر بتلك النظرة متأملين سياق كلتا الآيتين لوجدنا أن الأمر له بُعد آخر ، فالسياق الذي وردت من خلاله آية العنكبوت ، يصور لنا ذلك الحوار الذي حدث بين إبراهيم ورسل ربه وإخبارهم له أنهم جاءوا ليهلكوا أهل قرية لوط لظلمهم ، فذكرهم أن فيها لوطا خشية منه أن يمسه سوء ، فردوا عليه بأنهم يعلمون من فيها وأنهم منجوه إلا امرأته : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (العنكبوت : ٣١ ــ ٣٢) .

وهذا الحوار بينه وبينهم ــ لا ريب ــ استغرق وقتًا ، ولو يسيرًا ، فجاءت (أنْ) فاصلة بين (لمّا) والفعل في الآية التي تلت الآيتين السابقتين ، لتعبر عن ذلك الوقت الذي مكثوا فيه مع إبراهيم يجادلهم بشأن هؤلاء ؛ ولتدل على أن ذهابهم لم يكن على الفور .

أما السياق الذي وردت من خلاله آية هود فلم يكن فيه ذلك الحوار بينه وبين رسل ربه بشأن قوم لوط ، وإنما اتجه حواره إلى ربه ، بدليل قوله تعالى : (يُجَٰدِلُنَا) ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (هود : ٧٤ ــ ٧٦) . فالسياق هنا يصور موقف إبراهيم بعد انصراف رسل ربه متجهين إلى قوم لوط ، فجاءت الآية بعد ذلك خالية من (أنْ) ؛ لتعبر عن الانصراف بالوصول إلى قوم لوط دون مهلة أو تراخٍ .

(٤) زيادة الباء

من الحروف التي تكثر زيادتها في القرآن (الباء) ، وغالبًا ما تأتى مقترنة بخبر (ما) المفرد ، وتدل عندئذ على التوكيد[1] . فإذا ما دخلت بعدها (كان) ينصب الخبر بـ (كان) هذه مفردًا غير مقترن بالباء ، وقد ورد ذلك في ستة وأربعين موضعًا ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (البقرة : ١٦)، وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ (الأعراف : ٧) . أما في غير هذا الأسلوب فالأكثر زيادتها ، ونرى ذلك في سبعة وثمانين موضعًا في القرآن ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ (البقرة : ٨ ــ ٩) ، وقوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ ﴾ (فاطر: ٢٢ ــ ٢٣) .

فأما الآية الأولى فزيدت فيها الباء توكيدًا لنفي الإيمان عن هؤلاء المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، فيظهرون الإيمان قولاً لا فعلاً ، فجاء الأسلوب القرآني نافيًا حقيقة ذلك الإيمان عنهم ومؤكدًا هذا النفي بالباء وأن خداعهم بهذا القول لا يتعدى خداع أنفسهم . قال الزمخشري : ''فإن قلت : كيف طابق قوله : ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ قولهم : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ والأول في ذكر شأن الفعل لا الفاعل ، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل ؟ قلت : القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك في ذلك طريقًا أدى إلى الغرض المطلوب .وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره ، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين ، لما علم من حالهم المنافية لحال

---

[1] الرماني : معاني الحروف ص ٤٠ .

الداخلين في الإيمان . وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة ، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع،،[1] ، فحسن دخول الباء في هذا الموضع ؛ لتوكيد نفي اتصافهم بصفة الإيمان .

وأما الآية الثانية فجاءت مؤكدة للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن هؤلاء القوم الذين ضلوا عن الحق كالموتى ، لا يسمعون وأنه ليس مطلوبًا منه أن يهديهم ، وإنما يقع ذلك على الله . يقول تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة : ٢٧٢) ، وما عليه إلا أن ينذرهم ويبلغهم بما أوحى الله إليه ، فحسن زيادة الباء في هذا الموضع تأكيدًا لهذا المعنى .

ولم تتخلف هذه الباء عن الدخول في خبر (ما) النافية إلا في موضعين فقط : قوله تعالى : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف : ٣١) ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ (المجادلة : ٢) ، وإننا لنرى في كل هذه الآيات التي اقترن فيها خبر (ما) بالباء ''أن المقام مقام جحد وإنكار ، ولعله قد أغنى عنها في آيتي المجادلة ويوسف ، التقرير المستفاد من القصر بعدهما : ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ كما أغنى عنها في خبر (ما كان) أن النفي بهذا الأسلوب يفيد الجحد ، فاستغنى عن الباء،،[2] .

---

[1] الكشاف ١ / ٥٥ .

[2] د . عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ص ١٨٦ .

وتكثر زيادة الباء كذلك في خبر (ليس) التي لم تدخل عليها همزة الاستفهام [١] ، وتدل أيضًا على التوكيد[٢] ، ونرى ذلك في اثني عشر موضعًا من القرآن ، منها ــ على سبيل المثال ــ قوله تعالى : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ﴾ (آل عمران : ١٨١ ــ ١٨٢) ، وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ (المائدة : ١١٦) ، فحسنت زيادة الباء في الآية الأولى من الآيتين السابقتين ؛ لأنه قد تقدمها قوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ، فجاءت مؤكدة أن العذاب لا يقع على أحد إلا بسبب ما اقترفه من آثام وما تقدم من ذنوب ، فالله لا يظلم أحدًا ، وإنما يحاسب كل إنسان بحسب ما عمل .

وأما الآية الثانية فكان الخطاب فيها موجهًا من الله إلى عيسى يسأله إن كان قد طلب من الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله ــ وهو عز وجل أعلم بما قاله ــ ، فراعه وأفزعه ما اتهم به ؛ لذلك كان رده قاطعًا بتنـزيه الله أن يكون له شريك نافيًا أن يكون قد قال مثل هذا القول ، فلم يكتفِ أن ينفي هذا الزعم نفيًا عاديًا ، بل بالغ فيه مؤكدًا إياه بالباء حتى ينفي الأمر عنه نفيًا لا شبهة فيه ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة : ١١٧) .

---

[١] لما ليس لتي تدخل عليها همزة الاستفهام فيطرد دخول لباء في خبرها ، ونرى ذلك في لحد عشر موضعًا من لقرآن .

[٢] شرح الرضي على الكافية ٤ / ٤٣٢ .

وعلى هذا النحو تأتى سائر الآيات التي زيدت فيها الباء بعد (ليس) ، فنراها مؤكدة للنفي ''ولا يستوي البيان بهذه الباء ، والاستغناء عنها في خبر (ليس) بأسلوب النفي البسيط المعتاد ، حين يقول قائل الجملة الخبرية غير مستيقن مما ينفيه ، بل يجري لسانه بهذا النفي وفي نفسه من الأمر شيء يمنع من التقرير والجحد ، كالذي في آية الرعد : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ (الرعد : ٤٣) . أو يكون المقام به حاجة إلى التثبت قبل نفي الخبر ، كآية النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (النساء : ٩٤) . أو يغني عن تقرير النفي بالباء تعقيب على الجملة الخبرية بما ينقلها من الإخبار عن غيب لم يقع إلى ماضٍ قد تقرر وكان ، كآية هود : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (هود : ٨)،،[1] .

وليست هذه الآيات الثلاث السابقة ، فحسب هي التي استغنى فيها الأسلوب القرآني عن الباء كما تذكر د. عائشة [2] ، وإنما هناك آية رابعة جاءت على النمط نفسه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ

---

[1] د . عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

[2] السابق ص ١٨٨ .

وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (آل عمران : ١١٢ ــ ١١٣) . فجاء الأسلوب القرآني هنا مستغنيًا عن الباء ؛ لأن السياق سياق مقارنة بين من باء بغضب من الله ومن هم قائمون يتلون كتاب الله أناء الليل والنهار يعبدونه ويسجدون له , والفرق بين الطائفتين لا يحتاج إلى توكيد ؛ لذلك جاء الأسلوب القرآني مستغنيًا عنها .

(٥) زيادة (لا)

تأتي (لا) لعدة معانٍ فقد تكون نافية أو ناهية أو زائدة [(١)] ، وهذه الأخيرة تدخل في الكلام ــ كما يذكر ابن هشام ــ لمجرد تقويته وتوكيده [(٢)] . وقد وردت في أكثر من موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الفاتحة : ٦ ــ ٧) ، فـ (لا) هنا ــ على حد قول المرادي ــ زائدة لتوكيد النفي[(٣)] ، فالأصل غير المغضوب عليهم والضالين . ولو جاء الأسلوب القرآني بهذا الأصل دون زيادة (لا) لتُوُهم عطف (ٱلضَّآلِّينَ) على (ٱلَّذِينَ) ، فيختل المعنى المراد . قال أبو حيان : ''وعين دخولها العطف

---

(١) المرادي : الجنى الداني ص ٢٩٠ .

(٢) مغني اللبيب ١ / ٢٧٥ .

(٣) الجنى الداني ص ٣٠١ .

على قوله : (ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ) لمناسبة (غَيۡرِ) ولئلا يتوهم بتركها عطف(ٱلضَّآلِّينَ) على(ٱلَّذِينَ)،،[١]، ومن هنا كانت زيادتها مناسبة لرفع التوهم من السياق .

وعلى هذا النحو من الزيادة كذلك نرى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝ ﴾ (الأعراف : ١١ ــ ١٢) . قال أبو حيان في (لا) هنا : ''الظاهر أن (لا) زائدة تفيد التوكيد والتحقيق كهي في قوله : ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ ﴾ (الحديد : ٢٩) ، أي : لأن يعلم . وكأنه قيل ليتحقق علم أهل الكتاب ، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك إذ أمرتك،،[٢] ، وقال المالقي : ''فما قالوا في زيادتها من الجهتين صحيح لفظًا ومعنى ، لا مدفع فيه،، [٣] . واستدل أبو حيان[٤] وابن هشام[٥] وغيرهما على زيادتها في هذه الآية بسقوطها في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ (ص : ٧٣ ــ ٧٥) .

---

[١] البحر المحيط ١ / ١٥٠ .

[٢] البحر المحيط ٤ / ٢٧٣ .

[٣] رصف المباني ص ٢٧٤ .

[٤] البحر المحيط ٤ / ٢٧٣ .

[٥] مغني اللبيب ١ / ٢٧٥ .

وفي تعليل تلك المغايرة يقول الخطيب الإسكافي : ''اقتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بأعيانها وإنما المقصود ذكر المعاني ، فإن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان اختلافها واتفاقها سواء . فقوله عز وجل هنا ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ . وقوله في الحجر : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٣٢) ، وقوله في ص : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ . أقوال ثلاثة في بعض ألفاظها اختلاف وفي المعنى اتفاق ، وهي ما منعك أن تسجد ، وما منعك أن لا تسجد ، وما لك ألا تكون مع الساجدين،، [١] .

وما ذكره صاحب الدرة ما هو إلا تعليل عام لم يراعِ فيه علاقة اختلاف الألفاظ بالسياق الوارد فيه كل لفظ . والمتأمل في هذا السياق يرى أن آية ص قد صرح قبلها بكفر إبليس ، ومن كان فاجرًا لا يستغرب منه ألا يطيع أمر الله ، ويظهر معصيته ؛ لذا لم تكن ثمة حاجة في هذا الموضع إلى تأكيد عدم سجوده بزيادة (لا) الدالة على هذا المعنى ، فكان قوله :﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ .

وأما آية الأعراف فلم يصرح قبلها بلفظ الكفر أو الاستكبار ، وإنما كان التصريح بنفي كونه من الساجدين فحسب ، وعدم طاعته لأمر الله له بالسجود يعد مستغربًا منه ، خاصة أنه وصل إلى مكانة من الله لم يصل إليها كثير غيره ، فالذي تُوقِّع مع تلك المكانة أن يكون أول الطائعين ، بمجرد أن يؤمر بالسجود ، فلما جاء فعله عكس ذلك استنكر الله عليه عدم سجوده على الرغم من أمره له بذلك ، وقوله عز وجل :﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ يوحي بأن هذا الاستنكار والتوبيخ سببهما الأساسي عدم تنفيذه لما أراد الله منه بمجرد أن يؤمر

---

[١] درة التنــزيل ص ٧٧ .

به ، فالاستنكار والتعجب في الأساس ينصبان على هذا الأمر ؛ لذلك جاءت (لا) الزائدة في هذا الموضع لتأكيد عدم استجابته لأمر الله ؛ على الرغم من تلك المكانة التي وصل إليها والتي كان من المتوقع أن تجعله أول من يطيع أمر الله .

(٦) زيادة الكاف

للكاف في اللغة العربية معانٍ عديدة ، منها التوكيد ، وهي الزائدة[١] ، ولم ترد في القرآن إلا في موضعين : قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى : ١١) . وقوله : ﴿ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الواقعة : ٢٢ ــ ٢٣) . قال ابن هشام في الآية الأولى : " قال الأكثرون : التقدير ليس شيء مثله ؛ إذ لو لم تقدر زائدة صار المعنى ليس شيء مِثْل مِثْله ، فيلزم المحال ، وهو إثبات المِثْل ، وإنما زيدت لتوكيد نفي المِثْل ؛ لأن زيادة الحرف بمنـــزلة إعادة الجملة ثانيًا ، قاله ابن جني ، ولأنهم إذا بالغوا في نفي الفعل عن أحد قالوا : (مِثْلُكَ لا يفعل كذا) ومرادهم إنما هو النفي عن ذاته ، ولكنهم إذا نفوه عمن هو على أخَصِّ أوصافه فقد نفوه عنه "[٢] .

وممن قال بهذه الزيادة القاضي عبد الجبار الذي يرى أن دخولها في هذا الموضع "يدل على نفي التشبيه ؛ لأن هذه الكاف إذا دخلت على هذا الوجه وكدت نفي التماثل ، وهذا كقول القائل : ليس كمثل فلان أحد ، فليس لأحد أن يقول : كيف يدل على

---

[١] ابن هشام : مغني اللبيب ١ / ٢٠٣ .

[٢] مغني اللبيب ١ / ٢٠٣ .

ما ذكرتم ؟ ومتى حمل على حقيقته أوجب له إثبات المِثْل ، من حيث يفيد أنه لا مِثْل لمِثْله !،،[1] .

وذهب غيره إلى عدم زيادتها في هذا الموضع ، كالطيبـــي الذي ذهب إلى تخريج الآية السابقة على الكناية ، قال : ''وقد يظن في نحو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ ﴾ ، أن الكاف صلة وليس هناك ، وإنما المراد نفي المِثْل على طريقة الكناية أي ليس شبه ذاته المستجمعة لصفات الكمال شيء ، فاستعمل مثل فيمن لا مثل له ، كما استعمل فيمن له مثل ، وهذه خاصية الكناية،،[2] .

وجمع صاحب مواهب الفتاح بين الرأيين السابقين ، فذهب إلى احتمالهما جميعًا ، ولم يرجح أحدهما على الآخر[3] . وكلا الرأيين لم ينظر إلى هذه الزيادة من خلال سياقها اللغوي ، ولو تأملنا هذا السياق لوجدناه يدور حول إبراز قدرة الله عز وجل على الخلق ، فهو سبحانه ــ كما يذكر القرطبي في تفسير الآية السابقة ــ الذي خلق السماوات ، وخلق للناس من أنفسهم إناثًا ليسكنوا إليها ، كما خلق من الأنعام ثمانية أزواج ، وهو الذي يخلق الناس في أرحام أمهاتهم[4] ، والذي يفعل هذا كله ويخلقه على غير مثال سابق متفرد في قدرته ، منــزه أن يكون له مثيل في فعل ذلك ، يستحق أن يعبد وحده دون شريك أو ولي يتخذ من دونه ، ومن ثم كان استنكار الله على هؤلاء الكافرين أن يتخذوا من دونه أولياء ؛ لأنه هو الولي الحق القادر على إحياء الموتى ، لا يقدر على ذلك سواه . قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

[1] متشابه القرآن ص ٦٠٤ .

[2] التبيان في البيان ص ٣٦٥ .

[3] ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح ٤ / ٢٣٥ .

[4] الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٩ .

قَدِيرٌ ۝ ﴾ (الشورى : ٩) ، فأكد عز وجل أحقيته باتخاذه وليًا دون غيره أكثر من توكيد ، كما نرى في ضمير الفصل (هُو) ، ثم تعريف الخبر (ٱلۡوَلِيُّ) واستخدام الجملة الاسمية ، ثم استخدام صيغة المبالغة (قَدِير) دون (قادر) ، فكان من المناسب أن يستمر في توكيد هذه الأحقية لما له من قدرة ليست لغيره ، فجاء قوله تعالى : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ مزيدًا بالكاف ؛ لتأكيد نفي وجود من يماثله في قدرته على الخلق ، ومن ثم وجود من يستحق أن يعبد ، ويتخذ وليًا من دونه .

(٧) زيادة هاء السكت .

يعرّف ابن هشام هذه الهاء بأنها هي اللاحقة لبيان حركة أو حرف[١] ، وهي من حروف المعاني ، كذا ذكر المرادي [٢] ، ويقول ابن يعيش : " هذه الهاء للسكت تزاد لبيان الحركة زيادة مطردة ، في نحو قولك : فيمه ولِمه وعمّه ، والمراد فيمَ ولِمَ وعمَّ " [٣] . ويوضح التنوخي علة مجيئها في الكلام قائلاً : "يؤتى بها لإعطاء ما قبلها حظه من الحركة ، وإعطاء الوقت حظه من الوقوف عليها ساكنة ، فإن الحركات إذا ظهرت كانت المعاني معها أبين" [٤] .

وقد وردت هذه الهاء في مواضع عديدة من القرآن ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ۝ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ

---

[١] مغني اللبيب ٢ / ٤٠١ .

[٢] الجنى الداني ص ١٥٣ .

[٣] شرح المفصل ٩ / ٤٥ .

[٤] الأقصى القريب في علم البيان ص ٢٢ ، ٢٣ .

ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ (الحاقة : ١٩ ــ ٢٩) .

فالهاء في الآيات السابقة تعد مثالاً للربط الفني بينها ، إذ تحافظ على النسق الذي تسير عليه تلك الآيات ، ولو حذفت لاختل ذلك النسق ولحدث خلل في إيقاعها ، بالإضافة إلى ما تحدثه من تكامل في المعنى ، إذ تصور لنا من خلال ما تتصف به من خصائص صوتية ذلك الموقف الذي عليه كلا الفريقين : من أوتي كتابه بيمينه ومن أوتي كتابه بشماله ، فالأول في حالة فرح شديد والثاني على خلافه في حالة حزن شديد وحسرة وندم ، وكلا الانفعالين يعمل على تقطع النَفَس ، فلا يكاد الإنسان وهو في هذه الحالة ينطق بجملة إلا ويعمل ذلك الانفعال على قطعها قبل أن يبدأ في أخرى ، فكأنه ينتهي نَفَسُه مع نهاية كل جملة ، فجاءت تلك الهاء التي تتصف بأنها ''صوت النَفَس الخالص الذي لا يلقي مروره اعتراضًا في الفم،،[١] تصور ذلك الانفعال أبدع تصوير .

هذه صور للحروف التي وردت زائدة في القرآن وهناك حروف أخرى اختلف في زيادتها ، والأرجح حملها على وجه آخر غير الزيادة ، نحو (إنْ) المكسورة المخففة في قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ (الأحقاف : ٢٦) فقيل نافية ، وقيل شرطية ، وقيل زائدة[٢] ، ورجح الزمخشري كونها نافية ، وإنما جاءت على هذه البنية لوجود (ما) قبلها ، واجتماع لفظين متحدين في البنية مستكره ، ورفض كونها زائدة[٣] . وكذا ذهب ابن عطية إلى أنها نافية ، ورفض أن تكون شرطية ، ولم يذكر كونها زائدة

---

[١] د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٧٨ .

[٢] أبو حيان : البحر المحيط ٨ / ٦٥ .

[٣] الكشاف ٤ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

في هذا الموضع[١] . وإلى مثل هذين الرأيين ذهب أبو حيان[٢] وابن هشام[٣] ، فذكرا أن الوجه كونها نافية ، ورفضا أن تكون شرطية أو زائدة .

ونحو ذلك الاختلاف ما ورد في اللام في نحو قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ (الصف : ٨) . فذهب الزمخشري إلى القول بزيادتها ، ورأى أن الأصل ''يريدون أن يطفئوا كما جاء في سورة براءة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدًا له ، لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لإكرامك،،[٤] . وإلى مثل هذا الرأي ذهب ابن عطية ، ورأى أنها دخلت للتوكيد[٥] .

والقول بهذه الزيادة يسوي بين آيتي الصف والتوبة في معنيهما ، وينفي دور السياق في اختلاف اللفظين ، وهو ما نظر إليه صاحب الدرة مراعيًا إياه في توضيحه الفرق بين الآيتين ، فأبقى اللام على أصلها دالة على التعليل ، وأبرز مناسبتها للسياق ، وهو ما ذكرناه بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث [٦] .

---

(١) المحرر الوجيز ٥ / ١٠٣ .

(٢) البحر المحيط : ٨ / ٦٥ .

(٣) مغني اللبيب ١ / ٣٠ .

(٤) الكشاف ٤ / ٥٢٥ .

(٥) المحرر الوجيز ٥ / ٣٠٣ .

(٦) انظر الفصل الثالث ص ٢٤٩- ٢٥٠ .

المبحث الرابع

المناسبة بين وضع لفظ موضع آخر والسياق اللغوي

للجملة في اللغة العربية عناصر معينة تشغل الوظائف المختلفة فيها ، وتحدد القواعد التركيبية والدلالية معًا أو إحداهما طبيعة هذه العناصر من حيث الشكل والدلالة ، فتحدد الأولى – على سبيل المثال – شكل الألفاظ ، من حيث الإظهار والإضمار ، والتعريف والتنكير ، والجمود والاشتقاق ، والتذكير والتأنيث ، والإفراد والتثنية والجمع ، والمواضع التي ينبغي أن يشغلها كل لفظ من هذه الألفاظ ، فللإظهار مواضعه ، وللإضمار مواضعه المختلفة ، وكذلك الحال فيما يخص سائر الألفاظ الأخرى ، فالمبتدأ مثلاً يجب أن يشغل موقعه لفظ معرفة ، والحال لفظ نكرة مشتق ، والتمييز لفظ نكرة جامد (غير مصدر) ، والمفعول المطلق لفظ جامد (مصدر) ... إلخ .

وأما القواعد الثانية – وتشترك معها الأولى في بعض الأحيان – فتحدد طبيعة الألفاظ من حيث الدلالة ، كالحروف والأفعال ، وذلك من حيث اختيار ألفاظ معينة تتفق في دلالتها مع السياق التركيبي للجملة .

وهذه القواعد ليست جامدة ، بحيث لا تسمح بمخالفتها ، ولكنها تتصف بالمرونة في حدود معينة تسمح بها طبيعة اللغة ، إذ قد يأتي لفظ معين في أحد المواضع التي حددت لغيره من الألفاظ ، فيخلفه في هذا الموضع ، ويؤدي الوظيفة نفسها التي كان يؤديها اللفظ الأصلي ، كوضع الظاهر موضع المضمر واسم المصدر موضع المصدر ووضع الفعل الماضي موضع المستقبل والعكس ووضع حروف الجر موضع بعضها بعضا ... إلخ . وفيما يلي صور لهذا الشكل من العدول ومناسبته للسياق اللغوي في القرآن .

(١) وضع الظاهر موضع المضمر

وهذا الشكل يكثر مجيئه في القرآن الكريم . يقول العلوي في إبراز فائدته : ''واعلم أن هذا وإن كان معدودًا من علم الإعراب ، لكن له تعلق بعلم المعاني ، وذلك أن الإفصاح بإظهاره في موضع الإضمار له موقع عظيم وفائدة جزلة ، وهو تعظيم حال الأمر المظهر والعناية بحقه''[1] .

ويذكر السيوطي فوائد عديدة بلغت عنده ست عشرة فائدة ،[2] منها قصد التعظيم ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٨٢) ، وقصد الإهانة والتحقير ، نحو قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (المجادلة : ١٩) ، وإزالة اللبس حيث يوهم الضمير أنه غير الأول ، نحو : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ (آل عمران : ٢٦) ، ولو قال (تؤتيه) أوهم أنه الأول .

ومن بديع استعمال هذا الشكل في القرآن ما ورد في قوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ (الكهف : ٧٧) ، فآثر الأسلوب القرآني أن يعيد الأهل بلفظ الظاهر دون المضمر ، ويرجع ابن الحاجب سبب هذا العدول إلى أمرين أحدهما : تركيبي ، وهو ''أن (استطعما) صفة لقرية ، فلابد من ضمير يعود من الصفة الجملية إليها ، ولا يمكن عوده إلا كذلك ؛ لأنه لو قيل : استطعماهم لكان الضمير لغيرها ، ولو قيل : استطعماها لكان على التجوز ، إذ القرية لا تُستَطْعَم حقيقة ،

---

[1] الطراز ص ٢٧٣ .

[2] معترك الأقران ١ / ٢٧٤ ، ٢٧٧ .

فلما لم يكن بُدٌّ من ذكر الضمير العائد إلى القرية ولا يمكن ذكره إلا وهو مضاف إليه إلا بذكر المضاف ، ولا يمكن ذكر المضاف مضمرًا لتعذر إضافة المضمر ، تعين ذكره ظاهرًا . ولا يُرد عليه أن (استطعما) جواب لـــ (إذا) لا صفة لقرية ؛ لأنا نقول الظاهر أنه صفة لقرية ، وإن قال هو جواب (إذا) لقوله في القصة الأخرى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ ﴾ (الكهف : ٧٤) ، فـــ (قال) ـــ ههنا ـــ جواب إذا متعين ولا يستقيم أن يكون (فقتله) جوابه إذ الماضي الواقع في جواب (إذا) لا يكون بالفاء ، فتعين فيه (قال) . وإذا كان كذلك فالظاهر أن القصة الأخرى على هذا النمط في أن (قال) هو الجواب ؛ لأنها سيقت سياقًا واحدًا،، [1] .

وإلى مثل هذا الرأي ذهب السبكي مع اختلافه في تجويز أكثر من احتمال لمحل جملة ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾ وترجيحه للوجه الأول الذي ذهب إليه ابن الحاجب ، يقول :

''قوله استطعما أهلها متعين واجب ولا يجوز مكانه (استطعماهم) ؛ لأن (استطعما) صفة للقرية في محل خفض جارية على غير من هي له ، كقولك : أتت أهل قرية مستطعم أهلها لو حذفتَ (أهلها) هنا ، وجعلت مكانه ضميرًا لم يجز ، فكذلك هذا لا يسوغ من جهة العربية شيء غير ذلك إذا جعلت استطعما صفة لقرية ، وجعله صفة لــ (قرية) سائغ عربي لا ترده الصناعة ولا المعنى ، بل أقول : إن المعنى عليه . أما كون الصناعة لا ترده فلأنه ليس فيه إلا وصف نكرة بجملة ، كما توصف سائر النكرات بسائر الجمل ، والتركيب محتمل لثلاثة أعاريب : أحدها هذا ، والثاني أن تكون الجملة في محل نصب صفة (لأهل) ، والثالث أن تكون الجملة جواب (إذا) ، والأعاريب الممكنة منحصرة في الثلاثة لا رابع لها . وعلى الثاني والثالث يصح أن يقال : استطعماهم ،

---

[1] الأمالي النحوية ١ / ١٠٨ .

وعلى الأول لا يصح لما قدمناه . فمن لم يتأمل الآية كما تأملناها ظن أن الظاهر وقع موضع المضمر أو نحو ذلك ، وغاب عنه المقصود،،[1] .

أما الأمر الثاني الذي ذهب إليه ابن الحاجب فمتعلق بالدلالة ، ويقضي بأن ''الأهل لو أضمر لكان مدلوله مدلول الأول ، ومعلوم أن مدلول الأول جميع الأهل . ألا ترى أنك إذا قلت : أتيت أهل قرية كذا إنما تعني وصلت إليهم . فلا خصوصية لبعضهم دون بعض ، والاستطعام في العادة إنما يكون لمن يلي النازل بهم منهم ، وهم بعضهم ، فوجب أن يقال : ﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾ ؛ لئلا يفهم استطعموا جميعَ الأهل ، وليس كذلك،،[2] .

ففهم ابن الحاجب أن الإظهار هنا يدل على البعضية لا العموم ، وأخذ بهذا الرأي لبقاعي[3] ، وهو بخلاف ما فهمه أبو حيان من هذا الإظهار ، إذ يرى ''أنهما حين أتيا أهل القرية لم يأتيا جميع أهل القرية إنما أتيا بعضهم ، فلما قال : استطعما احتمل أنهما لم يستطعما إلا ذلك البعض الذي أتياه ، فجيء بلفظ أهلها ليعم جميعهم وأنهم يتبعونهم واحدًا واحدًا بالاستطعام ، ولو كان التركيب : استطعامهم لكان عائدًا على البعض المأتي،،[4] .

وهذا الرأي هو ما أخذ به السبكي[5] في الوجه الثاني من وجهي تعليله للإظهار هنا . وأيًا ما كان الأمر فإن هذه الآراء مجتمعة ، بما فيها من اتفاق واختلاف وتعليلات ترجع إلى التركيب تارة وإلى الدلالة تارة أخرى ، وتبرز سر إظهار لفظ (أهل) في هذه

---

(1) عروس الأفراح ١ / ٤٦٠ .
(2) الأمالي النحوية ١ / ١٠٨ .
(3) نظم الدرر ٤ / ٤٩٤ .
(4) البحر المحيط ٦ / ١٤٢ ، ١٤٣ .
(5) عروس الأفراح ١ / ٤٦١ .

الآية دون إضمار ووجه مناسبة ذلك للسياق اللغوي ، سواء أكانت تلك المناسبة متعلقة بتركيب السياق أم مدلوله .

وقد يكون وضع الظاهر موضع المضمر بغير لفظ الأول ، فيعاد بمعناه لا بلفظه . قال السيوطي : ''إعادة الظاهر بمعناه أحسن من إعادته بلفظه،، (١) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة : ١٠٥) . فجاء الأسلوب القرآني بلفظ الجلالة الدال على الألوهية واضعًا إياه موضع الضمير العائد على اللفظ الدال على الربوبية (رَّبِّكُم) ، وذلك ــ على حد قول السبكي ــ ''لأن إنزال الخير مناسب للربوبية ، وأعاده بلفظ (ٱللَّه) ؛ لأن تخصيص الناس بالخير دون غيرهم مناسب للإلهية،،(٢) .

(٢) وضع اسم موصول موضع آخر

وقد يعمد الأسلوب القرآني إلى شكل آخر من أشكال العدول ، فيضع أحد الأسماء الموصولة موضع آخر ، نحو وضع (ما) الذي يدل على غير العاقل (٣) موضع (مَن) الذي يدل على العاقل (٤) ، كما نرى في قوله تعالى :﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢١٩ .

(٢) عروس الأفراح ١ / ٤٦٠ .

(٣) ابن يعيش : شرح المفصل ٣ / ١٤٥ .

(٤) السابق ٣ / ١٤٤ .

ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾ (النساء : ٣) ، فجاء الأسلوب القرآني في هذه الآية بـــ (مَا) في موضع (مَن) مرتين ، والكلام هنا عن النساء وهن من العقلاء ، فكان الأصل أن يأتي باللفظ المتفق مع ذلك . قال الزمخشري في علة هذا العدول : ''وقيل (ما) ذهابًا إلى الصفة . ولأن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء : ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ﴾،،[1] . وقال ابن عطية :''وقال (ما) ولم يقل (من) لأنه لم يرد تعيين من يعقل ، وإنما أراد النوع الذي هو الطيب من جهة التحليل ، فكأنه قال : (فانكحوا الطيب)،،[2] ، وقال أبو حيان : ''وقيل : عبر بـــ (ما) عن النساء لأن إناث العقلاء لنقصان عقلهن يجرين مجرى غير العقلاء ، وقيل : (ما) واقعة على النوع ، أي : فانكحوا النوع الذي طاب من النساء ، وهذا قول أصحابنا ، أن (ما) تقع على انواع ما يعقل،، [3] .

ولو نظرنا إلى ما قاله ابن عطية وأبو حيان في رأيه الثاني لأدركنا السبب وراء العدول من (مَنْ) إلى (ما) ، فالسياق في الموضع الأول من هذه الآية لا يخبر عن نساء معينات ، وإنما أراد النوع الذي هو الطيب من جهة التحليل أو العدد الذي يباح للرجال أن ينكحوه من النساء إذا كن أحرارًا ، وإطلاق هذا العدد في الموضع الثاني إذا كن من ملك اليمين ، فجاء لفظ (ما) ؛ ليدل على النوع أو العدد ، ولم يقصد به تعيين أشخاص ، فكان الأنسب في هذا الموضع .

---

[1] الكشاف ١ / ٤٦٧ .

[2] المحرر الوجيز ٢ / ٧ .

[3] البحر المحيط ٣ / ١٧٠ .

وقد يأتي الأسلوب القرآني بعكس ما سبق ، فيضع (مَن) موضع (ما) ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (النور : ٤٥) .

فعبر الأسلوب القرآني هنا عن بعض أجناس ما لا يعقل باللفظ الدال على العقلاء (مَن) على خلاف الأصل . قال الزمخشري في علة ذلك : ''ولما كان اسم الدابة موقعًا على المميز وغير المميز ، غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه ، كأن الدواب كلهم مميزون . فمن ثم قيل : فمنهم ، وقيل : من يمشي في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم،،[1] ، وقال البقاعي : ''ولما كان في سياق التعظيم ، وكان قد آتى كل نفس من الإدراك ما تعرف به منافعها ومضارها ، عبر عن الكل بأداة من يعقل وإن كانوا متفاوتين في التمييز فقال : (من يمشي على بطنه) أي من غير رجل،، [2] .

ولعل ما ذكره البقاعي في نصه السابق يقترب اقترابًا غير مباشر إلى إبراز وجه المناسبة بين العدول عن (ما) إلى (مَن) والسياق اللغوي ، ولكن ما ذكره لا يوضح هذه العلاقة توضيحًا تامًا . وإذا حاولنا الوصول إليها بتأمل السياق السابق على هذه الآية نرى أنه يخبر أن جميع من في السماوات والأرض يسبح لله ، كل منهم قد علم ما يسبح به . يقول تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ (النور : ٤١) . فإذا كانت جميع المخلوقات تسبح لله وتصلي له ، لكل نوع منها صلاته الخاصة وتسبيحه الذي علمه الله

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٤٦ .

(٢) نظم الدرر ٥ / ٢٧٤ .

إياه فإنها تتـــزل منـــزلة العقلاء من هذه الجهة ، على قدر من الإدراك والتمييز ، وإن اختلفت في درجات هذا الإدراك ، ومن هنا كان من المناسب أن يعبر عنها في هذا الموضع باللفظ الدال على العقلاء ؛ ليتفق في دلالته هذه مع إدراكهم لله وعلمهم بما يسبحونه به .

(٣) وضع مصدر موضع آخر

قد يؤثر التعبير القرآني في بعض الأحيان العدول عن المصدر الأساسي إلى مصدر فعل آخر أو ما يسميه النحاة في هذه الحالة اسم المصدر ، فيضعه موضعه لعلة دلالية ، كما نرى في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الإسراء : ٤٣) . فجاء الأسلوب القرآني بمصدر الفعل الثلاثي (عُلُوًّا) واضعًا إياه موضع المصدر الأساسي (تعاليًا) . قال أبو حيان : ''وانتصب (علوًا) على أنه مصدر على غير الصدر أي (تعاليًا)،،[١] .

فمعنى (عُلُوًّا) عنده ــ كما يتضح من كلامه ــ هو نفسه معنى (تعاليًا) ، وهو ما صرح به الزمخشري قبل أبي حيان في تفسير هذا اللفظ[٢] . ولم يزد السمين الحلبي في تفسيره على أن ''علوًا مصدر واقع موقع التعالي،، [٣] . أما البقاعي فرأى أنه ، سبحانه ، ''أتى بالمصدر المجرد في قوله تعالى : (عُلُوًّا) إيذانًا بأن الفعل مجرد في الحقيقة ، وإن أتى به على صيغة التفاعل إيذانًا بالمبالغة،، [٤] .

---

[١] البحر المحيط : ٦ / ٣٨ .

[٢] الكشاف ٢ / ٦٦٩ .

[٣] الدر المصون ٧ / ٣٦٢ .

[٤] نظم الدرر ٤ / ٣٨٤ .

هذا هو مجمل ما ذُكر في هذا اللفظ وعلة وضعه موضع المصدر الأصلي ، ولم يوضح أحد من المفسرين وغيرهم السبب وراء هذا العدول وعلاقته بمدلول السياق ، ولعل هذا السبب يرجع إلى أن السياق الذي سيقت من خلاله هذه الآية يتحدث عن هؤلاء القوم من العرب الذين يزعمون — كما يذكر القرطبي — أن الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضًا مع البنين ، فاستنكر عليهم عز وجل هذا القول أن يكون سبحانه أخلص لهم البنين دونه ، وجعل البنات مشتركة بينهم وبينه[1] ، كما ينكر عليهم أن يدّعوا بالباطل وجود شركاء له ، فكل ما يدّعونه من تلك الأقاويل افتراء عظيم على الله . يقول تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ ﴾ (الإسراء : ٤٠ — ٤٢) . فهذا الذي يدعونه من افتراءات باطل ومجافٍ للحق ، بعيد عنه كل البعد ، فكأن الأسلوب القرآني جاء بلفظ (عُلُوًّا) في غير موضعه الأصلي مختلفًا في صيغته عن المصدر الأساسي ؛ ليشير بذلك إلى بعد هؤلاء في ما ادعوه من أكاذيب وافتراءات عن الحق وعدولهم عن الفكر القويم الذي ينبغي أن يتحلى به كل عاقل .

وفضلاً عما سبق فإن هذا اللفظ ''جيء به على غير قياس فعله للدلالة على أن التعالي هو الاتصاف بالعلو بحق لا بمجرد الادعاء،، [2] ، ثم وُصِفَ بأنه كبير ، وهو وصف يدل — كما يذكر البقاعي — على أن هذا العلو ''لا تحتمل عقولكم الوقوف على حقيقته ، ولا تدركون منه أكثر من مفهوم هذا الوصف عندكم بحسب ما تتعارفونه،، [3] .

---

[1] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٦ / ٢٩٠ .

[2] محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ١٥ / ١١٣ .

[3] نظم الدرر ٤ / ٣٨٤ .

فالمعنى على هذا ــ على حد قول صاحب التحرير والتنوير ــ أنه سبحانه ''تعالى أكمل علو لا يشوبه شيء من جنس ما نسبوه إليه ؛ لأن المنافاة بين استحقاق ذاته وبين نسبة الشريك له والصاحبة والولد بلغت في قوة الظهور إلى حيث لا تحتاج إلى زيادة ؛ لأن وجوب الوجود والبقاء ينافي آثار الاحتياج والعجز،،[1] ، فناسب ــ على هذا ــ أن يأتي الأسلوب القرآني بلفظ (عُلُوًّا) في موضع المفعول المطلق في هذا الموضع ؛ ليدل على كمال علوه عز وجل وتمام تنــزهه عن كل ما يدعون من أكاذيب .

وعلى هذا النحو من حسن وضع المصدر موضع غيره من المصادر ما ورد في قوله تعالى :﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ ﴾ (المزمل : ٨) . فمقتضى الظاهر أن يأتي المصدر (تبتلاً) في موضع (تبتيلاً) هنا ، ولكن الأسلوب القرآني عدل عن ذلك الظاهر . يقول الزمخشري في علة ذلك : ''فإن قلت : كيف قيل (تبتيلاً) مكان (تبتلاً) ؟ قلت : لأن معنى تبتل بتل نفسه ، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل،، [2] .

وإلى مثل هذا الرأي ذهب أبو حيان ، فأرجع حسن هذا العدول إلى مراعاة الفواصل[3] . أما البقاعي فأرجع حسن ذلك إلى أنه يؤدي إلى التأكيد بالمصدر المرشد إلى الجمع بين التفعل والتفعيل بشدة الاهتمام وصعوبة المقام[4] .

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ١٥ / ١١٣ .
(2) الكشاف ٤ / ٦٣٩ .
(3) البحر المحيط ٨ / ٣٥٥ .
(4) نظم الدرر ٨ / ٢٠٨ .

ولا توضح هذه التعليلات السبب الأساسي وراء هذا العدول وعلاقته بدلالة السياق ، ولعله يرجع إلى أن السياق في هذا الموضع يدور حول حث الله رسوله على قيام الليل وترتيل القرآن فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ (المزمل : ١ ــ ٤) . وهذا الأمر فيه كثير من المشقة ، فهو يحتاج إلى صبر عليه وقوة تحمل من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى يستطيع القيام به ، ولاسيما أنه يؤمر بفعل ذلك في الليل الذي تعود الناس فيه أن يخلدوا إلى الراحة . ويدل على وطأة هذا الأمر وما فيه من مشقة قوله تعالى :﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ (المزمل : ٥ ــ ٦) . قال الزمخشري : ''ويعني بالقول الثقيل : القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين ، خاصة على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته ؛ فهي أثقل عليه وأبهظ له ، وأراد بهذا الاعتراض : أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن ؛ لأن الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلابد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه،، [١] .

وإنما كان أمر الله لرسوله بذلك لأجل إعداده للأمر الجلل الذي هو مقبل عليه ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ ما يعبد من دونه ؛ لذلك أمره بالصبر على أذى الكافرين له وتحمل ما يقولون وأن يمهلهم حتى يعلموا أن ما جاء به هو الحق . يقول تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾ (المزمل : ١٠ ــ ١١) . وهذا المعنى هو ما يؤكده البقاعي بقوله : ''ولما كان المراد منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الثبات للنبوة ومن أمته الثبات في

---

(١) الكشاف ٤ / ٦٣٧ ، ٦٣٨ .

الاقتداء به في العمل والأمر والنهي ، وكان ذلك في غاية الصعوبة ، وكان الإنسان عاجزًا إلا بإعانة مولاه ، وكان العون النافع إنما يكون لمن صفت نفسه عن الأكدار وأشرقت بالأنوار ، وكان ذلك إنما يكون بالاجتهاد في خدمته سبحانه ، علل هذا الأمر بقوله مبينًا للقرآن الذي أمر بقراءته ما هو وما وصفه ، معلمًا أن التهجد يعد للنفس من القوى ما به يعالج المشقات ، مؤكدًا لأن الإتيان بما هو خارج عن جميع أشكال الكلام لا يكاد يصدق،، [١] .

ولكي يكون الصبر في الدعوة وتحمل ما فيها من مشاق عادته وديدنه أمره عز وجل بقيام الليل وترتيل القرآن فيه ، ففي هذا ما يجعله يتحلى بالصبر . وإذا ما تأملنا أمره له بترتيل القرآن نجد أنه ــ عز وجل ــ يؤكد هذا الأمر بالمصدر (تَرْتِيلا) الذي توحي بنيته بما تتصف به من تعاقب السواكن والحركات بوجوب التوقف عند كل حرف فيه لتأمله وتدبره . قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : ''ترتيل القرآن : قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلو منه شبيهًا بالثغر المرتل : وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان وألا يهذه هذًا ولا يسرده سردًا،، [٢] . ولا ريب أن في ذلك التأني والتدبر لكل حرف من حروف القرآن تعويدًا للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الصبر والتحمل .

ثم يأتي أمره عز وجل لنبيه أن يذكره ويخلص له العبادة ، ويجتهد فيها فلا يؤديها وهو ينظر إلى نهايتها ، بل يقف عند كل حركة فيها وكل حرف متأملاً لهما ، وذلك كله في إطار تعويده ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الصبر والتمهل والتأني ؛ كي يقوى على تحمل مُشاق الدعوة . قال البقاعي : ''فقال (تَبَتَّل) أي اجتهد في قطع نفسك

---

[١] نظم الدرر ٨ / ٢٠٦ .

[٢] الكشاف ٤ / ٦٣٧ .

عن كل شاغل ، والإخلاص في جميع أعمالها بالتدريج قليلاً قليلاً ، منتهيًا إليه ولا تزل على ذلك حتى يصير لك ذلك خلقًا فتكون نفسك كأنها منقطعة بغير قاطع ومقطعة تقطيعًا كثيرًا بكل قاطع ، فيكون التقدير بما أرشد إليه المصدر (تَبْتِيلا)،،[1] . فكان من المناسب لكي يتحقق هذا المعنى أن يأتي المصدر (تبتيلاً) في موضع (تبتّلاً) ، وذلك لما يتصف به الأول من وجود ساكن بعد كل متحرك ، وهو ما يشير إلى وجوب الصبر والتأني والوقوف عند كل ما في العبادة من أقوال وأفعال لتدبرها وتأملها ، وهذا بخلاف اللفظ الثاني الذي لا يأتي فيه الساكن إلا بعد متحركين ، وهذه صفة لا تعطيه ما في اللفظ الأول من إيحاء بالتوقف والتأني والتدبر ، ومن هنا كان عدول التعبير القرآني عن (تبتّلاً) إلى (تبتيلاً) ؛ ليتفق ومدلول السياق .

(٤) وضع المصدر موضع المشتق

قد يعمد الأسلوب القرآني في بعض الأحيان إلى وضع المصدر موضع الاسم المشتق ، وفائدة ذلك تحقيق المبالغة . يقول الموصلي : ''واعلم : أنه يقع في موضع الحال خمسة أشياء . أحدها المصدر ، وهو إما معرف ، وإما منكر نحو : جاء زيد ركضًا ، وفيه حينئذ ضمير لنيابته عن اسم الفاعل . وفائدته المبالغة،،[2] .

ويزيد ابن جني الأمر تفصيلاً ، فيرجع وضع المصدر موضع المشتق في الوصف به إلى سببين ، أحدهما صناعي والآخر معنوي ، يقول : ''ومن تجانب الإعراب والمعنى ما جرى من المصادر وصفًا ؛ نحو قولك : (هذا رجل دَنَف ، وقوم رضا ، ورجل عَدْل) ؛ فإن وصفته بالصفة الصريحة قلت : رجل دنِف ، وقوم مرضيّون ، ورجل عادل) . هذا هو الأصل . وإنما انصرفت العرب عنه في بعض الأحوال إلى أن

---

[1] نظم الدرر ٨ / ٢٠٨ .

[2] شرح ألفية ابن معطي ١ / ٥٧٠ .

وصِفَتْ بالمصدر لأمرين : أحدهما صناعيّ ، والآخر معنويّ . أما الصناعي فليزيدك أنسًا بشبه المصدر للصفة التي أوقعته موقعها ، كما أوقعت الصفة موقع المصدر ، في نحو قولك : (أقائمًا والناس قعود) . أي : (تقوم قيامًا والناس قعود) ونحو ذلك . وأما المعنوي فلأنه إذا وصف بالمصدر صار الموصوف كأنه في الحقيقة مخلوق من ذلك الفعل . وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه،، [1] .

ومن بديع ما ورد في ذلك قوله تعالى :﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ (الكهف : ٣٩ ــ ٤١) . فمقتضى الظاهر أن يأتي الأسلوب القرآني باسم الفاعل (غائرًا) ، ولكنه آثر التعبير بالمصدر (غَوْرًا) في موضعه .قال الزمخشري : ''زلقًا وغورًا كلاهما وصف بالمصدر،،[2] ، وقال القرطبي : ''والغور مصدر وضع موضع الاسم ، كما يقال : رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ ورضًا وفَضْلٌ وزَوْرٌ،،[3] . وفائدته ــ كما يذكر أبو حيان ــ المبالغة[4] .

ولعل ذلك العدول يرجع إلى أن المقام في هذا الموضع مقام دعاء من هذا الذي آمن بالله على ذلك الرجل الذي اغتر بماله ، وظن أن الساعة لن تقوم . يقول تعالى مصورًا موقف ذلك الكافر : ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ

---

[1] الخصائص ٣ / ٢٥٩ .

[2] الكشاف ٢ / ٧٢٣ .

[3] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٦ / ٤٢٥ .

[4] البحر المحيط ٦ / ١٢٣.

مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ (الكهف : ٣٤ ــ ٣٦) . فما كان من هذا المؤمن إلا أن رد عليه ردًا يشعر بدعائه عليه أن تزول تلك النعمة التي يغتر بها عليه . قال البقاعي : ''ولما أقر هذا المؤمن بالعجز والافتقار ، في نظير ما أبدى الكافر من التقوى والافتخار ، سبب عن ذلك ما جرت به العادة في كل جزاء ، داعيًا بصورة التوقع فقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ ﴾ المحسن إليّ أَن يُؤْتِيَنِ من خزائن رزقه خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ فيحسن إليّ بالغنى كما أحسن إليّ بالفقر المقترن بالتوحيد ، المنتج للسعادة وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا أي جنتك حُسْبَانًا أي مرامي من الصواعق والبرد الشديد،، [1] . فاشتد هذا المؤمن في دعائه عليه مبالغًا في ذلك ، ومظاهر هذا تبدو واضحة في تمنيه أن يصيب جنته عذاب من السماء من مطر أو صواعق أو غيرهما حتى تصير أرضًا لا نفع لها ولا منفعة ترجى منها ، بحيث تكون غير صالحة أن ينبت بها زرع أو يبقى فيها ماء أو حتى تثبت عليها قدم سائر . قال ابن عطية : '' (والصعيد) وجه الأرض (والزلق) الذي لا تثبت فيه قدم ، يعني أنه تذهب أشجاره ونباته ، ويبقى أرضًا قد ذهبت منافعها ، حتى منفعة المشي فيها ، فهي وحل لا تنبت ولا تثبت فيه قدم،،[2] ، فناسب أن يأتي الأسلوب القرآني مع تلك المبالغة في الدعاء والشدة فيه بلفظ (زَلَقًا) في موضع المشتق ؛ ليتفق بما يتصف به من مبالغة مع تلك الشدة في الدعاء ، ثم يأتي بعده بالمصدر (غَوْرًا) لتحقيق الغرض نفسه ، فيتفق بذلك كل لفظ فيما تدل عليه بنيته مع السياق الوارد فيه .

---

(١) نظم الدرر ٤ / ٤٧٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣ / ٥١٨ .

وفضلاً عما سبق فإن قوله : ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ يدل على أن الوصول إلى هذا الماء غير مستطاع ، فهو ليس مجرد ماء غائر ، بل هو الغور نفسه ، ولو جاء الأسلوب القرآني هنا باسم الفاعل لأشعر بأنه بعيد دون نفي استطاعة الوصول إليه ، فلما كانت تلك الاستطاعة منفية كان التعبير بالمصدر أدل على المعنى وأقرب إليه . قال الألوسي : '' ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ أي للماء الغائر طَلَبًا تحركًا وعملا في رده وإخراجه ، والمراد نفي استطاعة الوصول إليه ، فعبر عنه بنفي الطلب إشارة إلى أنه غير ممكن ، والعاقل لا يطلب مثله،، [1] .

وعلى هذا النحو من وضع المصدر موضع المشتق ما نراه في قوله تعالى :﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت:١١) ، فعدل الأسلوب القرآني إلى التعبير بالمصدرين (طَوْعًا) و(كَرْهًا) واضعًا هذين اللفظين موضع المشتق ، قال ابن الشجري : ''فطوعًا وكرهًا مصدران ، وضعا في وضع الحال ، كقولك : جئتُه ركضًا ، أي راكضًا ، وقتلته صبرًا ، أي مصبورًا،، [2] ، والمعنى ــ كما يذكر الزمخشري[3] وأبو حيان[4] ــ طائعتين أو مكرهتين . قال البقاعي في علة ذلك العدول : ''وضع المصدر موضع الحال مبالغة فقال (طَوْعًا أَوْ كَرْهًا)،، [5] .

---

[1] روح المعاني ١٥ / ٤٠٦ .
[2] أمالي ابن الشجري ٢ / ٤٩ .
[3] الكشاف ٤ / ١٩٠ .
[4] البحر المحيط ٧ / ٤٦٦ .
[5] نظم الدرر ٦ / ٥٥٧ .

ولعل التعبير بالمصدر هنا بدلاً من اسم الفاعل يرجع إلى أن المقام مقام خطاب من الله عز وجل إلى السماوات والأرض ، يأمرهما فيه أن يأتيا طائعتين أو مكرهتين ، ولما كانتا مسخرتين ، لا اختيار لهما ولا إرادة في تنفيذ أمر الله ، إذ أمره سبحانه للأشياء نافذ بمجرد قوله (كُن) : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس : ٨٢) . فلما كان الأمر كذلك جاء هنا المصدر ؛ ليدل على طاعتهما المطلقة أو إكراههما المطلق . قال الزمخشري : ''فإن قلت : ما معنى طوعًا أو كرهًا ؟ قلت هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال ؛ كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعًا أو كرهًا،، [1] . ولو كان التعبير باسم الفاعل دون المصدر لدل ذلك على أن لهما إرادة أو اختيارًا ، والأمر ليس كذلك . أما جوابهما باسم الفاعل دون المصدر ﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ ، فليس معناه ثبوت الإرادة لهما ، ولكن معناه الإشعار بأن استجابتهما عن رضا تام وطاعة مطلقة ، بدليل اقتصارهما في الإجابة على اللفظ الدال على الطاعة دون اللفظ الدال على الإكراه رغم اشتمال أمر الله إليهما عليه .

(٥) وضع المصدر موضع الفعل

وقد يعمد كذلك الأسلوب القرآني إلى وضع المصدر موضع الفعل ؛ لتحقيق المبالغة وتوكيد المعنى . قال ابن الأثير : ''ومن حذف الفعل باب يسمى باب إقامة المصدر مقام الفعل ، وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد،، [2] .

---

(١) الكشاف ٤ / ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) المثل السائر ٢ / ٨٩ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود : ٤٤) . فآثر الأسلوب القرآني أن يأتي بالمصدر (بُعْدًا) موضع الفعل . قال السكاكي في علة ذلك : ''ثم قيل : بعدًا للقوم ، دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلبًا للتأكيد مع الاختصار ، وهو نزول : بعدًا ، منــزلة : ليبعدوا بعدًا ، مع فائدة أخرى ، وهو استعمالُ اللام مع : بعدًا ، الدال على معنى أن البعد حق لهم،،[١] .

فأرجع هذا العدول ــ كما نرى ــ إلى سببين ، وهو نفسه ما فعله العلوي مع اختلافه عنه في السبب الثاني ، يقول : ''وإنما اختير (بُعْدًا) ولم يقل : ليبعدوا لأمرين ، أما أولاً فلأن في المصدر نوع تأكيد لا يؤديه الفعل لو نطق به ، وأما ثانيًا فلأنه لو وجهه بالفعل كان مقيدًا بالزمان ، وهو إذا كان موجهًا بالمصدر كان مطلقًا من غير زمان ، فلهذا كان أبلغ من ذكر الفعل،،[٢] .

وعلى الرغم من حسن هذه التعليلات فإنها لا توضح علاقة هذا العدول بمدلول السياق ، وهو ما يتضح لنا إذا تأملنا السياق العام الذي وردت من خلاله هذه الآية ، إذ يدور حول ذلك الطوفان العظيم الذي أصاب به قوم نوح والذي بلغ من عظمه أن الله عز وجل شبهه بالجبال . قال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ (هود : ٤٢) ، فالماء الذي أحاط بهم بلغ من ضخامته أنه لم يأت من الأرض فقط أو من السماء فحسب ، ولكن منهما جميعًا . ويكفي أن يكون هذا الطوفان من صنع الله ، كي يتصف بالهول والعظمة ، إذ لا يصدر عن كل عظيم إلا ما هو كذلك . قال الزمخشري :

---

[١] مفتاح العلوم ص ٤٢٠ .

[٢] الطراز ٥١٢ .

''ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكون قاهر ، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره ، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره،،[1] . فناسب مع هذه الأهوال التي أحاطت بهؤلاء القوم أن يأتي الأسلوب القرآني بالمصدر (بُعْدًا) بدلاً من الفعل ؛ ليتفق في دلالته على المبالغة مع تلك الأهوال التي من شأنها أن تهلك من تصيبه دون أن تدع له مجالاً للفرار منها .

وعلى هذا النحو من وضع المصدر موضع الفعل ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (يوسف : ٢٣) . فعبر الأسلوب القرآني بالمصدر (مَعَاذ) في موضع الفعل (أعوذ) . قال الزجاج : ''ثم قال : معاذ الله مصدر ، المعنى أعوذ بالله أن أفعل هذا ، تقول : عُذْتُ عِياذًا ومَعَاذًا،،[2] . فمعاذ مصدر بمعنى أعوذ ، كذا ذكر البغوي[3] والزمخشري[4] وابن عطية[5] وغيرهم .

وإنما كان التعبير بالمصدر هنا دون الفعل ؛ لأن المقام في هذا الموضع مقام إغراء عظيم من امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، إذ تراوده عن نفسه ، فجاء التعبير

---

(1) الكشاف ٢ / ٣٩٨ .

(2) معاني القرآن وإعرابه ٣ / ١٠١ .

(3) معالم التنـزيل : تفسير البغوي ٤ / ٢٢٨ .

(4) الكشاف ٢ / ٤٥٥ .

(5) المحرر الوجيز ٣ / ٢٣٣ .

فيه بالمصدر دالاً على ما كان فيه من موقف عصيب ، إذ كان يحتاج إلى استعاذة بالله دائمة مستمرة ؛ كي يقوى بها على الضعف البشري ، فالغواية من امرأة العزيز لها من القوة ما لها ؛ لذلك أضيفت الاستعاذة إلى الله ؛ كي تستمد هذه القوة التي يمكن أن تنجيه مما هو فيه من هم عظيم . قال الألوسي : ''وهذا اجتناب منه عليه السلام على أتم الوجوه وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله جل وعلا للخلاص منه ، وما ذلك إلا لأنه قد علم بما أراه الله تعالى ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء،، [١] . ومن هنا كان العدول إلى المصدر ؛ ليتفق بما يوصف به من مبالغة لا تكون للفعل مع ذلك الموقف الصعب الذي كان فيه يوسف عليه السلام .

(٦) وضع الفعل موضع آخر

للأفعال تقسيمات عديدة في النحو العربي ، فإذا نظرنا إليها من جهة الزمان نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام : ماضٍ ، ومستقبل ، وحال[٢] . وهذا التقسيم تقسيم صرفي ينظر إلى صيغها ، فدلالة الفعل من خلال هذا التقسيم على الزمن دلالته الصرفية أو معناه الوظيفي الصرفي ، وهذه الدلالة الزمنية للأفعال قد تكون مباشرة من خلال إشارة صيغ الأفعال إلى دلالة بعينها ، فتكون صيغاً للماضي والحاضر والمستقبل ، وقد تكون دلالة غير مباشرة من خلال استخدام الأفعال في أزمنة تغاير صيغها ، كأن تستخدم صيغ الحال أو المستقبل للدلالة على الماضي والعكس ، ويتوقف تحديد دلالة هذه الصيغ على السياقات التي وردت فيها .

---

(١) روح المعاني ١٢ / ٣١٩ .

(٢) ابن عصفور : شرح الجمل ١ / ١٢٧ .

وقد أشار القدماء ، كالثعالبي[١] وابن الأنباري[٢] وغيرهما إلى هذا العدول الذي يحدث في صيغ الأفعال ، فتوضع إحداها موضع الأخرى ، ويوضح ابن الشجري علة جواز هذا العدول قائلاً : ''ووجهُ استجازتهم هذا الإبدال مع تضاد الأفعال أن الأفعال جنس واحد ، وإنما خولف بين صيغها لتدل كل صيغة على زمان غير الذي تدل عليه الأخرى ، وإذا تضمن الكلام معنى يزيح الإلباس جاز وضع بعضها في موضع بعض توسعًا،،[٣] .

هذه هي النظرة الأولى التي ينظر بها إلى الأفعال ، وإذا نظرنا إلى تقسيم آخر لها نجد أنها تنقسم إلى أفعال تدل على الإنشاء وأخرى تدل على الخبر . وكما كانت الأفعال في القسم الأول يمكن الانحراف بها عن دلالاتها الأصلية إلى دلالة أخرى ، فيستخدم الماضي دالاً على المستقبل أو العكس ، فقد اتصف هذا القسم بالأمر نفسه ، إذ يمكن أن يأتي الفعل الخبري دالاً على معنى إنشائي والعكس . وفيما يلي صور لهذا العدول في القرآن الكريم من هاتين الجهتين ومناسبة ذلك للسياق اللغوي .

(أ) وضع المستقبل موضع الماضي

يوضح ابن الأثير فائدة هذا العدول قائلاً : ''اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ، وذاك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي،،[٤] .

---

[١] فقه اللغة ص ٣٦٥ .

[٢] البيان في غريب إعراب القرآن ٢ / ٧٤ .

[٣] أمالي ابن الشجري ١ / ٦٨ .

[٤] المثل السائر ٢ / ١٢ .

ومن بديع هذا الشكل من أشكال العدول ما ورد في قوله تعالى :﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝ ﴾ (فاطر : ٩) . فعدل الأسلوب القرآني هنا عن صيغة الماضي (أثارت) المتفقة مع ما قبلها وما بعدها من صيغ إلى صيغة المضارع أو الحال (تثير) . قال العلوي : ''فوسط قوله فتثير سحابًا ، وجاء به على جهة المضارعة والاستقبال بين فعلين ماضيين ، وهما قوله أرسل ، وسقناه ، والسر في مثل هذا ، هو أن الفعل المستقبل يوضح الحال ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن الإنسان يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي إذا عطف ؛ لأنه لا يعطي هذا المعنى ولا يدل عليه ، فإذا قال فتثير ، على جهة الاستقبال بعدما مضى قوله : أرسل . فإنما يكون دالاً على حكاية الحال التي تقع فيها إثارة الريح للسحاب واستحضارًا لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة،،[1] ، وقال ابن هشام : ''قصد بقوله سبحانه وتعالى (فَتُثِيرُ) إحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة من إثارة السحاب ، تبدو أولاً قطعًا ثم تتضام متقلبة بين أطوال حتى تصير ركامًا،،[2] .

وهذا كلام بديع لكنه لا يبرز إبرازًا واضحًا العلاقة الحقيقية بين التعبير بالمضارع أو الحال في هذا الموضع ومدلول السياق ، ولعل هذه العلاقة الوثيقة ترجع إلى أن السياق في هذا الموضع سياق إبراز لقدرة الله على الخلق ، ثم إعادته مرة أخرى ، فهو سبحانه الذي خلق الناس أول مرة من تراب ثم من نطفة ، ويعلم آجالهم وما تحمله كل أنثى منهم . يقول عز من قائل : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا

---

(١) الطراز ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٢) مغني اللبيب ٢ / ٧٩٧ .

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (فاطر : ١١) . فإذا كان عز وجل قادرًا على ذلك فهو ــ لا ريب ــ قادر على إحيائهم مرة أخرى بعد موتهم يوم البعث ، وإذا كان الأمر عجيبًا مستغربًا فإنه يفعل مثله أمام أعين الناس ، إذ ينــزل من السحاب ماءً على الأرض القفر فتصبح مخضرة بقدرته ، فأراد سبحانه أن يستحضر تلك الصورة الدالة على قدرته على الإحياء في أذهان الناس ، ولاسيما المتشككين منهم في البعث ؛ كي يدركوا ويوقنوا أنه كما يفعل ذلك قادر أن يحيى الموتى ، ومن هنا كان التعبير بصيغة المضارع ؛ لاستحضار تلك الصورة الدالة على قدرته أنسب لمدلول السياق ، ولو جاء التعبير القرآني بصيغة الماضي لتوارت تلك الشحنات الدلالية التي تثيرها صيغة المضارع والتي يقتضيها السياق .

(ب) وضع الماضي موضع المستقبل أو الحال

إذا كان التعبير القرآني يؤثر في بعض الأحيان العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المستقبل أو الحال ، فإنه قد يأتي بعكس ذلك في أحيان أخرى ، فيضع الماضي موضع الفعل المضارع الدال على زمن الاستقبال أو الحال ، وفائدة ذلك ــ على حد قول ابن الأثير ــ "أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده ؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها . والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه يشاهدها ، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد" [1] .

---

(1) المثل السائر ٢ / ١٥ ، ١٦ .

والملحظ البياني الذي يبرز لنا عند تأمل هذا الشكل من أشكال العدول في النص القرآني أنه يكثر في سياق الحديث عن يوم القيامة وأحداثه المختلفة ، وذلك لتحقق وقوعه وتأكده ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ (النحل : ١) ، وقوله : ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ۝ ﴾ (الكهف : ٤٧) ، وغير ذلك من الآيات .

ومن بديع هذا العدول ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝ ﴾ (النمل : ٨٧) . فآثر التعبير القرآني أن يأتي بصيغة الماضي (فزع) دون المستقبل (يفزع) . قال الزمخشري في علة ذلك : ''فإن قلت : لم قيل (فَفَزِع) دون فيفزع ؟ قلت : لنكتة وهي الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، واقع على أهل السماوات والأرض ؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به . والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون،،[1] ، وقال ابن عطية : ''وقال تعالى : (فَفَزِع) وهو أمر لم يقع بعدُ إشعارًا بصحة وقوعه ، وهذا معنى وضع الماضي موضع المستقبل،،[2] ، وقال البقاعي : ''ولما كان ما ينشأ عنه من فزعهم مع كونه محققًا مقطوعًا به كأنه وجد ومضى ، يكون في آن واحد ، أشار إلى ذلك وسرعة كونه بالتعبير بالماضي فقال : (فَفَزِع) أي صعق بسبب هذا النفخ من في السماوات،،[3] .

---

(1) الكشاف ٣ / ٣٨٦ .

(2) المحرر الوجيز ٤ / ٢٧٢ .

(3) نظم الدرر ٥ / ٤٥٤ .

وهذا كله كلام حسن يشير إشارة واضحة إلى تلك العلاقة الوثيقة بين التعبير بالماضي في هذا الموضع ومدلول السياق الذي يدور هنا حول يوم القيامة وما يقع فيه من أحداث جسام ، وهو يوم متحقق وقوعه لا محالة . قال تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ ﴾ (الواقعة : ١ ـ ٢) ، وقال أيضًا : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ ﴾ (التغابن : ٧) ، فأقسم عز وجل بوقوعه ، وعندما يخبر سبحانه بوقوع شيء ، بل يقسم على ذلك فهو واقع لا محالة ، فإنه متحكم في الأحداث والأزمان لا يعجزه شيء ، ومن ثم عندما يخبر عن يوم القيامة فإنه يخبر عن شيء قضى بوقوعه على الناس ، فهو في حكم ما تحقق بالفعل ، فناسب أن يأتي الأسلوب القرآني في هذا الموضع بصيغة الماضي في موضع المستقبل للدلالة على تيقن وقوع هذا اليوم وتحققه .

(ج) وضع الأمر موضع الخبر والعكس

قد يعمد التعبير القرآني إلى شكل آخر من أشكال العدول في الأفعال تحقيقًا لدلالة معينة ، فيأتي بالفعل الدال على الأمر في الموضع الدال على الخبر . يقول ابن الأثير : ''وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلبًا للتوسع في أساليب الكلام فقط ، بل لأمر وراء ذلك ، وإنما يُقْصَد إليه تعظيمًا لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل ، وتفخيمًا لأمره ، وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر،، [١] ، وقال العز بن عبد السلام : ''وهذا من مجاز التشبيه شبه الطلب في تأكده بخبر الصادق الذي لابد من وقوعه وإذا شبهه بالخبر الماضي كان آكد وكذلك الدعاء ، والأمر والنهي إذا أريد تأكيدها عبر عنها بالخبر المستقبل ، فإن بالغت في التأكيد تجوزت عنها بالخبر الماضي،، [٢] .

---

[١] المثل السائر ٢/ ١١ .

[٢] الإشارة إلى الإيجاز ص ٢٨ .

ومما تحقق فيه الشكل الأول ، فعدل به عن الخبر إلى الأمر ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ ﴾ (هود : ٥٣ ــ ٥٤) . فعدل الأسلوب القرآني عن صيغة الخبر (أشهدكم) إلى الأمر (ٱشْهَدُوٓا) . قال الزمخشري في علة ذلك : ''فإن قلت : هلا قيل : إني أشهد الله وأشهدكم ؟ قلت : لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد على أني لا أحبك ، تهكمًا به واستهانة بحاله،، [1] . وإلى مثل هذا الرأي ذهب ابن الأثير[2] .

وما ذهبا إليه من تعليل لا يبرز إبرازًا مباشرًا علاقة هذا العدول بالسياق اللغوي ، وبالتأمل فيه نرى أنه يخبر عن استكبار قوم هود عليه ، وملامح ذلك تبدو في رفضهم المطلق أن يتركوا آلهتهم ويعبدوا الله وحده وإيبائهم أن يؤمنوا برسالته ، ويتبعوه استهانة منهم بأمره واستهزاء به واتهامهم له بالسفه والجنون قائلين له ــ على حد قول ابن كثير ــ ''ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها،،[3] .

---

(1) الكشاف ٢ / ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(2) المثل السائر ٢ / ١١ ، ١٢ .

(3) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٤٤٩ .

فجاء رده عليهم مماثلاً لقولهم وفعلهم ، فقابل استكبارهم باستعلائه على تكبرهم ، واستهزاءهم باستهانته بهم ، وإصرارهم على الكفر بتأكيد إيمانه ، وبراءته مما يشركون . ومن هنا كان استخدام التعبير القرآني للفعل الدال على الأمر على لسان هود في موضع الخبر للدلالة على تلك المعاني وتحقيق تلك المقابلة في الرد .

وأما مثال العدول عن الأمر إلى الخبر فقوله تعالى :﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾ (البقرة : ٢٣٣) .

فعبر هنا الأسلوب القرآني بلفظ الخبر (يُرْضِعْنَ) ، والمقام للأمر . قال الزمخشري ''(يُرْضِعْنَ) مثل (يتربصن) في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد،،[١] ، ويقول في موضع آخر في فائدة هذا العدول : ''وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله،، [٢] .

---

(١) الكشاف ١ / ٢٧٨ .

(٢) السابق ١/ ٢٧٠ .

والزمخشري بهذا التعليل لم يوضح وجه المناسبة بين هذا العدول والسياق اللغوي ، بل لعله بَعُدَ عن المراد الحقيقي منه ، وهو ما اقترب منه إلى حد بعيد الفخر الرازي ، إذ أبرز وجه تلك المناسبة رابطًا بين هذا العدول والسياق الوارد فيه . ليس هذا فحسب ، بل تعدى ذلك إلى ربطه بآيات أخرى في القرآن الكريم ، يقول : ''هذا الأمر ليس أمر إيجاب ، ويدل عليه وجهان . الأول : قوله تعالى :﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ (الطلاق : ٦) ولو وجب عليها الرضاع لما استحقت الأجرة . والثاني : أنه تعالى قال بعد ذلك :﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ (الطلاق : ٦) وهذا نص صريح . ومنهم من تمسك في نفي الوجوب عليها بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ والوالدة قد تكون مطلقة ، فلم يكن وجوب رزقها على الوالد إلا بسبب الإرضاع ، فلو كان الإرضاع واجبًا عليها لما وجب ذلك ، وفيه البحث الذي قدمناه ، إذا ثبت أن الإرضاع غير واجب على الأم فهذا الأمر محمول على الندب ، من حيث أن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من سائر الألبان ، ومن حيث أن شفقة الأم عليه أتم من شفقة غيرها ، هذا إذا لم يبلغ الحال في الولد إلى حد الاضطرار بأن لا يوجد غير الأم ، أو لا يرضع الطفل إلا منها ، فواجب عليها عند ذلك أن ترضعه ، كما يجب على كل أحد مواساة المضطر في الطعام،،[1] .

فلما لم يكن الأمر على سبيل الوجوب إلا في حالات معينة ـ كما يذكر الرازي ـ ناسب أن يعدل الأسلوب القرآني عن الصيغة التي تدل على ذلك إلى صيغة الخبر التي لا توحي بذلك الوجوب .

---

[1] مفاتيح الغيب ٦ / ١٠٠ ، ١٠١ .

(٧) وضع حرف جر موضع آخر

تلازم الأفعال وبعض الأسماء حروف معينة تتعدى بها في سياق ما ، وحين يكون الفعل لازمًا يصل إلى ضميمته من حروف الجر بواسطة حرف خاص من هذه الحروف يحدده معنى السياق ، وتسمى العلاقة بين الفعل والحرف عندئذ علاقة سياقية ، فإذا استبدلنا بحرف الجر الأساسي حرفًا آخر ، صارت الجملة غير نحوية ، أو قد ينتقل التركيب من الإبلاغ الحقيقي إلى الإبلاغ الفني ، نحو قوله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ (الإنسان : ٦) ، فالشرب لا يكون بالعين ، وإنما منها .

وقد رفض بعض اللغويين من القدماء وقوع ذلك الاستبدال أو ما أسموه بالإنابة أحيانًا والتعاقب أحيانًا أخرى وغير ذلك من الأسماء ، ومن هؤلاء أبو هلال العسكري الذي علل رأيه بأن تلك الحروف ''إذا تعاقبت خرجت عن حقائقها ، ووقع كل واحد منها بمعنى الآخر ، فأوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد ، فأبى المحققون أن يقولوا بذلك ، وقال به من لا يتحقق المعاني،،[١] . وحمل ابن جني هذا الأمر على التضمين ، فرأى ''أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر ، وكان أحدهما يتعدى بحرف ، والآخر بآخر ، فإن العرب قد تتسع ، فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانًا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر ، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه ،،[٢] .

وحمل لغويون آخرون هذا الأمر على الإنابة أو وضع الحرف موضع غيره ، بشرط تقارب المعاني للحروف التي يمكن أن يحدث بينها ذلك التبادل في المواقع ، وهو ما ذهب إليه ابن السراج يقول : ''واعلم أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني ، فمن ذلك (الباء) : تقول : فلان بمكة وفي مكة ، وإنما جازا معًا ؛ لأنك

---

(١) الفروق اللغوية ص ٣٦ .

(٢) الخصائص ٢ / ٣٠٨ .

إذا قلت : فلان بموضع كذا وكذا ، فقد خبرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع ، وإذا قلت : في موضع كذا ، فقد خبرت بـ (في) على احتوائه إياه وإحاطته به . فإذا تقارب الحرفان فإن هذا التقارب يصلح للمعاقبة ، وإذا تباين معناهما لم يجز،،[1] .

واتفق المالقي مع ابن السراج ، ولكنه كان أكثر تشددًا ، فرأى أن ''ذلك موقوف على السماع ؛ لأن الحروف لا يوضع بعضها موضع بعض قياسًا ، إلا إذا كان معناهما واحدًا ، ومعنى الكلام الذي يدخلان فيه واحدًا أو راجعًا إليه ، ولو على بعد،،[2] .

وإلى مثل الرأيين السابقين ذهب ابن هشام ، فقبل الإنابة ولكن ليس على إطلاقها ، فليس كل الحروف يمكن أن ينوب بعضها عن بعض عنده ، بل يجب أن يستقيم المعنى ، كي يحدث ذلك ، يقول معقبًا على رأي الكوفيين : ''قولهم (ينوب بعض حروف الجر عن بعض) وهذا أيضًا مما يتداولونه ويستدلون به وتصحيحه بإدخال (قد) على قولهم ينوب ، وحينئذ فيتعذر استدلالهم به ، إذ كل موضع ادعوا فيه ذلك يقال لهم فيه : لا نسلم أن هذا مما وقعت فيه النيابة ، ولو صح قولهم لجاز أن يقال : مررت في زيد ، ودخلت من عمرو ، وكتبت إلى القلم،،[3] .

والذي يميل إليه البحث أن الحروف قد تتعاقب أو تتناوب بالشرط الذي ذهب إليه كل من ابن السراج والمالقي وابن هشام ، ولكن هذا التعاقب أو التناوب لا يكون في المعنى ، ولاسيما إذا حدث ذلك في كلام فصيح ، كالقرآن الذي يختار ألفاظه بدقة فائقة ، فيضع كل لفظ في موضعه اللائق به ، فإذا جاء بحرف من حروف الجر في غير موضعه المحدد له ، فهو يهدف بذلك إلى تحقيق دلالة معينة ، لا يؤديها الحرف

---

(1) الأصول في النحو ١ / ٤١٤ .

(2) رصف المباني ص ٢٢١ .

(3) مغني اللبيب ٢ / ٧٥٥ .

الأصلي ، فالحروف فيه باقية على معانيها الأصلية ، لا تنوب عن غيرها في المعنى ، ــ كما يرى أبو هلال ــ وإنما تقع الإنابة فيها في الاستعمال ، فالغرض الذي جاءت من أجله هذه الحروف إيصال الفعل إلى ما بعدها من أسماء . قال الأخفش في تعقيبه على قوله تعالى : ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ﴾ (إبراهيم : ٣) : ''فأوصل الفعل بـ (عَلَى) ، كما قالوا : (ضربوه في السيف) يريدون : (بالسيف) ؛ وذلك أن هذه الحروف يوصل بها كلها،،[1] . ويؤكد ابن السراج هذا الأمر موضحًا إياه بقوله : ''فهذه الحروف التي للجر كلها تضيف ما قبلها إلى ما بعدها ، فإذا قلت (سرت من موضع كذا) فقد أضفت السير إلى ما بعدها ، فإذا قلت : (مررت بزيد) فقد أضفت المرور إلى زيد بالباء،،[2] .

فإذا نظرنا إلى هذه الوظيفة للحروف ، وأخذنا برأي أبي هلال في عدم جواز تعاقبها في المعنى ، كانت إنابة حرف جر عن آخر على هذا من قبيل الإنابة فيما يقوم به الحرف من وظيفة في الكلام ، وهي إيصال الفعل أو الاسم إلى ما دخل عليه ، وبهذا نبقي على المعاني الأصلية للحروف ، وكذلك معاني الأفعال دون الحاجة إلى القول بالتضمين .

وقد يعمد الأسلوب القرآني إلى تلك الإنابة ، فيضع أحد حروف الجر موضع غيره ، تحقيقًا لدلالة معينة لا تتأتى باستعمال الحرف الأصلي . ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ

---

[1] الأخفش : معاني القرآن ٢/ ٤٠٦ .

[2] الأصول في النحو ١ / ٤١٤ .

عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ (طه : ٧١) . فنجد في هذه الآية أن الحرف (في) الدال في أصل معناه على الظرف أو الوعاء[١] قد وضع في موضع ليس من اختصاصه ، وإنما من اختصاص الحرف (على) الدال على الاستعلاء أو العلو[٢] . وهذا الأمر ليس على سبيل الحقيقة ، وإنما على سبيل المجاز الذي نتج عن المفارقة المعجمية بين الفعل والحرف , وتوفرت هنا القرينة التي تصرف الذهن عن المعنى الأصلي إلى المعنى المجازي الجديد ؛ فالظرفية ــ بما تقتضيه من تمكن وثبات ــ شبيهة بالاستعلاء الذي يقتضي التمكن والثبات أيضًا ؛ فاستعملت الظرفية مكان الحرف الدال على الاستعلاء للتشابه المعنوي بينهما ، واستعمل الحرف الدال على الظرفية مكان الحرف الدال على الاستعلاء تبعًا لذلك ، وكل ذلك على سبيل الاستعارة ، وهي نوع من المجاز . قال الألوسي : ''وإيثار كلمة (في) للدلالة على إبقائهم عليها زمانًا مديدًا ، تشبيهًا لاستمرارهم عليها باستقرار الظرف في المظروف المشتمل عليه ... وفيه استعارة تبعية،،[٣] . والقرينة الدالة على هذا المجاز المتمثل في الاستعارة ، وجود الفعل (أصلب) ؛ إذ لا يقع الصلب في داخل الجذع بل يكون عليه .

ويعلل الفراء هذا العدول قائلاً : ''وإنما صلحت (في) لأنه يرفع في الخشبة في طولها فصلحت (في) وصلحت (على) ؛ لأنه يرفع فيها فيصير عليها،،[٤] ، وقال الزجاج : ''معناه على جذوع النخل ، ولكنه جاز أن تقع (في) ههنا ؛ لأنه في الجذع على جهة

---

[١] المالقي : رصف المباني ص ٣٨٨ .
[٢] السابق ص ٣٧٢ .
[٣] روح المعاني ١٦ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
[٤] معاني القرآن ٢ / ١٨٦ .

الطول ، والجذع مشتمل عليه فقد صار فيه،،[1] ، وقال أبو حيان :''ولما كان الجذع مقرًا للمصلوب واشتمل عليه اشتمال الظرف على المظروف عدى الفعل بــ(في)التي للوعاء ، وقيل : (في) بمعنى (على)،، [2] .

وهذه التعليلات جميعها تنصب على أن (في) بمعنى (على) أو أن الجذع أصبح ظرفًا للمصلوب ، فتغفل بذلك عن السر الحقيقي وراء ذلك العدول وعلاقته بمدلول السياق . ولعله يكمن في أن المقام هنا مقام غضب شديد من فرعون على موسى ومن آمنوا له من السحرة ، وذلك لكفرهم وإيمانهم بموسى الذي أهاجه وأثار غضبه عليهم ؛ لذلك كان توعده لهم توعدًا شديدًا وعظيمًا ، فلم يكتفِ بأن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، بل أمر أيضًا أن يصلبوا إمعانًا في التنكيل بهم ، وذلك ليعلموا ــ على حد ظنه ــ أن عذابه أشد وأنكى من عذاب الله ، ومن منطلق هذه الشدة منه أمر أن يشد عليهم الوثاق إلى الدرجة التي تجعلهم كأنهم داخلون في الجذع لا مصلوبون عليه . قال الزمخشري : ''شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه ، فلذلك قيل ﴿ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾،، [3] . ومن هنا ناسب أن يعدل الأسلوب القرآني إلى هذا الحرف ؛ ليعبر أصدق تعبير عن ذلك الغيظ الذي كان يشعر به فرعون تجاه هؤلاء الذين كفروا به ؛ وليتفق فيما يوحي به من شدة مع تلك الحالة التي كان عليها .

---

[1] معاني القرآن وإعرابه ٣ / ٣٦٨ .

[2] البحر المحيط ٦ / ٢٤٢ .

[3] الكشاف ٣ / ٧٦ .

ومما حسن فيه كذلك وضع حرف جر موضع غيره ما نراه من وضع (عن) الذي يدل في أصل معناه على المجاوزة [1] موضع (من) الذي يدل على ابتداء الغاية ، وهو المعنى الغالب عليه[2] في ثلاثة مواضع في النص القرآني ، جاءت جميعها مع الفعل الدال على القبول أو التقبل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة : ١٠٤) ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الشورى : ٢٥) ، وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝ ﴾ (الأحقاف : ١٦) ، والأصل في هذا الفعل أن يأتي معه حرف الجر (من) ، وقد وردت مادته في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة استخدم معه في ثلاث منها الحرف الدال على المجاوزة (عن) على غير الأصل ، وهو ما نراه في الآيات الثلاث السابقة ، وجاء معه (من) على الأصل في أحد عشر موضعًا [3] ، منها قوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ ﴾ (البقرة : ٤٨) ، وقوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾ (آل عمران : ٨٥) . وجاء معه حرف الباء مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (آل

---

[1] ابن هشام : مغني اللبيب ١ / ١٦٨ .

[2] السابق ١ / ٣٤٩ .

[3] وهي آيات البقرة ٤٨ ، ١٢٣ ، وآل عمران ، ٣٥ ، ٨٥ ، ٩١ ، المائدة ٣٦ ، التوبة ٥٣ ، ٥٤ بالإضافة إلى آية المائدة ٢٧ التي وردت فيها مادته ثلاث مرات متعديًا بـ (من) .

عمران : ٣٧) ، وكذلك حرف اللام وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ﴾ (النور : ٤) . وأخيرًا ورد مرتين دون أن يستخدم معه حروف جر ، وذلك في آيتي (آل عمران : ٩٠) ، (وإبراهيم : ٤٠) .

وقد ذهب المفسرون في تعليل العدول في الآيات الثلاث المذكورة أكثر من تعليل ، فذهب ابن عطية إلى أن (عن) في آية التوبة ''بمعنى (من) ، وكثيرًا ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه ، تقول لا صدقة إلا عن غنى ومن غنى ، وفعل فلان ذلك من أشره وبطره وعن أشره وبطره،،[١] . أما الفخر الرازي فرأى أن ''كلمة (عن) وكلمة (من) متقاربتان ، إلا أن كلمة عن تفيد البعد ، فإذا قيل : جلس فلان عن يمين الأمير ، أفاد أنه جلس في ذلك الجانب لكن مع ضرب من البعد فقوله (عَنْ عِبَادِهِۦ) يفيد أن التائب يجب أن يعتقد في نفسه أنه صار مبعدًا عن قبول الله تعالى له بسبب ذلك الذنب ، ويحصل له انكسار العبد الذي طرده مولاه ، وبعده عن حضرة نفسه ، فلفظة (عَن) كالتنبيه على أنه لابد من حصول هذا المعنى للتائب،،[٢] .

وما ذكره المفسرون في الآيتين الأخريين يكاد لا يختلف عما قالوه في هذه الآية ، فرأوا أن (عن) بمعنى (من) أو متقاربتان في المعنى[٣] . وهي تعليلات جميعًا لا تبرز وجه المناسبة بين هذا العدول والسياق اللغوي . والناظر إلى تلك الآيات الثلاث يرى أنها تدور جميعًا حول التوبة من الله على عباده وقبوله الأعمال الصالحات منهم ، وهما أمران فيهما تجاوز منه عز وجل عما يفعله العباد من السيئات ، يدل على ذلك قوله

---

(١) المحرر الوجيز ٣ / ٧٩ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٦ / ١٤٨ .

(٣) يمكن الرجوع في تفسير آية الشورى إلى الكشاف ٤/ ٢٢٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥ . وفي آية الأحقاف إلى الجامع لأحكام القرآن ٩ / ١٨٢ .

سبحانه في آية الشورى ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وقوله في الأحقاف ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ ، بل إنه عز وجل لا يعفو عن السيئات ، ويتجاوز عنها فحسب ، وإنما يبدل تلك السيئات حسنات لمن أراد ممن تاب وآمن وعمل صالحًا. يقول تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان : ٧٠) .

ولما كان هذا شأنه مع التائبين والذين يعملون الصالحات ، فيتجاوز عن ذنوبهم وسيئاتهم ويقبل منهم توبتهم وصالح أعمالهم ، ناسب أن يأتي الأسلوب القرآني في هذه المواضع بالحرف الدال على المجاوزة ؛ ليتفق في معناه هذا مع ما يدل عليه سياق تلك الآيات ، وهو بخلاف الآيات التي استعمل فيها الأسلوب القرآني الحرف الأصلي (من) ، إذ لم تدر في معانيها حول تلك المعاني التي دلت عليها الآيات السابقة ،وإنما دارت جميعًا إما حول نفي قبول الشفاعة والعدل ، كما نرى في آيتي البقرة (٤٨ ، ١٢٣) ، أو نفي دين غير الإسلام ، كما في آية آل عمران (٨٥) أو نفي قبول افتداء النفس بأي مال إذا لم تؤمن ، كما نرى في آية آل عمران (٩١) ، ومعها آية المائدة (٣٦) ، أو نفي قبول قربان معين ، كما في آية المائدة (٢٧) ، أو نفي قبول النفقة من الذين فسقوا أو كفروا ، كما نرى في آيتي التوبة (٥٣ ، ٥٤) ، وإما جاءت في إطار دعاء معين ، كما نرى في آية آل عمران (٣٥) ، أو في إطار تقرير قبول القربان من المتقين ، كما في آية المائدة . وكل هذه معانٍ لا تتطلب ما يوحي به حرف (عن) من مجاوزة ، وإنما تقتضي ما يدل عليه (مِن) من ابتداء الغاية ؛ لذلك جاءت جميعًا على الأصل .

المبحث الخامس

المناسبة بين نقل اللفظ عن وظيفته والسياق اللغوي

النقل هو "إحدى طرق تعدد المعنى الوظيفي ، وهو صورة من صور العدول عن الأصل فيما يتصل باستعمال البنية ومعناها في اللغة ؛ إذ تخرج البنية عن استعمالها الأصلي إلى استعمال آخر لم ينسب لها في تقسيم الكلم ، فيتعدد معناها الوظيفي"[١] . ويقع النقل في المصادر التي تعمل عمل أفعالها بعد حذف تلك الأفعال وإنابة المصادر عنها ، وفي الجوامد التي توضع موضع المشتقات والعكس ، وفي ضمائر الرفع التي توضع موضع ضمائر الخفض أو النصب وغير ذلك من صور النقل الذي يقع في البنية . وقد تناولنا في المبحث السابق بعض هذه الصور ومناسبتها للسياق اللغوي .

وقد تخطى النحاة النقل في المباني إلى قولهم بالنقل في المعاني الوظيفية ، كالنيابة عن الفاعل وإنابة المضاف إليه عن المضاف ، والنعت عن المنعوت . وهذه الصور للنقل تقوم أساسًا على حذف أحد عناصر التركيب وقيام آخر مقامه ، فينتقل من وظيفته الأساسية إلى تلك الوظيفة الجديدة ، فالحذف فيها هو الأساس ؛ لذلك جاء تناولها في المبحث الثاني من هذا الفصل ، وهو المبحث الخاص بالحذف .

وهناك شكل آخر من أشكال النقل في المعاني الوظيفية يقوم على تحويل العنصر من وظيفته إلى أخرى دون الحاجة إلى الحذف ، كما يحدث في نقل الفاعل أو المفعول إلى التمييز . ويمكن أن نضيف إلى هذا الشكل صورة أخرى ، وهي ما يعرف عند النحاة والبلاغيين بالقلب ، إذ يعد صورة من صور نقل العنصر من وظيفة إلى وظيفة أخرى داخل التركيب ، وفيه يتبادل عنصران الموقع الوظيفي الذي يشغله كل منهما ، فيقع الأول

---

(١) د . تمام حسان : البيان في روائع القرآن ص ١١ .

موقع الثاني والعكس . وفيما يلي صور لهذا الشكل الأخير من أشكال النقل في المعـاني الوظيفية بصـورتيه ومناسبته للسياق اللغوي في النص القرآني .

(١) النقل بالتحويل

يقع هذا الشكل أساسًا في التمييز ، إذ ينتقل اللفظ من وظيفته الأساسـية ، سـواء أكان فاعلاً أم مفعولاً أم مبتدأ إلى وظيفة التمييز ، وذلك ـ كما يذكر ابن الناظم ـ لقصد المبالغة [١] ، نحو (مُلِيء الإناء زيتًا) ، و(نعم رجلاً زيد) . قال ابن عصفور فـي أصـل هذين التركيبين وما حدث فيهما من تغيير : ''فكأنك قلت : مَلأ الإناءَ الزيتُ ، ثم صـار الزيت تمييزًا بعد أن كان فاعلاً لملأ . وأما : نِعم رجلاً زيـد ، فكـأن الأصـل : نعـم الرجلُ ، ثم أضمرت الرجل وصار تمييزًا بعد أن كان فاعلاً ، فكأنه نقل،، [٢] .

ومن بديع صور هذا الشكل في القرآن الكريم ما ورد في قوله تعالى : ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ (مريم : ٤) . فالأصل (واشتعل شيب الرأس) ، ثم نقل الفاعل عن وظيفته الأساسية ، ونصب على التمييز ، وصار المضاف إليه فاعلاً . قال عبد القاهر موضحًا وجه الحسن في ذلك العدول : ''فإن قلت : فما السبب في أن كان (اشتعل) إذا استعير للشيب على هذا الوجه ، كان له الفضل ؟ ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإن السبب أنه يفيد ، مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استغرقه وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به . وهذا ما لا يكون إذا قيل : (اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس) ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة . ووازن هذا أنك تقول (اشتعل البيت نارًا) ، فيكون المعنى : أن النار قد وقعت فيه وقوع

---

[١] شرح ألفية ابن مالك ص ٣٥١ .

[٢] شرح الجمل ٢ / ٢٨٢ .

الشمول ، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه . وتقول : (اشتعلت النار في البيت) ، فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه ، وإصابتها جانبًا منه فأما الشمول ، وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته ، فلا يعقل من اللفظ البتة،،[1] .

ولا يختلف من جاءوا بعد عبد القاهر ، كابن أبي الإصبع[2] والفخر الرازي[3] والعلوي[4] وغيرهم عما قاله ، وهو ــ لا شك ــ كلام بديع يبرز بوضوح دلالة نقل الفاعل إلى التمييز ، ولكن تبقى علاقة دلالة هذا العدول بالسياق اللغوي غير واضحة ، وهو ما نحاول الكشف عنه في السطور الآتية .

فالمتأمل في السياق الذي وردت من خلاله هذه الآية يجد أنه سياق دعاء من زكريا ــ عليه السلام ــ لربه أن يهبه ولدًا ، وفي معرض هذا الدعاء يأتي بمقدمات يمتنع معها الوصول إلى النتيجة التي هي مناط دعائه ، فالأسباب لديه منقطعة من أن تكون له الذرية التي يريدها ، ولم يبقَ له سوى سبب واحد يحقق له ما يطلبه ، وهو الدعاء ، فكان مقصده . يقول تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم : ٨) . قال الزمخشري : ''أي بلغت عتيًا : وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل . يقال : عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية . أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيًا،،[5] .

---

[1] دلائل الإعجاز ص ١٠١ .

[2] تحرير التحبير ص ٩٨ .

[3] نهاية الإيجاز ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

[4] الطراز ص ٥٩٣ .

[5] الكشاف ٣ / ٦ .

وإذا كان قد بلغ هذا المبلغ من الكبر إلى الحد الذي وهن معه عظمه ، فإنه بمقتضى الحال تبعًا لهذا قد سيطر عليه الشيب سيطرة تامة حتى إنه لم يترك من رأسه جزءًا إلا وقد غزاه . ومن هنا جاء الأسلوب القرآني معبرًا عن هذا المعنى بقوله : ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ دون (واشتعل شيب الرأس) ؛ للإفادة من تلك الخاصية الدلالية التي تؤديها العبارة الأولى دون الثانية والتي أوضحها عبد القاهر ، وهي العموم والشمول ، فتلتقي في دلالتها هذه مع المعنى العام الذي يدل عليه السياق ، ولو جاء الأسلوب القرآني بالكلام على أصله ، فقال : (واشتعل شيب الرأس) لما دل ذلك على الكبر البالغ الذي أصاب زكريا والذي لم يترك له فرصة لأن تكون له ذرية .

وعلى هذا النحو من عدول اللفظ عن وظيفته إلى وظيفة التمييز يأتي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ (يوسف : ٣٠) . قال الألوسي : ''وانتصاب (حُبًّا) على التمييز وهو محول عن الفاعل إذ الأصل قد شغفها حبه كما أشير إليه،،[1] .

ولعل السر وراء هذا العدول يرجع إلى أن امرأة العزيز لم يشغفها حب يوسف عليه السلام فحسب ، بل شغفها يوسف نفسه بشخصه وشكله وحبه وكل ما يتعلق به ، وهو ما أدى بها إلى الافتتان به ، ودعاها إلى مراودته عن نفسه . يقول تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ (يوسف : ٢٣) . ولو كان الذي شغفها حبه فقط ما كانت عمدت إلى مثل هذا الفعل . ومن هنا جاء قول النسوة : ﴿ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ ﴾ بإسناد الشغف إلى يوسف لا إلى الحب ؛ لعلمهن أن افتتانها به

---

[1] روح المعاني ١٢ / ٣٤١ .

لم يقتصر على الحب فقط ؛ لذا جاء ردها عليهن بقولها : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ (يوسف : ٣٢) ، فلم تقل : لمتتني في حبه ؛ لعلمها أن لومهن لها لم يكن على ذلك فحسب ، بل على مراودته أيضًا . ومن ثم ناسب أن يعدل الأسلوب القرآني عن أن يأتي بالعبارة على أصلها إلى ما جاء به ؛ ليدل ذلك على شمول شغفها وعمومه بيوسف ، وهو ما يتفق ومدلول السياق .

(٢) النقل بالقلب

وقد يكون نقل اللفظ من وظيفة إلى أخرى بالقلب . وهو إحدى صور الاتساع في الكلام ، قال ابن الشجري : ''وقد اتسع القلب في كلامهم حتى استعملوه في غير الشعر ، فقالوا : أدخلت القلنسوة في رأسي ، والخاتم في إصبعي،،[١] . والقلب ــ كما يعرفه صاحب مواهب الفتاح ــ ''أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر ، والآخر مكان ذلك الأحد ، على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر،،[٢] .

وقد اختلف اللغويون والبلاغيون في وقوعه في الكلام ، ومن ثم في القرآن ، فقبله بعضهم ، ورفضه آخرون . قال أبو حيان : ''وللنحويين في القلب مذهبان . أحدهما : أنه يجوز في الكلام والشعر اتساعًا واتكالاً على فهم المعنى . والثاني : أنه لا يجوز في الكلام ويجوز في الشعر حالة الاضطرار ، وهذا هو الذي صححه أصحابنا،،[٣] .

ومن قبله المبرد بشرط أمن اللبس ، قال : ''والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار ، قال الله عز وجل : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ

---

[١] أمالي ابن الشجري ٢/ ١٣٥ .

[٢] ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح ١ / ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

[٣] البحر المحيط : ١ / ١٨٦ ، ١٨٧ .

أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ ﴾ (القصص : ٧٦) ، والعصبة تنوء بالمفاتيح : أي تستقل بها في ثِقَل،،[١] .

وفصل آخرون هذا القبول ــ كما يذكر الزركشي ــ ''بين أن يتضمن اعتبارًا لطيفًا ، فبليغ وإلا فلا ؛ ولهذا قال ابن الصائغ : يجوز القلب على التأويل ، ثم قد يقرب التأويل فيصح في فصيح الكلام ، وقد يبعد فيختص بالشعر،،[٢] .

وممن رفضه بخلاف أبي حيان حازم القرطاجني الذي وصفه بالتعسف قائلاً في تعليقه على الآية السابقة التي ذكرها المبرد : ''وحمل الكلام على القلب في غير القرآن إذا أمكن حمله على الاستقامة تعسف شديد ، فكيف في الكتاب العزيز . والواجب أن تجعل الباء في قوله تعالى بالعصبة للتعدية ويكون المراد أن المفاتح تنوء بالعصبة أي تميلها من ثقلها ،،[٣] .

والأولى من هذا الرأي الأخير أن يؤخذ بما ذهب إليه المبرد وابن الصائغ ، ففي هذا اتساع لأساليب البلاغة وتضمين الكلام ضروبًا تمنحه ثراءً دلاليًا يفتقد إذا رفضنا هذا الشكل من أشكال البلاغة .

والآية الشهيرة التي يمكن حملها على القلب في القرآن هي تلك الآية السابق ذكرها في نص المبرد ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (القصص : ٧٦) . فجاء الأسلوب القرآني بالفعل (تنوأ) مسندًا إلى الضمير العائد على (مفاتح) ، والأصل أن يسند إلى (العصبة) الذين عدل بهم عن هذا

---

[١] الكامل ١ / ٤٧٥ .

[٢] البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٣٤ .

[٣] منهاج البلغاء ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

الإسناد إلى الموقع الذي كان من المفترض أن يشغله المفاتح . قال ابن عطية : ''والوجه أن يقال : إن العصبة تنوء بالمفاتح المثقلة لها ، وكذلك قال كثير من المتأولين المراد هذا لكنه قلب كما تفعل العرب كثيراً،،[1] .

وإنما يرجع هذا العدول إلى ما يحققه من مبالغة يقتضيها السياق ، إذ يصور ذلك الثراء البالغ الذي وهبه الله قارون ، وهو ما جعله يستعلى على قومه ، ويبغي عليهم ، وجعلهم ينبهرون بما عنده حتى إنهم تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي من المال : يقول تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ (القصص : ٧٩) .

ولإبراز تلك الصورة والحالة التي وصل إليها من الغنى والزينة إلى الحد الذي جعله يبغي على قومه ، وجعلهم يتمنون مثل ما عنده جاء التعبير القرآني بلفظي (مفاتح) و(كنوز) على الجمع وكذلك لفظ (العصبة) موصوفاً بـ (أولي القوة) تحقيقاً للمبالغة . قال البقاعي : ''وفي المبالغة بالتعبير بالكنوز والمفاتيح والنوء والعصبة الموصوفة ما يدل على أنه أوتي ما لم يؤته أحد ممن هو في عداده ، وكل ذلك مما تستبعده العقول ؛ فلذلك وقع التأكيد،،[2] .

واستكمالاً لتلك الصورة التي تصور ذلك الثراء الفاحش الذي كان عليه قارون والذي أغرى الناس بتمني مثله ، جاء الأسلوب القرآني بقلب الكلام عن أصله ، فأسند الفعل (تنوء) إلى غير فاعله الأصلي (العصبة) ؛ تحقيقاً لتلك المبالغة التي يدل عليها هذا الأسلوب والتي تتفق في دلالتها مع ما يصوره السياق . قال الزركشي : ''فأسند (لتنوء)

---

(١) المحرر الوجيز ٤ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) نظم الدرر ٥ / ٥١٧ .

إلى (المفاتح) ، والمراد إسناده إلى العصبة ؛ لأن الباء للحال ، والعصبة مستصحبة المفاتح ، لا تستصحبها المفاتح . وفائدته : المبالغة ، يجعل المفاتح كأنها مستتبعة للعصبة القوية بثقلها،،[1] .

وعلى هذا النحو من القلب يأتي قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة : ٢٧٥) . قال السيوطي : ''كان الأصل أن يقولوا إنما الربا مثل البيع ؛ لأن الكلام في الربا لا البيع ، فعدلوا عن ذلك ، وجعلوا الربا أصلاً ملحقًا به البيع في الجواز ؛ لأنه خليق بالحِل،،[2] .

فجاء الكلام هنا على القلب ، إذ نقل المبتدأ إلى موقع المضاف إليه ، ثم نُقل الأخير ليصير مبتدأ . ويكشف الزمخشري عن علة ذلك قائلاً: ''فإن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع ؛ لأن الكلام في الربا لا في البيع ، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهمًا بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهمًا بدرهمين ؟ قلت : جيء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حِل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانونًا في الحِل حتى شبهوا به بالبيع ،،[3] . وقال الفخر الرازي : ''لم يكن مقصود القوم أن يتمسكوا بنظم القياس ، بل كان غرضهم أن الربا والبيع متماثلان من جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل والآخر بالحرمة ، وعلى هذا التقدير فأيهما قدم أو أخر جاز،،[4] .

---

[1] البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٣٥ .

[2] الإتقان في علوم القرآن ٣ / ١٣٢ .

[3] الكشاف ١ / ٣٢٠ ، ٣٢١ .

[4] مفاتيح الغيب ٧ / ٨٠ .

وبالنظر إلى هذين التعليلين وسياق الآية يتضح لنا وجه المناسبة بين قلب الكلام عن أصله والسياق اللغوي . فالذين يستحلون الربا إنما يستحلونه ؛ لأنهم لا يرون فيه حرامًا ، فهو والبيع عندهم سواء لا يختلفان ، بل إنهم ــ كما يذكر الزمخشري ــ بلغ من اعتقادهم في حِل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانونًا حتى شبهوا به البيع ، فلم يكن مقصودهم على هذا ــ كما يرى الرازي ــ أن يتمسكوا بالقياس المنطقي ، بل كان غرضهم أن الربا والبيع متماثلان من جميع الوجوه المطلوبة ، فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحِل والثاني بالحرمة ؟ ! ومن هنا جاء القلب متفقًا مع معتقدهم .

يضاف إلى هذا أننا إذا تأملنا سياق الآية نجده يطالعنا بالحديث عن آكلي الربا الذين يبدون كأنهم مسهم الشيطان ، فلا يقومون إلا وهم يتخبطون من هذا المس . قال ابن عطية : ''وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون ؛ لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه ، وهذا كما تقول لمسرع في مشيه ، مخلط في هيئة حركاته ، إما من فزع أو غيره ، قد جُنَّ هذا،،[1] . ومن كان حاله كذلك ؛ فإنه لا يعي ما يقول ، يتخبط في قوله ، فيهذي بالكلام واضعًا بعضه موضع بعض ، ومن هنا جاء القلب في هذه الآية متفقًا ومدلول السياق.

---

(1) المحرر الوجيز ١ / ٣٧٢ .

المبحث السادس

المناسبة بين الالتفات والسياق اللغوي

يعد الالتفات في اللغة العربية خاصية أسلوبية تتميز بطاقتها الإيحائية ، من حيث كان بناؤه يعتمد على العدول . ويعرفه البلاغيون كابن الأثير بأنه ''ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة ، كالانتقال من خطاب حاضرٍ إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر،،[١] ، وعرفه العلوي بأنه ''العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالفٍ للأول،،[٢] ، وقال السبكي ''الالتفات الانتقال من أحد الأساليب الثلاثة السابقة ، وهي التكلم والخطاب والغيبة إلى غيره،،[٣] .

ويشترط فيه شرطان ، ذكرهما السيوطي[٤] ، أحدهما أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدًا في الأمر نفسه إلى المنتقل عنه ، وإلا يلزم عليه أن يكون في : أنت صديقي التفات . قال أبو حيان في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (الفاتحة : ٥) : ''وشرطه : أن يكون المدلول واحدًا ، ألا ترى أن المخاطب بـ(إِيَّاك) هو الله تعالى،،[٥]. والثاني أن يكون في جملتين ، وإلا يلزم عليه أن يكون نوعًا غريبًا .

وللالتفات فائدة عامة تشمل جميع أشكاله ، وذلك بخلاف الفوائد الخاصة التي تتعلق بكل موضع يأتي فيه ، وتتمثل ــ على حد قول الزمخشري ــ في أن ''الكلام إذا

---

(١) المثل السائر ٢ / ٣ .

(٢) الطراز ص ٢٦٥ .

(٣) عروس الأفراح ١ / ٤٩٢ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٥٧ .

(٥) البحر المحيط ١ / ١٤١ .

نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحدٍ،،[1] .

وحقيقة الالتفات أن يكون في الضمائر ، إذ ينتقل الأسلوب من أحدها إلى آخر ، واتسع بعضهم في ذلك ، كابن الأثير[2] وتبعه العلوي[3] وابن القيم[4] وغيرهم ، فأدخلوا صورًا أخرى فيه ، كالانتقال من الفعل الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي أو من الأمر إلى غيره والعكس .

ولكن السيوطي لم يدخل مثل هذه الصورة في الالتفات ووصفها بأنها تقرب منه[5] ، وهو ما تناولناه في المبحث الرابع من هذا الفصل ، تحت عنوان وضع فعل موضع آخر .

كما أطلق السبكي ، وتبعه السيوطي في ذلك[6] ، الوصف نفسه على أشكال أخرى ، كنقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر ، وزاد على هذا الوصف نفي كونه التفاتًا ، يقول : ''وهذا القسم قريب من الالتفات ؛ لأن فيه الانتقال من أحد أساليب ثلاثة إلى آخر ، وأقسامه كالالتفات ستة وليس التفاتًا،،[7] ؛ فلذلك يقتصر البحث هنا على دراسة أشكال الالتفات المتعلقة بالضمائر في النص القرآني ومناسبتها للسياق اللغوي ، إذ لا اختلاف في كونها التفاتًا ، وتتمثل في الأشكال الآتية :

---

[1] الكشاف ١ / ١٤ .
[2] المثل السائر ٢ / ٣ وما بعدها .
[3] الطراز ص ٢٦٥ وما بعدها .
[4] الفوائد المشوق ١٠٨ وما بعدها .
[5] الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٥٨ .
[6] السابق ٣ / ٢٥٨ .
[7] عروس الأفراح ١ / ٤٩٢ .

(١) الانتقال من الغيبة إلى الخطاب

ومن ذلك ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ (مريم : ٨٨ ــ ٩٠) . والأصل أن يؤتى بضمير الغائب ، فيقال جاءوا ؛ ليتفق مع ما قبله ، ولكن الأسلوب القرآني عدل عن ذلك مؤثرًا الالتفات إلى ضمير المخاطب ؛ لأن السياق يتحدث عن هؤلاء القوم الذين افتروا على الله افتراءً عظيمًا ، فادعوا قولاً تكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتهد الجبال من هوله ، وهو اتخاذه ولدًا ، فجاء الخطاب لهم بهذا الأسلوب ؛ توبيخًا لهم على هذا القول العظيم ؛ لأن توبيخ الحاضر ــ كما يذكر ابن القيم ــ أبلغ في الإهانة [(١)] . يقول ابن الأثير : ''وإنما قيل : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ ﴾ وهو خطاب للحاضر بعد قوله ﴿ وَقَالُواْ ﴾ وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة ، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى ولتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه ، كأنه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموَبخًا لهم،،[(٢)] .

(٢) الانتقال من الخطاب إلى الغيبة

ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (الزخرف : ٦٨ ــ ٧١) . فجرى الكلام في أول

---

(١) الفوائد المشوق ص ١٠٨ .

(٢) المثل السائر ٢ / ٥ .

هذه الآيات على ضمير المخاطب ، ثم انتقل إلى ضمير الغيبة ، فقال ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ .
قال السيوطي : "والأصل (عليكم) ، ثم قال : ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ فكرر الالتفات" [١] .

ولم يزد السيوطي على هذا القول ، فلم يبين علة هذا الالتفات ومناسبته للسياق ، ولعله يرجع إلى أن الكلام كان موجهًا للعباد مباشرة ، فجاء بأسلوب النداء أولاً ، ثم بصيغة الأمر ثانيًا ، وهما لا يكونان إلا لحاضر ، ثم انصرف بعد هذا عن ذلك الخطاب إلى وصف حالهم في الجنة وما سيكونون عليه في هذا المقام العظيم ، إذ يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب من الذهب والفضة ، لهم فيها ما تشتهي أنفسهم ، وتلذ أعينهم ، فكأنه أريد صرف أذهانهم إلى تصور هذه الحال التي مآلهم إليها ، فهم ما يزالون في موقف خطاب الله إليهم ، لمّا يدخلوا الجنة ، فهي لم تزل غائبة عنهم ، لا يدركون حقيقتها إلا تصورًا أو تخيلاً . ومن هنا كان الانتقال من ضمير المخاطب إلى ضمير الغيبة ؛ ليتفق مع هذا المعنى ، ثم لما انصرف الكلام عن هذا التصور إلى إقرار حقيقة غير قابلة للتصور ، وهي الخلود عاد إلى الخطاب مرة أخرى ؛ ليتفق كل ضمير بما يدل عليه مع مدلول السياق .

(٣) الانتقال من الغيبة إلى التكلم

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : ٣٠) . فجاء الأسلوب القرآني في هذه الآية بفعل القول مسندًا إلى لفظ الرب الذي يدل عليه ضمير الغائب ، ثم عدل عن ذلك في قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ

---

[١] الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٥٥ .

﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ (البقرة : ٣٤) ، فأسند فعل القول هذا إلى ضمير المتكلم المعظم .

وإنما يرجع هذا الالتفات وعلاقته بالسياق ـ على حد قول أبي حيان ـ إلى ''أنه صدر منه الأمر للملائكة بالسجود ووجب عليهم الامتثال ، فناسب أن يكون الأمر في غاية من التعظيم ؛ لأنه متى كان كذلك كان أدعى لامتثال المأمور فعل ما أمر به من غير بطء ولا تأول لشغل خاطره بورود ما صدر من المعظم،،[1] .

(٤) الانتقال من التكلم إلى الغيبة

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝ ﴾ (الأعراف : ١٥٨).

فقال عز وجل : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ منتقلاً بالأسلوب من ضمير المتكلم إلى الغائب ، ولو سار الكلام على نسق واحد لقال : فآمنوا بالله ربي ، ليتفق مع قوله في صدر الآية : ﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ . قال الزمخشري في علة ذلك : ''فإن قلت : هلا قيل : فآمنوا بالله ربي ، بعد قوله : إني رسول الله إليكم ؟ قلت : عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة ، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، كائنًا من كان ، أنا أو غيري ، إظهارًا للنصفة وتفاديًا من العصبية لنفسه،،[2] .

---

[1] البحر المحيط ١ / ٣٠٢ .

[2] الكشاف ٢ / ١٦٧ .

وما ذكره في هذا التعليل كلام حسن ، غير أنه لا يبرز مناسبة هذا العدول للسياق اللغوي ، ولعلها تكمن في أن السياق الذي سيقت من خلاله هذه الآية يشير إلى أوصاف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ التي وردت في التوراة والإنجيل والتي يجب على من عرفها ووجدها فيه من أهل هذه الكتب أن يؤمن به ويتبعه . يقول تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف : ١٥٦ ــ ١٥٧) .

فلما ذُكِرَت تلك الإشارة إلى صفات الرسول ، وكان الأمر له من الله في هذه الآية أن يدعو الناس كافة ، ومنهم أهل الكتاب أن يؤمنوا بالله وبرسوله ، ناسب أن يأتي الأسلوب القرآني بلفظ (رَسُولِه) بصفاته المختلفة التي سبق ذكرها في السياق المتقدم على الآية ؛ ليدل على أن هذا هو الرسول المذكور عندهم في كتبهم الذي أُمِروا أن يتبعوه ، ويؤمنوا به . قال أبو حيان : ''وعدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر ــ وهو الالتفات ــ لما في ذلك من البلاغة بأنه هو النبي السابق ذكره في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ وأنه هو المأمور باتباعه ، الموجود بالأوصاف السابقة،،[1] .

---

[1] البحر المحيط ٤ / ٤٠٤ .

(٥) الانتقال من التكلم إلى الخطاب

وهذا الشكل من أشكال الالتفات يعد من أقلها ورودًا في النص القرآني ، وعكسه ، أي الانتقال من الخطاب إلى التكلم لم يقع في القرآن ، كذا ذكر السيوطي[١] .

ومما انتقل فيه الأسلوب القرآني من التكلم إلى الخطاب قوله تعالى :﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝ ﴾ (يس : ٢٠ ــ ٢٥) . فانتقل الأسلوب القرآني في هذه الآية من ضمير المتكلم في قوله : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ إلى ضمير المخاطب في ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . قال السيوطي : ''والأصل : (وإليه أرجع) ، فالتفت من المتكلم إلى الخطاب،،[٢] .

ويبرز ابن الأثير وجه مناسبة هذا الالتفات للسياق قائلاً : ''وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة ، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح ، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ؛ وقد وضع قوله : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ مكان قوله : وما

---

[١] الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٥٤ .
[٢] السابق ٣ / ٢٥٣ .

لكم لا تعبدون الذي فطركم ، ألا ترى إلى قوله :﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني وإليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال :﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ ،،[1] .

وهكذا نرى أن أي تغيير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغير الدلالة وانتقالها من مستوى إلى مستوى آخر . والأسلوب القرآني لا يعمد إلى العدول عن أصل التركيب ، إلا لتحقيق دلالة معينة يقتضيها السياق ، لا تتحقق بمجيء التركيب على أصله المفترض .

---

(1) المثل السائر ٢ / ٧ .

الفصل الخامس

المناسبة بين المغايرة اللفظية والسياق اللغوي

للمغايرة بين الألفاظ في القرآن الكريم صور عديدة ، وقد تناولنا في الفصول السابقة معظم هذه الصور تحت عناوين مختلفة تبعًا لطبيعة كل لفظ وموضعه في التركيب ، من حيث معناه المعجمي أو صفاته أو معناه الوظيفي أو العدول به عن الأصل التركيبي .

وتبقى أشكال ثلاثة للمغايرة بين الألفاظ لا تندرج تحت ما سبق ، آثرت جمعها في هذا الفصل ؛ لإتمام الحديث عن جميع أشكال المغايرة ، وأول هذه الأشكال : المغايرة في الترتيب أو تقديم اللفظ في موضع وتأخيره في آخر ، والثاني : المغايرة بين ترك اللفظ وذكره ، والثالث : المغايرة بين إظهار اللفظ وإضماره .

وهذا الشكل الأخير يتصل بمعنى اللفظ الصرفي في أحد شقيه ، وهو الإضمار ، ويخرج عنه في الشق الثاني ، وهو الإظهار ، فهو لا يندرج تحت هذا المعنى اندراجًا كاملاً ؛ لذلك آثرت تناوله في هذا الفصل لا في الفصل المتعلق بالمعنى الوظيفي للفظ .

كما أن هذه الأشكال الثلاثة تشبه في الظاهر بعض أشكال العدول النحوي ، ولكننا لا نستطيع القول بأية حال من الأحوال إنها كذلك ، فالمغايرة في الترتيب تشبه التقديم والتأخير ، والمغايرة بين الترك والذكر تشبه الحذف ، والمغايرة بين إظهار اللفظ وإضماره تشبه وضع الظاهر موضع المضمر ، والفرق بينها واضح ، فالأشكال التي نحن بصددها الآن لا تعد عدولاً عن أصل ، فليس تقديم النفع على الضُّر الأصل في نحو : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأعراف : ١٨٨) ، وتأخيره عنه الفرع نحو : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (يونس : ٤٩) أو العكس .

والأمر نفسه ينطبق على ذكر اللفظ في موضع وتركه في آخـر ، أو إظهـاره فـي أحـد المواضع وإضماره في الأخر ، إلا إذا قلنا إن العدول هنا عدول دلالي لا تركيبـي ، كتقديم الآخرة على الأولى في نحو قوله : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم : ٢٥) . فالأصـل الذي يقتضيه المدلول الزمني أن يتقدم لفظ (ٱلْأُولَىٰ) على (ٱلْآخِرَة) ، ولكنه جاء متـأخرًا ، فالعدول في هذه الحالة عدول من حيث الدلالة لا من حيث التركيب . أما تقـديم المفعـول على الفاعل أو شبه الجملة على الخبر أو الخبر على المبتدأ فهو عـدول عـن الأصـل التركيبـي ، يقول التنوخي موضحًا : ''ومن البيان التقديم والتأخير لا لمرجح لفظي ، بل لمرجح معنوي ، والمرجح اللفظي قد سبق ذكره ، وهو من متعلقات النحو ، وهـذا ممـا ليس يتكلم فيه من جهة النحو . والمعاني المرجحات كثيرة ، يعسر حصرها ، وفـي ذكـر بعضها ما يدل على ما لم يذكر ، كالأشرف والأعظم والأقدم في الزمان والأكثر والراجح في شيء ما . وقد يكون في المؤخر ترجيح ما ، ويقدم عليه رعاية لترجيح آخر ، إما مـن غرض المتكلم ، أو لكون المظنة أولى به,, [١] . كذلك الحال إذا تحدثنا فـي حـذف أحـد عناصر التركيب ، كالخبر أو الفاعل أو المبتدأ أو غيرها أو وضع اللفظ الظاهر موضـع المضمر .

والقرآن عندما يغاير بين لفظين فإن ذلك ليس مجرد التفـنن فـي الفـصاحة أو مراعاة الفواصل أو غير ذلك من الأسباب الشكلية ، وإن كان الأمر لا يخلو من مراعاتها في بعض الأحيان مع عدم الجور على المعنى ، وإنما يعمد القرآن الحكيم إلى مثـل هـذه المغايرة لدواعٍ دلالية يقتضيها السياق ، وهو ما يشير إليه الزركشي في تعليـل المغـايرة بين قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ (البقرة : ٤٨) وقوله : ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ (البقرة : ١٢٣) ، يقول : ''فغاير بين اللفظين ، فهل ذلك لمعنى يترتب عليـه ، أو مـن

---

[١] الأقصى القريب في علم البيان ص ٨١

باب التوسع في الكلام ، والتنقل من أسلوب إلى آخر كما جرت عادة العرب ؟ والجواب : أن القرآن الحكيم وإن اشتمل على النقل من أسلوب إلى آخر لكنه يشتمل مع ذلك على فائدة وحكمة ، قال الله تعالى :﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) ولم يقل (من رحمن ولا رحيم) ، للتنصيص على أنه لابد من الحكمة,,[١] .

وهكذا شأن الكلام الفصيح ، لا يغاير بين الألفاظ إلا لفائدة وحكمة ، كما أن من شأنه أن يأتي بالألفاظ في المواضع التي تليق بها ، فلا يقدم ما يحسن تأخيره ولا يذكر ما يحسن تركه ، ولا يظهر اللفظ إذا كان إضماره يتفق مع السياق والعكس . يقول أبو هلال : ''وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتكمن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفًا لا يفسد الكلام ، ولا يعمى المعنى ، ويضم كل لفظة منها إلى شكلها ، وتضاف إلى لفقها ، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها,,[٢] . فالمغايرة بين الألفاظ في القرآن تعني اختلاف المعنى واقتضاء السياق لها . وفيما يلي صور لهذه المغايرة الثلاث التي يتناولها هذا الفصل ومناسبتها للسياق اللغوي .

---

[١] البرهان في علوم القرآن ١ / ١٥٩ .

[٢] الصناعتين ١٧٩ .

المبحث الأول
المناسبة بين المغايرة في الترتيب والسياق اللغوي

تتقدم الألفاظ في الكلام بحسب معانيها وما يتقدم من تلك المعاني في العقل ، ويحدد السهيلي خمسة أشياء تتقدم بها المعاني قائلاً : ''ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان ، والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء : إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال . فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق ، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك . نعم ، وربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنى ، كقوله : (ربيعة ومضر) وكان تقديم مضر أولى من جهة الفضل ، ولكنهم آثروا الخفة ، لأنك لو قدمت (مضر) في اللفظ كثرت الحركات وتوالت ، فلما أخرت وقف عليها بالسكون,,[1] .

وقد تراعى هذه المعاني في الترتيب ، وقد يعدل عنها إذا ما كان ذلك يحقق المناسبة بين اللفظ المتقدم والسياق , وهو ما يوضحه ابن الأثير بقوله : ''واعلم أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من المعاني ثم يجيء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر ، وكان المعنى المفضول مناسبًا لمطلع الكلام ، فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت ؛ لأنك إن قدمت الأفضل فهو في موضعه من التقديم ، وإن قدمت المفضول فلأن الكلام يناسبه ، وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضًا وارد في موضعه,,[2] .

والقرآن الحكيم عندما يعمد إلى هذه المغايرة ، فإنما يعمد إليها لأجل تلك المناسبة . يقول السيوطي : ''قد يقدم لفظ في موضع ويؤخر في آخر ، ونكتة ذلك إما لكون السياق

---

(١) نتائج الفكر في النحو ص ٢٠٩ .

(٢) المثل السائر ٢ / ٤٤ .

في كل موضع يقتضي ما وقع فيه كما تقدمت الإشارة إليه ، وإما لقصد البداءة والختم به للاعتناء بشأنه ، كما يقول في قوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ...﴾ (آل عمران : ١٠٦) الآيات ، وإما لقصد التفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب ، كما في قوله : ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ (البقرة : ٥٨) ، وقوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ (الأعراف : ١٦١) ، وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة : ٤٤)، وقال في الأنعام : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ (الأنعام: ٩١)„ [١] .

وعلى الرغم من أن السيوطي يذكر سببين آخرين للمغايرة غير المناسبة ، فإنها تبدو السبب الأساسي ، بل لعلنا لا نتجاوز إذا قلنا إنها السبب الوحيد في تلك المغايرة إذا تأملنا مواضعها المختلفة في القرآن الكريم ، وهو ما يشير إليه ابن الزبير بقوله : ''فإنه لا يتقدم اللفظ في الكتاب العزيز ذكرًا أو يتأخر إلا لموجب„ [٢] . وهذا ما سيتضح من تحليلنا لبعض هذه المواضع في الصفحات الآتية .

فمن الألفاظ التي حدثت بينها المغايرة في الترتيب في النظم القرآني لفظا (السماء) و (الأرض) . وحين نتتبع ورودهما معطوفًا أحدهما على الآخر في النظم القرآني ، نجد ما يربو على مائتي موضع تقدمت فيه السماء على الأرض ، جريًا على الأصل الدلالي من تقديم الأشرف والأدل على قدرته تعالى وعجائب صنعه ، وتقدمت الأرض على السماء في ثلاثة عشر موضعًا .

---

[١] الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٤١ .

[٢] ملاك التأويل ١ / ٤٤٥ .

فمن المواضع التي تقدمت فيها السماء على الأرض قوله تعالى : ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ ﴾ (سبأ : ٣) ، وقال بعد ذلك في السورة نفسها : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سبأ : ٢٢) . فقدم الأسلوب القرآني لفظ (السماء) على لفظ (الأرض) في هذين الموضعين وأخره عنه في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (يونس : ٦١) .

وقد أرجع السهيلي تقديم السماوات على الأرض في نحو الآية الأولى وما يماثلها إلى الرتبة والفضل والشرف[١] ، ولم يتعرض بصلة ذلك بالسياق ، وهو ما يكشف عنه الخطيب الإسكافي ، إذ يرى أن ذلك التقديم يرجع إلى أن "هذه الآية مبنية على مفتتح السورة وهو﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ (سبأ : ١) فقدم ذكر السماوات ؛ لأن ملكها أعظم شأناً وأكبر سلطاناً ، وكذلك الآية التي بعدها في سورتها"[٢] .

---

[١] نتائج الفكر في النحو ص ٢١٢ .

[٢] درة التنــزيل ص ٢١٥ .

فجاء تقديم السماوات هنا بما تدل عليه في خلقها من عظيم القدرة وعجيب الصنعة متفقًا مع ملكه ، عز وجل ، لما في السماوات وما في الأرض . وهو ما يتفق معه العلوي ، ولكن من منظور آخر فرأى أنه ، عز وجل ، أراد في هذه الآية ''ذكر إحاطة علمه وشموله لكل المعلومات الجزئية والكلية ، فلا جرم صدر بالسماوات قبل الأرض لاشتمالها على لطائف الحكمة وعجائب الصنعة ومحكم التأليف وكثرة المعلومات كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (الأنعام : ٧٥)،،[١] .

على أن الزركشي لم يكن لــه مثل هذا الرأي ، إذ رأى أن هذه الآية ''منتظمة في سياق علم الغيب،، [٢] . وهذا التعليل لا يتصل بالسياق بقدر ما يتصل بما يتبادر إلى العقل من تعلق الغيب بالسماوات ، إذ بها من أموره ما لا يعلمه الإنسان ، بخلا ف الأرض التي يعلم الكثير عنها ، أما تقديم الأرض في آية يونس فلأنها ـ على حد قول صاحب الدرة ـ ''جاءت عقيب قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (يونس : ٦١) . فكان القصد إلى ذكر علمه بما يتصرف فيه العباد من خير أو شر ، وذلك في الأرض ، فأتمه بقوله : ﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ واستوعب جميع ما في الأرض ثم أتبعه ذكر السماء ؛ لأن الابتداء وقع بما يتعلق بها ، وما يعمل العباد فيها ، فلذلك قدمت الأرض عليها،،[٣] .

---

(١) الطراز ص ٢٣٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٩٩ .

(٣) الإسكافي : درة التنــزيل ص ٢١٥ .

وعلى هذا النحو يأتي تقديم السماء على الأرض في القرآن تارة وتأخيرها عنها تارة أخرى ، فعندما يتعلق الأمر بإبراز قدرة الله المطلقة أو اتساع علمه أو ملكه أو غير ذلك من الأمور الخاصة به وحده ، يأتي تقديم السماء الدالة على عظيم قدرته وعجيب صنعه ، نحو قوله تعالى في الدلالة على اتساع ملكه : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) ، وقوله في الدلالة على مطلق القدرة : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الزمر : ٥) ، وقوله في الدلالة على اتساع علمه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ (التغابن : ٤) . وعندما يتعلق الأمر بالأرض أو بشيء يتصل بها ، يقدم لفظها ، نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (إبراهيم : ٣٨) ، فتقدمت الأرض هنا ؛ لأن الخطاب من إبراهيم لربه , ومن الطبيعي أن يبدأ كلامه بما فيه حياته ومعاشه لا بما ليس له به علم , فهو ـ عليه السلام ـ ''حين ورد على لسانه هذا الدعاء واكب ترتيب اللفظ على لسانه ترتيب المعاني في جنانه بادئا بالأرض , وهي ما خفي عن علمها على الإنسان دون ما خفي عليه من علم السماء ,,[1] ومن ثم جاء تقديم الأرض على السماء في هذا الموضوع , ولعل هذا هو ما يشير إليه الألوسي بقوله : ''وتقديم الأرض على السماء مع توسيط (لا) بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستعدين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا,,[2].

---

[1] د . محمد الأمين الخضري : من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية ص ١٤ .

[2] روح المعاني ١٣ / ٣٤٩ .

وعلى هذا النحو يأتي تقديم اللفظ نفسه في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ (العنكبوت : ٢٢) ، فالخطاب هنا موجه لأهل الأرض ينفي فيه كونهم معجزين , فلما كان الخطاب لهم , ومعايشهم وما يقومون به لا يكون إلا في الأرض , تقدم لفظها لاتصالهم المباشر بها ؛ كي ينفي كونهم معجزين فيها , ثم يترقى في هذا النفي بذكر السماء بعدها مبالغة فيه , وأنهم مهما وصلوا من علم يتصل بالأرض أو بالسماء غير معجزين .

أما إذا كان الأمر في نفى الإعجاز متعلقًا بالله ، ينفي فيه وجود ما يعجزه إثباتًا لطلاقة قدرته , فان التقدم يكون للسماء ؛ لأنها أدل علي بديع خلقة وعظيم قدرته , كما نرى في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ (فاطر : ٤٤) . وعلى هذا النهج يأتي تقديم الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ (البقرة:٢٩) , وقوله : ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا ﴾ (فصلت : ٩ــ ١١) ، ثم عكس هذا الترتيب ، فتقدمت السماء على الأرض في قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴾ (النازعات : ٢٧ ــ ٣١) ، فغاير القرآن الحكيم في الأسلوب منتقلاً من تقديم خلق الأرض في الآيتين الأوليين إلى تأخيره في الآية الثالثة

؛ لأن السياق في آيتي البقرة وفصلت سياق امتنان من الله ، عز وجل ، على عباده بأنه قدر لهم معايشهم وأقواتهم في الأرض قبل خلقهم , فكان من المناسب أن يتقدم ما يظهر فيه أشكال نعمه عليهم . أما السياق في آية النازعات فهو سياق إبراز لقدرة الله المطلقة على الخلق , وأنه خلق ما هو أكبر من الإنسان متمثلا في السماء ؛ لذلك كان تقديمها أولى , إذ هي أدل على تمام قدرته .

وهذه المعاني هي ما يكشف عنة الألوسي في تعليله سر تلك المغايرة , إذ يقول : ''ولعل ذلك لأن المقام في الأولين مقام الامتنان , فمقتضاه تقديم ما هو نعمه نظرًا إلى المخاطبين , فكأنه قال سبحانه وتعالى : هو الذي دبر أمركم قبل خلق السماء ثم خلق السماء ، والمقام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة فمقتضاها تقديم ما هو أدل على كمالها,,[1] .

ومن الألفاظ التي وقعت بينها المغايرة تقديمًا وتأخيرًا في القرآن لفظا (اللعب) و(اللهو) , وحين نتتبع ورودهما في القرآن معطوفًا أحدهما على الآخر نجد أن الأول منهما وقع مقدمًا في أربعة مواضع , وتقدم الثاني في آيتين . ولو أردنا أن نستنطق المعاجم بحثًا عن معنى هذين اللفظيين للوقوف على السر وراء تقديم أحدهما في موضع والآخر في غيره لوجدنا أن اللعب من لَعِبَ , يلعَب , لعِبا ''ولَعِبَ فُلانٌ : إذا كان فِعلُه غيْرَ قَاصِدٍ به مَقْصِدًا صحيحًا[2],, كذا قال الراغب , وقال ابن منظور: ''ويُقَالُ لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لا يُجْدي عَلَيْه نَفْعًا : إنَّما أنْتَ لاعِبٌ,, [3].

---

(1) روح المعاني ١ / ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(2) الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن (لعب) .

(3) لسان العرب (لعب) .

وأما اللهو فهو -- على حد قول الراغب - ''ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه . يقال : لهَوْتُ بكذا , ولَهَيْتُ عن كذا : اشْتَغَلْتُ عنه بِلَهْوٍ,,[1] ، وقال صاحب اللسان :'' اللَّهْوُ ما لَهَوْتَ بِهِ ولَعِبْتَ به وشَغَلَكَ مِنْ هَوًى وطَرَبٍ ونَحْوِهِما ,, [2] .

وبتأمل هذه المعاني وسياق الآيات الذي ورد فيه كلا اللفظيين مقدمًا أحدهما تارة ومتأخرًا تارة أخري يمكننا أن ندرك سر تلك المغايرة . فأما الموطنان الأول والثاني اللذان تقدم فيهما اللعب على اللهو فهما قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام : ٣٢) ،وقوله : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأنعام : ٧٠) ، قال ابن الزبير في علة هذا التقديم : ''فوجه تقديم اللعب في الأنعام أنه المتقدم في الوجود الدنياوي على اللهو , ولأن أول ابتداء تعقل الإنسان وميزه حاله حال اللعب وهو المطابق لسن الابتداء فإذا استمر ألهى عن التدبر والاعتبار وشغل تماديه عن التفكير فيما به النجاة والفوز ، وقد ينضاف إلى اللعب شاغل غيره أو يعاقبه فيحصل بالمجموع الغفلة عن النظر في الآيات فيعقب الهلاك , قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ (الأعراف : ١٧٩) , فلما لم يبرح هؤلاء عن الجري على مهيع الصم البكم الذين لا يعقلون جرى الإخبار عنهم في الآية الثانية من الأنعام بمقتضى أحوالهم في أعمارهم التي لم تخرج عن أحوال البهائم , فأول أعمارهم لعب وعقب ذلك لهو , فورد الإخبار على حسب جري الأعمار , وأنهم اعتمدوا البقاء مع مقتضى الطبع الإنساني إذ لم يصغ المكلف إلى داعٍ ولا تكلف الخروج عن مقتضى هواه , ولا جنح إلى مفارقة مألوف الطباع,, [3] .

---

[1] مفردات ألفاظ القرآن (لهى) .

[2] لسان العرب (لها) .

[3] ملاك التأويل : ١ / ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

وهو كلام حسن بيد أنه أقرب إلى مراعاة سياق الحال , غير كاشف عن العلاقة بين تقديم اللعب والسياق اللغوي , فأين تكمن هذه العلاقة ؟ إن المتأمل في السياق السابق على الآية الأولى يرى أنه يتحدث عن إعراض هؤلاء الكافرين عن سماع كلام الله وتكذيبهم به ووصفهم إياه بأنه أساطير الأولين ثم تماديهم في هذا الغي وتكذيبهم بالبعث ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الأنعام : ٢٥ ــ ٢٦) ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الأنعام : ٢٩) ، وهذا الذي فعلوه وقالوه ما هو إلا تغيير لوجه الحقائق وفعل لا يقصد به إلا الباطل , يبتعد كل البعد عن المقصد الصحيح , ولا يجلب عليهم إلا غضب الله وعقابه الشديد , فليس من وراء فعلهم هذا أي نفع , بل وراءه الضرر , بدليل قوله تعلى : ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ . وهذه المعاني هي ما يدل عليه لفظ اللعب لا اللهو , فجاء تقديمه ليتصل بما يدل عليه أقرب إلى مدلول السياق وأنسب لمعناه .

وكذلك الحال في الآية الثانية فإنها ــ على حد قول الخطيب الإسكافي ــ ''في قوم من الكفار كانوا إذا سمعوا آيات الله هزلوا عندها واستهزئوا بها , فهذا اتخاذهم دين الله لعبًا ولهوًا , وهو كما قال في آية أخرى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ (النساء : ١٤٠) ، فقوله عز وجل : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ

لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ كقوله: ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ ﴾ فهؤلاء قوم حضروا النبي ــ صلي الله عليه وسلم ــ وسمعوا القرآن وعبثوا عند سماعه وتلاعبوا بآياته وأجروها مجري أفعال يستروح إليها ولا نفع في عقباها , ثم شغلوا بدنياهم عن تدبرها وألهتهم بحلاوتها عن الفكر في صحتها , فأول أفعالهم لعب وثانيها لهو , واللعب فعل في طاعة الجهل تتعجل منه مسرة , واللهو قال فيه صاحب العين : (ما شغل الإنسان من هوي وطرب) فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء والعبث أطلق على فعلهم اسم اللعب , ثم لما شغلوا عنه باستحلاء الدنيا كان هذا لهوًا منهم بعد اللعب , وكان أول دينهم لعبًا وما بعده لهوًا ؛ فلذلك قدم لعب على لهو في هذه الآية,,[1] .

وعلى هذا النحو يأتي تقديم اللعب على اللهو في الموضعين الثالث والرابع , وهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ (محمد : ٣٦) ، وقوله : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾(الحديد : ٢٠). قال الكرماني :'' إنما قدم اللعب في الأكثر ؛ لأن اللعب زمانه الصبا , واللهو زمانه الشباب , وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب , يبينه ما ذكر في الحديد : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ كلعب الصبيان , وَلَهْوٌ كلهو الشباب , وزِينَة كزينة النسوان , وَتَفَاخُرٌ كتفاخر الأخوان , وَتَكَاثُرٌ كتكاثر السلطان,,[2].

---

[1] درة التنزيل ص ٦٥ ، ٦٦ .

[2] أسرار التكرار في القرآن ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

وهذا الذي ذكره ليس من شأنه إبراز وجه المناسبة بين تقديم اللعب والسياق اللغوي , وإنما هو أقرب إلى مراعاة سياق الحال , ولو رجعنا إلى السياق الذي وردت من خلاله هاتان الآيتان نحاول أن نتأمله لوجدنا أنه في الآية الأولى سياق إخبار عن هؤلاء الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، وعصوا الرسول ، وأصروا على كفرهم وعصيانهم حتى ماتوا على ما هم عليه , فهؤلاء لن يضروا الله شيئًا , وسيحبط أعمالهم , ولا يغفر لهم . يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ (محمد : ٣٢ ــ ٣٤) .

وأما السياق المتقدم على الآية الثانية فهو سياق إخبار عن المنافقين الذين فتنوا أنفسهم , وأهلكوها بالنفاق , وتربصوا بالمؤمنين الدوائر ، وغرتهم الأماني من طول الأمل والطمع في امتداد الأعمار حتى جاء أمر الله وهو الموت , وغرهم الشيطان بأن الله لن يعذبهم ، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحديد : ١٣ ــ ١٥) ، فكلا الفريقين من كافرين ومنافقين قد ضل عن سواء السبيل , واتبع طريق الباطل , وقصد

مقصدًا غير صحيح , فكان مأواه النار جزاءً وفاقًا ، كما يقول عــز وجــل : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، فلم ينفع هؤلاء نفاقهم , ولم يغنِ عن أولئك كفرهم , ولم يجلب عليهم ما اتبعوه من باطــل إلا الحسرة والخسران وسوء العقاب , وهذه معانٍ تكمن في الشحنات الدلالية التي يحملها لفظ (اللعب) فكان تقديمه لتسليط الدلالة عليه أولى وأقرب لمدلول السياق .

وأما الموضعان اللذان تقدم فيهما لفظ اللهو على اللعب فأولهمــا قولــه تعــالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ ﴾ (الأعراف : ٥٠ ــ ٥١) . قال الخطيب الإسكافي في علة هذا التقديم : "وتقديم اللهو علــى اللعب في هذه الآية ، فلأن الكافرين هنا لعامة الكفار غير مختص لمن سمع الآيات ، فقدم فعل أكثرهم على فعل أقلهم وهم الذين شغلتهم الدنيا وحلاوتها والولادة وعادتها واســتحلا ما مرت عليه طباعها وهذا هو اللهو , و ثمَّ كانت أفعالهم التي اقتدوا فيهــا بآبــائهم لمــا طابت لهم ولم يجدوا في العاقبة نفعًا عليهم كاللعب الذي ينطوي على أفعــال تبطــل فــي الأجل وإن سرت في العاجل ، وهذا بعد الأول , وأكثر الكفار دأبهم اللهــو ، وإن شــغلهم الحال التي استصحبوها عن الفكر فيما يطرأ عليها , فوجب هنا تقديم ذكر اللهو لــوجهين : لتقدمه على ما هو كاللعب , ولأنه فعل أكثرهم"[1] .

[1] درة التنــزيل ص ٦٦ .

وهذا التعليل الذي ذكره يكشف عن وجه المناسبة بين تقديم اللعب والسياق اللغوي من منظور ، يعتمد فيه على ما يدل عليه لفظ (الكافرين) هنا من العموم , ويكشف ابن جماعة عن وجه آخر أكثر صله بمدلول السياق اللغوي ، يرى فيه أن تقديم (اللهو) لأنه ''جاء في الأعراف بعد قوله : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٤٨) ، وهو ذم لهم بالإعراض عن اتباع الحق وإهماله ؛ ولذلك قال بعده : ﴿ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ ,, [١] .

فهو ينظر بذلك إلى مدلول السياق من جهة وما يدل عليه لفظ اللهو من الانشغال والإعراض والإهمال من جهة أخرى ، فالأول ذكر من صفات الكافرين اغترارهم بالحياة الدنيا بملذاتها ومتعتها , فانشغلوا بها حتى نسوا لقاء ربهم , وهذا الانشغال الذي يُنسي ما يجب أن يتذكره الإنسان مما يدل عليه لفظ اللهو لا اللعب , فكان تقديمه ليتصل بما يتفق معه من دلالات أنسب لما يدل عليه السياق .

أما الآية الثانية التي تقدم فيها اللهو على اللعب فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (العنكبوت : ٦٤).قال الخطيب الإسكافي : ''وإنما قدم اللهو هنا على اللعب ؛ لأن الأزمنة التي يقصرها اللهو أكثر من الأزمنة التي يقصرها اللعب لأن التشاغل به أكثر , فلما كانت معظم ما يستقصر وجب تقديم ما يكثر على ما هو دونه في الكثرة ، لأن ذلك آخذ بالشبه وأبلغ في وصف المشبه ، ولا خلاف أن الناس أزمنتهم المشغولة باللهو , أكثر من أزمنتهم المشغولة باللعب ، وأن طيبها لهم يخيل قصرها إليهم وبتفاوت طيبها على

---

[١] كشف المعاني ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

حسب تفاوت ميل النفس إلى محبوبها . فمعظم ما ترى الزمان الطويل قصير زمان اللهو بالنساء ، وهو الذي نشأت منه فتنة الرجال وهلاك أهل الحب,, [1] .

وهذا التعليل يفتقر إلى إبراز العلاقة بين تقديم اللهو هنا والسياق اللغوي ، وهو ما حاول ابن الزبير الكشف عنه قائلاً : ''وأما آية العنكبوت فإنها تقدم قبلها قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت : ٦١) ، ولا يسأل عن هذا ويجيب إلا من جاوز سن اللعب وبلغ السن التي فيها يتعلق التكليف بالمخاطب ، ويصح خطابه وعتابه على تفريطه . فناسب ذلك من ذكر الحياة الدنيا تقديم ما يساوق تلك السن ، فقدم ذكر اللهو والتالي اللعب ليناسب ، وليحصل ذكر مانعهم من الاستجابة وتكمل النظر المخلص لهم ، وأخر ذكر اللعب الذي لا يساوق مع أنه متبوع اللهو لزومًا لمن لم تسبق له سابقة السعادة,, [2] .

وليس ما ذكره ابن الزبير هنا بأفضل مما ذكره الإسكافي , إذ يعتمد في تعليله هذا على علاقة اللهو بسن الشباب واللعب بالصبا , ولو نظر إلى المعنى المعجمي لهما الذي تقدم ذكره لكان أولى . فإذا نظرنا إلى هذا المعنى رابطين بينه وبين سياق الآية لوجدنا أنه سياق إخبار من الله عز وجل لعباده كافة أن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع زائل وأن الحياة الباقية الدائمة التي لا زوال لها هي الحياة الآخرة، وهذا التذكير منه عز وجل لعباده لا يكون في المقام الأول لمن أنكر وجود الآخرة وكفر بها بقدر ما هو تذكير لمن انشغل عنها بما في الحياة الدنيا من لذات وشهوات ومتع زائلة أنسته ما ينبغي أن يهتم ويشغل به ، فكان تقديم اللهو الذي تكمن فيه هذه الدلالات أولى من تقديم اللعب ؛ لتترتب الألفاظ وفقًا لترتب المعاني كما تفهم من مدلول السياق .

---

[1] درة التنزيل ص ٦٧ .

[2] ملاك التأويل ١ / ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

ويغير الأسلوب القرآني ترتيب الصفات في مشتبه النظم الحكيم , فيقدم صفة ما على أخرى في موضع , ويقدم الأخرى في موضع آخر , وكلتا الصفتين تحقق تناسب الفواصل تقدمت أو تأخرت , مثل : العليم الحكيم , فهما من روى واحد , هو الميم المسبوقة بياء المد , ولا تتغير الفاصلة بتغير ترتيبها , وقد اجتمعت هاتان الصفتان في القرآن ستًّا وثلاثين مرة , تقدمت العليم في تسع وعشرين منها , وتقدمت الحكيم في سبعة مواضع , وحين نتأمل كل موضع في سياقه نجد من دواعي النظم ما يوجب تقدم المقدم , وأي محاولة لعكس الترتيب إنما تذهب ببلاغة النظم وسر إعجازه .

ولنأخذ مثلاً من مواضع تقديم العليم , قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ ﴾ (البقرة : ٣١ ــ ٣٢) . فالسياق سياق تسليم من الملائكة لله عز وجل بالعلم وأنهم لا علم لهم إلا ما علمهم إياه , ذلك العلم الذي منح بعضه آدم من دون الملائكة , فرفع به قدره حتى يتبينوا ما خفي عليهم من استخلاف الله له في الأرض , فكان تقديم صفة العلم أنسب لمدلول هذا السياق , ثم جاءت صفة الحكمة بعدها لتشير إلى تسليم الملائكة بعلمه المطلق وحكمته البالغة باستخلاف آدم من بعد تعجبهم واندهاشهم من ذلك الاستخلاف .

وقد أحسن أبو حيان الكشف عن علة هذا الترتيب , إذ يقول : ''وناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة ؛ لأنه المتصل به في قوله : (وَعَلَّم) (أَنۢبِـُٔونِي) (لَا عِلۡمَ لَنَآ) فالذي ظهرت به المزية لآدم والفضيلة هو العلم , فناسب ذكره متصلا به ؛ ولأن الحكمة إنما هي آثار العلم وناشئة عنه ؛ ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة ؛ ولأن يكون آخر مقالهم مخالفًا لأوله حتى يبين رجوعهم

عن قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ (البقرة : ٣٠)،،[١]. وقال الألوسي محسنًا التعليل كذلك : ''ولمّا نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه , وأردفوه بالوصف بالحكمة لما تبين لهم ما تبين،،[٢] .

وهذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء : ١٧) ، يخبر فيه عز وجل أنه أوجب التوبة على نفسه لعباده الذين يقترفون المعاصي بجهالة ، أي عن قصد أو غير قصد . قال ابن كثير : ''قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى الله خطأً أو عمدًا فهو جاهل حتى ينـزع عن الذنب , وقال قتادة عن أبى العالية : إنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله (ص) كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة رواه ابن جرير . وقال عبد الرازق أخبرنا معمر عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ , فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمدًا كان أو غيره،،[٣] .

ولا يحدد النية في ارتكاب الفعل إن كان عن قصد أم غيره إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور , ولا يقبل التوبة من العباد إلا من كان يعلم بصدقها والإخلاص فيها , فجاء السياق قائمًا على العلم , فتقدمت صفته , ثم أردفت بصفة الحكمة ؛ تنبيهًا على أنه سبحانه لا يغلق أبواب توبته في وجه عباده حتى لا ييأسوا من رَوْحه , فيتمادوا في غيهم , وليعلموا أن رحمته متسعة لمن تاب , وأناب إليه , وهو ما يشير إليه

---

[١] البحر المحيط ١ / ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

[٢] روح المعاني ١ / ٣٦١ .

[٣] تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٦٣ .

أبو حيان في تفسير هاتين الصفتين بقوله : ''أي عليمًا بمن يطيع , ويعصى , حكيمًا أي : يضع الأشياء مواضعها , فيقبل توبة من أناب إليه,,[١] .

ثم لنتأمل كيف يعلم سبحانه ما يجول في نفوس عباده , ويتوجسون منه خيفة حين يشرع لهم تشريعًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٢٨) . فعلم سبحانه ما خاف منه بعض المؤمنين من فوات الرزق إذا ما قطعوا صلتهم بالمشركين , فبادر إلى طمئنتهم بأنه هو الذي يغنيهم من فضله إن شاء ، فتقدمت صفة العلم ؛ لاتفاقها بما تدل عليه من علمه بما يجول في خاطر بعض المؤمنين مع مدلول السياق .ثم جاء الوصف بالحكيم ؛ ليبين أن علمه تحيطه الحكمة وأنه سبحانه لا يشرع تشريعًا إلا ويراعي فيه ما يصلح شأن المؤمنين , ويعود عليهم بالفائدة والنفع . قال الزمخشري في إشارة منه إلى هذا المعنى : ''إن الله عليم بأحوالكم ، حكيم لا يعطى ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب,,[٢] .

أما المواضع التي تقدم فيها وصف الحكيم , فإنها جميعًا تدل على إطلاق مشيئته في أفعاله , مما يخفى معه وجه الحكمة على خلقه , فكان تقديم ما يدل على وصفه بالحكمة المطلقة دعوة للعقل إلى تفويض الأمر لمن خلق فيما يعجز عن إدراكه , وتغيب عنه حكمته , فهذه إرادته المطلقة التي تتحكم في الخلق إحياءً وإماتة , قبضًا وبسطًا , هداية وإضلالاً , عزًا وذلاً , وتتحكم كذلك في عقابه من يشاء وعفوه عمن يشاء ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا

---

[١] البحر المحيط ٣/ ٢٠٩ .

[٢] الكشاف ٢/ ٢٦٢ .

ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (الأنعام : ١٢٨) . فهل يمكن أن يقدم وصف العليم في تعليل أفعال خفي فيها وجه الحكمة من عقاب بعض العاصين وترك بعضهم ؟ . إن المناسب في هذا المقام أن تتقدم صفة الحكمة ثم تعقبها صفة العلم ؛ لتشير إلى أن حكمته عز وجل تأتى عن علم بأحوال عباده وما يفعلونه من معاصٍ تستحق العقاب ومعاصٍ أخرى لا تستوجب ذلك العقاب .

ويكشف البقاعي عن هذه المعاني قائلاً : ''ولما كان السياق ـ في مثل هذه المقاولة في مجمع الحكم ـ للحكمة والعلم ، وكان النظر إلى الحكمة في تنزيل كل شيء منزلة أعظم , قدم وصفها فقال : (حَكِيم) أي فلا يعذب المخلص ويترك المشرك ، ولا يعذب بعض من أشرك ويترك بعضًا (عَلِيم) أي بدقائق الأمور وجلائلها من الفريقين , فلا يخفى عليه عمل أحد فيهمله لذلك,, [١] .

وهذه حكمته تتجلى في عدم اتخاذه ولدًا , إذ لا حاجة به إلى هذا الأمر , وهو سبحانه رب السماوات والأرض يملك مقاليدهما , وهو الإله الأوحد فيهما ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الزخرف : ٨١ ـ ٨٤) فهل يمكن وهو رب كل شيء ومليكه ورب العرش العظيم وإله جميع الخلق أن يتخذ ولدًا . إن الحكمة تقضي بأن

---

[١] نظم الدرر ٢ / ٧١٦ .

يتنـزه الإله عن الميل والهوى والنقص والافتقار إلى غيره . ومن يتخذ ولدًا يتصف بهذه الصفات , والله منـزه عن كل عيب سبحانه وتعالى عما يصفون , فجاء الوصف بالحكيم في تقدمه مواكباً لحكمته سبحانه من عدم اتخاذ ولد ، ثم أعقبه الوصف بالعليم بما يدل عليه من علمه بطبائع خلقه متفقًا مع مقتضيات العقل الذي يأبى أن يعبد إلهًا لا تتحقق فيه كل صفات الكمال .

وإذا كان سبحانه قد ذكر أنه هو الإله في السماء والأرض , فإن الإله لا يصلح أن يكون كذلك إلا إذا اتصف بالحكمة , بحيث يضع كل شيء في موضعه عن علم مطلق محيط بجميع الأشياء . قال البقاعي : ''ولما كان الإله لا يصلح للألوهية إلا إذا كان يضع الأشياء في محالها بحيث لا يتطرق إليها فساد ، ولا يضرها إفساد مفسد , وكان لا يكون كذلك إلا بالغ العلم . قال : ﴿ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ﴾أي البليغ الحكمة ، وهي العلم الذي لأجله وجب الحكم من قوام من أمر المحكوم عليه في عاجلته وآجلته . ولما كانت الحكمة العلم بما لأجله وجب الحكم , قال تعالى : (ٱلۡعَلِيمُ) أي البالغ في علمه إلى حد لا يدخل في عقل العقلاء أكثر من وصفه به على طريق المبالغة , ولو وسعوا أفكارهم وأطالوا أنظارهم لأنه ليس كمثله شيء في ذاته ولا صفة من صفاته ليقاس به , وكل من ادعى فيه أنه شريك له لا يقدر من أشرك به أن يدعيله ما وصف به من الإجماع على ألوهيته ومن كمال علمه وحكمه ، فثبت قطعاً ببطلان الشركة بوجه يفهمه كل أحد , فلا خلاص حينئذ إن خالف كائناً من كان,,[1] .

وفي قصة رسل إبراهيم حين بشروه بإسحاق , وجوابهم لامرأته حين تعجبت من أن تلد وهي عجوز عقيم , مثل واضح لبلاغة النظم الحكيم في ترتيب الألفاظ وفقاً

---

(1) نظم الدرر ٧ / ٥٧ .

لحركتي النفس والعقل في استقبالهما للمعاني وتصورهما . قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ (الذاريات : ٢٨ ــ ٣٠) . لقد جاء السياق هنا يصور دهشة سارة وما تملكها من الذهول والحيرة , إذا بشرتها الملائكة بإسحاق , هذه الدهشة التي "كانت استعظامًا للحدث على ما جرت به العادة , لا استعظامه على المحدث القدير , فاكتفي الملائكة برد هذا الحدث العظيم إلى المحدث الأعظم ﴿ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وكأنهم أرادوا أن يفيقوها من دهشتها , وينقلوها من عظمة الحدث إلى عظمة المحْدِث , وهذا كافٍ لذهاب حيرتها وتعجبها . أما لماذا كان هذا بعد هذه السن وآفة العقم اللتين يستحيل بهما في دنيا الناس أن يكون ما كان , فذلك مقتضى الحكمة التي نفوض أمرها إلى الله فيما لا تطوله العقول . فالوصف بالحكيم حين يتقدم في هذا الموضع إنما يواكب حركة النفس والعقل في تطلعهما إلى الإجابة عما يجول في النفس , ويدور به الخاطر" [1] .

---

[1] د . محمد الأمين الخضري : من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية ص ٤٨ ، ٤٩ .

المبحث الثاني

المناسبة بين ذكر اللفظ أو تركه والسياق اللغوي

قد يعمد الأسلوب القرآني إلى المغايرة بين الألفاظ ذكرًا وتركًا , فيذكر أحدها في موضع , ثم يعود فيترك اللفظ نفسه في موضع آخر مشابه , تبعًا لمقتضيات السياق , إذ لا تذكر كلمة في القرآن إلا إذا اقتضاها السياق , وتطلبها النظم , ولا تترك كلمة في القرآن إلا وتركها أبلغ وأنسب , وأكثر ترابطًا في الأسلوب , وأحكم للصياغة الفنية المعجزة . فالألفاظ في النظم الحكيم تتداعى تداعيًا طبيعيًّا حسبما تتطلبه المعاني , وتقتضيه الأفكار وتنحدر في سهولة ويسر , حتى تتماسك في مواضعها التي هيئت لها . فللذكر مجاله في الصياغة القرآنية . وللحذف أو الترك مجاله هو الآخر , ووراء كل منهما من المعاني الإضافية ما يؤكد دقه الأسلوب القرآني في اختيار الألفاظ وتوظيفها تبعًا للسياق .

ومما يصور لنا هذه الدقة البالغة في اختيار الألفاظ وتوظيفها التوظيف اللائق بها في النظم القرآني ما نراه من ذكر صفة المصدر المحذوف (رَغَدًا) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (البقرة : ٥٨) ثم يعود النظم الحكيم , فيترك اللفظ نفسه في موضع آخر مع تشابه الموضعين , وذلك في قوله : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ (الأعراف : ١٦١) .

ولعل تلك المغايرة ترجع _ على حد قول الإسكافي _ إلى أنه سبحانه ''لما أسند الفعل إلى نفسه تعالى كان اللفظ الأشرف للأكرم . فذكر معه الإنعام الأجسم , وهو أن يأكلوا رغدًا , ولما لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه , لم يكن مثل الفعل الذي في سورة البقرة , فلم يذكر معه ما ذكر فيها من الإكرام الأوفر , وإذا تقدم اسم المنعم الكريم اقتضى ذكر نعمته الكريمة,,[1] . وإلى مثل هذا الرأي ذهب الفخر الرازي[2] .

أما ابن جماعة فقد نظر إلى الأمر نظرة مختلفة تجاوز فيها الآية إلى السياق السابق عليها رابطًا بين ذكر اللفظ الدال على الإنعام وما أخبر به عز وجل عن نعمه التي أنعم بها على بنى إسرائيل , يقول : ''أما آية البقرة : فلما افتتح ذكر بنى إسرائيل بذكر نعمه عليهم بقوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ (البقرة : ٤٧) ، ناسب ذلك نسبة القول إليه , وناسب قوله (رَغَدٗا) لأن النعم به أتم,,[3] . وكل من ابن جماعة والإسكافي قد نظرا إلى وجه المناسبة من منظور مختلف , ولو أخذنا برأيهما معًا لكان ذلك أدخل إلى إبراز وجه المناسبة بين مدلول السياق وذكر اللفظ في الآية الأولى وتركه في الثانية .

ومما حسن من تلك المغايرة ما ورد من ذكر الفاء في قوله تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنعام : ١٣٥) ، وقوله : ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي

---

(١) درة التنـزيل ص ٨ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣ / ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) كشف المعاني ص ٩٧ .

عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝﴾ (الزمر : ٣٩ – ٤٠) , ثم يعود الأسلوب القرآني فيؤثر ترك هذه الفاء في موضع آخر مشابه , وذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ (هود : ٩٣) .

وقد أرجع ابن الأثير هذه المغايرة إلى سبب شكلي لا يتعلق بمدلول السياق , وهو التفنن في البلاغة [١] . فهل يقتصر الأمر على هذا السبب دون النظر إلى مقتضيات السياق في كل آية وما يتطلبه من ذكر الفاء في الآيتين الأوليين وتركها في الآية الثالثة ؟ .

إن المتأمل في سياق آيتي الأنعام والزمر يلحظ أن الخطاب فيهما من الله لرسوله أن يأمر قومه بما ينبغي عليهم أن يفعلوه , فلما كان الخطاب منه عز وجل , وهو الذي يعلم عواقب الأمور , ويتصرف فيها كيف يشاء , فإذا ما توعد أحدًا , فإن توعده محقق لا محالة سريع المجيء , حتى كأنه قد حدث بالفعل , وهو ما يدل عليه قوله قبل آية الأنعام : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝﴾ (الأنعام : ١٣٤) , فأكد وعده لهم بأكثر من تأكيد , كما نرى في (إنّ) و(اللام) واسم الفاعل (آتٍ) الدال على الثبوت والجملة الاسمية ؛ للدلالة على تحقق وعده أو وعيده وثبوت ذلك دون ريب , ثم كان إرداف ذلك بقوله : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ للإشعار بأنه سبحانه لا يعجزه شيء وأن ما يعد به لا يستطيع أحد رده , فلما كان ذلك كله جاء إثبات الفاء في هاتين الآيتين متسقًا مع صدق وعده أو وعيده وسرعة مجيئه دون أن يرده شيء .

---

[١] المثل السائر ٢ / ٧٩ .

أما السياق في آية هود فجاء حكاية عن شعيب ــ عليه السلام ــ , يأمر قومه أن يعملوا على مكانتهم , ولم يكن الأمر من الله مباشرة , فكان أمر شعيب لهم بما يمتلكه من الوعيد دون تحديد وقت هذا الوعيد , إذ هو من علم الله دون غيره , والإسراع به أو الإبطاء أمر خاص بالله وحده , ومن هنا لم يأت الأسلوب القرآني بالفاء التي تدل على السرعة في حدوث الشيء , كما جاء بها في آيتي الأنعام والزمر .

وقد حاول الإسكافي إبراز وجه تلك المناسبة قائلاً : ''أمر الله نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ في سورة الأنعام بأن يخاطب الكفار على سبيل الوعيد اعملوا على طريقتكم وجهتكم , أو على تمكنكم , فسوف تعلمون أنكم أسأتم إلى أنفسكم , والعمل سبب للجزاء الذي عبر عنه بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فالفاء متعلقة بقوله اعملوا ، أو التقدير اعملوا فسوف تعلمون أني عامل فسوف أعلم ، فحذف للعلم به ، وكذلك ما في سورة الزمر من خطاب إلى الله تعالى للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ على هذا الوجه ، وأما في سورة هود فإنه حكاية عن شعيب عليه السلام لما تجاهل قومه عليه فقالوا له :﴿ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ (هود : ٩١) ، فقال لهم : اعملوا على مكانتهم إني عامل سوف تعلمون وتعرفون عملي ، وإن قلتم إنا لا نفقه أكثر ما تقوله ، فجعل ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ مكان الوصف لقوله (عامل) فلم يصح على هذا المعنى دخول الفاء ، وقصد هذا المعنى لما أظهروا من جهلهم به وأنهم لا يعرفون ما يقوله لهم ، فقال لهم إني عامل سوف تعلمون عملي وتعرفونه بعدما أنكرتموه،،[1] .

---

[1] درة التنزيل ص ٧٢ .

وهذا الذي ذكره الإسكافي ليس من شأنه أن يوضح وجه المناسبة بين السياق اللغوي وإثبات الفاء في الآيتين الأوليين وتركها في الآية الثالثة ، إذ يبقى التساؤل قائمًا : لماذا كان تركها في آية هود وحدها وجعل جملة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في موضع الصفة لـ (عامل) ، ولم يكن ذلك في الآيتين الأخريين ، ولماذا دخلت الفاء على هذه الجملة في هاتين الآيتين ، فجعلت بمثابة الجزاء لما قبلها ؟ . لعل الرد على تلك التساؤلات يكمن فيما ذكرته لا فيما ذكره الإسكافي .

وبمثل هذا الحسن من ذكر اللفظ في موضع ثم تركه في موضع آخر ننظر إلى ورود (اللام) الدال على التوكيد في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الواقعة : ٦٣ ـ ٦٥) ، ثم تركها بعد ذلك مباشرة في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الواقعة : ٦٨ ـ ٧٠) .

وقد أرجع الزمخشري علة هذه المغايرة إلى أمرين يتعلق أحدهما بالاستعمال اللغوي ، ويرى فيه أن "(لَو) لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ؛ ولم تكن مخلصة للشرط كـ (إن) ، ولا عاملة مثلها ، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقًا من حيث إفادتها في مضموني جملتيها أن الثاني امتنع لامتناع الأول : افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علمًا على هذا التعلق ، فزيدت هذه اللام لتكون علمًا على ذلك ، فإذا حذفت بعد ما صارت علمًا مشهورًا مكانه ، فلأن الشيء إذا علم

وشهر موقعه وصار مألوفًا ومأنوسًا به لم يبالَ بإسقاطه عن اللفظ ، استغناءً بمعرفة السامع,,[1] .

وأما الثاني فيتعلق بسياق الحال ويرى فيه أن ''هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة ، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب ، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب ، من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعًا للمطعوم,,[2] .

وذهب ابن الأثير في تعليل تلك المغايرة مذهبًا آخر يختلف عما ذهب إليه الزمخشري ، وإن كان يتعلق بسياق الحال ، فرأى أن اللام دخلت في الموضع الأول وتركت في الثاني ''لأن جعل الماء العذب مِلْحًا أسهل إمكانًا في العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيرًا ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة ، فلم يحتج في جعل الماء العذب مِلْحًا إلى زيادة تأكيد ، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق ، وأما المطعوم فإن جعله حطامًا من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة في تحقيق أمره وتقريره,,[3] .

فتوجهت نظرة الزمخشري في رأيه الأول إلى السياق اللغوي ، لكنه لم يبرز وجه المناسبة فيه ، أما نظرته في رأيه الثاني ، يضاف إليها ما ذكره ابن الأثير فقد توجهت إلى سياق الحال .

---

(1) الكشاف ٤ / ٤٦٦ .

(2) السابق ٤ / ٤٦٧ .

(3) المثل السائر ٢ / ٥٢ .

ولعل ما ذهب إليه ابن أبي الإصبع أولى مما ذكراه وأقرب إلى إبراز وجه المناسبة بين السياق اللغوي وذكر اللام في الموضع الأول وتركها في الثاني ، ليس هذا فحسب ، بل يتضمن رأيه مراعاة سياق الحال كذلك ، إذ يرى أن ''الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطامًا مما يحتمل أن يتوهم أنه من فعل الزارع ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ أو يتوهم أن خصبه من سقي الماء وأن جفافه من حرارة الشمس وعدم السقي ، أو تواتر مرور الإعصار ، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك كله على الحقيقة ، وأنه قادر على جعله لو شاء حطامًا في حالة نموه وزمن شبيبته ونضارته ، فلما كان هذا التوهم محتملاً أوجبت البلاغة توكيد فعل الجعل فيه ، وإسناده لزارعه على الحقيقة ومنشئه لرفع هذا التوهم ، ولما كان إنزال الماء من السماء محالاً بما لا يتطرق احتمال توهم متوهم أن أحدًا من جميع الخلق قادر عليه لم يحتج إلى توكيد الفعل في جعله أجاجًا ، فإنه لا يمكن أن يتوهم أحد أن أحدًا ينزل الماء من السماء أجاجًا ولا عذبًا الذي هو أسهل من الأول وأهون،،[1] .

فنظرته إلى ما يحدث من توهم في الموضع الأول إذا لم تدخل اللام ورفع هذا التوهم بدخولها إنما هي نظرة لمدلول السياق اللغوي ، وأما نظرته لما يمكن أن يعتقده بعض الناس من وجود دور فعال لهم في إيجاد الزرع وانتفاء هذا الدور في إنزال الماء فما هي إلا نظرة إلى سياق الحال .

ثم لننظر أخيرًا إلى إثبات حرف الجر (مِن) الدال في أحد معانيه على التبعيض[2] في بعض الآيات التي تخبر عن غفران الله لذنوب عباده وتركه في مواضع أخرى ، تدل على المعنى نفسه . فأما المواضع التي ثبت فيها الحرف فهي ثلاثة ، وذلك في آيات :

---

[1] بديع القرآن ص ٦٩ .

[2] ابن هشام : مغني اللبيب ١ / ٣٤٩ .

(إبراهيم : ١٠) ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، (الأحقاف : ٣١) ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، (نوح : ٤) ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

وأما المواضع التي خلت من هذا الحرف ، وكان يمكن إثباتها فهي ستة ، وذلك في آيات : (آل عمران : ١٦) ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، (آل عمران : ٣١) ﴿ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، (آل عمران : ١٤٧) ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، (آل عمران : ١٩٣) ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ ، (الأحزاب : ٧١) ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، (الصف : ١٢) ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

وقد ذهب أبو عبيدة في تعليقه على آية (إبراهيم) أن (مِن) زائدة [١] ، وكذلك ذهب الأخفش فيما ينقله عنه أبو حيان[٢] ، ويقاس عليها الآيتان الأخريان ، ثم علق على هذا الرأي قائلاً : "وجمهور البصريين لا يجيز زيادتها في الواجب ، ولا إذا جرت المعرفة"[٣] . ورأى الفخر الرازي أن (مِن) إذا لم تكن زائدة ، ففي هذا وجهان "أحدهما أنه ذكر البعض ههنا وأريد به الجميع توسعًا ، والثاني : أن (مِن) ههنا للبدل والمعنى

---

(١) مجاز القرآن ١ /٣٣٦ .

(٢) البحر المحيط ٥ / ٣٩٩ .

(٣) السابق ٥ / ٣٩٩ .

لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب ، فـدخلت (مِن) لتـضمن المغفـرة معنـى البـدل مـن السيئة„ [1] .

وذهب الزمخشري في تعليل دخول (مِن) في نحو الآيات الثلاث الأولى وتركها فيما سواها إلى أن النظم الحكيم بهذه المغايرة يفرق بين خطاب الكافر وخطاب المؤمن ، يقول معلقًا على آية إبراهيم : ''ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين ، كقوله : ﴿ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، وقال في خطاب المؤمنين : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء ،وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد„ [2] .

والزمخشري بما ذكره يضع يده على ملاحظة مهمة ، وهي أن ذكر (مِن) جـاء في الآيات التي توجه الخطاب فيها إلى الكفار ، ولما تركها فقد جاء في الآيات التـي كـان الخطاب فيها موجهًا للمؤمنين ، ولكنه على الرغم من هذا لم يشر إلى العلاقة بين مـدلول السياق اللغوي وذكر الحرف أو تركه . ولعل تلك العلاقة تكمن في أن الكافر إذا ما خرج من دائرة الكفر إلى الإيمان ، فإن إيمانه هذا يغفر ما كان عليه من كفـر ، ولكـن تبقـى ذنوب أخرى بعضها متعلق بالله ، فلا تغفر إلا بالتوبة والاستغفار وبعضها متعلق بالعباد ، لا يغفر إلا بعفو هؤلاء ، ومن ثم جاء استخدام الحرف الدال على التبعيض فـي خطـاب الكافرين ؛ ليدل على أن إيمانهم لا يغفر إلا ما تعلق بكفرهم ، أما ما سـوى ذلـك مـن

---

[1] مفاتيح الغيب ١٩ / ٧٤ .

[2] الكشاف ٢ / ٥٤٣ .

ذنوب فيغفر بأشياء أخرى . قال أبو حيان : ''وبطريق آخر يصح التبعيض ، وهو أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، ويبقى ما يستأنف بعد الإيمان من الذنوب مسكوتًا عنه ، فهو في المشيئة ، والوعد إنما هو بغفران ما تقدم لا بغفران ما يستأنف,,[1] ، وقال البقاعي : ''ولما كان الكافر إنما يدعى أولاً إلى الإيمان ، وكان الإيمان إنما يجُب ما كان قبله من الذنوب التي معهم بينهم وبينه دون المظالم ، قال : (مِّن ذُنُوبِكُمْ) ، ولو عم بالغفران لأفهم ذلك أنهم لا يدعون بعد الإيمان إلى عمل أصلاً,,[2] .

وأما المؤمنون الذين خرجوا من دائرة الكفر أو لم يدخلوها في الأصل ، فعندما يؤمرون بالتقوى والجهاد والتوبة والإيمان وغير ذلك ، فإنما يؤمرون بأشياء تحقق لهم وعده سبحانه في قوله :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء : ٤٨) ، بل تحقق لهم ما هو أبعد من ذلك ، وهو وعده لهم أن يبدل سيئاتهم حسنات . يقول تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ (الفرقان : ٧٠) .

فالإيمان لم يبق لهؤلاء إلا ذنوبًا يغفرها الله إن شاء بما يقومون به من صالح الأعمال . فجاء ترك الحرف الدال على التبعيض في خطاب المؤمنين ، سواء أكان موجهًا إليهم أم منهم مناسبًا لما يفهم من السياق من عموم المغفرة وشمولها .

وقد أحسن السهيلي إبراز وجه هذه المناسبة قائلاً في تعليقه على آيتي الأحقاف ونوح : ''فإن قلت : فقد قال : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، وقال في سورة الصف : ﴿ يَغْفِرْ

---

[1] البحر المحيط ٥ / ٣٣٩ .

[2] نظم الدرر ٤ / ١٧٥ .

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ . فما الحكمة في سقوطها ههنا ، وما الفرق ؟ . فالجواب : أن هذا إخبار عن المؤمنين الذين قد سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر بإيمانهم ، ثم وعدوا على الجهاد بغفران ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب ، وهي غير محيطة بهم كإحاطة الكفر المهلك بالكافر ، فلم يتضمن الغفران معنى الاستنقاذ ، إذ ليس ثم الإحاطة من الذنب بالمذنب ، وإنما تضمن معنى الإذهاب والإبطال للذنوب ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ، بخلاف الآيتين المتقدمتين فإنهما خطاب للمشركين وأمر لهم بما ينقذهم ويخلصهم مما أحاط بهم وهو الكفر ، وأما المؤمنون فقد أنقذوا,,[1] .

---

[1] نتائج الفكر في النحو ص ٢٥٨ .

المبحث الثالث

المناسبة بين إظهار اللفظ أو إضماره والسياق اللغوي

ليس بالأمر الجديد إذا قلنا إن القرآن الحكيم يختار ألفاظه بعناية ودقة فائقتين ، فلا يظهر لفظًا إلا إذا كان السياق يتطلب ذلك ويقتضيه ، ولا يضمره إلا إذا كان إضماره أحسن من إظهاره وأنسب للمعنى وأكثر ترابطًا في الأسلوب ، وأحكم للصياغة الفنية المعجزة ، فلكل مقام فيه مقال وما يناسبه من النظم والألفاظ التي تعبر أحسن ما يكون التعبير عن هذا المقام ، بحيث تتداعى الألفاظ تداعيًا طبيعيًا حسبما تتطلبه المعاني ، حتى تتماسك في مواضعها التي هيئت لها ، فللإظهار مواضعه في الصياغة القرآنية وللإضمار مواضعه المختلفة ، ووراء كل منهما من المعاني الإضافية وحسن النظم وبديعه ما يؤكد دقة الأسلوب القرآني في اختيار ألفاظه ووضعها في المواضع التي تليق بها .

ومما حسن فيه ذلك ما نراه من إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (آل عمران : ٤٩) ، ثم عاد الأسلوب القرآني فأضمر اللفظ نفسه في صورة ضمير المتكلم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي ﴾ (المائدة : ١١٠) .

وإنما جاء الأسلوب القرآني باللفظ الظاهر في آية آل عمران ـ كما يرى الكرماني ـ "لأن ما في هذه السورة كلام عيسى ، فما يتصور أن يكون من فعل البشر أضافه إلى نفسه ، وهو الخلق الذي معناه التقدير ، والنفخ الذي هو إخراج الريح من الفم . وما يتصور إضافته إلى الله تعالى أضافه إليه وهو قوله : ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ بما يكون في طوق البشر ، فإن الأكمه عند بعض المفسرين : الأعمش ، وعند بعضهم : الأعشى ، وعند بعضهم الذي يولد أعمى ، وإحياء الموتى من فعل الله فأضافه إليه . وما في المائدة من كلام الله سبحانه وتعالى فأضاف جميع ذلك إلى صنعه إظهارًا لعجز البشر ، ولأن فعل العبد مخلوق لله تعالى"[1] .

فالاختلاف في الآيتين بين الإظهار والإضمار ـ كما يفهم من السياق وكما يشير الكرماني ـ إنما يرجع إلى الاختلاف بين الخطابين ، فالخطاب في الآية الأولى جاء على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ ، والمقام مقام إبراز للمعجزات التي أيده الله بها ، فجاء إظهار لفظ الجلالة بما يتصف به من الألوهية الدالة على مطلق القدرة موافقًا لإبراز قدرة الله سبحانه على الخلق والإبداع اللذين لا يكونان إلا له وحده ، وأن ما جاء به عيسى إنما هو من الله لا منه . كما أن الإضمار في هذا الموضع قد يتوهم معه أن الضمير يعود على عيسى لا على الله عز وجل ، فجاءت الإضافة إلى الاسم الظاهر رافعة لهذا التوهم .

أما الخطاب في آية المائدة فجاء من الله مباشرة لا على لسان عيسى ، فكان من المناسب عندما يتكلم سبحانه أن يضيف ما أيد به رسوله من معجزات إلى نفسه ، ومن ثم جاء بضمير المتكلم العائد عليه .

---

[1] أسرار التكرار في القرآن ص ٩٠ .

وعلى هذا النحو من المغايرة يأتي إضمار لفظ الجلالة في قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الإسراء : ٥٦) ، ثم إظهاره في موضع آخر مشابه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سبأ : ٢٢) .

ويذهب الإسكافي في تعليل هذه المغايرة إلى أنه ''إنما اختير الإضمار في سورة بني إسرائيل لقوة الذكر قبلُ ، ألا ترى أنه يكون في عشرة مواضع مضمرًا ومظهرًا لقوله : ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡ ﴾ (الإسراء : ٥٤) فربكم واحد ، وفي أعلم ضميره ، وقوله: ﴿ أَوۡ إِن يَشَأۡ ﴾ فيه ضمير فاعل ، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ (الإسراء : ٥٤) النون والألف ذكر له تعالى ، ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ ﴾ (الإسراء : ٥٥) اسمان ﴿ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا ﴾ (الإسراء : ٥٥) قوله: (نا) اسمه ، وكذلك ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ (الإسراء : ٥٥) فكان الإضمار تلو الإضمارات أولى بهذا المكان ، فلذلك قال : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ . وأما في سورة سبأ فإن الذي تقدمه ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ ﴾ (سبأ : ٢١) . فالذكر تقدم في ثلاثة مواضع وهناك في أكثر من عشرة مواضع ، فحسن الإظهار هنا وقوي الإضمار هناك ، فلذلك اختلفا,,[١] .

---

[١] درة التنـــزيل ص ٢١٦ .

وإلى جانب ما ذهب إليه الإسكافي في رأيه السابق يمكن النظر إلى الأمر من جهة أخرى لا تتعلق بنسق السياق كما فعل ، وإنما تتعلق بمدلوله ، فالموضع الأول الذي أضمر فيه اللفظ يتضمن أمرين : أحدهما يتصل بقضية الإيمان والتوحيد ، وهو أن الله عز وجل يجب أن يعبد وحده دون أن يشرك به أحد ، والثاني يتصل بإحدى نعمه على عباده ، وهي قدرته على كشف الضر عنهم ، والأول من هذين الأمرين يتعلق بصفة الألوهية ، والثاني يتعلق بصفة الربوبية ، فجاء الإضمار في هذا الموضع أولى من الإظهار وأنسب للمعنى لإمكانية دلالته على الصفتين معًا ، ولو جاء بإحدى الصفتين دون الأخرى لقصر ذلك عن أداء ما يقتضيه السياق .

وأما الموضع الثاني فاتصل الأمر فيه بقضية الوحدانية دون غيرها ، فهو سبحانه المستحق للعبادة وحده ؛ لأنه المالك لكل شيء ، فما من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا يقع في ملكه ، فكان المقام مقام الألوهية ، فناسب إظهار اللفظ الدال على ذلك .

وعلى هذا النحو من المغايرة بين الإظهار والإضمار ننظر إلى إضمار لفظ (ٱلنَّاس) في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (يونس : ٦٠) ، ثم إظهار اللفظ نفسه في قوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (غافر : ٦١) .

ويعلل الإسكافي هذه المغايرة قائلاً : ''فأما قوله في سورة المؤمن : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بعد قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ولو قال : ولكن أكثرهم لا يشكرون لقرب الذكر لكان من الجائز الحسن ، فإنه محمول على الآيات التي قبله وهي قوله :﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (غافر : ٥٧) ، وقال بعده : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (غافر : ٥٩) ، ثم جاء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فأظهر ذكر الناس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملاءمة ، وليس كذلك الأمر في سورة يونس ــ عليه السلام ــ لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآية المتقدمة ، ألا ترى أنه قال تعالى مخبرًا عمن يدخل من الظالمين النار : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (يونس : ٥٢) ، فانقضى هذا الكلام واستؤنف خبر عن القوم الذين بعث الله رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليهم وقال : ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (يونس : ٥٣) فأضمر ذكره في قوله : ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ ﴾ ، ثم قال بعده : ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يونس : ٥٥) ، فأضمر ما أضاف إليه (أَكْثَرَ) ، ثم انتهى إلى قوله بعده : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فاقتضى ما بنى عليه الكلام في هذه الآي أن يكون ما بعد

الشرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدمه ، فاختلاف الموضعين في الإظهار والإضمار لما ذكرنا,,[1] .

إن الإسكافي يعتمد ـ كما يتضح من نصه السابق ـ في إبراز وجه المناسبة على بنية السياق ، ولو نظر إلى مدلوله لاكتمل إبراز هذه المناسبة . والمتأمل في كلتا الآيتين يمكنه أن يلحظ العلاقة بين ما يدل عليه السياق وإظهار لفظ الناس أو إضماره . فالسياق في الآية الثانية سياق تذكير ببعض النعم التي من الله سبحانه على الناس من جعل الليل سكنًا يرتاحون فيه ، وجعل النهار مضيئًا ليعملوا فيه سعيًا وراء رزقهم ، ومن يدرك هذه النعم ويعلم أنها من الله ، ثم لا يشكره عليها ، فإنما يستحق التوبيخ والاستنكار ، ومن ثم جاء إظهار لفظ (ٱلنَّاسِ) في هذه الآية ؛ لأن الإظهار أدخل إلى التوبيخ وأقرب إلى الإنكار من الإضمار بما يحققه من تخصيص للّفظ الدال على من يراد توبيخهم وحصر الأمر فيهم دون غيرهم . يقول الزمخشري : ''فإن قلت : فلو قيل : ولكن أكثرهم ، فلا يتكرر ذكر الناس ؟ قلت : في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه,,[2] .

أما آية يونس فلم يكن الأمر فيها كذلك ، بل جاءت توعدًا من الله لمن حرم ما أحله سبحانه أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ، مفتريًا على الله الكذب ومدعيًا ما لم يقل . قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝ ﴾ (يونس : ٥٩) . فلم يكن هناك من التوبيخ ما كان في آية غافر ، ومن ثم لم يحتج إلى الإظهار ، فكان من المناسب أن يسير الكلام على النسق الأصلي له من إضمار اللفظ بعد إظهاره .

---

[1] درة التنزيل ص ٢٣٢ .

[2] الكشاف ٤ / ١٧٦ .

وأخيرًا فلننظر إلى إظهار الاسم الموصول مع صلته (ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الأنبياء : ٣٦) ، ثم إضماره في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ (الفرقان : ٤١) .

إن المتأمل في سياق هاتين الآيتين يدرك أن المغايرة بينهما إظهارًا وإضمارًا إنما ترجع ــ على حد قول ابن الزبير ــ إلى ''أن الكفار المعاصرين لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يتقدم قبل آية الأنبياء أو فيما يليها من آي السورة أو يقرب منها خطاب يعنيهم ويخصهم من غيرهم ، إنما تقدم قبلها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنبياء : ٣٠) . وهذا يتناول كل كافر مكلف ذي عقل كان من العرب أو من غيرهم معاصر أو غير معاصر ، ثم لم يقع بعد هذه الآية ما يعارض عمومها ، فلهذا تعين إظهار الفاعل في قوله : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ (الأنبياء : ٣٦) . إذ لو قيل وإذا رأوك ، لما كان يمكن رجوعه إلا للمذكورين قبل في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ ، وليس خاصًا بالمعاصرين ، فلم يكن ليناسب .

أما آية الفرقان فإن قبلها قوله تعالى :﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (الفرقان : ٣٢) ، والمنـــزل عليه القرآن معلوم ــ صلى الله عليه وسلم ــ فالقائلون معاصرون وهم الذين عنوا على القطع بقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ ،فلما تقدم ذكرهم غير متناول غيرهم ، وعنوا بالذكر ، واحيتج بعد (إلى) الإخبار عنهم ، أتى بضميرهم ، إذ هو أوجز وقد علم ، فقيل : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ﴾ ، ولم يكن الإضمار ليناسب في آية الأنبياء ، ولم يمكن الإظهار هنا ، فورد كل على ما يجب ويناسب,,[1] .

ومن هذا العرض لبعض أشكال المغايرة والسر وراءها يبرز لنا أن النظم الحكيم لا يغاير بين الألفاظ لمجرد التفنن في الفصاحة ، أو إعادة القصة الواحدة بأكثر من لفظ ، أو مراعاة للفواصل القرآنية ، وإنما يكون ذلك على الأغلب لمقتضيات السياق الدلالية ، فلا يغاير بين الألفاظ تقديمًا وتأخيرًا ، أو ذكرًا وتركًا ، أو إظهارًا وإضمارًا ، أو غير ذلك من أشكال المغايرة إلا لهذا الغرض أو لتحقيق نسق معين لا يتعارض مع المعنى .

---

[1] ملاك التأويل ٢ / ٨٣٤ ، ٨٣٥ .

وبعد ... فقد طوف بنا هذا البحث بين جنبات علوم اللغة والبلاغة والتفسير ، سعيًا وراء إبراز العلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي في النظم القرآني ، وقد تعرضنا أثناء ذلك إلى العديد من قضايا هذه العلوم وأبحاثها المختلفة ، وقد هدف البحث من هذه الرحلة إلى إبراز العلاقة بين اللفظ بجوانبه المختلفة ، من حيث معناه المعجمي أو الوظيفي أو صفاته أو العدول به عن الأصل التركيبي المفترض أو المغايرة بينه وبين غيره من الألفاظ في السياقات المتشابهة من جهة والسياق اللغوي ، من حيث مدلوله أو نسقه من جهة أخرى .

ويمكننا في نهاية هذه الدراسة المستفيضة الخروج بنتائج عديدة من أهمها ما يلي :

(١) للمناسبة في القرآن الكريم أنواع عدة ، منها ما يكون بين السور أو الآيات ، ومنها ما يكون بين اللفظ والسياق ، ومنها ما يكون بين لفظ ولفظ أو صوت وآخر .

(٢) تختلف أشكال المناسبة بين اللفظ والسياق في القرآن ؛ باختلاف النظر إلى اللفظ من جهة والسياق من جهة أخرى :

(أ) **من حيث اللفظ**

فإذا اتجهت النظرة إلى اللفظ ، فإنها تتعلق به من جهتين : إما من جهة كونه مفردًا (غير جملة) ، وذلك من حيث معناه المعجمي أو صفته أو معناه الوظيفي الصرفي أو النحوي أو العدول به عن الأصل داخل التركيب أو مغايرته لغيره من الألفاظ ، من حيث الترتيب أو الذكر أو الترك أو الإظهار أو الإضمار ، وإما تتعلق النظرة به من جهة كونه مركبًا ، أي جملة ، فتكون المناسبة في هذه الحالة متعلقة بنوع الجملة : اسمية أو فعلية .

(ب) **من حيث السياق**

وإذا اتجهت النظرة إلى السياق ، فإنها تتعلق به من جهتين كذلك : إما من جهة نوعه ، سواء أكان سياقًا لغويًا أم سياقًا اجتماعيًا (سياق الحال) ، وإما تتعلق به ــ ولاسيما الأول ــ من جهة مدلوله أو نسقه .

(٣) تعد المناسبة ، سواء أكانت بين السور والآيات أم بين اللفظ والسياق نظرة كلية إلى النص القرآني ، إذ ينظر من خلالها إلى النص بوصفه وحدة متكاملة متماسكة ، متجاوزة بذلك النظرة الجزئية التي تقسم النص إلى أجزاء صغيرة لا يتعلق بعضها ببعض ، وذلك على مستويين : دلالي وشكلي ، ويتضح الأول في إبرازها للتماسك الدلالي بين السور أو الآيات أو بين اللفظ ومدلول السياق ، ويتضح الثاني في ما تبرزه من العلاقة بين اللفظ وبنية السياق أو نسقه ، كما نرى في الفواصل القرآنية أو ما تبرزه من الترابط النحوي ، وذلك باختيار ألفاظ معينة في مواضعها لعلة نحوية . وهذا نفسه هو ما يهتم به علم النص ، إذ ينظر إلى أي نص من النصوص نظرة كلية ، من خلال إبراز ما به من تماسك دلالي أو ترابط نحوي .

(٤) توضح المناسبة بعضًا من فكر علماء العربية من مفسرين وبلاغيين ولغويين ، إذ نظر معظمهم أو بعضهم من خلال هذه الفكرة إلى القرآن على أنه وحدة متماسكة ، ترتبط أجزاؤها بعضها ببعض ، إما على المستوى الدلالي ، وإما على المستوى الشكلي ، وهو نفسه ما ينادي به المحدثون من المهتمين بعلم النص ، إذ ينظرون إليه ، أي النص نظرة كلية ، إما من حيث ما به من تماسك دلالي أو من حيث ما يتحقق فيه من ترابط شكلي أو نحوي .

(٥) يختار النظم القرآني ألفاظه بعناية فائقة ، فيأتي بكل لفظ في الموضع اللائق به ، مراعيًا حال هذا اللفظ ، من حيث معناه المعجمي أو صفاته أو بنيته أو موقعه داخل التركيب أو العدول به عن الأصل التركيبي ، رابطًا بينه وبين سياقه اللغوي دلاليًا أو

نسقيًا ، بحيث يأتي اللفظ مستقرًا في موضعه ، غير قلق ولا نافر ، ولو أردنا أن نستبدل به غيره لما أمكن ذلك ، ولحدث خلل في المعنى وتنافر في النسق السياقي .

(٦) قد يراعي النظم الحكيم المناسبة اللفظية بين الألفاظ في بعض الأحيان ، دون أن يخل ذلك بالمعنى ، فإن تعارضت هذه المناسبة مع المعنى ، أو كان هناك من الألفاظ ما هو أنسب لمدلول السياق ، عدل النظم القرآني عن هذه المناسبة ، تحقيقًا للمناسبة المعنوية .

(٧) لا يغاير النظم الحكيم بين الألفاظ لمجرد التفنن في الفصاحة ، أو إعادة القصة الواحدة بأكثر من لفظ ، أو مراعاة للفواصل القرآنية ، وإنما يكون ذلك على الأغلب لمقتضيات السياق الدلالية ، فلا يغاير بين الألفاظ تقديمًا وتأخيرًا ، أو ذكرًا وتركًا ، أو إظهارًا وإضمارًا ، أو غير ذلك من أشكال المغايرة إلا لهذا الغرض أو لتحقيق نسق معين لا يتعارض مع المعنى .

(٨) لا تأتي مراعاة الفواصل في النظم القرآني على حساب المعنى ، بل تأتي وفقًا له في المقام الأول ، فإن تحقق بمراعاتها النسق الشكلي الذي يحقق التناغم الموسيقي بين الألفاظ بعد مراعاة المعنى ، جاء النظم القرآني محافظًا عليها ، فإن لم يتحقق ذلك ، كانت الأولوية للمعنى دون الشكل .

(٩) لا يعمد الأسلوب القرآني إلى العدول عن أصل التركيب ، إلا لتحقيق دلالة معينة يقتضيها السياق ، لا تتحقق بمجيء التركيب على أصله المفترض .

(١٠) جاء اهتمام العلماء مفسريهم وبلاغييهم ولغوييهم بالمناسبة بين اللفظ والسياق اللغوي من ناحية المغايرة بين الألفاظ في المواضع المتشابهة ، ولم يهتموا ، إلا فيما قل ، بإبراز وجه تلك المناسبة في غير ذلك من المواضع ، مكتفين في بعض الأحيان بالإشارة إلى ما يدل عليه اللفظ في تلك الحالة التي جاء عليها في السياق ، كما نرى

في الألفاظ ذات الخصائص الصوتية المعينة ، أو تلك التي تقع في مواقع وظيفية معينة ، كان من الممكن في الظاهر أن تقع في غيرها ، أو تلك التي يعدل بها عن الأصل التركيبي ، كأن تحذف ، أو توضع موضع غيرها أو تزاد على أصل تركيبي ، أو تنقل من وظيفتها إلى وظيفة أخرى .

(١١) جاء اهتمام العلماء بالمناسبة بين اللفظ والسياق اللغوي أكثر ما جاء في كتب المتشابه ، كدرة التنزيل للإسكافي ، وأسرار التكرار للكرماني ، وملاك التأويل لابن الزبير ، وكشف المعاني لابن جماعة . ثم في بعض كتب التفسير ، كالكشاف للزمخشري ، والبحر المحيط لأبي حيان ، وغرائب القرآن للنيسابوري ، ونظم الدرر للبقاعي ، ثم في كتب البلاغة ، كبديع القرآن وتحرير التحبير لابن أبي الإصبع ، والمثل السائر لابن الأثير ، والطراز للعلوي ، ثم في كتب الإعجاز ، كدلائل الإعجاز لعبد القاهر ، ونهاية الإيجاز للفخر الرازي ، ثم في كتب علوم القرآن كالبرهان للزركشي ، والإتقان للسيوطي .

ثبت المصــــادر والمراجــع

أولاً : المصادر والمراجع العربية

د .إبراهيم أنيس :-

١- **الأصوات اللغوية** : دار الطباعة الحديثة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ،ط ٥ ، ١٩٧٩م .

٢- **دلالة الألفاظ** : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٦ ، ١٩٩١م .

ابن الأثير الموصلي : أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٧ هـ) :-

٣- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤١١ هـ ــ ١٩٩٠ م .

د. أحمد أحمد بدوي :-

٤- **من بلاغة القرآن** : مطبعة نهضة مصر ، ط ٢ ، ١٣٧٠ هـ ــ ١٩٥٠ م .

د. أحمد مختار عمر :-

٥- **دراسة الصوت اللغوي** : عالم الكتب ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥م .

٦- **علم الدلالة** : عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٩٣ م .

الأخفش الأوسط : أبو الحسن سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ) :-

٧- **معاني القرآن** : تحقيق د . هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١١ هـ ــ ١٩٩٠ م .

الاسترابازي النحوي : رضي الدين محمد بن الحسن (ت ٦٨٦ هـ) :-

٨- **شرح الرضي على الكافية** : تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ط ٢ ، ١٩٩٦ م .
٩- **شرح شافية ابن الحاجب** : تحقيق محمد نور الحسن ، محمد الزفزاف ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م .

الإسكافي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ) :-
١٠- **درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز** : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .

ابن أبي الإصبع المصري : أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصري (٥٨٥ هـ ـ ٦٥٤ هـ) :-
١١- **بديع القرآن** : تحقيق د. حفني محمد شرف ، نهضة مصر ، د . ت .
١٢- **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن** : تحقيق د. حفني محمد شرف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .

الأعلم الشنتمري : أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (ت ٤٧٦ هـ) :-
١٣- **شرح حماسة أبي تمام** : تحقيق علي المفضل حمودان ، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر ، بيروت ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م .

الألوسي : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ) :
١٤- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** : تصحيح محمد حسين العرب ، إشراف هيئة البحوث والدراسات في دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

ابن الأنباري : كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن مصعب بن أبي سعيد الأنباري النحوي (ت ٥٧٧ هـ) :-

١٥- **البيان في غريب إعراب القرآن** : تحقيق د. طه عبد الحميد طه ، مراجعة مصطفى السقا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٠ هـــ ١٩٨٠ م .

د . بسيوني عبد الفتاح بسيوني :-
١٦- **علم المعاني** : دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ، مكتبة وهبة ، ١٤٠٦ هـــ ١٩٨٧م .

البغوي : أبو محمد الحسين بن مسعود (ت ٥١٦ هـ) :-
١٧- **معالم التنـــزيل ـ تفسير البغوي** : تحقيق محمد عبد الله النمر ، عثمان جمعة خميرية ، سليمان مسلم الحرش ، دار طيبة ، ط ٣ ، ١٤١٦ هـــ ١٩٩٥ م .

البقاعي : برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥ هـ) :-
١٨- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** : خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرازق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٥ هـــ ١٩٩٥م .

د . تمام حسان :-
١٩- **الأصول** : دراسة ايبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي ، النحو ، فقه اللغة ، البلاغة ، الشركة الجديدة ، دار الثقافة ، ط ١٤١١ هـــ ١٩٩١ م .
٢٠- **البيان في روائع القرآن** : دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٣ هـــ ١٩٩٣ م .
٢١- **اللغة العربية معناها ومبناها** : عالم الكتب ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤١٨هـــ ١٩٩٨م .
٢٢- **مناهج البحث في اللغة** : دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٤٠٧ هـــ ١٩٨٦ م .

التنوخي : الإمام زين الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمرو(ق ٧ هـ) :-

٢٣- الأقصى القريب في علم البيان : مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٢٧ هـ .

الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٣٠ هـ) :-
٢٤- فقه اللغة وأسرار العربية : تحقيق د. ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) :-
٢٥- البيان والتبيين : تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٥ ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

ابن الجزري : الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت ٨٣٣ هـ) :-
٢٦- النشر في القراءات العشر : تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع ، دار الفكر ، د . ت .

ابن جماعة : بدر الدين محمد بن إبراهيم (ت ٧٣٣ هـ) :-
٢٧- كشف المعاني في المتشابه من المثاني : تحقيق د. عبد الجواد خلف ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١ ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

ابن جني : أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) :-
٢٨- الخصائص : تحقيق محمد علي النجار ، مطبعة دار الهدى ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، د . ت .
٢٩- سر صناعة الإعراب : تحقيق د. حسن هنداوي ، دار القلم ، دمشق ، ط٢ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣ م .

ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ) :-
٣٠- منتخب قرة العيون ـ النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم : تحقيق محمد السيد الصفطاوي ، د. فؤاد عبد المنعم أحمد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د . ت .

الجوهري : إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ) :-
٣١- **الصحاح ــ تاج اللغة وصحاح العربية** : تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط٤ ، ١٩٩٠ م .

ابن الحاجب : جمال الدين أبو عمرو بن عمر (٥٧٠ هـ ــ ٦٤٦ هـ) :-
٣٢- **الأمالي النحوية** : تحقيق هادي حسن حمودي ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ط ١ ، ١٤٠٥ ــ ١٩٨٥ م .

حازم القرطاجني : أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن الأوسي (٦٠٨ هـ ــ ٦٨٤ هـ) :-
٣٣- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** : تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، ١٩٦٤ م .

د. حلمي خليل :-
٣٤- **العربية والغموض** ــ دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى : دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط١ ، ١٩٨٨ م .
٣٥- **الكلمة ــ دراسة لغوية معجمية** : دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط٢ ، ١٩٩٣ م.

أبو حيان : أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الجياني (٦٥٤ هـ ــ ٧٤٥ هـ) :-
٣٦- **البحر المحيط** : تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، د . زكريا عبد المجيد النوني ، د. أحمد النجولي الجمل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٣ م .

الخازن : علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن (ت ٧٤١ هـ) :-

٣٧- **لباب التأويل في معاني التنـزيل** : المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة الاستقامة ، ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م .

الخطابي : أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (٣١٩ هـ ــ ٣٨٨ هـ) :-
٣٨- **بيان إعجاز القرآن ــ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** : تحقيق محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٨ م .

ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت ٣٢١ هـ) :-
٣٩- **جمهرة اللغة** : مكتبة الثقافة الدينية ، د . ت .

الرازي : فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (٥٤٤ هـ ــ ٦٠٤ هـ) :-
٤٠- **مفاتيح الغيب** : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١١ هـ ــ ١٩٩٠ م .
٤١- **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز** : تحقيق د. أحمد حجازي السقا ، المكتب الثقافي ، الأزهر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٩ م .

الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦ هـ) :-
٤٢- **مسائل الرازي وأجوبتها ــ من غرائب آي التنـزيل** : تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط١ ، ١٣٨١ هـ ــ ١٩٦١ م .

الراغب الأصفهاني : أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٥٠٢ هـ) :-
٤٣- **مفردات ألفاظ القرآن** : تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٨ هـ ــ ١٩٩٧ م .

ابن رشيق : أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٦٣ هـ) :-

٤٤- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ١٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٤ م .

الرماني النحوي : أبو الحسن علي بن عيسى (٢٩٦ هـ ــ ٣٨٤ هـ) :-
٤٥- **معاني الحروف** : تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار النهضة ، مصر ، د.ت.
٤٦- **النكت في إعجاز القرآن ــ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** : تحقيق محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٨ م .

د. رمضان عبد التواب :-
٤٧- **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي** : مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م .

الزبيدي : السيد محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ) :-
٤٨- **تاج العروس من جواهر القاموس** : تحقيق عبد العليم الطحاوي ، مراجعة محمد بهجة الأثري ، عبد الستار أحمد فراج ، دار الجيل ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٨ م .

ابن الزبير : أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) :-
٤٩- **ملاك التأويل ــ القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ــ في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل** : تحقيق سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م .

الزجاج : أبو إسحاق إبراهيم بن السري (ت ٣١١ هـ) :-
٥٠- **معاني القرآن وإعرابه** : تحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي ، خرج أحاديثه أ . علي جمال الدين محمد ، دار الحديث ، ط٢ ، ١٤١٨ هـ ــ ١٩٩٧ م .

الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ) :-
٥١- **البرهان في علوم القرآن** : خرج أحاديثه وقدم له وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) :-
٥٢- **أساس البلاغة** : الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ط٣ ، ١٩٨٥ م .
٥٣- **الكشاف عن حقائق غوامض التنــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** :ضبطه وصححه ورتبه مصطفى حسين أحمد ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

السبكي : أبو حامد بهاء الدين أحمد بن علي (ت ٧٦٣ هـ) :-
٥٤- **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** ـ شروح التلخيص : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د . ت .

السجستاني : أبو بكر محمد بن عزيز (ت ٣٣٠ هـ) :-
٥٥- **تفسير غريب القرآن** : دار التراث ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .

ابن السراج : أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي (ت ٣١٦ هـ) :-
٥٦- **الأصول في النحو** : تحقيق عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

أبو السعود : محمد بن أحمد العمادي (ت ٩٥١ هـ) :-
٥٧- **تفسير أبي السعود** ـ المسمى **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٣م .

السكاكي : أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت ٦٢٦ هـ) :-

٥٨- مفتاح العلوم : ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

السمين الحلبي : أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي (ت ٧٥٦ هـ) :-
٥٩- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : تحقيق د. أحمد محمد الخراط ، دار القلم دمشق ، ط١ ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٦٠- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ : تحقيق عبد السلام أحمد التونجي الحلبي ، تنفيذ مكتب الإعلام والبحوث والنشر بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ط١ ، ١٩٩٥ م .

ابن سنان الخفاجي : أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦ هـ) :-
٦١- سر الفصاحة : تحقيق علي فودة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م .

السهيلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١ هـ) :-
٦٢- نتائج الفكر في النحو : تحقيق الشيخ : عادل أحمد عبد الموجود ـ الشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م .

سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠ هـ) :-
٦٣- الكتاب : كتاب سيبويه : تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٧ م .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) :-
٦٤- الإتقان في علوم القرآن : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٦٥- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** : شرحه وصححه محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ط٣ ، د.ت .

٦٦- **معترك الأقران في إعجاز القرآن** : ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

ابن الشجري : هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي (٤٥٠ هـ ـ ٥٤٢ هـ) :-

٦٧- **أمالي ابن الشجري** : تحقيق د . محمود محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م .

الشريف الرضي : أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٤٠٦ هـ) :-

٦٨- **حقائق التأويل في متشابه التنزيل** : شرح الأستاذ / محمد الرضا آل كاشف الغطاء ، دار المهاجر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٥٥ هـ .

د. صلاح فضل :-

٦٩- **بلاغة الخطاب وعلم النص** : الشركة المصرية العالمية ، لونجمان ، ط١ ، ١٩٩٦م .

د. طاهر سليمان حمودة :-

٧٠- **دراسة المعنى عند الأصوليين ـ علماء أصول الفقه** : دار الجيل ، ١٩٩٨ م .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) :-

٧١- **جامع البيان في تفسير القرآن** ـ تفسير الطبري : دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م .

الطيبي : شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد (ت ٧٤٣ هـ) :-

٧٢- **التبيان في البيان** : تحقيق د . عبد الستار حسين زموط ، دار الجيل ، بيروت ،ط١ ، ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م .

د. عائشة عبد الرحمن :-

٧٣- **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ـ دراسة قرآنية لغوية وبيانية** : دار المعارف ، ط٢ ، د . ت .

٧٤- **التفسير البياني للقرآن الكريم** : دار المعارف ، القاهرة ، ط٧ ، ١٩٩٠ م .

عبد الجبار : القاضي أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي (ت ٤١٥ هـ) :-

٧٥- **متشابه القرآن** : تحقيق د. عدنان محمد زرزور ، دار التراث ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٩ م .

٧٦- **المغني في أبواب التوحيد والعدل** : تحقيق أمين الخولي ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، مطبعة دار الكتب ، ط١ ، ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦٠ م .

د. عبد الرحمن أيوب :-

٧٧- **أصوات اللغة** : مطبعة الكيلاني ، ط٢ ، ١٩٦٨ م .

د. عبد الفتاح لاشين :-

٧٨- **المعاني في ضوء أساليب القرآن** : دار المعارف ، مصر ، ط١ ، ١٩٧٦ م .

عبد القاهر الجرجاني : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (٤٠٠ هـ ــ ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ) :-

٧٩- **أسرار البلاغة** : قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، ط١ ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

٨٠- **دلائل الإعجاز** : قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

عبد المتعال الصعيدي :-

٨١- **البلاغة العالية** ـ علم المعاني : قدم له وراجعه وأعد فهارسه د . عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، ط٣ ، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م .

عبد النعيم عبد السلام خليل :-

٨٢- **نظرية السياق بين القدماء والمحدثين** : دراسة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب ، إشراف د. حلمي خليل ، جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية واللغات الشرقية ، ١٩٩١ م .

أبو عبيدة : معمر بن المثنى التيمي (ت٢١٠ هـ) :-

٨٣- **مجاز القرآن** : عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

عز الدين بن عبد السلام : الإمام أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي (٥٧٨ هـ ـ ٦٦٠ هـ) :-

٨٤- **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز** : دار الحديث ، القاهرة ، د . ت .

العسقلاني : الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر (٧٧٣ هـ ـ ٨٥٢هـ) :-
٨٥- **فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري** : تحقيق محب الدين الخطيب ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الريان للتراث ، ط٣ ، ١٤٠٧ هـ .

ابن عصفور الإشبيلي : أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي (٥٩٧ هـ ـ ٦٦٩ هـ) :-
٨٦- **شرح جمل الزجاجي** : تحقيق د. صاحب أبو جناح ، الموصل ، العراق ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

ابن عطية : القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦ هـ) :-
٨٧- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** : تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م .

العلوي : يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (٦٦٩ هـ ـ ٧٤٩ هـ) :-
٨٨- **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** : راجعه وضبطه ودققه محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥ م .

ابن فارس : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) :-
٨٩- **مقاييس اللغة** : تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط٢ ، ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

د. فاضل مصطفى الساقي :-
٩٠- **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة** : مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

د. فتحي أحمد عامر :-
٩١- **فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم** : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة القرآن والسنة ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

الفراء : أبو زكرياء يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ) :-
٩٢- **معاني القرآن** : جـ١ تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجار ، جـ٢ تحقيق محمد علي النجار ، جـ٣ تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، مراجعة الأستاذ علي النجدي ناصف ، دار السرور ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٥ م .

الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) :-
٩٣- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** : تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
٩٤- **القاموس المحيط** : تحقيق مكتب تحقيق التراث ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

قدامة : أبو الفرج قدامة بن جعفر (٢٦٠ هـ ـ ٣٣٧ هـ) :-
٩٥- **نقد الشعر**: تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ) :-
٩٦- **الجامع لأحكام القرآن الكريم ـ تفسير القرطبي** : تحقيق إبراهيم محمد الجمل ، دار القلم للتراث ، د . ت .

القزويني: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ):-
٩٧- **الإيضاح في علوم البلاغة ـ المعاني والبيان البديع** : تحقيق د. عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٩٨- **تلخيص المفتاح في المعاني والبيان البديع** : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبـي ، مصر ، ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م .

ابن القيم : الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٦٩١ هـ ــ ٧٥١ هـ) :-

٩٩- **الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان** : تحقيق د. محمـد عثمـان الخـشن ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، د . ت .

ابن كثير : الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) :-

١٠٠- **تفسير القرآن العظيم** : مكتبة دار التراث ، القاهرة ، د . ت .

الكرماني : برهان الدين أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت ٥٠٥ هـ) :-

١٠١- **أسرار التكرار في القرآن** ــ المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه مـن الحجة والبيان : تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مراجعة أحمد عبد التـواب عـوض ، دار الفضيلة ، د. ت .

د. كمال الدين عبد الغني المرسي :-

١٠٢- **فواصل الآيات القرآنية** : المكتب الجامعي الحديث : الإسكندرية ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ ــ ١٩٩٩ م .

د. كمال محمد بشر :-

١٠٣- **علم الأصوات** : دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م .

المالقي : أحمد بن عبد النور (٧٠٢ هـ) :-

١٠٤- **رصف المباني في شرح حروف المعاني** : تحقيق أحمد محمد الخراط ، مطبوعـات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد (٢١٠ هـ ــ ٢٨٥هـ):-

١٠٥- **الكامل في اللغة والأدب** : حققه وعلق عليه ووضع فهارسه د. محمد أحمد الـدالي ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٣ م .

١٠٦- **المقتضب** : تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، لجنـة إحيـاء التـراث الإسـلامي ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ ــ ١٩٩٤ م .

ابن مجاهد : أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهـد التميمـي البغـدادي (٢٤٥ هــ ــ ٣٢٤ هـ) :-

١٠٧- **السبعة في القراءات** : تحقيق د. شوقي ضيف ، دار المعـارف ، القـاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٨ م .

د. محمد الأمين الخضري :-

١٠٨- **من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية** : ١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٤ م .

محمد الطاهر بن عاشور :-

١٠٩- **تفسير التحرير والتنوير** : دار سحنون ، تونس ، ١٩٩٧ م .

د. محمد حماسة عبد اللطيف :-

١١٠- **النحو والدلالة ــ** مدخل لدراسة المعنى النحـوي الـدلالي : دار الـشروق ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ ــ ٢٠٠٠ م .

د. محمد زكي العشماوي :-

١١١- **قضايا النقد الأدبي بين القديم الحديث** : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٨ م .

د. محمد عبد المطلب :-

١١٢- **البلاغة والأسلوبية** : دار نوبار ، القاهرة ، الشركة المصرية العالمية ، لونجمـان ، ط١ ، ١٩٩٤ م .

د. محمد على الخولي :-
١١٣- **معجم علم اللغة النظري** : مكتبة لبنان ، لبنان ، ١٩٩١ م .

د. محمود أحمد نحلة :-
١١٤- **لغة القرآن الكريم في جزء عمَّ** : دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ م .

د. محمود السعران :-
١١٥- **علم اللغة ـ مقدمة للقارئ العربي** : دار الفكر العربي ، الإسكندرية، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

المرادي : الحسن بن قاسم (ت ٧٤٩ هـ) :-
١١٦- **الجنى الداني في حروف المعاني** : تحقيق د. فخر الدين قباوة ، أ. محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م .

مصطفى صادق الرافعي :-
١١٧- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** : تحقيق عبد الله المنشاوي ، مكتبة الإيمان ، المنصورة، ط١ ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

مصطفى عبد الرحمن نمر :-
١١٨- **قرينة التضام في القرآن الكريم** ـ دراسة بلاغية ـ أطروحة دكتوراه : إشراف أ. د. مصطفى الصاوي الجويني ، جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ) :-
١١٩- **لسان العرب** : دار المعارف ، د . ت .

الموصلي : عز الدين أبو الفضل عبد العزيز بن جمعة بن زيد بن عزيز القواس الموصلي (ت ٦٩٦ هـ) :-
١٢٠- **شرح ألفية ابن معطي** : تحقيق د. علي موسى الشوملي ، مكتبة الخريجي ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

ابن الناظم : أبو عبد الله بدر الدين محمد بن محمد بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) :-
١٢١- **شرح ألفية ابن مالك** : تحقيق . عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
النيسابوري : نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي (ت ٧٢٨ هـ) :-
١٢٢- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** : تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط١ ، ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م .

ابن هشام : أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري (ت ٧٦١ هـ) :-
١٢٣- **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار لجيل ، بيروت ، لبنان ، ط٥ ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .
١٢٤- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

هـ

أبو هلال : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥ هـ) :-
١٢٥- **الصناعتين ـ الكتابة والشعر** : تحقيق د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

١٢٦- **الفروق اللغوية** : علق عليه ووضع حواشيه محمد باسل عيون السود ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

ابن وهب الكاتب : أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان (ق ٤ هـ) :-
١٢٧- **البرهان في وجوه البيان** : تحقيق د. حفني محمد شرف ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦٩م

ابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠ هـ) :-
١٢٨- **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح** ـ شروح التلخيص : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د . ت .

ابن يعيش : أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا الأسدي الحلبي النحوي (ت ٦٤٣ هـ) :-
١٢٩- **شرح المفصل** : عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، د . ت .

ثانياً : الدواوين

امرؤ القيس : بن حجر بن الحارث الكندي (٨٠ ق . هـ ـ ٥٤٥ م)
١٣٠- **ديوان امريء القيس** : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط٥ ، ١٩٩٠ م .

زهير بن أبي سلمى : ربيعة بن رياح المزني (ت ١٣ ق . هـ ـ ٦٠٩م)
١٣١- **ديوان زهير بن أبي سلمى** : شرح الأعلم الشنتمري ، جمعه ورتبه وصححه السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعاني الحلبي ، مطبعة التوفيق الأدبية ، د . ت .

المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤ هـ)
١٣٢- **ديوان أبي الطيب المتنبي** بشرح أبي البقاء العكبري ـ المسمى بالتبيان في شرح الديوان : ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

ثالثـًا : المترجمات

جون لاينــز :-

١٣٣- **اللغة والمعنى والسياق** : ترجمة د. عباس صادق الوهاب ، مراجعة ديوئيل عزيز ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٧ م .

ستيفن أولمان :-

١٣٤- **دور الكلمة في اللغة** : ترجمة د. كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب ، القــاهرة ، ط، ١٩٦٢ م .

فولفجانج هانية من وديتر فيهفيجر :-

١٣٥- **مدخل إلى علم اللغة النصي** : ترجمة د. فالح بن شبيب العجمــي ، جامعــة الملــك سعود ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٤١٩ هـــ ـــ ١٩٩٩ م .

لاسل آبر كرمبي :-

١٣٦- **قواعد النقد الأدبي** : ترجمة د. محمد عوض محمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .

رابعًا المراجع الأجنبية

Jean Aitchison :-
137- Linguistics - An Introduction, Hodder & Stoughton , London , 1995 .

John Lyons :-
138 - Linguistics and Semantics – An Introduction , Cambridge University Press , 1995 .

Keith Allan :-
139- Linguistic Meaning , Rout Ledye & Kegan Poul , London & New York 1986 .

Mils Erik Enkrist , John Spencer and J . Gregory :-
140 - Linguistics and Style , Oxford University Press , 1978 .

R . K. Hartmann & F .C. Stork :
141- Dictionary of Language and Linguistics , Science publishers LTD . London,1973.

Robert De Beaugrande and Wolfgang Dressler :-
142- Introduction to Text Linguistics , Longman Group Limited , 1981.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات



مساكن سوتير امام سيراميكا كليوباترا
عمارة (5) مدخل 2 الأزاريطة . الإسكندرية
تليفاكس: 00203/4865277 . 002034843879